لجنة التأليف والترجمة والنشر

مختارات من القصص الإنجليزي

ترجمها

إبرهيم عبد القادر المازني

عيون الأدب الغربي

العدد السابع

لجنة التأليف والترجمة والنشر

مختارات من القصص الإنجليزي

ترجمها

ابرهيم عبد القادر المازني

عيون الأدب الغربي

العدد السابع

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٣٩

تقديم

اختيرت هذه الأقاصيص — والأخيرة أطول من أن تسمى أقصوصة — لطائفة من كتاب القرن الماضى فى إنجلترا وأمريكا وإن كان بعضهم قدامتد به العمر إلى أوائل القرن العشرين ، ولا يزال واحد منهم — هـ . ج . ولز — حيا ينتج . وروعى فى الاختيار إبراز أسلوب الكاتب وخصائصه الفنية لا تسلية القارئ ، والمراد هو التعريف بالكاتب بهذه الواسطة والإشارة إلى فنه لمن يعنيه التوسع فى الدرس ، ولم نر أن نترجم لأحد أو نزيد على إثبات سنتى الميلاد والوفاة لأن كل ترجمة فى مجموعة كهذه لا تكون إلا موجزة جدا ولا خير فى مثل ذلك ولا جدوى .

وقد توخينا فى الترجمة مثل ما روعى فى الاختيار — أى إبراز أسلوب الكاتب لا أسلوب المترجم . ولم يكن هـذا سهلا ولا كان مطلبه هينا لشدة التفاوت ، ولكننا تكلفناه وعسى أن نكون وفقنا فيه . وقد حرصنا على التزام الأصل حتى ليمكن أن نقول إن الترجمة حرفية على قدر ما يتيسر ذلك فى النقل من لغة إلى أخرى بينهما من الاختلاف ما بين العربية والإنجليزية ، ولم نحذف من الأصل فى هذه المجموعة كلها إلا بضعة سطور لا يزيد عددها على عدد أصابع اليدين ، وكانت علة الحذف العجز التام عن الاهتداء إلى ما يؤدى معناها — مع شدة تفهها — فى لغتنا العربية وليس هذا نقصا فى اللغة العربية ولكنه نقص فى المترجم .

وقد استعملت ألفاظاً شائعة فى عاميتنا ، وكان الظن أنها غير صحيحة

ولـكنى وجدتهـا مثبتة فى كتب اللغة ومستعملة فى كتب الأدب فلم أر مسوغا لهجر هـذا الصحيح المأنوس إلى الحوشى أو غير المألوف أو النابى . وما دامت اللفظة قد استطاعت أن تحيا على ألسنة الناس فإنها أحق بالاستعمال من أخرى عجزت عن الحياة فدفنت فى المعجمات . وفى اللغة — كما فى الأحياء — يبقى الأصلح لا الذى يظنه المتحذلقون الأفصح ، وليس المعول فى الفصاحة على القدم بل على الوفاء بحاجة التعبير بالقوة المطلوبة أو الجمال المنشود ، وسهولة التلقف للمعنى وسرعة التأثر به . وليس هذا تعريفاً للفصاحة وإنما هو إجمال للمطلوب بها .

وقد نبهت على بعض هذه الألفاظ فى الهوامش وأهملت التنبيه فى الأغلب اكتفاء باليسير من ذلك وأقول على الجملة إنى ما استعملت لفظاً غير صحيح ، وإن كان محسوبا من العامية إلا لفظة أو اثنتين أجنبيتين شائعتين على الألسنة ، لم أجد لهما مقابلا ، أو استثقلت مقابلهما ، فوضعتهما بين علامات التضمين أو الاقتباس .

وأقول أخيراً إن ما اختير فى هذه المجموعة ليس خير ما فى الأدب الإنجليزى من نوعه ولـكنه من خيره ؛ وعيب كل اختيار هو الاضطرار إلى ترك الأكثر والاجتزاء بالأقل . وكثيراً ما تؤدى الحيرة إلى سوء الاختيار ، ولـكن القارئ يستطيع أن يكون على يقين أن ما يقرأه هنا هو — فى الأصل إذا لم يكن فى الترجمة — من الجيد على كل حال و بشهادة الزمن .

وأحب أن أشكر لجنة التأليف والترجمة والنشر على ما يسرت وأعانت وصبرت .

ابرهيم عبد القادر المازنى

فهرس القصص

ناثانييل هوثورن

١٨٠٤ – ١٨٦٤

دفن روجر مالفن

« من الحوادث القليلة التى وقعت فى الحرب مع الهنود الحمر والتى تحتمل بطبيعتها أن تكون موضوعاً للقصص الرومانتيكى تلك الحملة التى قامت بالدفاع عن الحدود فى سنة ١٧٢٥ وانتهت (بمعركة لافيل) المذكورة . وقد يستطيع الخيال — بترك بعض الظروف وإسقاطها — أن يرى كثيراً مما يستحق الإعجاب فى بطولة عصبة قليلة قاتلت ضعفى عددها من العدو فى قلب بلاده . وقد كانت البسالة الصريحة التى أبداها الفريقان مطابقة لآراء الحضر فى معنى الشجاعة ومقتضياتها ولم تعدم الفروسية ما لا تخجل أن تسجله من أعمال واحد أو اثنين من المقاتلة . ولم تكن المعركة على هول عنفها بالذين خاضوا غمارها ، مشئومة النتائج للبلاد ، فقد ألوت بقوة قبيلة وأفضت إلى السلم فاستقرت سنوات عدة . وقد عنى التاريخ والرواية الشعبية — على خلاف العادة — بتفاصيل هذه الواقعة . ونال قائد نفيضة من رجال الحدود من الشهرة الحربية مثل ما يغنمه قائد الجيش المظفر . وفى بعض ما أنا مورده فى الصفحات التالية ما سيفطن إليه — على الرغم من الاعتياض من الأسماء الحقيقية أخرى مخترعة — من سمعوا من أفواه الشيوخ بمصير القليلين الذين استطاعوا أن يرجعوا بعد معركة لافيل »

خفقت أشـعة الشمس الطالعة فى طلاقة وبهجة على رؤوس الأشجار التى رقد تحتها من الليلة البارحة جريحان مكدودان ، وكان فراشهما ورق البلوط الذاوى اليبيس المنتثر فى مستوى ضيق من الأرض ، فى ظل صخرة قريبة من ضَهْرِ نجوة من تلك النجاء التى تختلف بها وجوه الأرض هناك . وكانت كتلة الصخر التى يذهب سطحها الأملس المستوى فى الهواء مقـدار خمس عشرة قدماً أو عشرين ، فوق رأسيهما ، كأنها حجر قبر ضخم وكأن عروقها الجارية كتابةٌ بحروف مجهولة . وكان البلوط وما إليه من الشجر العظيم يحيط بالصخرة فى رقعة فسيحة ، بدلا من الصنوبر وهو الغرس المألوف فى هذه المنطقة . وكان هناك عودٌ أخضر قوى على مقربة من الرجلين .

وكان الجرح البليغ الذى أصاب أكبر الرفيقين قد حرمه النوم على الأرجح فما كاد أول شعاع من الشمس يلمس أعلى شجرة ، حتى جهد أن يغير رقدته ، ثم اعتدل قاعداً . وكانت غضون وجهه العميقة وما شاع من الشيب فى رأسه ، تدل على أنه جاوز خير شطرى العمر . غير أن متانة أسره كانت خليقة — لولا ما كلفه جرحه — أن تعينه على احتمال التعب كما يحتمله الشاب فى عنفوانه . وكان الفتور والإعياء مرتسمين على محياه المتهضم . وكانت نظرة اليأس التى يمد بها بصره فى جوف الغابة تنبئ باقتناعه أن رحلته قد شارفت ختامها . ثم أدار عينه إلى رفيقه الراقد إلى جانبه . وكان هذا الشاب — فما بلغ مبالغ الرجال بعد — نائماً ورأسه على ذراعه ، وكان نومه مضطرباً ، وكان يخيل إلى الناظر إليه أن ضَرَبَانَ الوجع من جرحه ، سيوقظه فى كل لحظة من نومه . وكانت يده قابضة على بندقية . وكان الاضطراب العنيف الذى ترتسم مظاهره على معارف وجهه يوقع فى الروع أنه يرى فى منامه صورةً من القتال الذى كان أحد القليلين الذين نجوا منه . وكأنما أطلق فى منامه الذى يتراءى له ، صيحة عميقة عالية فاختلجت شفتاه بهمسة خافتة . وعلى أن هذا الصوت الخفيض الذى انبعث منه كان كافياً لإزعاجه من رقاده فاستيقظ فجأة . وكان أول ما فعل بعد أن عاد إليه الوعى ، وتنبهت الذاكرة ، أن أقبل على صاحبه الجريح يسأله عن حاله بلهفة . فهز رفيقه رأسه وقال :

« روبن — يا بنى — إن هذه الصخرة التى نقعد تحتها حسبُ ذلك الصائد الكهل والمقاتل القديم صُوًى لقبره . فما تزال أمامنا أميال عدة ، دونها أميال طويلة ، من المفاوز التى تنوح فيها الرياح وتعوى ؛ ولن يجديني حتى أن تكون مدخنة بيتى على الجانب الآخر من هذه الهضبة ، لقد كانت رصاصة الهندى أفتك مما ظننت » .

فقال الشـاب : « إنما أتعبتك مسيرة الأيام الثلاثة . وأخلق بالراحة أن تعيد إليك نفسك وتنعشك ، فابق هنا ريثما أجوب هذه الغابة التماسا للأعشاب والجذور لطعامنا ، ثم بعد أن تأكل ، تتكئ على ونولى وجهنا شطر البيت ، فما أشك فى أنك بمعونتى تستطيع أن تصل إلى بعض حاميات الحدود » .

فقال الآخر بهدوء : « ليس فىّ ذماء يكفى يومين يا روبن ، ولن أحملك عبء جسمى الذى لا خير فيه ، وأنت لا تـكاد تقوى على حمل نفسك . إن جراحك عميقة وقوتك تنضب بسرعة ، ولـكنك قد تنجو إذا عجلت بالذهاب ، أما أنا فلا أمل لى وسأنتظر الموت هنا » .

فقال روبن بلهجة المصمم : « إذا كان لا بد من هذا فسأبقى وأعنى بك » .

فقال رفيقه : « كلا يا بنى ، كلا ؛ اجعل لرغبة رجل يجود بأنفاسه وزناً عندك . هات يدك ثم اذهب ؛ وهل تظن أن لحظاتى الأخيرة يخففها على أنى أتركك للموت البطىء ؟ لقد أحببتك كحب الأب يا روبن ، وفى مثل هذه الساعة ينبغى أن يكون لى بعض حق الأب وسلطانه ، فأنا أدعوك أن تذهب ، حتى أقضى نحبى بسلام » .

فقال الشاب : « ومن أجل أنك كنت أبًا لى أينبغى لى أن أتركك تموت وتبقى بلا دفن فى هـذه الفلاة ؟ كلا ، إذا كان أجلك قد دنا حقا ، فسأبقى بجانبك ، وأتلقى آخر كلماتك ، وسأحفر هنا قبرا بجوار الصخرة ، فاذا خذلتنى قوتى ، رقدنا فيه معا ؛ أما إذا وهبنى الله القوة فسآخذ طريقى إلى البلدة » .

فقال الآخر : « إنهم فى المدن وفى حيث تسكن الجماعات من الناس يدفنون الموتى فى جوف الأرض ، ويحجبونهم عن عيون الأحياء ، ولـكن هنا — حيث يتفق أن تمضى مائة سنة ولا تدب قدم — لماذا لا أرقد تحت السماء

لا تغطيني إلا أوراق البلوط ، حين تنثرها رياح الخريف ؟ و إذا كان لا بد مما يذكّر بي و يدل على مكانى ، فهنا هذه الصخرة وسأحفر عليها بيدى الضعيفتين اسم « روجر مالفن » ، فاذا اجتاز هذه الناحية أحد عرف أن ههنا يرقد صائد مقاتل ، فلا تتلكأ إذن من أجل سخافة كهذه ، بل أسرع إن لم يكن من أجلك فمن أجل تلك التى لن تجد لها مؤاسيا بغير ذلك » .

وكان مالفن ينطق بالكلمات الأخيرة بصوت مضطرب ، وكان وقعها فى نفس صاحبه واضحا جدا ، فأذكرته أن هناك واجبات أخرى أصرح من مشاطرة صاحبه مآله ، وأن موته معه لن ينفعه . وليس فى الوسع أن يقال إن قلب روبن خلا من كل شعور أنانى ، و إن كان إدراكه لاضطراب نفسه بهذا الشعور ، قد حمله على التشدد فى مقاومة الرجاء الذى ألح به عليه زميله .

وقال روبن : « ما أهول أن يقعد المرء منتظرا دلوف الموت إليه فى هذه الوحدة ! . . . إن الرجل المقدام لا يتهيب الموت فى إبان المعركة ، وحتى المرأة قد تتلقى الموت وهى ساكنة النفس إذا حف بسريرها الأوداء . ولكن هنا ..»

فقاطعه مالفن قائلا : « لن أفرق من الموت حتى هنا يا روبن بورن . وإنى لرجل غير منخوب القلب ، ولو أننى كنت ذاك لكان لى عون أوثق من عون الإخوان . وأنت شاب والحياة حبيبة إليك وعزيزة عليك ، وأنت فى ساعاتك الأخيرة أحوج إلى المواساة منى . واعلم أنك بعد أن تدفننى فى جوف الثرى وتمسى مستفرداً وَحَدًا ، ويلف الليل هذه الغابة فى شملته ، ستشعر حينئذ بكل مرارة الموت التى تغيب عنك الآن . على أنى لن أحض نفسك الكريمة بدوافع من الأثرة . فاتركنى من أجلى أنا ليتسنى لى بعد أن أدعو الله لك بالسلامة ، أن أتوجه إليه بقلبي مستغفراً من غير أن تزعجنى هموم الدنيا وأحزانها » .

فصاح روبن : « وابنتك ؟ كيف أجرؤ أن أنظر إليها ؟ ستسألنى عن مصير أبيها الذى أقسمتُ أن أبذل حياتى دونه . فهل أقول لها إنه سار معى ثلاثة أيام من ميدان القتال وأنى بعد ذلك تركته يموت فى الفلاة .؟؟ أليس خيراً أن أرقد وأموت إلى جانبك من أن أعود سالماً وأقول هذا لدوركاس ؟ » .

فقال روجر مالفن : « قل لابنتى إنك على الرغم من جراحك البليغة وضعفك وتعبك قدت خطاى المتعثرة عدة أميال وأنك ما تركتنى إلا إجابة لرغبتى الملحة لأنى لم أرد أن أحمل تبعة موتك . قل لها إنك على الرغم من الألم والخطر كنت وفيا . وأنه لو كان دم قلبك يستطيع أن ينقذنى لأريق فى سبيلى إلى آخر قطرة ، وقل لها إنك ستكون أحنى عليها من أبيها ، وإنى أدعو لكما جميعاً و إن عينى اللتين يوشك أن يطبقهما الموت تستطيعان أن تريا طريقا طويلا تسلكانه معاً وتحمدان السير فيه » .

وكان مالفن وهو يتكلم قد كاد يرفع نفسه عن الأرض ، وكأنما بعثت القوة التى نطق بها العبارة الأخيرة صورةً من صور السعادة فى هذه الغابة الموحشة ، ولكنه تحلل به الإعياء فهوى على فراش الورق فانطفأ النور الذى التمعت به عينا روبين وأحس كأن من الإثم والجنون أن يفكر فى السعادة فى مثل هذه اللحظة . وكان صاحبه يلاحظ ما يتعاقب على محياه من المشاعر المختلفة فأراد أن يحمله بالحيلة الكريمة على ما فيه خيره ومضى فى كلامه فقال :

« عسى أن أكون واهماً فى أجَلى ولعلى إذا أسعفت بالمعونة أبرأ من جراحى ولا بد أن يكون أسبق اللاجئين قد حملوا قبل الآن أنباء ملحمتنا الوبيلة إلى الحدود ، وأحسب أن جماعات قد خرجت لنجدة أمثالنا ، فإذا لقيت جماعة منهم

وعدت بها إلى هنا فمن يدرى . ؟ لعله يقسم لى أن أجلس مرة أخرى إلى جانب موقدى » .

وطافت ابتسامة حزينة بمحيا هـذا الرجل الذى يجود بنفسه وهو يوحى إلى صاحبه بالأمل الذى لا مطمع فيـه ، وإن كان قد ترك أثره فى نفس روبن . وما كان أى باعث من الأثرة ، ولا حتى أسى دوركاس وولهها ليغريه بهجر رفيقه فى ساعة كهذه ، ولـكن هوى قلبـه تعلق بالأمل فى إمكان إنقاذ مالفن وأمدته طبيعته المستبشرة بما رفع إلى مرتبة اليقين ذلك الأمل البعيد ، البعيد ، فى الحصول على معونة إنسانية .

وقال كأنما يحدث نفسه : « إن هناك على التحقيق دواعى — دواعى قوية — تبعث على الأمل فى أن يكون بعض الإخوان غير بعيدين منا . لقد فر جبان — خرج بلا جرح — فى أول القتال ، والأرجح جدا أن يكون قد أسرع حتى بلغ مأمناً ، ولا شك أن كل ذى نجدة حقيق بأن يحمل بندقيته حين يسمع أنباء الوقعة وقد لا تتوغل الجماعات فى تطوافها إلى هذا المكان من الغابة ، ولـكنى قد ألتقى ببعضها بعد مسيرة يوم واحد » .

والتفت إلى مالفن وقد خامره الشك فى حقيقة بواعثه فقال : « أشر على بإخلاص . لو كنت أنا فى مكانك أكنت تتركنى وبى ذماء ؟ » .

فقال روجر مالفن وهو يتنهد ، فما خفى عليه التفاوت الشديد بين الحالتين : « لقد مضت عشرون سنة مذ فررت مع صديق عزيز على من أسر الهنود قرب مونتريل ، فسلخنا عدة أيام ونحن نجتاز الغابة حتى تكسر صاحبى من الجوع والجهد ، فرقد وناشدنى أن أتركه فقد كان يعلم أن بقائى معه يلحقنى به ، فجمعت

كوماً من الأوراق الجافة وجعلت منها وسادة لرأسه ، ومضيت فى سبيلى وأنا ضئيل الأمل فى الحصول على نجدة » .

فسأله مالفن : « وهل عدت إليه وأدركته ؟ » .

وانتظر رده كأنه نبوءة تبشره بالتوفيق .

فقال مالفن : « نعم . وقعت على خيام لجماعة خرجت للصيد قبل الغروب فى اليوم نفسه ، فمضيت بهم إلى حيث كان صاحبى راقداً ينتظر الموت ، وهو الآن رجل صحيح معافى يعمل فى حقله بعيـداً من الحدود ، وأنا هنا جريح طريح فى قلب هذه الغابة » .

وقد لقيت هذه الرواية التى كانت عظيمة الأثر فى توجيـه عزم روبن ، عوناً خفيا من بواعث أخرى مكنونة القوة ، ولم تفت عين روجر مالفن أن الفوز كاد يكتب له فقال : « والآن اذهب يا بنى وليكن الله فى عونك ، ولا تعد مع أصدقائك حين تلقاهم لئلا تطيح بك جراحك وتعبك ، ولـكن وَجِّه إلىّ اثنين أو ثلاثة يكونون فى فسحة من الوقت والعمـل ليبحثوا عنى . وصدقنى يا روبن حين أقول لك إن كل خطوة تخطوها إلى بيتك تخفف عنى ما أجد وتريح قلبى » .

على أن وجهه حال ، وصوته تغير ، وهو يقول ذلك ، ولا عجب ، فإنه مصير مرعب أن يُترك ليموت فى هذه الغابة الموحشة .

ونهض روبن بورن أخيراً عن الأرض ووساوس الشك تساوره فى صواب ما هو صانع ، واستعد للرحيل . وجمع أولا — على خلاف رغبة مالفن — ذخراً من الجذور والأعشاب التى اتخذا منها طعامهما فى اليومين الماضيين ، ووضع هذه المؤونة العقيمة فى متناول صاحبه ، وجمع له كذلك كوماً جديداً من أوراق الشجر لفراشه ، ثم صعد إلى قمة الصخرة — وكان أحد جانبيها خشناً وعراً — وثنى إليه

العود الأخضر وربط منديله بأعلى أغصانه ، وكان هذا الاحتياط ضروريا ليهتدى بالمنديل من عسى أن يجىء باحثاً عن مالفن ، إذ كانت الصخرة ما عدا جانبها العريض الأملس يحجبها النبت الكثيف على وجه الأرض . وكان روبن يتخذ من هذا المنديل ضماداً لجرح فى ذراعه . وأقسم بالدم الذى عليه وهو يشده إلى الغصن أن يعود لينقذ حياة صاحبه ، أو ليوارى جثته فى قبر . ثم انحدر ووقف مطرقاً ليتلقى من روجر مالفن آخر كلماته .

وكانت لتجربة مالفن الفضل فى كثير من النصح الدقيق لرفيقه الشاب فى اجتيازه هذه الغابة المُضِلّة . وكان وهو يتكلم فى هـذا هادئاً جادًّا ؛ كأنما هو يوجه روبن إلى القتال أو الصيد على حين يقعد هو آمناً فى بيته ، وكأنما هـذا الوجه الإنسانى الذى سيتركه ويغيب عنه ليس آخر وجه ستقع عليه عينه ، ولكن هذا الثبات تزعزع قبل أن يختم حديثه :

« بلغ دوركاس تحيتى ودعائى ، وقل لها إن آخر دعواتى كانت لها ولك ، ومرها ألا تظن بك سوءا من أجل أنك تركتنى ، (وهنا أحس روبن بالحز فى قلبه) ، فانك ما كنت لتحرص على حياتك وتضن بها لو أن بذلها كان يجدينى ، وستتزوجك بعد أن تحد على أبيها مدة ، أطال الله عمركما وجعلكما من السعداء ؛ وليحف بكما أحفادكما عند الممات . ويا روبن ، (وهنا غلبه ضعف الإنسان الفانى) ارجع بعد أن تبرأ جراحك وتندمل ، وتسترد العافية — ارجع إلى هذه الصخرة الموحشة وضع عظامى فى قبر ، وصل على » .

وكان أهل الحدود يجعلون لمراسم الدفن قيمة تكاد تكون خرافية ، ولعل ذلك راجع إلى عادات الهنود الذين كانوا يشنون الحرب على الموتى كما يشنونها على الأحياء . وهناك أمثلة كثيرة للتضحية بالحياة فى سبيل السعى لدفن الذين

طاح بهم « سيف الفلاة » ، ولهذا كان روبن يدرك قيمة العهد الذى أعطاه لروجر مالفن بأن يعود ويدفن رفاته . وكان من الغريب أن مالفن بعد أن أفضى فى كلماته الأخيرة بكل ما فى قلبه ، لم يعد يحاول أن يقنع رفيقه الشاب بأن أسرع النجدات قد يكون لها غناء فى إنقاذ حياته . وكان روبن مقتنعاً فيما بينه وبين نفسه بأنه لن يرى وجه مالفن حيا مرة أخرى . وكانت مروءة نفسه تنزع به إلى البقاء بالغا ما بلغ الخطر على نفسه حتى يقضى صاحبه نحبه فيدفنه ، ولكن إرادة الحياة والأمل فى السعادة قويا فى نفسه واستوليا على قلبه ، فلم يقدر على مغالبتهما .

وبعد أن أصغى مالفن إلى روبن وهو يعاهده أن يعود ، قال : « كفى ، اذهب والله معك » .

فضغط الشاب يده فى صمت ، ودار على عقبه ، وهم بأن يمضى ، ولكنه لم يسر إلا قليلا ، ثم رده صوت مالفن يناديه بصوت ضعيف : « روبن ، روبن » ، فارتد إليه روبن وجثا إلى جانبه ، فأفضى إليه بآخر رجاء : « ارفعنى واجعل ظهرى إلى الصخرة ، ليكون وجهى شطر البيت ، ولأراك لحظة أخرى وأنت تمشى بين الأشجار » .

ففعل روبن ما طلبه صاحبه واستأنف السير ، وكان يمشى أول الأمر بأسرع مما تسمح به قوته ، لأن شيئاً من التحرج الذى يعذب المرء أحياناً ، وإن كان عمله لا خطأ فيه ولا وزر ، دفعه إلى الاستخفاء عن عين مالفن ، غير أنه بعد أن أبعد فى سيره على أوراق الشجر انكفأ راجعا تدفعه رغبة ملحة مؤلمة فى الوقوف على حال هذا الرجل المستفرد ، واختبأ وراء شجرة مقلوعة ، وجعل ينظر إليه ؛ وكانت الشمس مشرقة لا يحجبها غيم ، والأشجار — كبارها

وصغارها — تعب فى هواء مايو الطيب . ولـكن وجه الطبيعة كان عليه كالجهامة ، كأنما أدركها العطف على آلام الإنسان وأشجانه . وكانت يدا مالقن مرفوعتين بالدعاء الحار ، وكان بعض ما يجرى به لسانه فى هذا السكون الذى يشمل الغابة يصافح سمع روبن ، فيعصر قلبه ألم لا سبيل إلى العبارة عنه ، فقد كان الصوت الذى يبلغه نبرات متقطعة ترتفع بالدعاء له ولدوركاس بالسعادة ، وكان وهو يصغى ينازعه ضميره ووجـدانه أن يعود ويرقد معـه إلى جانب الصخرة ، وشعر بهول المآل الذى قُضى به على هذا الرجل الـكريم الرحيم الذى يهجره فى شدته ؛ وحدثته نفسه أن الموت سيدلف إليه كالجثة ويتسلل نحوه فى هذه الغـابة خطوة لخطوة ، ويطالعه بوجهه المرعب الجامد من وراء شجرة بعد شجرة ، ولـكن هذا هو ما كان خليقا أن يكون مصير روبن نفسه لو تلكأ يوما آخر . ومن الذى يلومه إذا أشفق من تضحية عقيمة كهذه ؟ وكان النسيم يحرك العلم الصغير المشدود إلى العود الأخضر وهو يلقى نظرة الوداع على صاحبه فأذكره ذلك عهده له .

* * *

وعاقت الجريحَ أمورٌ شتى فى مسيره إلى الحدود ففى اليوم الثانى تكاثفت السحب فى السماء فمنعت أن يهتدى فى سيره بموقع الشمس ، وكان أكبر ما يخاف أن ينأى به عن غايته ما يبذله من جهد نفسه المنهوكة القوى . وكان قوته النزر العنبيات وغيرها من الأثمار . وكانت أسراب من الظباء ربما مرت به وهى تخطف وكثيراً ما كان الطير يجدف عند قدميه ولـكن ذخيرته كانت قد نفدت فى المعركة ولم يكن معه ما يذبح به . وكانت جروحه تهيج وتنتقض عليـه من الجهد المتواصل الذى ارتهن به الأمل فى الحياة والنجاة ، فيستلب هذا قوته ،

وربما تركه مضطرب العقل مخلطاً . ولكنه كان ، حتى حين يدور رأسه ويضطرب ، يتشبث بالحياة كل التشبث حتى عجز عن الحركة عجزاً تاما فقعد تحت شجرة وراح ينتظر الموت .

وهنا أدركته جماعة أرسلت لإسعاف الناجين من المعركة لما وردت أنباؤها الأولى ، فنقلوه إلى أقرب حلة واتفق أن كانت هذه حلته . فتولت دوركاس العناية بحبيبها الجريح و بقيت إلى جانب سريره تتعهده على عادة ذلك الزمن ، وأولته تلك الألطاف المرفهة التى لا يُحسن الإتحافَ بها كقلب المرأة ويدها . وقد ظل روبن عدة أيام شارد اللب غائب الوعى والذاكرة بين المخاطر والمصاعب التى عاناها ، وكان لا يستطيع أن يرد بجلاء على الأسئلة التى كان كثيرون يقبلون بها عليه متلهفين ، فما كانت التفاصيل الصحيحة قد أذيعت على القوم ولا كان أحد من الأمهات والزوجات والأبناء يعرف هل ذووهم فى قيد الأسر أو فى قيد الردى . وكانت دوركاس تطوى مخاوفها وجزعها فى قلبها حتى كان مساء فأفاق روبن من نية مضطربة ، و بدا عليه أنه قد عرفها وفطن إليها كما لم يكن يفطن فى الأيام السالفة ، ورأت أن عقله قد ثاب إليه وعادت إليه وثاقته فلم تستطع بعد ذلك أن تظل تكبح قلقها على أبيها .

وبدأت تسأله : « وأبى يا روبن ؟ » ولكنّ ما اعتام وجهَه من التغير ردها عن المضى .

وكان الفتى قد تقبض كأنما ألح عليه ألم مر ، وتدفق الدم إلى وجهه المتهضم المتقع . وكان أول ما فعل أن غطى وجهه ثم كأنما غالب نفسه غلاباً شديداً فرفع جسمه وقال بصوت شديد مدافعاً عن نفسه مما خيل عليها من التهم :

«لقد أصيب أبوك يا دوركاس بجرح بليغ فى المعركة ، وأمرنى أن أعنى نفسى

من عبثه وأن أكتفى بأن أمضى به إلى شط البحيرة ليطفئ ظمأه ويموت .
ولكنى لم أستطع أن أخذله فى شدته ، فأعنته وإن كان دم جروحى ينزف ،
ومنحته نصف قوتى وسرت به معى . ولبثنا ثلاثة أيام نسير معاً وكان حاله خيراً
مما كنت أتوقع أن تكون ، ولكنى ألفيته فى صباح اليوم الرابع خائر القوى
منهوكها وعجز عن المشى وأخذ يجود بنفسه بسرعة و . . . . »

فصاحت دوركاس بضعف : « مات ؟ »

ووجد روبن أن من المستحيل عليه أن يقرّ لها بأن حبه الأنانى للحياة
نأى به عن صاحبه قبل أن يصير إلى مصيره ، فأمسك عن الكلام وثنى رأسه
على صدره ، ثم ارتد إلى الفراش من الخجل والإعياء وأخفى وجهه فى الوسادة
وبكت دوركاس لما أصبح شكها يقيناً ، ولكن الصدمة لطول توقعها كانت من
أجل ذلك أقل عنفاً وشدة .

وكان السؤال الذى ألهمها إياه شعورها البنوى وتقواها : « وحفرت قبراً لأبى
المسكين فى الفلاة يا روبن ؟ »

فقال الفتى بصوت مخنوق : « كانت يداى كليلتين ضعيفتين ولكنى فعلت
ما وسعنى . وهناك حجر عال يشرف عليه . ولشد ما أتمنى لو أننى كنت ساكناً
كسكونه » .

وأحست دوركاس من عبارته الأخيرة ثورة النفس فأمسكت فى يومها عن
الاستفسار ولكنها وجدت رَوْحاً وراحة إذ علمت أن روجر مالفن لم يعدم
ما تيسّر من مراسم الدفن ، وقصت على الأصحاب ما كان من شجاعة روبن
ووفائه ، ولم تنتقص الإعادةُ من حسن الرأى فيه شيئاً ، وكابد الشاب المسكين
بعد أن تطرح من فراش المرض إلى الهواء والشمس ، ذلّ الثناء الذى لا يستحقه

وعذابه وألمه ، وقال الناس جميعاً إنه حقيق بأن يطلب يد الغادة الحسناء التى وفى لأبيها « حتى الموت » . ولكن قصتى ليست عن الحب ، فحسبى أن أقول إن روبن صار زوجاً لدوركاس بعد بضعة شهور ، وكانت العروس فى حفلة الزواج مضطرمة الوجه من الخفر والحياء ، أما روبن فكان ممتقع اللون .

وصار فى قلب روبن بورن خاطر لا سبيل إلى الإفضاء به — خاطر ينبغى أن يخفيه بعناية وحرص عمن لها حبه ، وبها ثقته . وكان أسفه عميقاً على جبنه الذى أغراه بكبح لسانه عن الإفضاء إلى دوركاس بالحقيقة التى كان يهم بأن يبوح لها بها ، ولكن الكبرياء والخوف من فُقْدَانِ حبها له ، والإشفاق من الاحتقار العام — كل أولئك منعه أن يصدقها بعد أن كذب عليها . وكان يشعر أنه لا يستحق لوماً من أجل أنه ترك روجر مالفن ، فما كان بقاؤه والتبرع ببذل حياته إلا ليزيدا آلام الرجل بلا موجب فى ساعاته الأخيرة . ولكن كتمانه الحقيقة أفاض على هذا العمل السائغ كثيراً من صفات الإثم وآثاره الخفية ، فكان روبن على اقتناعه بأنه ما فعل إلا الصواب ، يقاسى إلى حد كبير الآلام النفسية التى تعذب مجترحَ جريمةٍ مستورة . وكانت خواطره تتداعى أحياناً على نحو يجعله يتصور أنه قاتل . وظل سنوات يعاوده خاطر لا تخفى عليه سخافته وشططه ، ولكنه لا يستطيع أن ينفيه ويستريح منه . وكان ذهنه لا يبرح يعذبه بصورة مخامرة — صورة صهره جالساً — إلى الآن — عند الصخرة على أوراق الشجر الذاوية — حيا ينتظر منه الوفاء بالمعونة الموعودة . على أن هذه الخدع العقلية كانت تروح وتجىء ، وكان هو لا يغالط نفسه فيها فيخلطها بالحقائق ، غير أنه فى أصفى حالات عقله وأهدئها كان يشعر بأن فى ذمته عهداً لم يف به ولم ينجزه ، وأن هناك جثة لم تدفن تصيح به من جوف الفلاة ، ولكنه

كان من نتائج مغالطته ولفه ، أن عجز عن تلبية النداء وإجابة الدعوة . وكان قد مضى الوقت الذى يجوز فيه أن يطلب معونة أصدقاء مالفن للقيام بدفنه الذى طال إرجاؤه . وحالت الأوهام والمخاوف الخرافية التى كان أهل الحدود أحس بها من سواهم دون ذهاب روبن وحده لهذه الغاية . ثم إنه لم يكن يدرى أين فى هذه الغابة المُضِلّة المترامية الأطراف ينشد تلك الصخرة الملساء المعرقة التى يرقد عند سفحها صاحبه . وكان تذكّره لرحلته فيها غامضاً ، ولم يكن فى ذهنه أى أثر للشطر الأخير من هذه الرحلة . على أنه كان لا يفتأ يحس دافعاً ملحا ، ويسمع صوتاً من ذات نفسه يناديه أن يخرج لإنجاز وعده ، وكان يخيل إليه أنه لو هم بذلك لقادته رجلاه إلى رفات مالفن مباشرة . ولكن العام كان يمضى تلو العام وهذا الصوت الذى يحسه ولا يسمعه سواه ، لا يجد منه مجيباً . وصار هذا الخاطر المكتوم كالقيد ، ولكن نفسه هى المُوثَقَةُ العانية ، أو كالحية ، يعض وينفض فى قلبه ، فانقلب رجلا ساهماً كاسف البال ولكنه ضجور سيئ الخلق .

وفى خلال سنوات قليلة بعد الزواج بدأت حالة الرخاء فى حياة روبن ودروكاس تحول ، وكانت ثروة روبن قلبه القوى وساعده المفتول ، ولكن دروكاس — وارثة أبيها الوحيدة — جاءت زوجها بضيعة أكبر وأحفل بالأدوات والمواشى من مثيلاتها على الحدود ، ولكن روبن بورن كان فلاحاً مهملا فكانت أرض سواه تزداد كل عام زكاءاً وثمرة ، وأرضه تزداد على النقيض كدوءا وتأخراً ، وكانت متاعب الزراعة وأسباب التثبيط عنها قد قلت قلة شديدة بانقطاع الحروب مع الهنود ، ولم يعد الناس يتناولون المحراث بيد والبندقية باليد الأخرى ويحمدون حسن حظهم إذا سلمت محاصيلهم من التلف فى الأهراء ، أو فى ميادين القتال حين يغير العدو المتوحش ، غير أن روبن لم ينتفع بما صار

إليه الأمر من السكينة والأمان و إن كان لا نكران أن الفترات التى كان ينشط فيها للعناية بأموره لم تكن تجزيه إلا نجاحاً ضئيلا . وكان فساد أعصابه من الأسباب التى أفضت به إلى الإكداء ، وذهاب الخير لأن سوء خلقه كان كثيراً ما يؤدى إلى الشجار والخلاف مع جيرانه فى المعاملات التى لا بد منها معهم ، فانتهى الأمر بقضايا لا عداد لها ، إذ كان أهل « انجلترا الجديدة » — ولاية بهذا الاسم — فى العهد الأول من حياتهم المضطربة بهذه الولاية يؤثرون الوسيلة القضائية لفض منازعاتهم كلما تيسر ذلك . ونقول بإيجاز إن الأمور لم تستقم لروبن بورن فحل به الخراب ، وإن كان هذا لم يصبه إلا بعد سنوات عديدة من زواجه ، ولم يبق له إلا سبيل واحد ومخرج فرد من النحس الذى لحقه ، وذلك أن يفيض نور الشمس على رقعة مظلمة فى جوف الصحراء ، وأن ينشد العيش والقوت من ثدى هذا المجهل البكر .

وكان الابن الوحيد الذى رُزقه روبن ودوركاس قد بلغ الخامسة عشر ، وكان شبابه الريان يبشر برجولة بارعة ، وكان على استعداد قوى لما تقتضيه الحياة على الحدود من الكفايات ، بل لقد بدأ يظهر فى ذلك حذقاً عظيما ، فكان خفيفاً مستد الذراع فى الرماية ، سريع الإدراك والفطنة ، وندباً شديد القلب ، وكان كل الذين يتوقعون أن تُستأنف الحرب مع الهنود ، يقولون عن « سيراس بورن » إنه الزعيم الذى يدخره المستقبل للبلاد ، وكان أبوه يحبه حبا عميقاً صامتا ، كأنما كان كل ما فيه ، هو ، من الخير والسماحة قد انتقل إلى غلامه ومعه ما يقوى عليه القلب من الحب ، حتى دوركاس — و إن كانت محبة محبوبة — صار ابنها أعز على أبيه منها ، ذلك أن خواطر روبن المحجوبة ، وعواطفه المعزولة جعلته على الأيام رجلا أنانيا ، فلم يستطع أن يحب حبا عميقا ،

إلا ما كان يرى أو يتخيل فيه مشابه من نفسه . وقد طالعته من سيراس صورة مما كان هو فى الأيام الماضية ، وكان ربما شاطر غلامه نفسيته ، فتهب على حياته نفحة منعشة من السعادة . وقد استصحب روبن غلامه فى رحلته لانتقاء رقعة من الأرض للإقامة ، ولقطع الشجر وحرق الخشب وهو ما لا بد منه تمهيداً لنقل البيت . وسلخا فى هذا شهرين من الخريف عادا بعدهما ليقضيا آخر شتاء فى الحلة .

* * *

وفى أوليات مايو بتت الأسرة الصغيرة ما كانت تتعلق به ، وودعت القليلين الذين كانوا فى أيام نحسها يحفظون لها عهد الصداقة . وكان أسى الفراق يخففه عند كل واحد من الثلاثة مخفف ، فأما روبن فكان رجلا طويل الوجوم كارهاً لبنى الإنسان لأنه شقى فى حياته ، فلما آن الرحيل مضى وهو مقطب ، مطرق لا يكاد يأسف على شىء ، ويأنف أن يعترف بأسف أو ندم . وأما دوركاس فبكت بأربع على الوشائج المبتوتة التى كانت توثِّق ما بين نفسها الطيبة العطوف وبين كل ما هنالك ، ولكنها كانت تحس أن ما حل فى السواد من حبة قلبها يَسيرُ معها ، وأن كل ما خلا ذلك لا تعدم عنه عوضاً فى حيثما تكون . وأما الغلام فكفكف دمعة واحدة وراح يتصوّر مُتَعَ الخِطار فى الغابة التى لم تطأها قدم أبيه ، ومن ذا الذى لم تُغْرِهِ الأحلام فى عنفوان نشوتها ، بأن يشتهى أن يطوّف فى عالم من المجاهل المشمسة وإلى جانبه رفيق جميل يعتمد على ذراعه فى رفق ؟ ؟ فى الشباب لا تعرف خطواته الحرة الجذلة عائقاً سوى عباب اليم المتحدر ورؤوس الجبال التى يكسوها الثلج . ثم تجىء الرجولة الساكنة فتُؤْثِر بيتاً فى واد سخت عليه الطبيعة بالزخرف ، وأجرت فيه غديراً رائقاً شفافا . حتى إذا دلفت إليه الشيخوخة بعد سنوات طويلات المدد من تلك الحياة النقية إذا به قد صار

أبا لقبيل ، ورأساً لشعب ، ومؤسس أمة عظيمة تمخض عنها الأيام . ثم يوافيه الحَيْن فيستسلم إليه ويرحب به ، كما نرحب بالنوم العذب بعد يوم سعيد ، فيبكى ولده رفاته الجليل . ويحيطه كر الأيام بهالة ، ويكسبه مناقب وخصائص عجيبة ترفعه فى أعين الأجيال التالية إلى قريب من مراتب الأرباب . وترجع الإنسانية بصرها من وراء قرن فتلمح مجده الخافت .

على أن الغابة المظلمة المعقدة المسالك التى كان يضرب فيها من أروى قصتهم ، لم تكن تشبه فى شىء تلك الأرض التى تصورها الأحلام . ولكنه كان فى أسلوب حياتهم ما يجرى على نسق الطبيعة ، وكانت الهموم المخامرة التى رافقتهم من الدنيا التى خرجوا منها ، هى كل ما يعكر الآن صفو حياتهم ويحول دون استفاضة الشعور بالسعادة . وكان معهم جواد أشعث متين الأسر ، يحمل كل ما يملكون ولا يجزع أن تضاف دوركاس إلى ما يحمل ، وإن كانت نشأتها تعينها على السير إلى جانب زوجها فى آخر كل مرحلة يومية . وكان روبن وابنه يمشيان بخطى ثابتة قوية وعلى كتف كل منهما بندقيته ، وعلى ظهره فأسه ، وعينه تدور باحثة عن قنيصة للطعام . وكلما جاعوا وقفوا وأعدوا طعامهم على شاطئ غدير صاف فإذا ظمئوا انحنوا بشفاههم على مائه السلسال ليرشفوا من نميره وهو يترقرق عنهم فى مثل دلال الغادة إذ تتلقى القبلة الأولى من فم حبيبها . وكانوا ينامون فى كوخ يصنعونه من الأغصان ويستيقظون مع أول خيط من النور ، وقد انتعشوا وتهيأوا لمتاعب اليوم التالى . وكانت دوركاس وابنها يمشيان مرحا ، حتى روبن كان أحياناً يشرق وجهه ويلمع فيه نور البشر ولكنه كان يطوى بين أضلاعه كمداً باطناً يقرس قلبه ويتركه فيما يرى كمجرى الغدير جمد فيه ماؤه وغطته أوراق الشجر الخضراء النضيرة .

وكان سيراس بورن أعرف بمسالك الغابات وأخبر بالسير فيها من أن يخفى عليه أن أباه لا يلتزم الجادة التى ساروا فيها فى الخريف الماضى ، فقد كان ينتحى ناحية الشمال وينأى عن الأرض المأهولة ويضرب إلى حيث لا توجد إلا الوحوش وأمثالها من الآدميين . وكان الغلام ينبهه إلى ذلك أحياناً فيصغى له روبن ، ويعدل عن الطريق الذى كان آخذاً فيه ، عملا منه بنصيحة ابنه ، ولكنه كان كلما فعل ذلك يبدو كالمضطرب ، فكان يمد لحظه ويجيله كأنما يتوقع أن يرى أعداء مختبئين وراء جذوع الشجر . وكان سيراس يرى أن أباه يرتد شيئاً فشيئاً إلى اتجاهه الأول الذى كان قد صرفه عنه ، فيحجم عن معاودة الاعتراض ، وكان يشعر أن شيئاً غامض الكنه قد بدأ يجثم على صدره ، وَلكن جرأته الفطرية على الخِطار أبت له أن يأسف من أجل أن الطريق زاد طولا وَغموضا .

وفى عصر اليوم الخامس وقفوا وهيأوا لأنفسهم مكاناً قبل الغروب بساعة ؛ وكان وجه الأرض فيما قطعوا من الأميال الأخيرة يعلو ويهبط كأنه أمواج تحجرت . وقد أقاموا فى منخفض منها كوخهم وأوقدوا نارهم . وكان فى مقامهم هناك — وقد نأوا عن كل حى ووثق ما بينهم الحب — ما يشجو ويملأ القلب حرارة . وكانت أشجار الصنوبر تشرف عليهم وتتخلل الريح أغصانها العالية ، فتتجاوب الغابة بمثل أصوات الوله والأسى ، أم ترى هذه الأشجار العتيقة تتوجع مخافة أن يكون الإنسان قد أقبل ليضرب فى جذورها بفأسه . . . ؟

ورأى روبن وابنه أن يدعا دوركاس تهيئ الطعام وأن يتجولا فى الغابة عسى أن يقعا على فريسة فقد أخطأهما الصيد فى نهارهما . ووعد الغلام ألا يبعد وذهب يعدو خفيفاً كالظبى الذى يرجو أن يصيد . وشعر أبوه بنفحة عارضة من السعادة

وهو يتبعه بعينه . وهم بأن يمضى هو فى اتجاه آخر . وجلست دوركاس فوق جذع شجرة قديمة مقتلعة على كثب من العيدان التى أضرمت فيها النار . وكانت تلقى نظرها من حين إلى حين على القدر التى بدأت تفور وتغلى ثم ترد عينها إلى « تقويم ولاية ماساشوستس » وكان هذا التقويم ونسخة قديمة من الإنجيل كل مكتبة الأسرة . وليس أشد عناية بحساب الأيام ممن نأوا عن المجتمع الإنسانى فلا عجب إذا كانت دوركاس قد قالت لزوجها إن اليوم هو الثانى عشر من شهر مايو كأنما كان هذا على أعظم جانب من الأهمية . فاضطرب روبن وتمتم « الثانى عشر من شهر مايو . . ؟ إنى لحقيق بأن أذكره » وتزاحمت الخواطر فى رأسه فأحدثت له اختلاطاً يسيرا وراح يسأل نفسه :

« أين أنا . . ؟ و إلى أين أنا ماض ؟ وأين تركته . . ؟ » .

وكانت دوركاس قد ألفت من زوجها غرابة أطواره فلم تعد تلقى بالها إلى مايبدو من شذوذها . فوضعت التقويم إلى جانبها وقالت له بتلك اللهجة الشجية المعهودة التى يتخذها رقاق القلوب حين تكرّ بهم الذكرى إلى أحزانهم القديمة التى خمدت نارها :

« لقد ترك أبى هذا العالم إلى آخر خير منه فى مثل هذا الشهر منذ ست عشرة سنة . ولكنه لم يعدم ساعداً قويا يسند رأسه وصوتاً حنونا يخفف عنه غصص الموت ياروبن . إن عنايتك به ووفاءك له قد عزيانى مرارا كلما جشأت نفسى وجاشت . ألا ما أهول الموت على المستفرد الوحد فى مثل هذا المكان الموحش ! »

فقال روبن بصوت متهدج : « ادعى الله يا دوركاس ألا يدرك الموت أحدنا نحن الثلاثة وهو وحيد وألا يبقى بغير دفن فى هذه الغابة العاوية » .

وأسرع ومضى عنها وتركها تنظر إلى النار تحت الصنوبر .

وخفت وطأة روبن وأبطأت رجله لما خفت حدة الألم الذى أحدثته له دوركاس بما قالته عفواً . ولكن الخواطر الأليمة كانت تتزاحم وتتدافع فى رأسه فكان يمشى كالنائم لا كالصائد . ولم يكن عن قصد منه أنه بقى على مقربة من الكوخ فقد كانت رجله كأنما تدب به فى دائرة . ولم يفطن إلى أنه قد صار على رأس طريق مكتظ بأشجار السنديان وغيره من الأشجار العظيمة . وكانت أصول الشجر قد نمت عليها وازدحمت حولها الأغصان النابتة وبقى ما بين الشجر عاريا لا يكسوه إلا الورق الذاوى المنتثر . وكان روبن كلما سمع حفيف الأغصان أو صوت تمايل الجذوع — كأنما انبعثت الغابة من سباتها — يرفع بندقيته المراحة على ذراعه ويدير عينه بسرعة فى كل ناحية . ثم يقتنع بأن لا شىء من الحيوان هناك فيعود إلى ما يدور فى نفسه ويضطرب به جنانه . وكان يفكر فيما صرفه عن الطريق الذى كان معتزما أن يأخذه ورمى به فى قلب الغابة . ولم يستطع روبن أن يتغلغل بعينه إلى مكامن الأسرار من نفسه وأن يهتدى إلى البواعث الحقيقية المكنونة فى قرارة الوجدان فاعتقد أن صوتا من وراء الحس قد دعاه ، وأن قوة من وراء الطبيعة قد حالت دون ارتداده ، وتمنى أن تكون مشيئة الله قد أتاحت له فرصة للتكفير عن خطيئته ؛ ورجا أن يعثر على العظام التى بقيت هذا الزمن الطويل بلا دفن ، فيدرجها فى جوف الأرض فتعود إلى نفسه السكينة وتنشر النور بين حنايا ضلوعه التى صارت أحلك من القبر .

وانتبه على حفيف فى الغابة على مسافة من الموضع الذى تقوده إليه رجلاه ، ولمح حركة وراء النبات الأثيث الملتج ، فأطلق بندقيته بدافع من غريزة الصياد وبإحكام الرامى المدرب . ولم يلتفت إلى الأنة الخفيفة التى تنبئ بإصابة المرمى ، والتى يستطيع حتى الحيوان أن يعرب بها عما يعانى من أخذ الموت بكظمه .

ولـكن ما هذه الذكريات التى بدأت الآن تطوف برأسه ؟ . . .

لقد كان الموضع المعشوشب الذى أطلق روبن عليه بندقيته قريباً من قمة مرتفع من الأرض ومن أصل صخرة ملساء كأنها حجر ضخم مما يرفع على القبور . وكانت تبدو لروبن كأن لها صورة معكوسة فى مرآة ذاكرته ؛ — بل لقد تذكر تلك العروق الجارية على وجه الصخرة كالـكتابة بلغة منسية — كل شىء بقى كما كان سوى أن النبات الـكثيف غطى أصل الصخرة ، فهو يستطيع أن يحجب رفات روجر مالفن لو أنه بقى كما تركه قاعدا هناك ، ولـكن عين روبن لم تلبث أن أخذت بعض ما أحدثه الزمن من التغير مذ كان واقفا هنا وراء جذع الشجرة الذاهبة فى الهواء ، وذلك أن العود الذى ربط إليه الخرقة الملطخة بالدم قد نما واشتد وصار شجرة عظيمة كثيرة الفروع المورقة ؛ وإن كانت لم تستوف كل حظها من النماء . وقد رأى روبن فى هذه الشجرة ما جعله يضطرب ، فقد كانت الغصون الوسطى والسفلى ترف فيها نضرة الحياة ، وكانت الخضرة اليانعة تحف بأصل الشجرة ، ولـكن آفةً على ما يظهر أصابت قمتها فبدا الغصن الأعلى ذاويا جافا ميتا . وتذكر روبن أن الخرقة التى نشرها كالراية كانت تخفق على هذا الفرع لمـا كان أخضر وريقاً ، فأى خطيئة يا ترى عصفت به وأذوته . . ؟ ومن عسى أن يكون ذاك الذى اقترفها . . ؟

* * *

وكانت دوركاس تواصل عملها فى إعداد الطعام بعد أن تركها زوجها وابنها ، وقد اتخذت من ساق شجرة غليظة متجدعة مائدةً نشرت على أعرض موضع فيها منديلا ناصع البياض ، ورتبت فوق هذا ما بقى عندها من الأوعية المعدنية التى كانت تُزهى بها فى بيتها . وكان لهذه البقية من الأدوات المنزلية منظر

غريب فى قلب الغابة الموحشة ، وكانت الشمس الغاربة لا تزال تضىء قمم الأشجار القائمة على الربى . ولكن ظلال المغيب كانت قد ارتمت وتكاثفت على وجه المنخفض الذى أقيم فيه الكوخ . وكانت النار ترسل ألسنتها فتضىء سيقان الشجر ، ويخفق نورها على النبات المحيط بالمكان . ولم يكن فى قلب دوركاس حزن ، فقد كانت تحدث نفسها بأنه خير لها أن تجوب الغابة مع اثنين تحبهما ويحبانها من أن تكون وحدها بين من لا يعبأون بها .

وشغلت نفسها بإعداد مقاعد من خشب الشجر المتقادم المتجدع المغطى بالورق لنفسها ولروبن ولابنها . وكانت ترسل الصوت فى جوف الغابة المظلمة فيرقص على نغم أغنية تعلمتها فى صباها . وكانت هذه الأغنية الساذجة التى نظمها شاعر لم يفز بالذكر تصف ليلة شتوية فى كوخ على الحدود ، حيث كانت الأسرة تمرح وتنعم بالدفء من النار الموقدة ، وقد أمنت عدوان المتوحشين بفضل ما تكدس من الثلوج . وكان للأغنية ذلك السحر الخفى الذى تمتاز به الخواطر المبتكرة غير المستعارة . ولكن أربعة أبيات منها كانت تبرز وتضيء وتشع النور والحرارة كلسان النار الذى تصف السرور حوله ؛ وفى هذه الأبيات استطاع الشاعر أن يصوغ السحر بألفاظ قليلة ، وأن يستقطر معانى الحب البيتى ويجسد السعادة المنزلية ، فصارت الأبيات شعرا وصورة فى آن معاً .

وكانت دوركاس وهى تغنى تحس أن جدران بيتها الذى فارقته تحيط بها هنا ، فلم تعد ترى أشجار الصنوبر المظلمة ، أو تسمع الأنات الجوفاء التى ينتهى بها نواح الرياح بين الأفنان ، ولكن ردها إلى ما حولها طلق بندقية فاضطربت جدا من مفاجأة الصوت ، أو من فرط الشعور بالوحدة وهى إلى جانب النار ، على أنها ما عتمت أن ضحكت وقد عمر قلبها الزهو بابنها ، فقالت تحدث نفسها :

« يا له من صائد جميل . . . لقد أصاب ابنى ظبيا » ، فقد تذكرت أن صوت الطلق جاء من الناحية التى ذهب إليها سيراس باحثاً عن طريدة . وانتظرت فترة كافية توقعت بعدها أن تسمع وقع قدمى سيراس يعدو إليها ليخبرها بما ظفر به ، ولكنه لم يجئ ، فأرسلت صوتها المرح بين الأشجار تدعوه إليها :

« سيراس . . . سيراس . . . »

ولكنه أبطأ ولم يجئ ، فاعتزمت أن تذهب هى إليه ، فقد كان صوت الطلق ينبئ بأنه منها قريب ، ثم إنه قد يحتاج إلى معونتها لحمل ما منّت نفسها أن يكون قد صاده . ونهضت ومضت مهتدية بذكرى الصوت الذى سمعته ، وكانت تغنى وهى سائرة ، ليسمعها ابنها فيخف للقائها ، وكانت ترجو أن يطالعها وجهه من وراء كل شجرة وكل ما يمكن أن يحجبه من النبات العالى ، وأن تسمع ضحكته المنبعثة عن روح العبث فى المغامر حين يلقى من يحب . وكانت الشمس قد غابت وراء الأفق ، وكان الضوء المختلف بين الأشجار من الخفوت بحيث يجسد الأوهام لخيال المتطلع . وقد خيل إليها مرات أنها لمحت وجهه — ولكن فى غير وضوح — مطلا من بين الأوراق ، وكبر فى وهمها مرة أنه واقف إلى جانب صخرة ، وأنه يومئ إليها ، على أنها بعد أن أوسعت هذه الصخرة تحديقاً ، تبينت أن الذى بجانبها ليس إلا ساق شجرة تحف بها أغصان كثيرة ، كان أحدها ممتدا وكان النسيم يحركه . وظلت تتقدم حتى بلغت الصخرة ، فألفت نفسها بغتة أمام زوجها الذى كان قد جاء من ناحية أخرى ، وكان متكئاً على صدر بندقيته التى انغرست فوهتها بين الأوراق وهو يتأمل شيئاً عند قدميه .

فصاحت به دوركاس : « ما هذا يا روبن . . ؟ أتراك صدت الظبى ثم نمت عليه . . . ؟ » .

وكانت تضحك مغتبطة بما لمحت أول الأمر من وقفته وهيئته ، ولكنه لم يتحرك ولا حوّل إليها عينه ، فدب فى قلبها الخوف ، وأخذتها رعدة مجهولة المصادر والعلل ، وتفرست فتبينت فى وجهه الامتقاع والتصلب ، حتى لكأنما عجزت معارف محياه أن تغير ما ارتسم عليها من صورة اليأس .

ولم يبد منه ما يدل على أنه أحس بقربها ، فصاحت به : « أتوسل إليك يا روبن أن تكلمنى » وأفزعها صوتها أكثر مما أفزعها هذا السكون الرهيب .

وتنبه زوجها ونظر إليها ثم جرها إلى الصخرة وأشار بإصبعه ، فإذا غلامها هناك راقد . . . نائم نوما لا حلم فيه ولا يقظة منه . . . على أوراق الشجر الجافة ، وخده على ذراعه ، وأعضاؤه مسترخية قليلا . . . أفتراه أدركه إعياء مباغت . . ؟ أيمكن أن يوقظه صوت أمه ويرده إليها . . ؟ كلا . . . فقد أدركت أنه الموت الذى لا حيلة فيه .

وقال زوجها : « هذه الصخرة العالية هى الحجر القائم على قبر أبيك يا دوركاس . . . وستسقط أشجارك على ابنك وأبيك كليهما » .

ولم تسمع دوركاس ما قال ، بل أطلقت صرخة جزع انشقت عنها حبة قلبها المطعون ، وهوت مغشيا عليها إلى جانب فتاها ؛ وفى هذه اللحظة انقصف الفرع اليابس الذى فى قمة الشجرة . . . وتهاوى هشيمه وتناثر ما بلى منه على الصخرة . . . وعلى الأوراق الذاوية المبعثرة . . . وعلى روبن وزوجته وابنهما . . . وعلى رفات روجر مالفن .

وانعصر قلب روبن ، وتفجرت الدموع من عينيه كما يتفجر الماء من ينبوعه . . . لقد وفى الرجل الذى حاقت به اللعنة بالنذر الذى نذره وهو شاب جريح . . . وقد كفر عن خطيئته فزالت عنه اللعنة .

وفى هذه الساعة التى أهرق فيها دما أعز عليه من دمه ، اختلجت شفتاه بصلاة ارتفعت إلى السماء ، وكانت الأولى التى تحركتا بها منذ سنين وسنين .

ادجـــــر أللان بو

١٨٠٩ – ١٨٤٩

نبيذ الأمونتيلادو

احتملت من « فورتيناتو » ألف مساءة ومساءة ، ولكنه اجترأ على بالإهانة ، فأقسمت لأنتقمن منه ، وأنت يا من تعرف طباعى معرفتها لن تظن بى أنى أجريت لسانى بتهديد أو نطقت بكلمة وعيد . كلا . . . لقد آليت أن أنتقم ، ووطنت نفسى على ذلك ، وكان هذا منى قرارا حاسماً لا رجعة فيه ولا تردد . على أن هذه الصبغة النهائية لما اعتزمته استوجبت أن أتقى المجازفة . فانه لا يكفى أن يحل به عقابى ، وإنما ينبغى أن أكون فى أمان من المخاوف وأنا أفعل ذلك ، فإن أخذك المرء بذنب كان منه لا يكون فيه معنى الانتصاف إذا تعقبك منه ثأر ؛ كذلك لا يكون الانتصاف انتصافا إذا عجزت عن جعل الآثم المسىء يدرك ذلك .

ويجب أن يتقرر فى الأذهان أنى حرصت على أن أتقى كل لفظ ، أو عمل يحمل فورتيناتو على الشك فى حسن نيتى ، ومن أجل هذا ظللت أبتسم له كعادتى كلما لقيته ، ولم يدرك هو أن ابتسامى الآن إنما هو لما أتخيله من صورته إذ أقدمه قرباناً على مذبح غضبى .

وكان فى فورتيناتو هذا موضع ضعف ، وإن كان فيما عدا ذلك رجلا جديرا بالاحترام ، بل مرهوب الجانب أيضاً ، وذلك أنه كان يعتز ويباهى بحذقه فى تمييز أصناف النبيذ . وقل من الإيطاليين الحاذق الصادق ، ويغلب أن يكون ما يلغطون به من ذلك دعوى يدعونها ليسايروا الزمن ويغتنموا الفرص ويخدعوا أثرياء الانجليز والنمسويين . وقد كان فورتيناتو دعيا كغيره فى

التصوير وما إليه ، أما فى الأنبذة المعتقة فكان أستاذا مخلصاً ، ولم يكن بينى وبينه فى هذا تفاوت يستحق الذكر ، فقد كان لى مثل براعته ، وكنت أشترى مقادير عظيمة لِأُعَتِّقها كلما تيسر لى ذلك .

وفى إحدى الليالى ، عند الشفق ، وقد بلغ جنون الناس فى موسم المرافع منتهاه ، لقيت فورتيناتو ، وكان قد أسرف فى الشراب قبل ذلك ، وكان فى ثياب محبوكة التفصيل متعددة الألوان ، وعلى رأسه طرطور[١] ذو أجراس ، فبلغ من سرورى برؤيته أنه خيل إلى أنى لن أقضى وطرى من مصافحته .

وقلت له : « يا صديقى العزيز ، إنى سعيد الحظ بلقائك ، وتالله ما أنضر وجهك اليوم . . . لقد تلقيت بضعة دنان مما يزعمونه نبيذ الأمونتيلادو ولكن الشكوك تساورنى » .

فقال : « ماذا . . ؟ أمونتيلادو ؟ . . . مستحيل . . . وفى منتصف موسم المرافع أيضاً ؟ . . . » .

قلت : « إنى عظيم الشك أيضاً ، ولكنى لغفلتى أديت الثمن الوافى لهذا الشراب قبل أن أرجع إليك وأستشيرك ، غير أنى لم أعثر عليك ، وخفت أن تفلت منى الفرصة » .

فجعل يتمتم : « أمونتيلادو . . ؟ » .

قلت : « إنى أشك فيه » .

فظل يتمتم : « أمونتيلادو ؟ » .

فقلت : « لا بد أن أتبين » .

فعاد يتمتم : « أمونتيلادو ؟ » .

---

(١) الطرطور قلنسوة طويلة .

قلت : « ولما كنت أنت مشغولا فسأذهب إلى لوشيزى فإنه ذوّاق ، ولا شك أنه سيجلو لى . . . » .

فقال مقاطعاً : « إن لوشيزى لا يستطيع أن يميز النبيذ الأبيض من نبيذ الأمونتيللادو » !

قلت : « ومع ذلك يزعم الجاهلون أن ذوقه كذوقك » !

قال : « تعال . . امضِ بى . . » !

قلت : « إلى أين » ؟

قال : « إلى أقبيتك » .

قلت : « كلا يا صديقى ، فلن أستغل طيب قلبك ، و إنى أستطيع أن أرى أنك على موعد ، وفى لوشيزى . . » .

قال : « لست مرتبطا بشىء . . تعال » .

قلت : « لا يا صديقى فانى أرى أنك مصاب ببرد شديد ، والأقبية لا تطاق رطوبتها ، وجدرانها مغطاة بطبقات من الأملاح » .

قال : « فلنذهب على الرغم من هذا البرد ، فما هو بشىء . . أمونتيللادو . . ؟ لقد ضحكوا عليك وخدعوك . . أما لوشيزى فانه يعجز عن تمييز هـذا من النبيذ الأبيض » !

ولف ذراعه بذراعى ، فأرخيت على وجهى قناعا من الحرير الأسود ، وضممت شملتى وتركته يمضى مسرعا إلى قصرى .

ولم يكن فى القصر خدم ، فقد ولوا جميعاً ليقصفوا احتفالا بالعيد ، وكنت قد أخبرتهم أنى لن أعود إلا فى الصباح ، وأمرتهم أمرى صريحاً ألا يبرحوا القصر ، وكنت على يقين من أن هذا الأمر وحده كاف لإغرائهم بالخروج متى أوليتهم ظهرى .

وتناولت مشعلين ناولت فورتيناتو أحدهما وتخللت به حجرات عدة ، حتى بلغنا المقد المفضى إلى القبو ، ونزلنا سلماً طويلا متلويا ، وأنا أرجو منه أن يأخذ حذره وهو يتبعنى حتى بلغنا الدرجة الأخيرة ، ووقفنا معاً على الأرض الرطبة فى مقبرة « آل مونتريزور » .

وكان صاحبى يترنح قليلا فى مشيته ، وكانت أجراس طرطوره تتلاقى وهو يخطو فتكون لها رنة .

وسألنى : « أين الدنان ؟ . . » .

قلت : « إنها على مسافة من هنا . . ولكن انظر هذا البياض الملتمع على جدران هذه المغارة » .

فالتفت إلى وأثارنى النظر بعينين كأن عليهما غشاءا من سمادير السكر[1] .

وسأل أخيراً : « أملاح ؟ . . » !

قلت : « نعم ، ولكن منذ متى هذا السعال ؟ » .

فراح يسعل ، وظل المسكين دقائق كثيرة لايستطيع أن يجيب مما أخذه من سعاله ، ثم قال أخيرا : « إنه لا شىء » !

فقلت بلهجة حازمة : « اسمع ، سنعود أدراجنا ، إن صحتك غالية ، وأنت غنى ومحبوب وعزيز مكرم وسعيد أيضاً ، كما كنت أنا فى بعض ما خلا من العمر . . ومثلك يفتقد . . أما أنا فأمرى على خلاف ذلك ، فسنعود إذن ، فإنى أخاف أن يثقل عليك الداء ولست أستطيع أن أبوء بهذه التبعة ، ثم إن هناك لوشيزى . . » .

فقال : « كفى ، إن هذا السعال لا شىء ، ولن يقتلنى ، كلا ، لن تميتنى سعلة » .

---

(١) السمادير ما يتراءى للانسان من السكر .

قلت : « صدقت ، وما كان قصدى أن أثير مخاوفك ووساوسك بلا موجب ، ولـكن عليك أن تحاذر ، ولعل كرعة روية من نبيذ الميدوك هذا يقينا شر الرطوبة » .

وضربت عنق قارورة أخرجتها من صف طويل من القوارير القائمة على الأرض الرخوة وقدمتها إليه وقلت : « اشرب » فرفعها إلى شفتيه وعينه تومض فيها معانى السرور والظفر ، وهز رأسه إلى فرنت أجراس طرطوره وقال :

« إنى أشرب نخب المدفونين الراقدين هنا » .

فقلت : « وأنا أشرب متمنيا لك عمرا مديدا » .

وعاد إلى ساعدى فتناوله واستأنفنا السير .

وقال : « إن هذه الأقبية طويلة » .

قلت : « لقد كان آل مونتريزور كثيرين وسادة » .

قال : « لقد نسيت شارتكم » !

قلت : « قدم عظيمة من الذهب فى حقل لازوردى ، والقدم تدوس حيَّة قائمة وناباها مغروزان فى الـكعب » !

قال : « وشعاركم ؟ . . » !

قلت : « لا أمن لمن يستفزنى » .

قال : « حسن » .

وكانت عينه تلتمع من فعل النبيذ ، والأجراس ترن ، وكان الشراب قد طار فى رأسى أيضاً فنشط خيالى ، وكنا قد اجتزنا جدراناً تكدست إلى جانبها العظام ، واختلطت بالدنان والرواقيد والخوابى ، حتى بلغنا أقصى أركان المقبرة ، فوقفت وتشجعت وقبضت على ذراعه من فوق المرفق وقلت :

« هذه الأملاح .. انظر . . إنها تزداد على الجدران وتبدو معلقة كالطحلب فإنا تحت مجرى النهر ، وقطرات الرشح تجرى بين العظام ، فلنعد قبل أن تضيع الفرصة ، فإن سعالك . . . » .

فقال : « إنه لاشىء فلنستمر ، ولكن هات اسقنى أولا من النبيذ الميدوك » .

فأطرت عنق زجاجة من نبيذ « دى جراف » وناولته إياها فأفرغها فى فمه ولمعت عيناه لمعاناً قويا ، وضحك ورفع يده بالزجاجة إلى فوق مشيراً بها إشارة لم أفهم لها معنى .

ونظرت إليه مستغرباً ، فكرر الإشارة — وكانت فيما يبدو لى مضحكة — فقال : « ألا تفهم ؟ » .

قلت : « لا . . » .

قال : « إذن أنت لست من العشيرة ؟ » .

قلت : « ماذا تعنى ؟ » .

قال : « لست من عشيرة البنائين (الماسون) » .

قلت : « نعم ، نعم ، أنا منهم » !

قال : « أنت ؟ بناء . . ؟ مستحيل » . .

قلت : « بناء » .

قال : « هات أمارة » .

قلت : « هذه هى » .

وأخرجت له مِسَجَّة[1] من ثنايا عباءتى .

فقال وهو يتراجع بضع خطوات : « إنك تمزح ، ولكن هيا بنا إلى دنان الأمونتيللادو » .

(١) سج الحائط مسحه بالطين أو نحوه والمسجة التى يطلى بها .

قلت : « فليكن ما تريد » .

ورددت المسجّة إلى حيث كانت تحت مشملتى وناولته ذراعى ليتأبطها فاتكأ عليها بوزنه ومضينا فى طريقنا إلى الأمونتيللادو وسرنا تحت سلسلة من العقود الواطئة ، وانحدرنا شيئا ثم استقمنا ثم عدنا فانحدرنا كرة أخرى و بلغنا جديرة[1] طويلة فاسدة الهواء حتى لكان المشعلان يتوهجان ولا يرتفع لهما لسان .

وكان فى أقصى هذه الجديرة أخرى أضيق منها وكانت جدرانها قد رصت إلى جانبها العظام البشرية وارتفعت على مستواها إلى العقد على نحو ما فى المقابر الكبرى فى باريس . وكانت ثلاثة من جدران هذا المخبأ الداخلى مزدانة على هذه الصورة ، أما الجدار الرابع ، فقد سقطت عنه العظام واختلطت على الأرض وصار بعضها كوما . ورأينا من فرجة فى الحائط الذى انكشف لنا بسقوط العظام عنه مخبأ داخليا آخر يبلغ طوله أربع أقدام ، وعرضه ثلاث أقدام وارتفاعه من ست أقدام إلى سبع . ولم يكن فيما يبدو متخذا لغرض خاص ، و إنما كان فرجة بين عمادين ضخمين يحملان سقف المقابر ، وكان أخره أحد حيطانها المبنية من الصخر الأصم .

وعبثا حاول فورتيناتو أن يرفع مشعله ليرى آخر هذا المخبأ فما كان هذا الضوء الخافت ليساعد على الرؤية .

وقلت له : « إمش فإن هنا دنان الأمونتيللادو . أما لوشيزى . . » .

فقال مقاطعا : « إنه جهول » وخطا إلى الأمام فى اضطراب وأنا فى أثره ، وما لبث أن بلغ آخر المخبأ ، وألفى الصخر يحول دون المضى ، فوقف مذهولا كالأبله ، وما هى إلا هنيهة حتى كنت قد قيدته إلى الصخرة ، وكان على وجهها حلقتان من حديد تتدلى من إحداهما سلسلة قصيرة ومن الأخرى قفل . ولم أحتج إلى أكثر من ثوان قليلة لأشد السلسلة على خصره وأثبتها فى القفل ، وكان هو من فرط الذهول لا يقاوم .

---

(١) الجديرة والجدير مكان حوله جدران أو هو حظيرة من الصخر .

ونزعت مفتاح القفل وتراجعت خارجا من المخبأ وأنا أقول :

« أرح كفك على الحائط فلن يسعك إلا أن تحس الأملاح . والحق أنه مكان رطب جدا . فاسمح لى مرة أخرى أن أناشدك أن ترجع . . لا . ؟ إذن لا يسعنى إلا أن أدعك وما آثرت لنفسك ، غير أنى سأؤدى لك قبل رحيلى كل ما يدخل فى طوقى » .

فصاح : « الأمونتيللادو » . وكان لا يزال فى ذهوله لم يفق منه .

فقلت : « صحيح . . . الأمونتيللادو » وأقبلت وأنا أقول ذلك على كوم العظام الذى أسلفت ذكره فنحيته وكشفت عن حجارة وطين . وبهذا وتلك — وبفضل المسجّ الذى كان معى — شرعت أبنى المخبأ وأسده .

ولم أكد أفرغ من أول مدماك[1] حتى تبينت أن فورتيناتو قد راحت سكرته إلى حد كبير وكان أول ما دلنى على ذلك أنين خافت من أعماق المخبأ ، ولم تكن هـذه بأنّة رجل سكران ، وأعقب ذلك سكون طويل ، ورفعت المدماك الثانى ثم الثالث ثم الرابع فسمعت صوت السلسلة وهو يجاهد بعنف أن يفكها ، وظلت هذه الضجة دقائق عديدة كففت فى أثنائها عن العمل وقعدت على العظام لأنصت . وانقطع الصوت فعدت إلى العمل و بنيت المدماك الخامس فالسادس فالسابع بلا شاغل . وصار الجدار الذى أرفعه محاذياً لصدرى فتوقفت مرة أخرى ورفعت المشعل فوق البناء فأراق ضوءه الضعيف على الرجل . وفى هذه اللحظة أطلق فورتيناتو سلسلة صيحات حادة فاجأنى بها فأحسست أنى رُددت إلى الوراء ، فترددت لحظة قصيرة واضطربت أيضاً وجردت خنجرى من قرابه ورحت أضرب به داخل المخبأ ، ولكن التفكير السريع أعاد إلى نفسى الاطمئنان فوضعت يدى على البناء المتين وأحسست بالارتياح والرضى . وعدت إلى الحائط الذى أرفع بناءه وأجبت الصارخ من ورائه . . رجّعت صدى صوته . . أعنته . . .

(١) المدماك الصف من الحجارة المبنية ، ولفظه عربى صحيح .

بذذته بأعلى من صياحه وأشد . . فقرت الضجة وعادت السكينة .

وكان الليل قد انتصف وقارب عملى ختامه ، فقد أتممت المدماك الثامن فالتاسع فالعاشر ، ولم يبق على تمام الحادى عشر إلا حجر واحد أضعه فى مكانه وأمسح عليه ، فحملته بجهد وشرعت أضعه ، ولكن ضحكة ضعيفة ارتفع بها الصوت إلىّ من أعماق المخبأ ، فوقف لها شعر رأسى ، وتلاها صوت حزين كان من العسير أن أصدق أنه صوت فورتيناتو النبيل ، وكان الصوت يجرى هكذا :

« ها ها ها . . هى هى هى . . يا لها من فكاهة . . مزحة ظريفة جدا . . سنضحك كثيرا حين نعود إلى القصر . . ها ها ها . . على الشراب . . ها ها ها » .

فقلت : « الأمونتيللادو »

فردد ضحكته وكلمتى : « هى هى هى . . ها ها ها . . . نعم الأمونتيللادو . . ولكن ألسنا قد تأخرنا جدا . . ؟ سيطول عليهم الانتظار فى القصر . . السيدة فورتيناتو والبقية . . فلنذهب » .

قلت : « نعم فلنذهب » .

فصاح : « أستحلفك بالله يا مونتريزور » .

فقلت : « نعم أستحلفك بالله » .

وعبثا انتظرت أن أسمع جواباً لهذا ، فضجرت وصحت : « فورتيناتو » ، فلم أسمع جواباً ، فصحت مرة أخرى « فورتيناتو » .

فلم يتأد إلىّ صوت ، فدفعت يدى بالمشعل من الفرجة الضيقة الباقية وتركته يقع ، فلم أسمع سوى رنين الأجراس ، فأحسست بقلبى يعصره شىء — من جراء الرطوبة فى هذه المقبرة . فأسرعت وأتممت عملى وثَبّتُ الحجر الأخير فى مكانه وطليته بالطين ، ثم رصصت على البناء الجديد المظالم القديمة ، وقد مضى نصف قرن لم يزعجها فيه شىء .

تشارلز ديكنز

١٨٧٠ – ١٨١٢

شجرة الميلاد

ثلاثة أفرع

الفرع الأول

نفسى

احتفظت بسر واحد فى حياتى — ذلك أنى رجل حيى . وما من أحد يخطر له ذلك ، وما من أحد خطر له ذلك ، وما من أحد يمكن أن يخطر له ذلك ، ولكنى بطبيعتى رجل حيى . وهذا هو السر الذى لم تضطرب به شفتاى قبل اليوم .

وفى وسعى أن أحرك نفس القارئ ببيان الأماكن العديدة التى اتقيت أن أذهب إليها ، والناس الكثيرين الذين اجتنبت أن أزورهم أو أن أستقبلهم ، وما اضطررت أن أتحاماه من المجتمعات لا لسبب سوى أنى بطبيعة تكوينى ، وما بنيت عليه فطرتى ، رجل حيى . غير أنى أؤثر أن أدع نفس القارئ ساكنة ، وأن أمضى إلى غايتى .

وغايتى هى أن أروى ما كان من رحلتى إلى فندق شجرة الميلاد ، وما وقفت عليه فيه هناك حيث ضرب علىّ الجليد نطاقا . وكان ذلك فى عام ستظل ذكراه باقية ، فارقت فيه « أنجيلا ليث » إلى غير رجعة ، وكنت أهم بزواجها ، فعلمت أنها تؤثر صديقى الحميم « إدوين » ، وكنت منذ عهد التلمذة أقر له فيا بينى و بين نفسى بالتفوق والمزية والرجحان . وقد حز فى نفسى تفضيلها له

ولكنى لم يسعنى إلا أن أدرك أن الأمر طبيعى ، فحاولت أن أصفح عنهما ، وانتويت الرحيل إلى أمريكا — فى طريقى إلى الشيطان .

ولم أفض بشىء مما علمت إلى انجيلا أو إدوين ، وقلت أبعث إلى كل منهما بكتاب أضمنه دعائى لهما وعفوى عنهما ، ويحمله عامل السفينة إلى صندوق البريد ، على حين أكون أنا موليا وجهى شطر العالم الجديد — أقول إنى دفنت حزنى فى صدرى ، وعزيت نفسى بما وطنتها عليه من التسامح والمروءة ، وفارقت كل ما هو عزيز علىّ ، وشرعت فى هذه الرحلة الموحشة التى أسلفت الإشارة إليها .

وكان الشتاء على أشد ما يكون قرساً حين غادرت بيتى إلى الأبد — فى الساعة الخامسة صباحا . ولا أحتاج أن أقول انى حلقت ذقنى على ضوء شمعة ، وأن البرد كان يهرؤنى هراءة شديدة ؛ وأنى كنت أحس كأنى قمت من النوم لأشنق ، وهو إحساس مقترن عندى بالنهوض قبل الأوان فى مثل هذه الأحوال .

وما زلت أذكر جهامة « فليت ستريت » ، لما خرجت إليه من حى « التمبل » . وكانت ألسنة المصابيح تضطرب من زفيف الرياح النكباء ، حتى لكأن الغاز نفسه قد تقبض من البرد . وكنت أرى أعالى البيوت البيضاء ، وصفحة السماء المقرورة ، والنجوم فيها خفاقة اللمعان ، والساعين إلى الأسواق وغيرهم من المبكرين وهم يهرولون ليدور فى عروقهم الدم الذى كاد يجمد ، وألمح الضوء ، وأكاد أحس الدفء من المقاهى القليلة المفتوحة لأمثال هؤلاء الزبائن ، ولا يسعنى إلا أن أشعر بالبَرَد الذى كان الهواء يجلد به وجهى كالسوط .

وكان باقيا على نهاية الشهر وختام العام تسعة أيام ، وكانت السفينة الذاهبة إلى الولايات المتحدة ستغادر ميناء « ليفربول » — إذا كان الجو ملائما — فى

اليوم الأول من الشهر التالى ، فأمامى فسحة من الوقت ، فخطر لى أن أزور مكاناً (لا داعى لذكر اسمه) على الحدود القصوى لمقاطعة يوركشير . يذكرنيها دائماً ، ويحببها إلىّ أنى التقيت فيها أول ما التقيت بانجيلا فى بيت ريفى ، وقد أحسست أن مما هو خليق أن يخفف لواعجى ، أن أودع هذا المكان قبل أن أنفى نفسى ، ويحسن أن أقول هنا انى أردت أن أمنع البحث عنى قبل إمضاء عزمى ، فكتبت إلى انجيلا ليلا قبل رحيلى — كما كانت عادتى — أقول لها إن عملا لا يحتمل الإرجاء ، ستعرف تفاصيله فيما بعد ، استوجب سفرى وغيابى أسبوعا أو عشرة أيام .

ولم تكن السكة الحديدية الشمالية قد مُدت فى ذلك الحين ، وكان الانتقال والسفر بالمركبات التى أرانى أحياناً — كغيرى من الناس — أتكلف الأسف على زوال عهدها ، وإن كان كل امرئ يفرق من ركوبها ويعده عذاباً غليظاً . وكنت قد احتفظت بمقعد إلى جانب الحوذى على أسرع هذه المركبات ، وكان همى الآن أن أركب شيئاً ومعى حقيبتى إلى نزل « البيكوك » فى أسلنجتون وهناك أنضم إلى الركب . ولكن الحمال الذى كانت معه حقيبتى روى لى أن كتلا عظيمة من الجليد سابحة منذ بضعة أيام فى النهر تلاقت فى الليل وصارت معبراً فى النهر من « حدائق التمبل » إلى شاطئ « سارى » . فلما سمعت هذا رحت أسأل نفسى « أليس مقعدى إلى جانب الحوذى خليقاً أن يضع نهاية سريعة مقرورة لشقائى ؟ » ولا شك أنى كنت محزوناً كسير القلب ، ولكنى لم أكن قد بلغت من ذاك مبلغاً يرغبنى فى الموت برداً .

ولما بلغت نزل البيكوك — حيث ألفيت كل امرئ يحتسى شرابه حارا التماساً للمحافظة على الذات — سألت هل فى المركبة مقعد داخلى ؟ على أنى

تبينت أنى — فى الداخل والخارج — الراكب الوحيد . وكان هذا مما زاد شعورى بشدة الشتاء وسوء الجو ، فقد كان الإقبال على هذه المركبة خاصة عظيما . واحتسيت شيئاً من الشراب ألفيته سائغاً جدا ، وركبت فغطونى بالقش إلى وسطى ؛ وبدأت رحلتى وأنا شاعر بما فى منظرى مِن بواعث الإضحاك والسخرية .

وغادرنا « البيكوك » والدنيا ما زالت ملفوفة فى مثل الشملة من الظلام ، وكانت أشباح البيوت والأشجار تبـدو غائمة باهتة كأنها منظورة من خلال الضباب ثم طلع النهار جامداً أسود مصروراً . وكان النـاس يضرمون النار فى مواقدهم والدخان يرتفع مستقيما ذاهباً فى طبقات الهواء الرقيق ، ونحن نقرقر بمركبتنا إلى « هايجيت ارشوى » على أوعر أرض رن عليها حافر . ودخلنا فى الريف فخيل إلىّ أن كل شىء قد شاخ وعلته شيبة — الطرق والأشجار والسقوف والبيادر — وقد ترك الناس العمل خارج البيوت ، وتجمد المـاء المعد لشرب الجياد ، وخلت الطرق من العابرين ، وأحكم إيصاد الأبواب ، وعلت ألسنة النار فى بيوت الحراس الصغيرة ، وجعل الأطفال (حتى الحراس لهم أطفال ويبدو عليهم أنهم يحبونهم) يمسحون الغيم عن الزجاج بسواعدهم البضة لتأخذ عيونهم اللامعة منظر المركبة الفريدة المارة بهم . ولا أدرى متى بدأ البَرَد يتكاثف ولـكنى أدرى أننا كنا نغير الخيل فى مكان ما فسمعت الحارس يقول إن السماء جادة فى إلقاء الثلج علينا ، فنظرت فألفيته يسقط علينا بسرعة وكثرة .

وانقضى النهار الموحش وقد نمته كما يفعل المسافر المستفرد ، وأحسست بالدفء والقوة والشجاعة بعـد الطعام والشراب — ولا سيما بعد العشاء — أما ما خلا أوقات الطعام فإنى لا أحس فيه إلا بالانقباض . وكنت ذاهلا عن الزمان والمكان ، وأكاد أكون فى غير وعي . وكانت المركبة والجياد كأنما تشدو بلحن

لا ينقطع ولا يختلف حتى لأزعجتنى الدقة فى ذلك ، و بينما كانت الخيل تغيّر كان الحراس يدبدبون وهم يتمشون رائحين غادين و يتركون آثار أحذيتهم على الثلج ويفُرغون فى بطونهم من الشراب مقادير عظيمة لم تؤثر فيهم ، فلما دخل الظلام مرة أخرى اختلط علىّ أمرهم ببرميلين كبيرين هناك . وتعثرت الخيل فى مواضع فأنهضناها — وكان هذا خير ما حدث لى وأمتع ما وقع لأنه أشعرنى الدفء .
وكان الثلج لا يزال يسقط ، ويسقط ولا يكف عن السقوط . وظل الحال على هذا المنوال طول الليل . وهكذا دارت الساعة دورتها وعدنا إلى الطريق على أصوات الحوافر والعجلات ، بينما كانت السماء ماضية فى إلقاء الثلج علينا لا تكف عن ذلك ولا تنى أو تفتر .

وقد نسيت أين كنا ظهر اليوم الثانى ، وأين كان ينبغى أن نكون ، ولكنى أعلم أنا كنا متأخرين عشرات من الأميال ، وأن الحال كان يزداد سوءاً ساعة بعد ساعة ، فقد أخذ الثلج المتساقط يعلو جدا والمعالم تختفى فيه ، وصارت الطرق والحقول شيئاً واحدا ، وبدلا من أن تكون هناك حواجز وأسوار تهدينا فى سيرنا كنا نخبط فوق سطح أبيض متصل غير منقطع قد يخوننا فى أية لحظة فنرتمى على سفح تل . ولكن الحوذى والحارس — وكانا معاً لا ينفكان يتشاوران ويديران عيونهما فيما حولهما — استطاعا أن يسددا خطوات الجياد بدقة مدهشة .

وكنا إذا صارت بلدة على مرأى منا يخيل إلىّ أنها تشبه رسماً كبيراً على اردواز[1] وأن الكنائس والبيوت — حيث الثلج أكثف — كانت أوفر حظا من التخطيط . وكنا ندنو من البلدة فنلفى ساعات الكنائس كلها قد تعطلت ووجوهها قد غطاها الثلج وأسماء الفنادق قد محيت فيبدو لنا المنظر كأنما هو مكسو بالنبات الأبيض . أما المركبة فقد صارت كرة من الثلج . كذلك الرجال والأطفال الذين

(١) الاردواز معروف ولفظه صحيح .

كانوا يعدون إلى جانبنا إلى آخر البلدة ويساعدون على إدارة العجلات المرتطمة ويستحثون الجياد اللاهثة — هؤلاء أيضاً كانوا فى رأى العين رجالا وأطفالا من الثلج. أما البيداء الموحشة التى تخلفوا عنا على تخومها فقد كانت صحراء ثلجية. وكان المرء معذوراً إذا توهم أن الطبيعة بلغت غاية مجهودها وأنه ليس فوق ما صنعت زيادة لمستزيد ولكنى أقسم أن السماء ظلت تثلجنا وتثلجنا ولا تزال تثلجنا ولا تكف أو تنى عن ذلك أو تفتر.

ولبثنا على هذا الحال النهار كله لا نرى شيئاً خارج البلدان والقرى غير الآثار التى يتركها القاقم والأرنب والثعلب والطير أحياناً. وفى الساعة التاسعة ليلا نبهتنى نفخة مرحة فى بوق المركبة وأصوات أناس تستبشر بها النفس وحركات مصابيح وإذا نحن قد وقفنا فى ساحة من أرض يوركشير لتغيير الخيل.

وساعدونى على النزول فقلت لخادم صار رأسه العارى أبيض كرأس الملك لير فى دقيقة واحدة:

«أى فندق هذا؟».

قال: «فندق شجرة الميلاد».

فالتفت إلى الحوذى والحارس بهيئة المعتذر وقلت: «أظن أنه لا بد لى أن أتخلف هنا».

وكان صاحب الفندق وامرأته وكل من فى المكان من خدم وعمال قد سألوا السائق على مرأى ومسمع من بقية من هناك من المتطلعين المتلهفين على الجواب — هل ينوى أن يستأنف السفر فكان جوابه: «نعم سأمضى بها (يريد المركبة) — إذا لم يتخل عنى جورج» وكان جورج هذا هو الحارس وكان قد أقسم أن يظل معه. ولهذا راح الرجال يخرجون الخيل.

ولم يكن إقرارى بالهزيمة بعد هذا الحديث إعلاناً بغير تمهيد . بل الواقع أنه لولا أن مهد لى الحديث طريقى إلى إعلان عزمى لكان من المشكوك فيه وأنا رجل حيي أن أجترئ على ذلك . على أن رغبتى قوبلت بالرضى حتى من الحارس والحوذى . ولهذا وبعد أن عززت رغبتى وسمعت ملاحظات شتى من بعض الواقفين وهم يتحادثون ، ومن بينها أن : « السيد يستطيع أن يسافر مع البريد غداً . أما الليلة فليس أمامه إلا أن يموت برداً . وأى خير فى أن يموت امرؤ برداً ؟ آه ، ودع عنك دفنه حيا ! ! (العبارة الأخيرة مما زاده رجل هزّال على سبيل المزاح ، على حسابى ، وقد قوبلت أحسن مقابلة) .

أقول انى ، بعد ذلك رأيت حقيبتى تخرج من المركبة وكأنها جسم متجمد وبذلت للحوذى والحارس ما فيه رضاهما وحييتهما وتمنيت لهما رحلة موفقة وسفراً سعيداً ثم تبعت صاحب الفندق وامرأته وخادمه إلى الطبقة الثانية وأنا خجل من ترك الرجلين يكافحان وحدهما .

وخيل إلى أنى لم أر فى حياتى غرفة فى سعة هذه التى مضوا بى إليها . وكان لها خمس نوافذ عليها ستائر حمراء داكنة تستطيع أن تمتص الضوء من زينة عامة ، وكانت رءوس هذه الأستار محلاة بضروب معقدة من النسيج ممتدة على الحائط على نحو عجيب . وقد طلبت أن تكون غرفتى أصغر ، فقالوا إنه ليس ثم ما هو أصغر من هذه ولكن فى وسعهم أن يضعوا لى ستراً متحركا . وجاءونى بستر يابانى عليه صور أناس (يابانيين على ما أظن) يباشرون أعمالا سخيفة وتركونى أشوى أمام نار عظيمة .

وكانت غرفتى هذه على مسافة ربع ميل أو حوالى ذلك من بداية دهليز طويل يفضى إليه سلم عظيم . وقل من يدرون أى عذاب يحدثه هذا لرجل حيىّ

يؤثر ألا يلتقى بأحد على درجات السلم . وكانت الغرفة أكلح ما جثم على صدرى فيه كابوس . وكان كل ما فيها من أثاث ضخما عالى الظهر مستدق الوسط كالمغزل ولا أستثنى من ذلك عمد السرير الأربعة والشمعدانين الفضيين القديمين . وكنت فيها إذا أطللت بوجهى من وراء الستر المتحرك ، يهجم علىّ تيار الهواء كأنه الثور المجنون ، وإذا بقيت لا أريم مكانى على مقعدى اشتد علىّ حر النار وتركتنى كالآجرة الجديدة ، وكانت الصفّة التى فوق الموقد عالية جدا وعليها مرآة سوء ، أستطيع أن أقول إنها « متموجة » فكنت إذا وقفت ونظرت فيها أرتنى ما يمو فوق رأسى — وقلما يكون ما فوق الحاجبين منظراً حسناً ، وإذا أوليت الموقد ظهرى استقبلت قبواً جهما من الظلام فوقى وفيما وراء الستر ، لا سبيل إلى تحويل العين عنه ، وكانت الأستار العشرة على النوافذ الخمس تتلوى وتمسح الجدران كأنها عش من الديدان العظيمة .

وأحسب أن ما أراه فى نفسى لا بد أن يراه فى أنفسهم غيرى ممن لهم مثل طباعى وفطرتى ، ومن أجل هذا أجترئ على القول بأنى فى أسفارى ما نزلت بمكان قط إلا وددت أن أبادر إلى الخروج منه . فقبل أن أرفع يدى عن عشائى ، وكان قوامه دجاجة محمرة ونبيذا معتقا ساخنا ؛ شرحت للخادم بالتفصيل تدابير رحيلى فى الصباح : الإفطار ومعه بيان التكاليف فى الساعه الثامنة . . والسفر فى الساعة التاسعة .. جوادان .. أو إذا احتاج الأمر إلى أكثر فأربعة ..

وكنت متعباً مكدودا ، ولكن الليل مع ذلك طال على حتى لكأنه أسبوع . وكنت فى فترات الراحة من الكابوس أفكر فى أنجيلا . وضاعف شعورى بالهم والحزن أنى فى مكان على أقصر طريق إلى « جريتنا جرين » . وما لى أنا وجريتنا جرين ؟ ؟ . . وحدثت نفسى بمرارة أنى لست ماضياً إلى الشيطان عن هذا الطريق ، بل عن طريق أمريكا . .

وفى الصباح علمت أن الثلج ظل يسقط طول الليل ، ورأيت أنه ما زال يسقط ، وأدركت أنى فى نطاق من الجمد . وما من شىء يستطيع أن يخرج من هذا المكان أو يأتى إليه قبل أن يجىء العمال ويرفعوا الثلج عن الطريق . ومتى يشقونه إلى هذا الفندق ؟ ؟ لا يعلم أحد .

وصرنا فى يوم عيد الميلاد . وهو عيد لا اغتباط لى به فى هذا العام فى أى مكان على كل حال ، فلا قيمة للأمر من هذه الناحية ، ولكن احتباسى هنا كان أشبه بالموت برداً ، وهو أمر لم يكن لى فى حساب . وأحسست بوحشة . ومع ذلك لم أستطع أن أقترح على صاحب الفندق وامرأته أن يأذنا لى فى مجالستهما (وكان هذا خليقاً أن يسرنى) كما لا أستطيع أن أطلب إليهما أن يهديا إلىّ شيئاً من الآنية ! وههنا محل الإشارة إلى سرى الأكبر ، وأعنى به أنى رجل شديد الحياء بالفطرة ، ومن عادة الرجل الحيى أنه يتوهم أن غيره مثله . لهذا خجلت أن أرجو منهما أن يضمانى إلى مجلسهما ، بل كبر فى وهمى أن هذا قد يحدث لهما ارتباكا شديداً .

لهذا بدا لى أن خير ما أصنع هو أن أستقر فى غرفتى ، فسألت هل هنا شىء يقرأ ؟ فجاءنى الخادم بكتاب عن الطرق ، وصحيفتين أو ثلاث قديمة ، وكتاب أغان صغير ، ينتهى بمجموعة من « الأنخاب » وكتاب نكت ، ونسخة قديمة من « بريجرين بيكل » و « الرجعة العاطفية » . وكنت أعرف كل حرف من الكتابين الآخيرين ، ولكنى مع ذلك قرأتهما مرة أخرى ، ثم حاولت أن أشدو بالأغانى ، ولم تفتنى نكتة مما فى كتابها ، وقد وجدت فيها ذخراً من الكآبة أوتم حالتى النفسية ! واقترحت على نفسى كل الأنخاب المدونة وأعربت عن جميع العواطف المسجلة ، وحفظت ما فى الجرائد عن ظهر قلب ، ولم يكن فيها

سوى إعلانات عن بضائع و بيان عن اجتماع وخبر عن حادثة سطو فى الطريق .
ولما كنت منهوماً بالقراءة فقد التهمت ما أعطونيه قبل دخول الليل ، بل لقد فرغت منه كله قبل وقت الشاى ، ولم يبق لى إلا ما أستطيع أنا تدبيره لتزجية الوقت ، فقضيت ساعة أفكر فيما عسى أن أصنع بعد ذلك . وأخيراً خطر لى (فقد كان يعنيني أن أنفى من رأسى كل خاطر له صلة بأنجيلا و إدوين) أن أنشر المطوى مما وعته الذاكرة من تجاربى المقترنة بالفنادق ، وأنظر أى وقت يذهب فى ذلك ، فحركت النار وأدنيت كرسى من الستر المتحرك — ولم أجرؤ أن أدنو جدا مخافة أن تهجم علىّ الريح المتربصة وراءه ، وكنت أسمع صوتها — وبدأت .

أقدم ما أذكر من أمر الفنادق يرجع إلى عهد الطفولة ، لهذا كررت راجعاً إلى ذلك العهد واتخذت منه بداية ، فألفيت نفسى على ركبة امرأة شاحبة الوجه ضيقة العينين ، قنواء الأنف ، خضراء الثوب ، لا تعرف من الأقاصيص إلا واحدة عن سرىّ من أهل الناحية كان ضيوفه يختفون بلا سبب ، ومضت سنوات ثم ظهر أن همه من حياته أن يصنع من لحومهم « فطيراً » ولكى يكون تخليه أتم لهذا الضرب من الصناعة وتوفره عليه أوفى أنشأ باباً سريا خلف رأس السرير ، فإذا نام الضيف (المتخوم بالفطير) دخل عليه هذا الشرير وفى إحدى يديه مصباح وفى الأخرى سكين وقطع رقبته ثم طبخه وصنع منه فطيراً . ولهذا اتخذ فى موضع مستور تحت السرير مراجل لا تفتأ تغلى . وكان يحدو رفاقه هذا فى فخمة الليل ومع ذلك لم يسلم من وخز الضمير ، فما نام قط إلا تمتم « الفلفل كثير » فما لبث أن أسلمته التمتمة إلى العدالة .

وما كدت أفرغ من قصة هذا المجرم حتى تذكرت أخرى من مخلفات ذلك العهد عن رجل كانت صناعته فى الأصل السطو على البيوت وقد جر

عليه ذلك صلم أذنه اليمنى فى إحدى الليالى بينما كان يهم بالدخول من نافذة — صلمتها له خادمة جميلة قوية القلب (كانت العجوز ذات الأنف الأقنى وإن كانت أبعد خلق الله عن هذا الوصف، تدع السامع يتوهم أنها هى تلك الخادمة الحسناء الجريئة) . وبعد سنين عدة زُفت هذه الغيـداء الباسلة إلى صاحب فندق وكانت له عادة غريبة هى أنه يلبس قلنسوة من حرير لا ينزعها أبداً فى ليل أو نهار كائنة ما كانت الأحوال . ففى إحدى الليالى نزعت هذه المرأة الجميلة الجريئة قلنسوته عن أذنه اليمنى فاذا هى مصلومة ! فأدركت أنه هو اللص الذى قطعت له أذنه وأنه تزوجها ليفتك بها . انتقاماً منها ، فأسرعت إلى السفود أو المحضاء فأحمته وقضت به عليه قبل أن يقضى عليها ، فحملوها إلى الملك چورج على عرشه حيث تقبلت منه الثناء الملـكى السامى على حكمتها وعقلها وشجاعتها .

وكانت هذه القصاصة العجوز ، على ما تبينت من زمان طويل ، تجد لذة وحشية فى إرعابى وإطارة صوابى من الخوف ، وقد روت لى ما زعمته قصة واقعية من تجار بها ولكنى أعتقد أنها مولدة من رواية « ريموند وأجنز أو الراهبة الدامية » وقد قالت إن الحادثة وقعت لزوج أختها ، وكان على ما ادعت غنيا جدا — ولم يكن أبى كذلك — . وكان يسر هذه العجوز الغولية المزاج أن تعرض أقاربى الأدنين وأصدقائى على عقلى الصغير ، فى صور مستهجنة . قالت : وكان قريبها هـذا يخترق غابة وهو ممتط صهوة جواد أصيل (ولم يكن لنا جواد أصيل) يتبعه ويمشى فى ركابه كلب قوى لا يقوّم بمـال (ولم يكن لنا كلب) . وأمسى عليه الليل وهو سائر فعرج على فندق ففتحت له الباب امرأة سمراء فسألها هل يجد عندها سريراً ؟ فقالت نعم وأدخلت حصانه الإسطبل ومضت به هو إلى غرفة فيها رجلان أسمران ، وبينما كان يتعشى شرع ببغاء كان فى الغرفة ، يتـكلم

ويقول : « الدم ! الدم ! امسحوا الدم ! » فنهض إليـه أحد الرجلين الأسمرين ولوى عنقه فمات ، وعاد وهو يقول : إنه يحب الببغاوات المحمّرة ، وأنه سيفطر بهذا فى الصباح . وبعد أن أكل صاحبنا الغنى جدا وشرب حتى هنئ صعد لينام ، ولـكنه كان ساخطا لأنهم حبسوا كلبه فى الإسطبل زاعمين أنهم لا يسمحون بترك الـكلاب طليقة فى الخان . ولبث ساكناً أكثر من ساعة يفكر ، ولما أشفت شمعته على الفناء سمع صوت حك بالباب ففتحه وإذا بكلبه وراءه ، ودخل الـكلب على مهل وجعل يشم ثم مضى رأساً إلى قش فى ركن قال أحد الرجلين الأسمرين إنه يغطى تفاحا ، ونثر الـكلب القش فـكشف عن ملاءتين ملوثتين بالدم ، وفى هذه اللحظة انطفأت الشمعة ، ونظر صاحبنا من ثقب بالباب فألفى الرجلين الأسمرين يصعدان على أطراف أصابعهما ومع أحدهما خنجر يبلغ طوله خمس أقدام ، ومع الثانى ساطور[١] وغرارة وفأس . وقد نسيت بقية القصة وأحسب أن الرعب أورثنى الخدر وأفقـدنى القدرة على الإصغاء حوالى ربع ساعة .

وانتقلت من هذه الأقاصيص — وأنا قاعد أمام الموقد فى فندق شجرة الميلاد — إلى قصة خان « رودسَيد » ، وكيف ضبط صاحبه إلى جانب سرير الضيف المقتول ، وسكينه عند قدميه ، والدم على يديه . وكيف شنقوه على الرغم من قوله إنه صعد إليه ليقتله ولـكنه جمد فى مكانه إذ وجده قد ذبح قبل ذلك ، وكيف أنه بعد سنين عدة ، اعترف خادم الخان بالقتل .

ولما بلغت إلى هنا فى نشر المطوى من ذكرياتى ، استولى علىّ القلق فنهضت وحركت النار وأوليتها ظهرى ولبثت هكذا حتى لم أعد أطيق حرها ،

(١) الساطور ما يقطع به القصاب اللحم .

وكنت أحدق فى الظلام الحالك وراء الستر ، وأنظر إلى الستائر التى تتحرك كالديدان فى أنشودة « ألونزو الشجاع وايموجين الحسناء » .

وتذكرت خاناً فى البلدة التى دخلت مدرستها ، ولما كانت ذكرياته أحلى وأشرح للصدر ، فقد تناولتها وأحييتها . كان ذلك خانا ينزل فيه الأصدقاء وكنا نحن نقصد إليه فيسخو علينا صاحبه بما عنده ، وكنت مجنونا بحب ابنته — ولكن دع هذا — وفى هـذا الخان حنت علىّ أختى الصغيرة وهى تبكى لأن عينى ورمت فى ملاكمة . وقد ذهبت أختى منذ سنوات طويلات المدد ، إلى حيث تجف العبرات ، ولكن هذه الذكرى ، على بعد مسافة الزمن ، عطفت قلبى عليها ورققته لها .

وتناولت شمعتى ومضيت إلى سريرى وأنا أقول : « البقية تأتى غدا » ، ولكن سريرى تكفل بإبقاء خواطرى فى هـذا المجرى ، فألفيتنى أحمل ، على مثل البساط المسحور ، إلى مكان قصىّ (وإن كان فى انجلترا) ، وهناك نزلت من مركبة عنـد باب خانٍ والسماء تثلجنا . وأعدت وأنا نائم تجربة غريبة وقعت لى بالفعل . ذلك أنه قبل هذه الرحلة التى كرت بى الذاكرة إليها ، بأكثر من عام ، تُوفى صديق لى كان عزيزاً على ، وأثيراً عندى فصرت أراه كل ليلة فى أحلامى سواء أكنت راقدا فى بيتى أم فى غيره ، وكان يبدو لى تارة كأنه مازال حيا ، وطوراً كأنه عائد إلىّ من عالم الأرواح والأشباح ليعزينى ويسلينى ، ولكنه دائماً جميل ، ساكن ، سعيد ، لا يُجرى فى البال أو يحرك فى النفس أى معنى من معانى الجزع والأسى . وكان الخان الذى نزلت فيه بعد ذلك الحادث فى رقعة فسيحة من الريف ، وبعد أن أشرفت من نافذة غرفتى على الثلج الذى يكسو الأرض ويضيئه القمر ، جلست إلى جانب الموقد لأكتب رسالة . وكنت

إلى تلك اللحظة قد حرصت على أن أكتم أنى أرى صديق العزيز الذى فقدته ، فى منامى كل ليلة . فدونت هذا فى الرسالة التى كتبتها وزدت على ذلك أنى أريد أن أرى هل يظل موضوع أحلامى ثابتاً على الوفاء لى على الرغم من بعد الشقة (فى هذا المكان) ومن تعب السفر ومجهوده ؟ . . . كلا ! . . . فقدت الخيال لما بحت بالسر ! ولم تكتحل به عينى سوى مرة واحدة فى ستة عشر عاماً ، بعد ذلك . . . . وكنت فى إيطاليا ، فاستيقظت (أو خيل إلىّ أنى استيقظت) وفى مسمعى ذلك الصوت الذى لا يُنسى ، كأوضح ما يكون ، وأنا أحدثه ، فتوسلت إليه — وهو يسمو فوقى ، ويحلق ذاهبا فى الهواء ، صاعدا إلى قبة الغرفة العتيقة ، أن يجيبنى عن سؤال لى عن الحياة الأخرى . وكانت يداى لا تزالان مبسوطتين إليه بالرجاء والتوسل لما اختفى . فسمعت جرسا يدق على كثب من الحديقة وصوتاً فى سكون الليل العميق يدعو المسيحيين الصادقين أن يصلوا لأرواح موتاهم ويترحموا عليهم ...

وكان ذلك اليوم ، يوم عيد الموتى ...

وأعود إلى فندق شجرة الميلاد الذى أنا فيه ، فأقول إنى لما استيقظت فى صباح اليوم التالى ألفيت الجد على حاله ، والسماء الدانية المسفة تنذر بالمزيد . فأفطرت . ثم ارتددت بالكرسى إلى مكانه السابق ، واستأنفت ذكريات الخانات ...

كان هناك خان حسن فى « ويتشير » ، نزلت فيه مرة ، وكان ذلك أيام كانت « ويتشير » تصنع جعتها القوية ، وقبل أن تفسد الجعة ولا يبقى منها إلا المرارة . وكان الخان على تخوم سهل سالسبرى ، وكانت رياح الليل التى يخشخش لها شبا كى تهب نائحة من « ستونهنج » ، وكان هناك خادم أشيب

طويل الشعر ، عينه زرقاء كأنها حجر الزناد ، وكان لا ينفك شاخصاً ببصره مرسلا طرفه إلى بعيد ، وكانت دعواه أنه راع قديم ، وكان يبدو للناظر أنه يرقب أن يظهر على خط الأفق شبح قطيع من الغنم أكل من أزمنة مديدة . وكان له اعتقاد غريب ، هو أنه ما من إنسان يستطيع أن يعد حجارة ستون هنج مرتين ، ولا يختلف العدد ، وأن من عدها ثلاثاً فى تسع ثم وقف وقال : « إنى أتحدى » ظهر له شبح هائل فيموت على المكان . وقد ادعى أنه رأى الحُبارى على النحو الآتى : قال إنه خرج إلى السهل فى مساء يوم فى أخريات الخريف ، فلمح شيئاً غامضاً يحجل حجلاناً [1] متقطعاً فظنه لأول وهلة مظلة مركبة أطارتها الريح عنها ، ثم توضّحه فاعتقد أن هذا قزم قمىء على مُهر صغير . وراح يتبع هذا الشىء مسافة ، ولا يدركه ، ويناديه ويهيب به ولا يتلقى جواباً ، فجعل يذنُبه أميالا وأميالا ، حتى لحقه أخيراً ، فإذا به آخر حُبارى فى بريطانيا العظمى ، وقد انحطت وفقدت جناحيها وصارت تمشى على الأرض ! وآلى ليقنصنها أو يموت ، فهجم عليها ، ولكن الحبارى كانت قد اعتزمت هى أيضاً ألا تموت وألا يقنصها أحد ، فكرت عليه وصرعته ، وشوهدت بعد ذلك تسير غرباً . وهذا الرجل الغريب الشأن لعله كان فى تلك المرحلة من تطوره ، ممن يمشون وهم نائمون ، أو لصا ، أو غير ذلك . ولكنى استيقظت ليلة فألفيته فى الظلام إلى جانب سريرى يرتل بأعنف صوت وأقواه ، فدفعت إلى الخان حسابه فى اليوم التالى ورحلت عن المقاطعة كلها بأقصى ما يسعنى من السرعة .

وفى خان صغير فى سويسرا وقعت حادثة ليست عادية ، وأنا نازل به .

---

(١) حجل يحجل حجلا وحجلانا ، وهو أن يرفع المرء رجلا ويمشى على أخرى ؛ ففى المشية شىء من الوثب .

وكان الخان أشبه بالبيت ، فى قرية ليس فيها إلا زُقاق ضيق يلتوى بالسالك فى الجبل ، وكان المدخل الرئيسى للخان من حظيرة البقر ، ثم يمر الإنسان بالبغال والكلاب والطيور قبل أن يرتقى فى السلم الكبير العارى إلى الغرف التى كانت مصنوعة من خشب بلا تمليس أو دهان أو ورق ، فكأنها صناديق للتعبئة . ولم يكن هناك ، فيما عدا الخان ، سوى الزقاق الملتوى وكنيسة صغيرة ذات قبة نحاسية اللون ، وغابة صنوبر ، وغدير ، ثم الضباب وجوانب الجبل . وكان فى الخان شاب اختفى منذ ثمانية أسابيع (وكان الوقت شتاء) وقيل ، على الظن ، إن حبا له خاب ، فانتظم فى سلك الجندية . وذكروا أنه نهض من فراشه فى الليل وألقى بنفسه فى الزقاق من الغرفة التى يشاركه فيها رجل آخر . وقد استطاع أن يتسلل من الفراش ويثب من النافذة ويسقط على الأرض فى أتم سكينة ، حتى أن زميله ورفيقه لم يسمع أى صوت ، وظل مستغرقاً فى نومه العميق حتى أيقظوه فى الصباح وسألوه . « لويز ... أين هنرى ؟ » ، وراحوا يبحثون عنه فى كل مكان ، ثم يئسوا فأقصروا . وكان هناك أمام الخان — ككل مسكن فى القرية — كوم من خشب الوقود ، ولكن كوم الخان كان أعلى وأكبر من غيره من الأكوام ، لأن الخان كان أكبر المنازل وأثراها وأحوجها إلى الوقود الكثير ، وقد لوحظ ، أثناء البحث عن الغائب ، أن ديكا من ديكة الخان كان يدع رفاقه ويزهد فى معاشرة الدجاجات ، ويأبى إلا أن يصعد إلى قمة كوم الخشب ، ويظل هناك ساعات وساعات وهو يصيح حتى ليكاد ينشق ويتفطّر . ومضت خمسة أسابيع ، وانقضى الأسبوع السادس ، وهذا الديك الفظيع لا يزال يهمل واجباته البيتية ، ولا يكف عن الارتقاء إلى قمة الكوم ، ولا يفتر عن الصياح وإن كانت عيناه تكادان تخرجان من قوة الصوت وعنفه .

ولوحظ فى ذلك الوقت أيضاً أن لويز امتلأ قلبه بغضاً لهذا الديك الفظيع وسخطاً عليه ، ففى صباح يوم رأته امرأة كانت جالسة إلى نافذتها فى خيط من أشعة الشمس الفاترة ، تعالج غدتها الدرقية ، — أقول رأته هذه المرأة يتناول جذلا من الحطب ، وهو يسب و يلعن ، و يرمى به الديك الصائح على رأس الكوم فيقتله . وفى هذه اللحظة انبثق النور فى رأس المرأة فخفّت إلى الكوم من الخلف ، وكانت تحسن التسلق كغيرها من نساء هذه الناحية ، فارتقت إلى رأس الكوم وصوبت عينها ثم انطلقت تصرخ وتصيح : « اقبضوا على لويز القاتل ! » . وقد رأيت هذا القاتل فى ذلك اليوم . وإنى لأراه الآن وأنا جالس بجوار الموقد فى فندق شجرة الميلاد ، وهو مقيد بالحبال وملقى على القش فى الإسطبل ، وعليه عيون البقر الوديعة ، وأنفاسها المتدخنة ، وهو ينتظر مقدم البوليس ، ويتلقى نظرات السخط من أهل القرية . وكان وهو ملقى فى الحظيرة يبدو لى أنه حيوان غليظ ، — بل إنه أبلد ما فى الإسطبل — رأس سخيف ، ووجه هو كتلة من البهيمية ، ولا أثر هناك لإحساس . وقد كان الشاب المقتول يعلم أن قاتله اختلس مبالغ شتى صغيرة من مال سيده ، فيظهر أنه لجأ إلى وسيلة القتل ليخلو له وجه حياته من هذا الذى قد يتهمه يوما ما ، بما يعلم . وقد اعترف القاتل بهذا كله فى اليوم التالى كأنما أراد أن يفرغ من الأمر كله بعد أن قبضوا عليه وانتووا أن يقتصّوا منه . ورأيته مرة ثانية يوم رحلت من الخان . ولا يزال السياف فى هذه الناحية يعمل عمله بالسيف ، وقد رأيت هذا القاتل قاعداً على كرسى ومشدوداً إليه ، فوق منصة فى سوق صغيرة ، وكانت عيناه معصوبتين ، ثم لمع سيف صقيل ماض « نصله مسقّى بالزئبق » وخفق حوله كالريح أو النار ، فلم يبق وجود لمخلوق كهذا فى الدنيا . ولم يكن عجبى من سرعة العصف

به ؛ بل من أن رأساً من هذه الرءوس المحيطة بالمكان لم يقطفه هذا السيف البتّار وهو يقطع الهواء !

وثم خان حسن آخر نزلت به فى ظل « مونت بلانك » صاحبته طيبة القلب بسامة الثغر أبداً ، و بعلها رجل تقى مستقيم السيرة ، وكانت الجدران فى إحدى غرفه مكسوة ورقا عليه صور حيوان ولكن الورّاق لم يُعنَ نفسه بالإحكام والدقة فى وصل قطع الورق بعضها ببعض ، فصار للفيل ذيل النمر ورجلاه ، وللأسد خرطوم الفيل وناباه ، وللدب صورة الفهد ! وقد صادفت كثيرين من الأمريكيين فى هذا الفندق وكانوا جميعاً ينطقون اسم الجبل « مونت بلانك » « ماونت » ما خلا واحداً منهم سرىّ النفس حسن العشرة رقيق الحاشية ، اتخذ من الجبل صديقاً لا حاجة معه إلى التكلف ، فكان يقتصر عند ذكره على « بلانك » فيقول عند الإفطار مثلا « بلانك يبدو اليوم عالياً جدا » أو يكون فى المساء وهو يتمشى فى الفناء فيعرب عن اعتقاده أن فى بلاده بعض الأقوياء المغامرين الذين يستطيعون أن يتسلقوا « بلانك » و يصلوا إلى ذروته فى ساعتين .

وقضيت مرة أسبوعين فى خان بشمال انجلترا حيث لازمنى شبح فطيرة مهولة . وكانت كالقلعة إلا أنها قلعة مهجورة خاوية ولكن الخادم كان يرى أن من الأصول التى ينبغى أن تُرعى فى كل وجبة أن يضع الفطيرة على المائدة ، و بعد بضعة أيام رأيت أن أفهمه بأساليب شتى رقيقة أنى أعد هذه الفطيرة مفروغاً منها ولا محل لها على السفرة[١] فكنت أصب فيها سؤر الكأس وأضع فى جوفها أطباق الجبن والملاعق كأنها سلة ، أو زجاجات النبيذ كأنها ثلاجة ، وكان هذا

(١) السفرة والمائدة شىء واحد .

كله منى عبثاً وعناء باطلا لا يجدى ، فقد كانت الفطيرة تنظف وتعاد إلى مكانها المألوف ، فشككت فى أمرى وخيل إلىّ أنى لعلى مصاب بهذيان العين وأشفقت أن تضعضع صحتى وتهد كيانى أهوال هـذه الفطيرة المتخيلة فتناولت السكين وقطعت منها مثلثاً عظيما . وما كان فى وسع إنسان أن يرى ما سيكون من وراء أستار الغيب ، ولـكن الخادم عالج الفطيرة وأصلحها ورمّها ، واستعان بنوع من الملاط ورد المثلث إلى مكانه ، فأديت الحساب وفررت !

وكان فندق شجرة الميلاد قد أخذت الجهامة تستولى عليـه فقمت برحلة إلى ما وراء الستر وذهبت إلى النافذة الرابعـة ولـكن الرياح ردتنى منهزماً ، فعدت إلى مشتاى مرة أخرى وأضرمت النار واستأنفت نشر ما انطوى من ذكريات الفنادق .

هو خان فى أقصى مقاطعة كورنول . وكان المعدنون يحتفلون فيـه بعيد سنوى لهم فأقبلت أنا وزملائى المسافرون ليلا على الجمع المائج وهم يرقصون أمام الخان على نور المشاعل . وكانت مركبتنا قد أصابهـا عطب فى مكان صخرى على مسافة أميال . فكان من دواعى الشرف لى أن قدت أحد الجياد المحاولة . وإذا كُتب لسيد أو سيدة ، ممن يقرأون هذه السطور ، أن يقود حصاناً ضليعاً عالياً تتدلى رُبُطه وسُموطه وأبازيمه[1] إلى قوائمه ، وأن يمضى به وفى يده عنـانه ويدخل به على حفلة راقصة ريفية فيها مائة وخمسون زوجاً من المتراقصين ، فإن هذا السيد — أو السيدة — يستطيع حينئذ — وحينئـذ فقط — أن يتصور كيف يدوس الحصان قدمى قائده ! والأرجح أن يرتد الحصان متهيباً حين يرى

(١) الربط جمع رباط وهو ما يشد به الفرس ، والسموط السيور تعلق من السرج ، والأبزيم (بالميم والنون) ذو لسان يدخل فيه طرف آخر .

ثلاثمائة من الرجال والنساء يدورون أمامه ، وقد يرفس ويضرب برجليه أيضاً على نحو لا يحفظ لقائده سمته وأبهته . وعلى هذه الصورة التى نالت قليلا من وجاهة مظهرى العادى ، بدوتُ أمام الخان فكنت موضع عجب القوم جميعاً .
وكان الخان غاصا ، بل كان فيه عشرون ضعفاً لسعته ولا سبيل إلى إيواء مخلوق فيه غير الحصان — وإن كان ربحاً ولا شك أن يتخلص المرء من هذا الحيوان الكريم — فوقفنا نتشاور أنا وزملائى فى الأمر وكيف نقضى الليل وأكثر النهار الذى سيطلع إلى أن يكون الحداد المرح ، والنجار المرح ، على حال تسمح لهما بالسير إلى حيث تركنا المركبة لإصلاحها ، فخرج علينا رجل من الزحام وعرض علينا طابقاً من بيته ذا غرفتين ووعد أن يكون عشاؤنا لحم الخنزير والبيض وشرابنا عليه الجعة فتبعناه فرحين إلى أنظف بيت نعمنا فيه بالطعام والشراب . ولكن الطريف فى الأمر أن صاحب البيت نجار يصنع الكراسى ، وأن الكراسى التى قُدمت لنا كانت هياكل ليست لها مقاعد فقضينا الوقت على أطرافها وحافاتها مثنيّين إلى الأمام ، ولم يكن هذا أسخف ما جربنا ، فقد كان أحدنا إذا نسى واعتدل ، أو ضحك وارتمى إلى الوراء ، يختفى ويغيب . وقد سقطتُ ، ونحن نأكل اللحم والبيض على ضوء الشمعة ، خمس مرات وانطويت على نفسى انطواء لا سبيل إلى الفكاك منه بغير معونة ، كما يقع أحد اللاعبين الهزّالين فى حوض ماء .

وألح علىّ الشعور بالوحشة وأنا فى غرفتى بفندق شجرة الميلاد ، وبدأت أدرك أن الموضوع الذى اخترته لتزجية الوقت لن يكون حسبى حتى يُفرج عنى الجليد ، فقد أبقى هنا أسبوعاً وقد يمتد المقام إلى أسابيع .

وتذكرت قصة عن خان قضيت فيه ليلة فى بلدة قديمة جميلة على تخوم

ويلز ، وخلاصتها أن رجلا انتحر بالسم وهو راقد على أحد سريرين فى غرفة كبيرة بالخان ، على حين كان النازل معه فى الغرفة نائماً فلم يشعر بشىء من فرط ما كان به من الإعياء . ولم يستعمل بعد ذلك سرير المنتحر ، وتُرك فى الغرفة على حاله لا يُزحزح عن موضعه ولا تنال منه يد التغيير . وتقول القصة إن كل من نام فى هذه الغرفة ولو كان غريباً آتياً من أقصى المعمورة كان يغادرها فى الصباح وهو يتوهم أنه يشم رائحة صبغة الأفيون ، وأن خواطره كلها كانت تدور على الانتحار ، وأنه كان لابد أن يشير إلى هذا الموضوع إذا تحدث . ودام الحال على هـذا المنوال سنين عدة ، ثم رأى صاحب الخان أن الأحجى ، والأولى به ، أن ينقل هذا السرير الذى لا يستعمل وأن يحرقه كله — الفراش والكلة والأستار وغيرها — قال الرواة فتغير الأثر الذى يخلفه النوم فى الغرفة وفتر فصار الذى يرقد فيها ، إذا أصبح يحاول أن يتذكر حلماً رآه فى منـامه . وكان صاحب الخان يتظاهر بمعاونته على التذكر فيقترح عليـه موضوعات شتى يعلم أنها ليست هى المنشودة . ثم لا يكاد يقول : « السم » حتى ينتفض المسافر ويقول : « نعم » ولم يحدث قط أن قال مسـافر « لا » ولم يحدث قط أنه تذكر من حلمه المنسىّ أكثر من ذلك .

وقد أثارت هذه القصة ذكريات الخانات الفرنسـية على العموم ورفعت صورها لعينى ، فرأيت النساء بقبعاتهن المستديرة ، والعازفين ، بلحاهم البيضاء ، يضربون على القيثارة وراء الباب وأنا أتعشى . وانتقلت بى الذكرى إلى خانات إيقوسيا الجبلية وفطائر الشعير ، والعسل ، وشرائح لحم الغزال ، والسمك المصيد من الخور ، والوسكى ، وما إليه من الأشربات . واتفق لى مرة أن كنت عائداً إلى الجنوب من جبال إيقوسيا ، وكنت مسرعاً ، وفى مرجوى أن يتيسر تغيير

الخيل فى محطة واقعة فى واد تظلله جبال تاريخية ، فرأيت ، والألم يفرى فى جوفى ، صاحب الخان يخرج وفى يده منظاره ويدير به عينه باحثاً عن الخيل ، وكانت هذه ترعى فلم تبد للعيان إلا بعد أربع ساعات !

وتداعت الذِّكَرُ ، فانتقلت من سمك الخور إلى خانات الصيادين بانجلترا (وقد اشتركت مرات عدة فى صيد السمك ، فكنت أرقد فى قاع السفينة أياماً كاملة وأثابر على تفادى العمل . وقد وجدت أن هذا ليس أقل جدوى فى صيد الأسماك من استعمال الشص والبراعة والحذق فيه) وتذكرت من هذه الخانات غرفها البيضاء النظيفة المعطرة بأنفاس الورود النضيرة ، المشرفة على النهر والسفن والفضاء المعشوشب ، وقباب الكنائس والجسر ، و « إمّا » الفتانة وعينيها البراقتين وابتسامتها الحلوة وكيف كانت — بارك الله فيها — تقوم على خدمتنا خفيفة رشيقة .

وصوّبتُ عينى إلى الموقد الذى يتوهج فيه الفحم المضطرم فبرزت لى صور عشرات من هذه الخانات التى كانت مراحل للبريد ، والتى نفتقدها فى هذه الأيام ونأسف على زوالها ؛ وكانت رحيبة مريحة ، وكانت فوق هذا عنواناً على الخضوع الانجليزى للغصب والنهب والابتزاز . ومن شاء أن يشهد هذه المنازل تقضى نحبها ، فليمش من « بيسنجستوك » — أو حتى من « وندسور » إلى لندن ، عن طريق « هانسلو » ولينظر كيف يُعفّى عليها الزمن — الاسطبلات تتهدم وتنقض ، والسابلة ، والعمال الذين أخطأهم الاستقرار ينامون فى الغرف المقدّمة أمامها ، والحشائش تنبت وتفرّش فى عرصاتها ، والحجرات التى كانت مثات من الأسرة اللينة تسوى وترتب فيها ، تؤجر للارلنديين بشلن ونصف شلن فى الأسبوع ، وخمارة سوء فى مكان الحانة القديمة ، وبوابات مخازن المركبات

تحرق للوقود ، وكلب أعوج الساق واقف فى المدخل .

واستطردت إلى خانات باريس ، والحجرة الجميلة ذات القطع الأربع ، بعد أن نصعد إليها خمسا وسبعين ومائة درجة مصقولة بالشمع ، وتدق الجرس النهار طوله فلا ترى أنك استطعت أن تؤثر فى جسم إنسان أو عقله ، سواك ، وتتناول عشاء دون شِبْعك ، إذا اعتبرت الثمن ، وتحولت عن هذه إلى خانات الريف بفرنسا حيث تطل بروج الكنائس على الأفنية ، وترن أجراس الخيل وهى تضرب الأرض بقوائمها ، والساعات من كل ضرب وعلى كل صورة ، فى كل غرفة ، وليس بينها واحدة مضبوطة ، إلا إذا اتفق أن تكون قد سبقت الوقت الصحيح أو تأخرت عنه اثنتى عشرة ساعة لا تزيد أو تنقص دقيقة . ومضيت من هذه إلى الخانات الصغيرة على الطريق فى إيطاليا ، حيث تجد كل الثياب القذرة التى فى البيت (غير الملبوسة !) كوما فى غرفة الاستقبال ، وحيث يُحيل البعوض وجهك فى الصيف خبيصة محشوة بالزبيب ، ويحيل برد الشتاء لونك إلى زرقة السماء عن حمرة الورد ، وحيث تأخذ مايتيسر ، وتنسى مايتعذر ، وحيث أشتهى مرة أخرى أن أغلى الشاى فى وليقة[1] إذ لا إبريق هناك ! — ومن ثم انتقلت إلى القصور القديمة والأديرة العتيقة التى صارت خانات ، فى مدن هذه البلاد المشرقة ، وسلالمها الضخمة ، ومنها تستطيع أن تصعّد طرفك من خلال العُمُد المتقاربة ، إلى قبة السماء الزرقاء ، وارتسمت أمامى قاعات المآدب الفخمة ، والمقاصف الرحيبة ، وحجرات النوم المحيرة ، ولمحات خواطف من شوارع رائعة ليس لها مظهر من الحقيقة — ومن هناك وثب بى الخيال إلى الخانات الصغيرة فى المناطق الموبوءة بالملاريا ، وخدمها الصفر الوجوه ورائحتها الخاصة المعهودة فى

(١) الوليقة حلواء تتخذ من دقيق وسمن ولبن الخ .

كل مكان لا يدخل إليه الهواء — ثم إلى خانات البندقية المهولة العجيبة ، وصياح النواتى تحتها وهم يجرون زوارقهم وينعطفون بها ، وروائح البحر التى تتشبث بأنفك ولا تعفيك ما دمت هناك ، وجرس كتدرائية سان مارك ، وهو يدق نصف الليل — وعرجت بعد ذلك على خانات الرين المضطربة ، التى لا تأوى فيها إلى فراشك إلا كان هذا إيذانا بنهوض كل امرئ سواك ، وفى حجرة الطعام وإلى طرف من مائدتها الطويلة يجلس لفيف من الرجال الضخام الأبدان المستديرى الكروش ، يلبسون الحلى والأقذار ليس إلا ، فما على أبدانهم سوى ذلك فيما ترى العين ، ويُحيون الليل كله ساهرين يشربون ويقرعون الكأس بالكأس ويتغنون بالنهر الذى يجرى ، والدوالى التى أينعت ، ونبيذ الرين الذى تطيب نشوته ، ونساء الرين اللواتى يتبسمن ، وهات لى كأسا ، وخذ كأسا ياصاحبى ، واشرب ، واشرب ، يا أخى ، إلى آخر ذلك — وكان طبيعيا أن أذكر خانات ألمانية أخرى تُسغسغ فيها الآكال بما يجعل مذاقها جميعاً واحدا ، ويزعج المرء فيها أن تقدم له الولائق السخنة ، والعُنّاب المغلى ، والحلواء ، على ترتيب غير متوقع بين الألوان الأخرى . وبعد أن كرعت — بخيالى — كرعة روية من الجعة من قدح مزبد ، وألقيت نظرة على مشارب الجعة التى يختلف إليها الطلبة فى هيدلبرج وغيرها ، ركبت البحر إلى خانات أمريكا حيث يبلغ عدد الغرف المفردة فى الواحد منها أربعمائة ، وحيث يجتمع على العشاء كل يوم ثمانمائة أو تسعمائة من السيدات والسادة . فرأيتنى أقف مرة أخرى فى المقصف ، وأترشف من فم الكأس ، وأصغى ثانية لصديقى « الجنرال » — الذى لم يمض على معرفتى به سوى خمس دقائق استطاع فى خلالها أن يوثق أواصر الود والإخاء إلى آخر العمر بينى وبين « صاغين » استطاعاها أيضا أن يجعلا منى صديقا حميا

مدى الحياة لثلاثة « لواءات » صرت بفضلهم أخا لاثنين وعشرين من المدنيين غير المحاربين ، كل ذلك فى خمس دقائق ليس إلا — أقول إنى أصغيت مرة أخرى إلى صديقى الجنرال وهو يشرح لى مزايا الخان وما فيه من أسباب الراحة والترف وكيف أن فيه حجرات عدة للجلوس والاستقبال ، للرجال وللسيدات ، فى النهار والليل ، وأخرى للموسيقى والمطالعة ، وأربعمائة غرفة نوم — كل هذا وضعت رسومه وتم بناؤه وتجهيزه فى اثنى عشر شهرا تبدأ من اليوم الذى أزيلت فيه أنقاض البناء العتيق الذى كان قائما ، وكيف أن جملة التكاليف بلغت نصف مليون ريال . وألفيتنى وأنا أكر بخيالى إلى هذا ، أذهب إلى أنه كلما كان المنزل أضخم وأفخم وأبهظ تكاليف ، كان ذلك أبعث على الزهد فيه وأقل استحثاثا للرغبة فى المقام به . على أنى مع ذلك شربت على البعد نخب صديقى الجنرال ، وإخوانى الصاغات واللواءات والمدنيين جميعاً ، فإنهم على الرغم من كل قذى رأته عيناى فى عيونهم ، أبناء شعب عظيم رقيق كريم كبير القلب .

وكنت وأنا أتذكر هذا أغذ السير فى رجعتى القهقرى إلى ما مضى وفات ، لأنفى الشعور بالوحدة وأخفف ثقل الوحشة ، ولكنى أضمرنى الكلال فانقطعت من الإعياء وكففت عن متابعة هذه الخواطر . وصار السؤال الملحّ : ماذا أصنع ؟ ؟ وماذا عسى أن يحل بى ؟ أأفعل كما فعل البارون « ترِنْك » وأبحث عن جرذ أو عنكبوت حتى إذا وجدت واحدا منهما تسليت فى سجنى هـذا بتدريبه ورياضته ؟ ولكن هذا لا يخلو من خطر إذا اعتبرنا المستقبل ، فقد آلف ذلك وأُشعف به حتى إذا رفع الثلج عن الطريق وخرجت فيه مرة أخرى ، فمن يدرى ؟ لعلى حينئذ أبكى وأتوسل — كسجين الباستيل الذى أفرج عنه فى شيخوخته — أن يعودوا بى إلى هـذه النوافذ الخمس والستائر العشر والإفرشة السميكة المتينة .

وألح على خاطر أغرانى به اليأس . ولو كنت فى أحوال غير هذه لتمردت عليه وأبيته ، ولكنى ، وأنا فى هذا المأزق ، تعلقت به فهل أستطيع أن أغالب حيائى الفطرى الذى صدنى عن مجلس صاحب الفندق وحرمنى ما عسى أن أجد من الأنس عنده ، وأدعو إلىّ البستانى وأرجو منه أن يتناول كرسيا — وشيئاً من الشراب أيضاً — وأن يحادثنى ؟ نعم أستطيع . . وسأفعل . . . وقد فعلت !

الفرع الثـــانى

البســـتانى

أأسأل أين كان فى زمانه ؟ أعاد الرجل السؤال لما ألقيته عليه ، وقال إنه كان فى كل مكان . وماذا كان عمله ؟ لقد كان يعمل فى كل شىء يخطر على البال ذكره .

أتراه رأى كثيراً فى حياته ؟ بلى ، ولا شك فى ذلك ، وإن فى وسعه أن يؤكد لى هذا ، فليتنى أعرف جزءاً من عشرين مما صادفه فى طريقه ! ألا وإنه لأسهل عليه فيما يعتقد أن يذكر لى ما لم ير ...

وما أغرب ما شاهده ؟ من يدرى ؟ ليس فى وسعه أن يقول ، من عفو الخاطر ما أغرب شىء شاهده — إلا أن يكون الغول[1] ، وقد رآه مرة فى سوق ! ولكن إذا قيل لى إن صبيا يناهز الثامنة من العمر ، فرّ مع بنت فى السابعة من عمرها الغض ليتزوجها ، ألا يكون هذا فى رأيى غريباً ؟ لا شك ! فلأعلم إذن أنه شاهد بعينيه هذه الأعجوبة وأنه نظف لها الأحذية التى لبساها حين فرّا ،

(١) حيوان خرافى ذو قرن واحد ، وقد آثرت له هذا الاسم .

وإن الأحذية كانت من الصغر بحيث كان يتعذر عليه أن يدخل يده فيها !

وحكاية ذلك أن والد الصبي « هاري وولمرز » ، كان يقيم في ضيعة « إلمز » على مقربة من تلال « شوتر » ، وعلى مسافة ستة أميال أو سبعة من لندن . وكان رجلا ألمعيا حديد القلب وسيم الطلعة ، يرفع رأسه إذ يمشي ، ويُشعرك إذ تراه بمثل بأس النار وصولتها . وكان يقرض الشعر ، ويركب الخيل ، ويعدو ، ويلعب « الكريكيت » ، ويرقص ، ويمثل ، ويجيد كل ذلك ويحذقه . وكان مزهوا بابنه « هاري » ؛ فقد كان وحيده ، غير أنه لم يفسده بالتدليل ، فقد كان ذا إرادة ماضية ، وعين لا يفوتها شيء ، ومع أنه كان يتخذ من ابنه الذكي صاحباً ، ويسره أن يراه مقبلا على كتب الأساطير يعب فيها عبا ، ولا يمل أن يسمعه يمدّ الصوت ويرجّعه شادياً بأغاني الحب ، إلا أنه احتفظ بسلطانه الأبوي على فتاه ، فبقي الصبي كما ينبغي أن يكون ، فليت كثيرين مثله !

وكيف عرف كل هذا ؟ عرفه لأنه كان مساعد البستاني ، ولا يمكن أن يكونه ، وأن يكون أبداً على المكان ، يجز ، ويقتلع ، ويطعّم ، ويفعل هذا وذاك ، من غير أن يلم بأحوال الأسرة ويحيط بأمورها خبراً . وقد جاءه الصبي هاري مرة وسأله : « كُوبز ، كيف تتهجّى نورا ؟ » ، ثم راح يحفر الاسم على سياج الخشب !

ولم يسبق لكوبز عهد بالأطفال قبل ذلك ، ولا كان يعيرهم التفاتاً ، ولكنه لم يسعه إلا أن يلاحظ هذين الصغيرين وهما يتمشيان معاً ، وقد غرقا في الحب إلى الرأس ! ويا لشجاعة الغلام وشهامته ! لقد كان يبدو لي أنه لا يتردد أن يرمي قبعته ، ويشمّر عن ساعديه الصغيرين ، ويهجم على أسد لو اتفق لهما أن

يلتقيا بواحد ، وأن تفزع الفتاه منه ! وقد وقف مرة وهى معه ، حيث كان كوبز يعمل وقال : « كوبز ، إنى أستلطفك » ، فقال كوبز : « صحيح ياسيدى ؟ إنى نخور بذلك » ، فقال الغلام : « نعم ، أستلطفك . فهل تعرف لماذا يا كوبز ؟ » . فقال : « لا أدرى » . قال الغلام : « لأن نورا تستلطفك يا كوبز ! » فقال الرجل : « صحيح يا سيدى ؟ إن هذا من بواعث الاغتباط » . فقال الغلام : « من بواعث الاغتباط يا كوبز ؟ إنه خير من ملايين من أنفس الماسات ، أن تستلطفك نورا » . فقال الرجل : « لا شك يا سيدى » . فسأله الغلام : « إنك ستترك عملك هنا ، أليس كذلك ؟ » . قال الرجل : « نعم يا سيدى » . قال الغلام : « أتحب أن أجد لك عملا آخر ؟ » . قال الرجل : « لا مانع عندى إذا كان حسناً موافقاً » . قال الغلام : « إذن ستكون البستانى الأول عندنا ، بعد أن نتزوج » ، وضم عليها شملتها الزرقاء وأحاطها بذراعه ، ومضى بها !

وأقسم كوبز أن هذا المنظر كان أبهى وأوقع فى النفس من صورة مرسومة وأنه كان أشبه بالرواية أن يرى هذين الطفلين بشعرهما الطويل اللامع المتلوى ، وعيونهما البراقة ، وخطوتهما الخفيفة الجميلة ، يتمشيان فى الحديقة ، وقد عمر الحب المتبادل قلبيهما الصغيرين . وقال لى كوبز إنه يعتقد أن العصافير ظنتهما عصفورين فغردت لهما لتسرهما . وكانا ربما جلسا فى ظل شجرة ، وذراع كل منهما على عنق الآخر ، وخداهما الأسيلان يتلامسان من فرط التدانى ، وراحا يقرآن قصة الأمير والتنّين ، أو الساحرين الطيب والخبيث ، أو بنت الملك الفاتنة . وكان يسمعهما أحياناً يلهجان ببيت ينويان أن يبنياه فى الغابة ويتخذا فيه خليّة للنحل ، وبقرة ويجتزآن من الطعام باللبن والعسل . ومرّ بهما مرة وهما على البركة فسمع الغلام « هارى » يقول « نورا ، يا معبودتى ، قبليني ، وقولى إنك تحبيننى حبا يزدهف

لبك ، و إلا ألقيت نفسى فى البركة » . ولم يخالج كوبز أى شـك فى أنه كان حقيقا أن يرمى نفسه فى الماء لولا أنها أجابت سؤله . قال كوبز : وقد كان هذا يخيل إليه أنه هو أيضاً قد أمسى عاشقاً ، لولا أنه لا يدرى لمن !

وقال له هارى ذات مساء ، وكان يسقى الزهر : « إنى ذاهب فى هـذا الصيف لزيارة جدتى فى يورك » .

فقال كوبز : « أو فاعل أنت يا سيدى ؟ أرجو إذن أن يطيب مقامك ، وأن تنعم بمـا يسرك . أنا أيضاً ذاهب إلى مقاطعة يورك بعد أن أغادر هذا المكان » .

فسأله الغلام : « أذاهبٌ أنت إلى جدتك يا كوبز ؟ » .

فقال : « كلا ، يا سيدى ، ليس لى شىء كهذا » .

« لا جدة لك يا كوبز ؟ » .

« كلا ، ياسيدى » .

فصوب الغلام عينه إلى الأزهار التى يسقيها البستانى ، ثم قال : « سيكون من أقوى بواعث السرور لى أن أذهب يا كوبز ، فإن نورا ذاهبة » .

فقال كوبز : « ستكون بخير إذن يا سيدى ، ما دام أن إلى جانبك حبيبتك الجميلة » .

فاضطرم وجه الغلام وقال : « كوبز ، إنى لا أسمح لأحد أن يمازحنى فى هذا إذا وسعنى أن أمنعه » .

فقال كوبز بلهجة المتطامن : « لم يكن هذا مزاحاً يا سـيدى — لم أقصد إلى ذلك » .

« يسرنى هذا يا كوبز ، فإنى أستلطفك ، كما تعلم . ثم إنك ستعيش معنا . كوبز ! » .

« نعم يا سيدى ! » .

« ما ذا تظن جدتى ستعطينى حين أذهب إليها ؟ » .

« ليس فى وسعى أن أخمّن يا سيدى » .

« ورقة بخمسة جنيهات يا كوبز ! » .

فزام كوبز وقال : « هذا مبلغ يا سيدى ! » .

« إن المرء يستطيع أن يصنع كثيراً بمبلغ كهذا ، أليس كذلك يا كوبز ؟ » .

« صدقت يا سيدى » .

وقال الغلام : « سأفضى إليك بسر ، يا كوبز . إنهم فى بيت نورا يعابثونها ويركبونها بالمزاح من أجلى ، ويتظاهرون بالضحك منا ، لأنا خطيبان ، ويهزأون ويسخرون يا كوبز » .

فقال كوبز : « هذا بعض مظاهر النقص والعيب فى الطبيعة الإنسانية » .

فوقف الغلام برهة — وهو صورة مصغرة إلا أنها دقيقة ، من أبيه — ومحياه المتقد إلى الشمس ، ثم مضى وهو يقول : « عم مساء ، يا كوبز ، إنى داخل » .

ولا يدرى كوبز كيف اتفق أن يغادر البيت فى ذلك الوقت ، وعنده أنه لو شاء أن يبقى هنالك إلى الآن ، لبقى ، ولكنه كان شابا ، وكان يبغى أن يغير عمله عسى أن تنتقل به الأحوال ، وقد قال له المستر وولمرز لما أبلغه كوبز أنه اعتزم ترك العمل : « أهنالك ما تشكو منه ؟ إنى أسأل لأنى أحب إذا كان لأحد من رجالى شكاة ، أن أزيل أسبابها » . فقال كوبز : « كلا ، ياسيدى ، وشكراً لك ، وإنى هنا لعلى خير ما أرجو أن أكون فى أى مكان ، ولكن الحقيقة يا سيدى أنى راحل لأجرب حظى فى التماس الثراء » . فقال المستر

وولمرز : « صحيح يا كوبز ؟ إذن أرجو لك التوفيق » . وأكد لى كوبز وهو يقص على ذلك أنه لم يوفق بعد .

ترك كوبز ضيعة « إلمز » ، وذهب الغلام هارى إلى جدته العجوز فى يورك ، وكانت لا تضن على حفيدها بالأسنان التى فى فمها (لو كان فى فمها شىء) فقد كانت مجنونة به . ولكن ماذا تظن أن هذا الطفل صنع ؟ فإن لك أن تسميه طفلا وألا تخشى الغلط ؟ لقد فر من جدته مع نورا وقصدا إلى « جريتنا جرين » ليتزوجها هناك ! !

وكان كوبز يعمل فى هذا الفندق عينه — فندق شجرة الميلاد — (وكان كثيراً ما يتركه ليحسن حالته ولكنه كان يعود إليه دائما لسبب ما) وفى مساء يوم من أيام الصيف وقفت المركبة ونزل منها الطفلان ! وقال الحارس لصاحب الفندق : « إن أمر هذين الراكبين الصغيرين يبدو لى كاللغز ، ولكن الغلام قال لى إنه يريد أن آتى بهما إلى هنا » .

. . . ينزل الغلام ، ويمد يده إلى فتاته ليعينها . وينفح الحارس بشىء على سبيل التجزية ، ثم يلتفت إلى رب الفندق ويقول له : سنبيت هنا الليلة ، من فضلك . . وسنحتاج إلى حجرة جلوس وغرفتى نوم . . وهات كفاية اثنين من اللحم المشرح والفالوذ بالعناب » ، ويضم على حبيبته شملتها السماوية الزرقة ، ويحيطها بذراعه ويدخل ثابت الجنان !

وقال كوبز إنه يترك لى أن أتصور الذهول الذى استولى على كل من فى الخان حين رأوا هذين الصغيرين يجيئان وحدهما ، ويفعلان ما فعلا ! وكان كوبز يراهما ولا يريانه ، فلم يكتم رب الفندق رأيه ، فى بواعث هذا السلوك والغاية من هذه الرحلة ، فقال صاحب الفندق : « إذا كان الأمر كذلك يا كوبز

فسأركب إلى يورك لأطمئن آلهما . و يجب عليك أن تجعل عينيك عليهما ، وأن تسليهما وتلهيهما حتى أعود . ولكنى أحب قبل أن أقدم على هذه الرحلة ، أن تستوثق منهما لتعرف أمصيب أنت فى رأيك أم مخطئ » .

فقال كوبز : « سيكون ما تريد حالا » .

وصعد كوبز إليهما ، فألفى الغلام هارى على أريكة عظيمة ، و إنها لعظيمة وكبيرة فى كل حال وكل وقت ، ولكنها بدت أعظم وأضخم لما اتكأ عليها هارى ليكفكف لنورا دموعها و يمسحها بمنديله ، وكانت أرجلهما معلقة فى الهواء وقد أعرب كوبز لى عن عجزه عن وصف صغرهما وضآلتهما .

وصاح السيد هارى : « هذا كوبز . . . هذا كوبز » وأقبل عليه يعدو ، وتناول يده ، وجرت إليه الآنسة نورا أيضاً ، ووقفت إلى جانبه الآخر ، وتناولت يده الثانية ، وجعلا يتوثبان وينطان من الفرح .

فقال كوبز : « لقد رأيتكما من المركبة ، فعرفتكما ، وهل كان يمكن أن أغلط أو أنسى ؟ ماذا وراء هذه الرحلة ياسيدى ؟ ألزواج ؟ » .

فقال الغلام : « سنتزوج يا كوبز فى جريتنا جرين . وقد فررنا لهذا الغرض . إن نورا مكتئبة قليلا يا كوبز ، ولكنها جديرة بأن يسعدها الآن أنا وجدناك فإنك لنا صديق » .

فقال كوبز : « أشكرك ياسيدى ، وأشكرك يا آنسة ، على حسن ظنك بى . والآن هل معكما أشياؤكما ؟ » .

و إذا صدق كوبز الذى أقسم أن الأمر كما يصف ، فقد كان مع نورا شمسية وزجاجة نوشادر ، وخبزات يابسات مدهونات بالزبدة ، وثمانى نعناعات وفرشاة أسنان يخيل إليك أنها مصنوعة للعبة ، أما الغلام فكان معه حوالى

ست ياردات من الخيط ، ومبراة ، وثلاث ورقات أو أربع مطوية ، وقدح عليه اسمه .

فقال كوبز : « وماذا أعددت من التدابير ياسيدى ؟ » .

قال الغلام — ما أبهر شجاعته — : « أن نمضى إلى غايتنا فى الصباح فنتزوج غداً » .

قال كوبز : « هو كذلك ياسيدى . فهل يوافقكما أن أرافقكما ؟ » .

فلما سمعا هذا السؤال جعلا ينطان من الفرح ويصيحان : « نعم ، نعم ، يا كوبز ، نعم » .

فقال كوبز : « إذا سمحتما لى باقتراح فهذا هو . . إنى أعرف فرساً يمكن أن نشده إلى مركبة أستطيع أن أستعيرها فتحملكما (وأكون أنا الحوذى إذا وافقتما) إلى آخر رحلتكما فى أوجز وقت . ولست واثقاً من أن هذا الفرس سيكون غدا رهن مشيئتنا ، ولكن إذا احتجنا أن ننتظر إلى ما بعد الغد ، فإن الفرس جدير بالانتظار . أما الفندق ، ونفقات الإقامة فيه ، فلا تفكرا فى ذلك إذا لم يكن معكما الكفاية من المال ؛ فإنى شريك فى هذا المحل ، ومن السهل إرجاء الحساب إلى وقت آخر » .

ويحلف كوبز أنه لما رآهما يصفقان سروراً وينطان ويدعوانه : « كوبز الطيب » و« كوبز العزيز » ويتعانقان ويتلاثمان وهما جذلان مطمئنان واثقان ، أحس أنه أنذل من ولدته أم فى هذه الدنيا ، لأنه خدعهما وغشهما .

وقال كوبز ، وبه من وخز الضمير ما به : « هل تريدان الآن شيئا يا سيدى ؟ » .

فقال الغلام وهو يطوى ذراعيه على صدره ، ويمد إحدى ساقيه ، ويحدق

فى وجه كوبز : « نريد بضع كمكات بعد العشاء ، وتفاحتين ... ومربى ... ومع العشاء خبزاً محمراً ... واسمع يا كوبز ، إن نورا قد اعتادت أن تشرب مع الفاكهة قليلا من شراب الزبيب ... وأنا مثلها » .

قال كوبز : « سأعد لكما ذلك » وخرج .

وحدثنى كوبز : أنه ، وهو يروى لى هذه التفاصيل ، يشعر ، كما كان يشعر حينئذ ، بأنه كان آثر عنده ، وأحب إليه ، أن يلاكم صاحب الفندق فى بضع جولات ، من أن يتواطأ معه على هذين الطفلين ، وأنه كان يتمنى من أعماق قلبه لو أن فى الدنيا مكاناً يستطيعان فيه أن يتزوجا ، ويعيشان بعد ذلك سعيدين . ولكن هذا لا سبيل إليه ، فلم يسع كوبز إلا أن يأتمر بهما مع رب الفندق فركب هذا إلى يورك بعد نصف ساعة .

ويرى كوبز أن من العجائب أن كل أنثى فى الفندق — ذات بعل ، أو عزبة أو عذراء — صغت بقلبها إلى هذا الغلام لما سمعت قصته . وقد عانى كوبز جهداً جاهداً فى صد هؤلاء النسوة عن اقتحام الغرفة واحتضان الغلام وتقبيله . وكن يخاطرن بحياتهن ويصعدن فوق الأشياء لينظرن إليه من وراء الزجاج . وكان سبعة منهن يتزاحمن على ثقب الباب لينظرن فى وقت معاً ! فقد طارت عقولهن وفتنتهن جرأته .

وفى المساء دخل كوبز على الهاربين ليرى كيف حالهما . وكان الغلام على حافة النافذة ، وبين ذراعيه فتاته . وكانت العبرات على خديها ، ولكنها كانت متعبة وأقرب إلى النوم منها إلى اليقظة ، ورأسها على كتفه .

وقال كوبز : « هل السيدة متعبة يا سيدى ؟ » .

قال : « نعم ، متعبة يا كوبز ، فما اعتادت أن تنأى عن البيت ، وقد عاودها

الاكتئاب ، فهل تستطيع أن تجيئنى بمنعش ؟ » .

فقال كوبز : « معذرة يا سيدى ، ولكن ماذا تبغى ؟ » .

قال : « شيء ينعشها ، ويرد إليها روحها » .

فخرج كوبز ينشد المنعش المطلوب فلما عاد به ، قدمه الغلام إلى الفتاة وأعانها ، وَلكن النعاس كان يثنى رأسها ويثقله ، فجعلها ذلك شكسة جافية . وقال كوبز : « ما قولك ياسيدى فى شمعدان لغرفة النوم ؟ » فوافق ، وسارت الخادمة فى الطليعة ، والفتاة فى شملتها السماوية الزرقة بعدها ، ووراءهما ، وفى حراستهما هذا الغلام الشهم . وعانقها عند الباب ، ثم ارتد إلى غرفته ، فأوصدها عليه كوبز بخفة .

ولم يكن يسع كوبز إلا أن يزداد شعوره حدة بأنه غشاش وضيع ، لما سأله الغلام فى الصباح وهما يتناولان طعام الإفطار (وكانا قد أمرا أن يعد لهما لبناً وخبزاً محمراً ومربى) عن الفرس ، وكان يجد مشقة فى النظر إليهما وهو يعلم كيف يخدعهما بالأباطيل ، غير أنه واصل الكذب وأخبرهما أن من سوء الحظ أن القوم يقصون للفرس شعره ، ولكنهم لم يقصوا سوى جانب ، ولو خرج على هذه الصورة لأصابه سوء ، ولكنهم سيفرغون من القص فى هذا النهار ، وفى الساعة الثامنة من صباح الغد تكون المركبة معدة . ومن رأى كوبز ، وهو يحدثنى بهذا فى غرفتى ، أن الفتاة بدأت فى ذلك الوقت ، تتراجع وتتندم ؛ فقد نامت من غير أن يُرَجِّل لها شعرها ، ولم تكن بحيث تستطيع هى أن تمتشط ، وصار الشعر يدخل فى عينيها فيغيظها ويحنقها ، ولكن الغلام ظل ثابتاً شديد القلب ، وكان وهو جالس إلى المائدة وأمامه فنجان الشاى ، يلتهم المربى ، فيخيل إليك أنه أبوه .

ويميل كوبز إلى الاعتقاد أنهما بعد الإفطار جعلا يتسليان برسم الجنود على الورق ، فقد وجدت جنود كثيرة مصورة على الورق فى الموقد ، وكلها على ظهور الخيل . ودق هارى الجرس وسأل كوبز — ما أعجب ثباته — « أليس فى جوار هذا المكان ميادين صالحة لأن يمشى فيها المرء ؟ » .

قال كوبز : « نعم يا سيدى ، طريق العشاق » .

فصاح الغلام به : « رح . رح . إنك تمزح » .

فقال كوبز : « عفواً يا سيدى ، ولكن هناك طريقاً اسمه طريق العشاق . وإنه لجميل ، وإنه ليكون من دواعى فخرى أن أريكه أنت والسيدة » .

فقال هارى : « يا عزيزتى نورا ، إن هذا لاتفاق عجيب ، وينبغى أن نرى طريق العشاق هذا . فالبسى قبعتك يا حبيبتى ولنذهب إليه مع كوبز » .

ودعانى كوبز أن أتصور قوة شعوره بنذالته ولؤمه لما قال له هذان الطفلان الغريران ، وهما يمشيان إلى جانبه ، إن عزمهما صح على أن أكون البستانى الأول لهما ، بألفى جنيه فى العام ، لأنى صديق وفىٌّ لهما . وقد تمنى كوبز فى تلك اللحظة أن تنشق الأرض فتبتلعه ؛ فقد أحس بشدة الضعة والحقارة وهما ينظران إليه بعيونهما البراقة ، ولا يخالجهما شك فى صدقه ! فاحتاج أن يغير موضوع الحديث ، ويعطفه عن مجراه ، ومضى بهما فى طريق العشاق إلى البحيرة ، وكاد هارى يغرق فيها وهو يحاول أن يقطف لفتاته زنبقة ، وأخيراً تعبا ، وأضناهما الجهد ، فاستلقيا على الأرض المخضرة ، والأقاحى ترف عليهما ، وناما .

ولا يدرى كوبز — ولعلى أنا أدرى ، ولكن دع هذا فما له قيمة — لماذا يرق قلب المرء حين يرى هذين الطفلين الجميلين راقدين تحت السماء الصافية فى النهار المشمس ، لا يحلمان بشىء وهما نائمان ، كما يحلمان وهما مفتوحا العيون ،

ويذهب كوبز إلى أن المرء لا يسعه إلا أن يفكر فى نفسه ، وفيما كان من سيرته وتقلب الأحوال به مذ كان فى المهد ، وكيف أنه لم يبلغ فى الحياة مبلغاً ، وليس له إلا الذكرى ، والأمل ولا حقيقة بينهما .

واستيقظا أخيراً ؛ وتبين كوبز أن الفتاة بدأت تشمس وتعسر ، فلما طوق هارى خصرها بذراعه قالت له إنه يضايقها ، فلما قال لها : « نورا ، ياقمر الربيع ، هل يضايقك هارى ؟ » قالت : « نعم . وأريد أن أعود إلى البيت ! » .

على أن دجاجة مسلوقة ، وشيئا من الحلواء ، فتّرا من حدتها ، وردا إليها سجاحة الطبع ، ودماثة الخلق ؛ ويقول كوبز إنه كان يود لو أنه رآها أعظم عناية بالصوت الهاتف بحبها منها بالحلواء التى نسيت نفسها وهى تلتهمها . أما هارى فلم يزعزعه شىء ، وظل قلبه الكبير يخفق بالحب ، كما كان . ودخلنا فى الغسق نخفق رأس الفتاة وشرعت تبكى . . ولهذا أوت إلى فراشها كما فعلت فى الليلة السابقة . . ولم ينس الفتى أن يقوم بواجب المرافقة والتوديع ، على نحو ما كان منه البارحة .

وحوالى منتصف الليل أقبل صاحب الفندق فى مركبة ، ومعه المستر وولمرز وسيدة عجوز ، وكان المستر وولمرز يبدو عليه الجد الصارم ، والتفكه فى آن معاً وقد قال لزوجة الفندقى : « إننا مدينون لك ياسيدتى بالشكر على عنايتك بولدينا وإنا لعاجزون عن تجزيتك . أين الغلام ياسيدتى ؟ » فقالت : « إن كوبز يسهر على الولد العزيز ويرعاه ياسيدى . أره الغرفة الأربعين يا كوبز » ، فقال المستر وولمرز : « إنى مسرور بأن أراك يا كوبز . فقد علمت أنك هنا » فقال كوبز : « نعم ياسيدى ، وما زلت خادمك المطيع »

ويقول كوبز إنى قد أستغرب منه أن يذكر لى أن قلبه كان يدق كالمطرقة

وهو يصعد درجات السلم ، ولكن هذه هى الحقيقة ، وقد قال للمستر وولمرز ، وهو يفتح له الباب : « معذرة ياسيدى ، ولكنى أرجو ألا تكون حانقا على السيد هارى . إنه غلام شهم ياسيدى ، وسيكون مفخرة لك » . ويؤكد لى كوبز أن نفسه كانت جائشة فى تلك اللحظة ، فلو أن المستر وولمرز ذهب إلى العناد ، للكمه واحتمل ما عسى أن يكون من نتائج ذلك .

ولكن المستر وولمرز قال : « كلا يا كوبز . . لا ياصاحبى . وشكراً لك » ، وكان الباب قد فتح ، فدخل .

وتبعه كوبز وفى يده الشمعة ، فرأى المستر وولمرز يمشى إلى السرير ويحنو عليه فى رفق ، ويلثم ذلك المحيا الصغير ، ثم يعتدل ، ويُنعم النظر لحظة ، فيعظم الشبه بين الوجهين (ويقال إن المستر وولمرز فر مع من تزوجها) ، ثم يهز كتف الغلام برفق ويناديه : « هارى . . يا ولدى العزيز . . هارى ! » .

فيتنبه هارى وينظر إليه ، وإلى كوبز أيضاً ، كأنما أراد أن يتبين هل أوقعه كوبز فى ورطة .

ولكن المستر وولمرز يقول له : « لست غاضباً يابنى ، وكل ما أريد منك هو أن تلبس ثيابك لتعود إلى البيت » .

فيقول الغلام : « نعم يا أبى » .

وينهض فيرتدى ثيابه بسرعة ، ويعلو صدره وهو يكاد يفرغ من ارتدائها ويزداد علوا حين يقف أخيراً ، ناظراً إلى أبيه ، وأبوه واقف ينظر إليه ، وكلاهما صورة دقيقة من الآخر .

ويقول الغلام ، وهو يتشدد ويتجلد ويرد الدموع التى تهم بالتحدر : « من فضلك يا أبى . . هل تسمح لى . . أن أقبل نورا قبل أن أذهب ؟ » .

فيقول المستر وولمرز : « لك ذلك يابنى » .

ويتناول يد الغلام ، ويمضى به ، وكوبز أمامهما بالشمعة حتى يبلغوا الغرفة الأخرى فإذا السيدة العجوز متكئة على السرير والفتاة غارقة فى النوم . فيرفع الوالد غلامه إلى الوسادة ، فيسند خده الصغير لحظة إلى جانب خد الفتاة الذاهلة ثم يدنى محياها منه ويلثمه — ويبلغ من وقع هذا المنظر فى النفوس أن تصيح الخادمة ، وكانت تنظر من ثقب الباب : « من العار أن تفرقوا بينهما » ، ولكن هذه الخادمة كانت معروفة برقة القلب ، وإن لم تكن امرأة سوء . . حاشا لله . !

قال كوبز ، وانتهى الأمر بذلك . ركب المستر وولمرز عائداً إلى بيته ، ومعه ابنه . أما السيدة العجوز ، والفتاة التى لم يقسم لها أن تكون المسز وولمرز (لقد تزوجت بعد ذلك ضابطاً فى الجيش وماتت فى الهند) فعادا فى اليوم التالى . وقد سألنى كوبز فى ختام كلامه هل أوافقه على رأيين له : الأول أنه قل أن يكون هناك اثنان على وشك الزواج ، فى مثل طهر هذين الطفلين . الثانى أن من الخير لكثيرين ممن يهمون بالزواج أن يؤخذ عليهم الطريق ، ويحال بينهم ، فيرتد كل منهم إلى بيته على حدة ؟

الفرع الثالث

الحساب

لبثت فى الفندق محصوراً ، من جراء الثلج المتساقط ، أسبوعاً كاملا . وكانت الأيام تمضى سراعاً ، فيما أحس ، فلولا وثيقة موضوعة على المنضدة أمامى لما صدقت أنى قضيت هنا أسبوعاً .

وكان الثلج قد رفع عن الطريق فى اليوم السابق ، أما الوثيقة التى أمامى فهى حساب الفندق . وهى تشهد شهادة حاسمة بأنى أكلت ، وشربت ، وادّفأت ، تحت الأغصان الوريفة الظليلة لشجرة الميلاد سبعة أيام كاملة .

وكنت قد آثرت أن أدع الطريق يتحسن ، أربعاً وعشرين ساعة أخرى لأنى احتجت إلى هذه المسافة من الزمن لإتمام عملى . وأمرت أن يُبَيَّن لى الحساب وأن تكون المركبة معدة أمام الباب « فى الساعة الثامنة من مساء الغد » . وكانت الساعة قد بلغت الثامنة من « مساء الغد » لما جمعت أدوات الكتابة التى أتخذها فى أسفارى وطويتها فى حقيبتها الجلدية ، وأديت الحساب ، وتعطفت بأرديتى الدافئة ، وتلفّعت بشملتى . وكان الوقت قد صار أضيق من أن يسمح بالذهاب لإضافة عبزة متجمدة إلى بلورات الثلج التى تكسو البيت الريفى الذى رأيت فيه أنجيلا أول مرة . ولم يبق إلا أن أغذّ السير فى أقصر طريق إلى ثغر ليفربول وهناك آخذ حقائبى الكبيرة وأركب السفينـة . وكفى بهذا عملا ، ولا سبيل إلى إرجائه ساعة واحدة .

وودعت كل من عرفت فى الفندق — وكدت أودع حيائى أيضاً — ووقفت بالباب أراعى الخادم وهو يلف الحبل الذى يشد به حقيبتى إلى المركبة وإذا بمصابيح تقترب سراعاً من الفندق . وكان الطريق مغطى بالثلج فلم نسمع للعجلات صوتاً ، ولكنا جميعاً رأينا المصابيح تقبل علينا وتدنو منا ، بسرعة ، بين جدارين من الجليد الذى رفع عن الأرض وصار كوماً على كل جانب . وتنبأت الخادمة وصاحت : « توم ... هذه رحلة إلى جريتنا » ، وكان توم يعرف أن لها قدرة فطرية على التنبؤ بالزواج وما إليه ، فانطلق يعدو ويصيح : « أعدوا الجياد الأربعة الأخرى » . وفى لحظة واحدة صار المكان كله هرجاً ومرجاً .

وشعرت برغبة فى رؤية ذلك السعيد ، المحب المحبوب ، فتلكأت على الباب حتى بلغه القادمان . ووثب من المركبة رجل برّاق العين متلفع — ومتلثم — بشملة ، فكاد من شدة الوثبة والسرعة فيها يلقينى على الأرض ، فالتفت إلىّ ليعتذر وإذا به « إدوين » ! !

فصاح وهو يتراجع : « شارل ! يا إلهى ، ماذا عساك تصنع هنا ؟ » .

فقلت وأنا أتراجع أيضاً : « إدوين ! ماذا تصنع أنت هنا ؟ » .

وضربت جبينى وأنا أقول ذلك ، فأحسست أن لساناً من النار لا يطاق خطف أمام عينى .

فأدخلنى إلى القاعة (وكان فى موقدها دائماً نار فاترة ، ولا محرك هناك) حيث وقف المسافرون ينتظرون تغيير الجياد ، وقال وهو يرد الباب .

« سامحنى يا شارل ! » .

قلت : « إدوين ! هل كان هذا جميلا منك ؟ وأنا الذى أحبها كل هذا الحب ؟ وأنا الذى طويت أضلاعى على هواها كل هذا الزمن ؟ » .

ولم أستطع أن أزيد على ذلك . فراعه أن يقرأ فى وجهى ما أكن من الألم والأسى ، وقال وهو لا يدرى ما فى ذلك من القسوة ، إنه ما كان يحسب أن يبلغ من قلبى الحزن هذا المبلغ .

فنظرت إليه — أقصرت عن العتاب ، ولكن نظرت إليه .

وقال : « شارل ، يا صديقى العزيز الأثير ، أرجو ألا تظن بى سوءاً ، وإنى لأعلم أن لك حقا فى أن أطلعك على دخيلة قلبى . وصدقنى حين أقول إنى ما ضننت قط من قبل عليك بالثقة بك والاطمئنان إليك ، وإنى لأمقت الكتمان فإنه لؤم لا يطاق ، ولكنى أنا وفتاتى حرصنا على الكتم من أجلك » .

هو وفتاته ! ! لقد جعل ذلك قلبي حجراً .

وقلت وأنا أتعجب لوجهه الصريح كيف وسعه أن يلقاني به : « حرصت على الكتمان من أجلي أنا يا سيدى ؟ » .

قال : « نعم ، ومن أجل أنجيلا أيضاً » .

فأحسست أن الأرض تدور بي ، وتضطرب ، كالنحلة[1] وقلت وأنا أعتمد على الكرسي بيدى : « هل لك أن تفسر معنى ذلك ؟ » .

فقال إدوين بلهجته الودية : « ياعزيزى شارلى . فكر ! لقد كنتَ على خير حال وأسعده مع أنجيلا ، فكيف أزج بك فى ورطة مع أبيها بإشرا كك فى العلم بأمر خطبتنا ، وبما عزمنا عليه سرا ، بعد أن رفض ؟ من المحقق أنه خير لك أن تستطيع أن تقول ، وأنت صادق : « إنه لم يستشرنى قط ؛ ولم يخبرنى بشىء ، ولم ينبس بكلمة على مسمع منى » وإذا كانت أنجيلا قد فطنت إلى الباطن من أمرى ، وأولتنى كل ما فى طاقتها من العطف والتأييد ، بارك الله فيها من فتاة منقطعة النظير ، وزوجة يُعيِي الزمانَ مكانُ ندها ، فما كان لى فى هذا حيلة ، وما قلنا لها — لا أنا ولا إميلين — شيئاً ، كما لم نقل لك شيئاً ، وقد توخينا الكتم عنها ، كما توخيناه عنك ، لنفس السبب ، فثق بى ، وصدقنى » .

كانت إميلين بنت عم أنجيلا ، وكانت تعيش معها ، وقد شبا معاً ، وكان والد أنجيلا قيما عليها ، فإن لها مالا .

فقلت وأنا أعانقه عن أحر عاطفة ، « هل إميلين فى المركبة يا إدوين ؟ » .

فقال : وهل تحسبنى ذاهباً إلى جريتنا جرين بغيرها ؟ » .

فخرجت أعدو مع إدوين ، وفتحت باب المركبة ، وعانقت إميلين ، وضممتها

(١) هى اللعبة المعروفة ، وهى تدور على سن .

إلى صدرى ، وكانت ملفوفة فى فراء أبيض ناعم كهذا الوادى المكسو بالثلج ، ولكنها كانت كاعباً جميلة حارة . وقد ربطتُ الجوادين المقدمين إلى مركبتهما بيدى ، ونفحت الخادم بخمسة جنيهات ، وحييتهما أحر تحية وهما يمضيان ، ثم ركضت بى الخيل فى الطريق إلى لندن .

لم أذهب إلى ليفربول ، ولم أرحل إلى أمريكا ، وإنما رجعت إلى لندن وتزوجت أنجيلا ، ولم أكشف لها إلى هذه الساعة عن سرى ، ولا قصصت عليها كيف كلفنى الغلط هذه الرحلة ، وسيجىء يوم تقرأ فيه هى ، وهما — أعنى إدوين وإميلين — وأبناؤنا الثمانية ، وأبناؤهما السبعة (وقد صارت كبراهم تشابه أمها) هذه الصفحات — وأين المفر من ذلك ؟ — فيعرفون جميعاً ما كان خافياً عليهم ؛ لا بأس ؛ فإن فى مقدورى أن أحتمل ذلك ، ولقد بدأت فى الفندق بمحض المصادفة — أقرن وقت عيد الميلاد بالعوامل الإنسانية ، وأعنى بالبحث فى حياة من ألفيتنى محوطا بهم ، وفى مرجوى ألا أكون قد خسرت بذلك ، والا يكون احد — قريباً كان أو بعيداً منى — قد خسر بذلك ، وإنى لأدعو أن تزدهر شجرة الميلاد الوريفة النضيرة ، وأن تضرب جذورها وتغوص وتتقرر فى ارضنا الانجليزية ، وأن تنفض طيور السماء لقاحها على العالم قاطبة .

وليم ويلكى كولنز

١٨٢٤ – ١٨٨٩

السر الرهيب

بعـد أن أتممت تحصيلى فى الـكلية بقليل ، اتفق لى أن أقيم فى باريس مع صديق إنجليزى . وكنا يومئذ فى عنفوان الشباب ، وأعترف أننا كنا نسيم مرح اللهو فى هذه المدينة البهيجة ونركب الحياة بشبابنا ؛ فحدث ذات ليلة أن كنا نتمشى على مقربة من « الباليه رويال » ، وكنا حائرين لا نستقر على رأى فيما نشغل به أنفسنا من لهو ، فاقترح صاحبى أن نذهب إلى محل « فراسكاتى » ولـكن اقتراحه لم يرقنى ، فقد كنت أعرفه — كما يقول الفرنسـيون — عن ظهر قلب . وقد خسرت وربحت فيه كثيرا ، ابتغاء التسلى ، حتى لم يبق فيه لا تسلية ولا تلهية ، ومللت مظاهر السَّمت والأبهة لذلك الشـذوذ الاجتماعى الذى ينطوى عليه محل مقامرة . وقلت لصاحبى : « نشدتك الله إلا ما ذهبنا إلى حيث نجد قمارا حقيقيا عنيفا على الرغم من الفاقة ، ليس فيـه تمويه . . . لندع فراسكاتى الوجيه إلى مكان لا يأنف أصحابه أن يُدخلوا فيه ذا ثوب خلق لبيس ، أو من لا ثوب له ، لبيسا كان أو غير لبيس » . قال صاحبى : « حسن على أنه لاداعى للإبعاد والخروج من نطاق الباليه رويال ، للفوز ببغيتك ، هذا هو المحل أمامنا . وإنه ، فيما تتواتر به الرواية عنه ، لكما تشتهى أن يكون ضعة وخشونة » .

وبلغنا الباب ، ودخلنا البيت الذى رسمتَ ظهره[1] .

وصعدنا بعد أن تركنا القبعتين والعصوين مع البواب ، فمضوا بنا إلى قاعة

(١) المفروض أن صاحب الحادثة يقص القصة على المصور الذى يرسمه .

القمار الكبرى ، فلم نجد فيها كثيرين ، ولكن القليلين الذين كانوا فيها والذين رفعوا رءوسهم لينظروا إلينا ونحن ندخل ، كانوا جميعا نماذج — صادقة دقيقة لسوء الحظ — من طبقاتهم .

لقد جئنا وفى مرجونا أن نرى جماعة من الطغام والهمج ، فوقعنا على شر من ذلك ، وإن لكل ضرب من الضعة لجانبها الفكاهى المضحك ، أما هنا فما تحس النفس سوى المأساة . . . مأساة خرساء لا فكاك منها ولا حيلة فيها ، وكان السكون فى الغرفة فظيعا — هنا فتى نحيل متهضم الوجه ، طويل الشعر ، يرشق بعينيه الغائرتين أوراق اللعب ، ولا ينطق بحرف . وهنا آخر مترهل خرج البثرُ بوجهه الغليظ ، وهو يخرق ورقة أمامه ليحصى كم مرة كسب الأسود ، وكم مرة كسب الأحمر ، ولا ينطق بحرف ! وهٰهنا شيخ قذر مغضّن الوجه ، له عين الصقر ، وعليه ثوب طال ترداده إلى الرّفو ، وقد خسر آخر فلس ، ومع ذلك يأبى إلا أن يراقب اللعب الذى لا يستطيع أن يشترك فيه ، ولكنه لا ينطق بحرف ! حتى صوت الضريب[١] كان مكتوما مخنوقا وغليظ الجرس فى جو هذه الغرفة . وقد كان رجائى وأنا أدخل هذا البيت أن أجد فيه ما يضحك ؛ فإذا أمامى منظر يبعث الأسى ويغرى بالبكاء . فلم يسعنى إلا أن ألتمس معاذاً من هـذه الكآبة التى تستولى علىّ بسرعة ، وشاء سوء الحظ أن أقبل على أول ما وجدت ، فذهبت إلى المائدة وشرعت ألعب . وأبى لى الحظ السيئ ، كما سترى ، إلا أن أربح . . . أربح مقادير جسيمة . . . مقادير يخطئها الحساب ، ولا تدخل فى عقل عاقل . . . حتى أحاط بى اللاعبون ، وراحوا يحدجون مكاسبى على المائدة بعيون ناطقة بالنهم والروعة ، ويتهامسون فيما بينهم بأن الانجليزى سيخرب « البنك » .

---

(١) الضريب هو الموكل بالقداح فى الميسر ، وقد رأيت أن أترجم بها كلمة Croupier .

وكان القمار على « الأحمر والأسود » . وقد جربت حظى فى هذه اللعبة فى كل مدينة بأوربا ، ولـكن من غير أن أعنى « بنظرية الحظ » التى تعد « حجر الفلاسفة » عند المقامرين . وما كنتُ قط مقامراً بالمعنى الصحيح ، فقد سلمت من هذه الشهوة الجائحة فلعبى للتسلية وتزجية الفراغ ، وما أعرفنى قامرت بدافع من الحاجة أو الضرورة ، لأنى لم أعان قلة المال أو النقص فيه . وكنت إذا قامرت لا أعكف حتى أُمنى بخسارة لا قِبَلَ لى باحتمالها ، أو أفوز بمكسب يدير رأسى ويخرج بى عن طورى من الاتزان . وأقول بإيجاز إنى كنت أختلف إلى أندية القمار كما اختلف إلى المراقص والمسارح لأنى أجد فيها تلهية ، ولا أدرى بأى شىء آخر أشغل نفسى وأزجِّى الفراغ .

ولـكن الحال فى هـذه المرة كان مختلفاً جدا — الآن ، وللمرة الأولى فى حياتى ، جربت شهوة القمار الحقيقية وعرفت كيف يكون عصفها بالنفس ، واستحواذها على اللبّ . وكانت مكاسبى قد أذهلتنى فى أول الأمر ، ثم أسكرتنى ، بأدق المعانى الحرفية لهذا اللفظ . ومن الحقائق الغريبة التى يتعذر تصديقها أنى كنت لا أخسر إلا حين أحاول أن أقدر فرص الربح والخسارة ، وأقامر على مقتضى ما تبين لى من الحساب السابق . أما حين أدع الأمر كله للحظ ، وألعب بلا حساب أو تدبر ، فالربح لاشك فيه ولامفر منه على الرغم من كل عامل من عوامل الترجيح لـكفة « البنك » . وكان اللاعبون يخاطرون فى أول الأمر بما لهم ، وهم مطمئنون ، على اللون الذى أختاره ، ولـكنى زدت المبالغ التى أقامر بها إلى حد لايستطيعون أن يجارونى فيـه . فـكفوا — واحداً بعد واحد — عن اللعب ، واكتفوا بالمشاهدة وأنفاسهم معلقة .

وطفقت أزيد المبالغ التى أخاطر بها ، وأكسب مع ذلك . فجاشت النفوس

وسرت الحمى فى الدماء . وصار السكون لايقطعه إلا التمتمة كلما دُفع الذهب على المائدة إلى ناحيتى . حتى الضريب الرزين رمى بمجرافه على الأرض وقد ثارت نفسه ثورة « فرنسية » من فرط دهشته لنجاحى . ولكن رجلا واحداً فى الغرفة كان يضبط أعصابه ويحتفظ باتزانها . وأعنى به صديقى . وقد جاء إلىّ ، وهمس فى أذنى بالإنجليزية بالرجاء أن أرحل عن هذا المكان وأن أقنع بما ربحت . وأنصفه فأقول إنه أعاد تحذيره ورجاءه مرات عديدة ، ولم يتركنى ويخرج إلا بعد أن رفضت نصحه (وكانت سورة القمار قد اشتدت بى) بألفاظ جعلت من المستحيل عليه أن يخاطبنى مرة أخرى فى تلك الليلة .

وبعد أن خرج صديقى ببرهة ، سمعت صوتا أجش يقول من ورائى : « اسمح لى ياسيدى العزيز — اسمح لى أن أعيد إليك جنيهين سقطا . ياله من حظ ياسيدى ! إنى أقسم لك بشرفى ، أنا الجندى القديم ، أنى فى تجربتى الطويلة للعب لم أر قط مثل حظك أبداً . استمر ياسيدى — استمر بجرأة واخرب البنك » .

فأدرت وجهى فرأيت رجلا مديد القامة فى معطف خفيف عليه شارات عسكرية ، يهز لى رأسه ويبتسم فى أدب جم . ولو أن عقلى لم يعزب ، لكان الأرجح أن أشتبه فيه وأستريب به فقد كانت عيناه جاحظتين وحمراوين كالدم وكان شارباه منفوشين متهدلين وبأنفه أثر من كسر ، وكان لصوته نبرات عسكرية ، ولكن من أحط طبقة . أما كفّاه فأقذر ما رأيت فى حياتى — حتى فى فرنسا . ولكن هذه المميزات الشخصية لم يكن لها عندى أى تأثير منفر فقد تركنى الجنون الذى أورثتنيه مكاسبى الهائلة مستعدا أن أؤاخى كل من يشجعنى على اللعب . فتقبلت من هذا الجندى القديم ، مقدار شمة من السعوط ، وربتُّ له على كتفه وحلفت أنه خير من دب على الأرض ، وأنه أمجد أثر تخلف من « الجيش

الـكبير »[1] ، فقال صديقى العسكرى وهو يفرقع أصابعه مغتبطا « استمر استمر واربح . اخرب البنك . أى نعم ياصديقى الإنجليزى الشهم ، اخرب البنك » .

وقد مضيت فى اللعب ، ولججت فيــه حتى صاح الضريب بعد ربع ساعة أخرى ، « أيها السادة . إن البنك يكف الآن وينقطع » . وصار كل ما كان فى « البنك » من أوراق النقد والذهب كوما أمامى . . . . رأس مال البيت كله أصبح تحت يدى ينتظر أن أفرغه فى جيوبى .

وقال لى الجندى العتيق وأنا أدفع يدىّ فى كوم الذهب « ضع المـال فى منديلك يا سيدى ، صُرّه فيه . صره ، واجمع أطرافه واعقدها كما كنا نفعل بطعامنا فى الجيش الـكبير ، فإن مكاسبك أثقل من أن يحتملها جيب . هكذا . . تماما . . ضع الورقات والذهب جميعا . . . ياله من حظ . . انتظر . . هذا جنيه آخر على الأرض . . والآن ياسيدى نعقد عقدتين متينتين ، هكذا ، بعد استئذانك ، وإذا المال فى أمان ! تحسس المنديل . . تحسسه أيها السعيد المجدود ! ناشف ، ومستدير كالقنبلة . أما لو أنهم كانوا يطلقون علينا فى أوسترلتز[2] قنابل من هذا القبيل . . ! ليتهم كانوا يفعلون ! ! والآن ماذا بقى على أن أفعل أنا المدفعىّ القديم والجندى الباسل سابقا ؟ ! أسألك ماذا أصنع ؟ — . . . أتقدم برجائى إلى صديقى الإنجليزى الحميم أن يشرب معى زجاجة من الشمبانيا ، لنشرب نخب ربة السعود فى قدحين مُزبدين قبل أن نفترق ! » .

فياله من جندى باسل ! وما أطيبه وأرق حاشيته من مدفعى قديم ! فلتدر الشمبانيا علينا ، وليهتف الإنجليزى بالجندى الفرنسى القديم ! هورا ! هورا ! ولنهتف مرة أخرى بربة السعود ! هورا ! هورا !

---

(١) جيش نابليون . (٢) موقعة انتصر فيها نابليون ، فى ألمانيا .

وصاح الجندى : « مرحى ! وأحبب بالانجليزى العطوف الكريم الذى يجرى فى عروقه الدم الفرنسى المرح ! أترع الكأس مرة أخرى ! أوه ، إن الزجاجة فارغة ! لا بأس ! فليحي النبيذ ! أنا الجندى القديم آمر أن تدار علينا زجاجة أخرى ومعها نصف رطل من السَّكَّرات ! » .

فصحت به : « كلا ، يا صديقى الباسل ! ولا ، أيها المدفعى القديم ! كانت تلك زجاجتك ، والآن هذه زجاجتى ! هذه هى ! انظر إليها . . . وتعال نشرب أنخاب الجيش الفرنسى . . . ونابليون العظيم . . . وهذا الجمع . . . والضريب . . . وزوجته . . . وبناته ، إذا كانت له بنات . . . والسيدات كافة ... وكل امرئ فى هذه الدنيا ! » .

وأحسست ، لما فرغت الزجاجة الثانية ، كأنى كنت أشرب نارا سائلة . فالتهب دماغى . ولم يسبق لى فى حياتى كلها أن كان للشراب مثل هذا الغَوْل والخُمار عندى . فهل هـذا الأذى نتيجة لفعل المسكر المنبّه فى كيانى الفائر إلى درجة الحمى ؟ أم ترى ممدتى على حال من الاضطراب غير معهود ؟ أم هـذه الشمبانيا قوية الأخذ جدا ؟

وصحت وبى من النشوة مثل الجنون : « أيها الجندى القديم فى الجيش الفرنسى الكبير ! إن النار مستعرة فى بدنى ، فكيف حالك أنت ! لقد أضرمت فىّ النـار ، فهل أنت سامع ما أقول يا بطل أوسترلتز ؟ فلنشرب زجاجة ثالثة لنطفئ الحريق ونخمد ألسنة اللهب » .

فهز الجندى القديم رأسه ، ودوّم حدقتيه الجاحظتين ، حتى لتوقعت أن أراهما تسقطان من محجريهما ، ثم لمس جانب أنفه المكسور بإصبعه القذر ، وقال : « القهوة ! » وذهب يعدو إلى غرفة داخلية .

وقد كان لهذه اللفظة المفردة التي نطق بها ذلك الجندي العتيق الشاذ ، من الوقع ما يشبه السحر فى الحاضرين ، فنهضوا جميعا دفعة واحدة لينصرفوا ، ولعلهم كانوا يطمعون أن ينالوا شيئا بفضل ما كسبت ، فلما وجدوا أن صديقى الجديد تأبى له شهامته ومروءة نفسه أن يدعنى أسكر حتى لا أعى ، ذهب أملهم فيما كانوا يتطلعون إليه من المتعة على حسابى ، ومهما تكن البواعث التى حملتهم على الخروج ، فإن الواقع أنهم انصرفوا معا . ولما عاد الجندى وجلس مرة أخرى إلى المائدة أمامى ، كانت الغرفة خالية إلا منا ، وكنت بحيث أستطيع أن أرى الضريب فيما يشبه الدهليز ، يتناول عشاءه . وصار السكون أعمق وأرهب . وتغيّر الجندى السابق بغتة ، واتخذ هيئة الجد الصارم ، وصار إذا تكلم لا يزين عبارته أو يؤكدها بالأيمان ، أو فرقعة الأصابع ، أو الصيحات أو غير ذلك .

وقال لى بلهجة من يفضى إلى بسر « إسمع ياسيدى العزيز نصيحة جندى قديم . لقد ذهبت إلى ربة الدار (وهى سيدة ظريفة ونابغة فى الطبخ) لأقنعها بوجوب العناية بإعداد قهوة قوية جيدة لنا . فعليك أن تشرب هذه القهوة لتذهب عنك سورةُ الشراب قبل أن تمضى إلى بيتك — لا غنى بك عن ذلك يا صديقى الكريم . فان عليك أن تحمل كل هذا المال معك إلى بيتك الليلة ، ومن واجبك نحو نفسك أن تحتفظ بعقلك . وقد عرف جسامة مكاسبك ناس كثر كانوا هنا الليلة ، وهم جديرون بالثقة ولكن الإنسان إنسان ، ياسيدى العزيز ، فهم لا يخلون من مواطن ضعف ، وقد لا يستطيعون أن يقاوموا الفتنة ويصدوا عما يغريهم . فهل أحتاج أن أقول أكثر من ذلك ؟ كلا ! فإنك تفهم عنى وتدرك ما أعنى . والآن هذا ما ينبغى أن تفعل : — تبعث فى طلب

مركبة حينما ترى أن نفسك قد ثابت إليك ، وأغلق نوافذها كلها عند ما تركب ،
ومُر السائق أن يجتاز بك إلى بيتك الشوارع الكبيرة المضاءة . إفعل هذا تسلم
ويسلم لك مالك . إفعل ما أشير به ، وغداً ستدرك أنك مدين بالشكر لجندى
هرم على ما أخلص لك النصح فيه . »

وما كاد الجندى السابق ينتهى من خطبته التى ألقاها بصوت شجى ، حتى
جاءت القهوة ، مصبوبة فى فنجانين . وناولنى صديقى المحتفى بى ، أحد الفنجانين
وهو ينحنى لى . وكان ريقى جافا من الظمأ فشربت القهوة دفعة واحدة . ولم
أكد أرد الفنجان إلى مكانه حتى انتابنى دوار شديد ، وأحسست أنى ازددت
سكراً ، وصارت الغرفة تدور بى بعنف ، وصار الجندى فيما يبدو لى يصعد ويهبط
أمامى كأنه كبّاس آلة بخارية . وأصمّنى صوت يدوّى فى مسمعى ، واستولى علىّ
الشعور بالحيرة والذهول ، والعجز ، والغباء ، فنهضت عن الكرسى ، وأنا أعتمد
على المائدة لأحتفظ بتوازنى ، وتمتمت أنى مريض ثاقل[1] فلست أدرى كيف
أذهب إلى بيتى .

فقال الجندى ، وكان صوته أيضاً فيما يُخيّل إلىّ ، يضطرب ويعلو ويهبط
كبدنه « يا صديقى العزيز ، إن من الجنون أن تذهب إلى بيتك وأنت على هذا
الحال . فستفقد مالك على التحقيق . وقد تسرق وتُقتل أيضاً بسهولة . إنى أنا
سأنام هنا ، فنم هنا أيضاً ، فإنهم يجيدون إعداد الأسرة وتسويتها فى هذا
البيت — خذ سريراً ، وأفسد سورة الخمر بالنوم ، ثم عد غدا إلى بيتك ،
وأنت آمن ، ومعك مكاسبك ، فى وضح النهار » .

ولم يبق فى رأسى سوى خاطرين — الأول أن لا أدع الصرّة المحشوة بالمال

(١) الثاقل الذى أثقله المرض .

تفلت من يدى ؛ والثانى أنه يجب أن أرقد حالا وأنام لأرتاح مما أعانيه ، ومن أجل هذا قبلت ما اقترحهُ الجندى من النوم هنا ، وتناولت ذراعه ، وحملت الصرة بيدى الأخرى . وتقدمَنا الضريب فاجتزنا بعض الممرات وصعدنا درجات إلى الغرفة التى سأنام فيها . وهز الجندى يدى مصافحا بحرارة ، واقترح أن نفطر صباح غد معاً ، ثم خرج يتبعه الضريب .

فأسرعت إلى حوض الغسيل ، وشربت بعض ما فى القلة من الماء ، وصببت الباقى فى الحوض ووضعت وجهى فيه ، ثم قعدت على كرسى وحاولت أن أستعيد وثاقة حالى . فسرعان ما أحسست أنى أفيق وأن قوتى ترجع إلى ، وقد كان الانتقال من الجو الفاسد فى حجرة القمار إلى الهواء البارد فى هذه الغرفة ، ومن نور مصابيح الغاز الوهاجة إلى ضوء الشمعة الخافت الهادئ مما قوى الانتعاش الذى أفادنيه الماء البارد . فزال عنى الدوار وبدأت أشعر أنى قاربت حالة الأصحاء العقلاء . وكان أول ما جرى ببالى هو الخطر الذى يستهدف له من ينام الليل كله فى بيت من بيوت القمار ، وكان الذى جرى ببالى بعد ذلك هو الخطر الأكبر الذى يتعرض له من يحاول الخروج من البيت بعد أن يوصد بابه ، والذهاب إلى البيت وحده فى الليل ، مخترقاً شوارع باريس ومعه مبلغ ضخم من المال. ولقد نمت فى شر من هذا البيت خلال أسفارى العديدة . ولذلك صح عزمى على أن أسكَّ الباب وأُضَبِّبَهُ[1] وأترسه ، وفى الصباح أرى ما يجيء به الحظ .

وهكذا اتقيت التطفل على ، ثم نظرت تحت السرير ، وفى الصوان[2]

(١) السك والتضبيب ، لفظان صحيحان ومعناهما معروف ، والترس ما يوضع خلف الباب .

(٢) ما تصان فيه الثياب .

واختبرت مشابك النافذة ، ولما اقتنعت بأنى لم أقصر فى الحيطة خلعت ثيابى الفوقية ، ووضعت الشمعة على الموقد بين رماد الخشب ، ورقدت على السرير ، ودسست صرتى تحت المخدة .

وما لبثت أن تبينت أن النوم لن يؤاتينى ، وأنى لن أستطيع حتى أن أغمض جفونى . فقد كنت تام التنبه وفيما يقارب الحمى ، وكان كل عرق فى بدنى ينبض ، وكل حاسة من حواسى مرهفة ، فجعلت أتقلب ، وأجرب كل رقدة ، وألتمس المواضع الباردة من الفراش ، ولكن بلا فائدة ، وكنت تارة أريح ذراعى على ظهارة الفراش ، وتارة تحتها ، وتارة أدفع رجلىّ وأمدها إلى آخر السرير ، وطوراً آخر أطويهما إلى قريب من ذقنى ، ومرة أهز المخدة وأقلبها على الوجه الآخر ، وأسويها وأرقد على ظهرى ، ومرة أثنيها وأقيمها على حدها وأسندها إلى ظهر السرير وأحاول أن أنام وأنا راقد كقاعد . ولكن هذا كله كان عبثاً فتوجعت وسخطت وأدركت أن أمامى ليلة طويلة سأقضيها مسهداً .

وما ذا أستطيع أن أصنع ؟ لم يكن معى كتاب فأتسلى بالقراءة ، وإذا لم أهتد إلى ما أشغل به نفسى وألهى به عقلى فإن من المحقق أن يفضى بى ذلك إلى حال أتوهم فيه كل ضرب من المخاوف والأهوال ، وأتصور كل ممكن وكل مستحيل من المخاطر — أى أن أقضى الليلة وأنا أقاسى كل أنواع الفزع العصبى .

واتكأت على مرفقى وأجلت عينى فى الغرفة ، وكان القمر يريق عليها ضوءه اللين من النافذة ، وفى مأمولى أن أجد صورة أو حلية أتأملها . وتذكرت وأنا أدور بعينى من جدار إلى جدار ، ذلك الكتاب الممتع « رحلة فى غرفتى »

فاعتزمت أن أحذو حذو الأديب الفرنسى ، وأن أنشد من التسليــة ما يخفف آلام السهاد وسآمته ، وذلك أن أحصى — فى رأسى — كل ما أستطيع أن أرى من متاع الغرفة وأثاثها وأن أتتبع إلى مصادرها جمهرة الذكريات التى لا يعجز عن إثارتها حتى كرسى أو مائدة أو حوض .

على أن اضطراب أعصابى جعل الإحصاء أسهل علىّ من التفكير ، فما لبثت أن يئست من قدرتى على انتهاج الطريق الذى ضرب فيــه صاحب « رحلة فى غرفتى » ، لا ، بل من القدرة على أى تفكير ، فأدرت عينى فى الغرفة ، ونظرت إلى قطع الأثاث المختلفة ، ولم أزد على ذلك .

وكان هناك ، أولا ، السرير الذى أرقد عليه ، وله عمد أربعة ، وذاك آخر ما كنت أتوقع أن أجد فى باريس — سرير إنجليزى الطراز ذو أربع قوائم ، يحيط به من فوق ، سِجف منقوش ، وينسدل عليه ستران مقرونان خانقان ، تذكرت أنى لما دخلت الغرفة ، رددت كل شق منهما إلى القائمة من غير أن أجعل بالى إلى السرير نفسه . وكان هناك أيضا حوض من الرخام للغسل ، هو الذى صببت فيه الماء بلا تحرز أو أناة ، ولا تزال بقية مما أريق على حافته يقطر ببطء على الأرض ؛ وثم أيضا كرسيان صغيران ، ألقيت عليهما ما خلعت من ثيابى ، وكرسى آخر كبير ذو ذراع ، وقد طرحوا عليه حِبسا أبيض إلا أنه قذر ؛ وعلى ظهره بنيقتى وربطة رقبتى ، وصوّان له أدراج ، مقابض بعضها منزوعة ، ودواة من الصينى مزخرفة ولـكنها مكسورة موضوعة على ظهر الصوان كأنهـا حلية ، ومنضدة للزينة ، عليها مرآة صغيرة جدا ؛ ومدبسة كبيرة جدا ؛ ثم الشباك وهو أكبر من المألوف ؛ وكانت هناك أيضا صورة قاتمة قديمة رأيتها على ضوء الشمعة ، وهى صورة رجل على رأسه قبعة أسبانية عالية مزدانة بالريش ؛

ووجهه وجـه شرير نذل ؛ وعيناه تنظران إلى فوق ؛ ويده على حاجبه كأنه يستشرف . وكان يحدّق فيما فوق ؛ فلعله كان يرمق مشنقة عالية يوشك أن يتدلى منها . ومهما يكن من ذلك ، فلا شك أن هيئته كانت هيئة رجل يستحق هذا المصير بلا جدال .

وكأنما أعدتنى الصورة فرحت أصعد بصرى إلى ما فوق — إلى سقف السرير . ولـكن منظره كان كريها ؛ فحولت عينى إلى الصورة ؛ ورحت أعد الريشات التى تزدان بها القبعة ، فإذا هى ثلاث بيضاء ، وثلاث خضراء ؛ وتأملت قمة القبعة فألفيتها مخروطيــة الشكل ، من الطراز الذى كان يميل إليه ويؤثره « جيدو فوكس » ؛ وتساءلت عما ينظر إليه هذا الرجل المرسوم ! لا يمكن أن تكون النجوم همه ، فإن شريرا مثله لا يكون فلـكيا ولا منجما ؛ فلا بد أن تكون عينه على المشنقة العالية التى سيرفع إليها ويتدلى منها بعد قليل ! فهل يرث الجلاد قبعتــه العالية المريشة ؟ وأحصيت الريش مرة أخرى فألفيته كما كان ؛ ثلاث ريشات بيضاء ، وثلاث ريشات خضراء !

وبينما كنت أتشاغل بهذا ، شردت خواطرى ، وأذكرنى ضوء القمر فى الغرفة ليلة مقمرة فى انجلترا — بعد رحلة للنزهة فى واد ببلاد ويلز . وتمثل لخاطرى كل ما شاهدته وأنا عائد مع رفاقى من هــذه الرحلة ؛ من المناظر الجميلة التى زادها القمر جمالا ، وأكسبها فتنة لا تـكون لها بغيره ، ومن العجيب أنى كنت نسيت هذه الرحلة ولم أفـكر فيها كل هذه السنوات الطويلة ، ولو أنى حاولت أن أتذكرها لـكان المحقق أن لا أستعيد إلا قليلا من مشاهدها . فيا لهذه الذاكرة التى لا تزال تعيننا على الاعتقاد بأنا خالدون على الرغم من الفناء المادى ! ها أنا ذا فى بيت مريب لا عهد لى به ، وفى موقف قلق لا يخلو من خطر

من شأنه أن ينفى إمكان التفكير الهادئ ، ومع ذلك أرانى أتذكر ، عفوا وبلا جهد منى ، أماكن وأشخاصا ، وأحاديث ودقائق من كل ضرب ، كنت أظنها قد طويت طيا ليس له من نشر ، وما كان من الممكن أن أتذكر ذلك بإرادتى حتى فى أحسن الأحوال . وما الذى أثار هذه الذكرى فى لحظة واحدة ، وأحدث هذا الأثر العجيب المعقد الخفى السر ؟ لا شىء سوى أشعة القمر الداخلة من نافذة غرفتى !

وكنت لا أزال أفكر فى تلك الرحلة — وفى مرحنا ونحن عائدون منها ، وفى السيدة الشابة التى تأبى إلا أن تنشد أبياتا من قصيدة « تشايلد هارولد » — بيرون — لأن القمر كان يضيء الدنيا ، وردتنى هذه المناظر والملاهى المنسية إليها واستولت على ، وإذا بالخيط الذى تعلقت به ذكرياتى ينبتّ فى ثانية واحدة ، وإذا بى أُرد إلى الحاضر الذى أنا فيه بقوة ، وإذا بى ألفى نفسى — لا أدرى لماذا ؟ — أنظر بحدة إلى الصورة المعلقة مرة أخرى !

أنظر باحثا عن أى شىء ؟

يا إلٰهى ! لقد شد الرجل المرسوم قبعته على حاجبيه !! كلا ! بل اختفت القبعة كلها ! أين ذهبت القبعة المخروطية الشكل ؟ وأين الريشات الست — الثلاث البيضاء ، والأخر الخضراء ؟ لم يبق لها وجود !! وما هذا الذى يحجب جبينه الآن وعينيه ويده المرفوعة إلى ما فوق حاجبيه ؟

أفى السرير شىء يتحرك ؟

انقلبت على ظهرى ، وحدقت . أترانى جننت ؟ أم أنا سكران ؟ أم هو حلم ؟ أم عاودنى الدوار ؟ أم سقف السرير يهبط ببطء ، ولكن باطراد ، وفى سكون ؟ يهبط كله شيئا فشيئا ، بطوله وعرضه ، ويدنو منى قليلا فقليلا وأنا راقد تحته ؟ ؟

وأحسست كأنما جمد الدم فى عروق ، وابترد جسمى وسرى مثل الشلل فى بدنى ، وأنا أقلب خدى على الوسادة ، لأنظر إلى الرجل المرسوم فى الصورة وأرى هل يهبط سقف السرير حقاأو هو ثابت لا يتحرك ؟

وكانت نظرة واحدة إلى الصورة حسبى . فقد كان السجف المنقوش المحيط بجوانب السرير من سقفه محاذيا لخصر الرجل ! وظللت أنظر وقد احتبست أنفاسى ، ورأيت الصورة المرسومة تختفى ، والإطار من تحتها يغيب ، والسقف يهبط ببطء ، وفى اطراد ، و بلا صوت !

وأنا لا جبان ، ولا ضعيف القلب . وقد تعرضت للمخاطر والمهالك أكثر من مرة فى حياتى ، ولم أفقد عقلى لحظة واحدة ، ولكنى لما أيقنت أن سقف السرير يتحرك وأنه يهبط علىّ ، نظرت إليه وأنا أرعد ، وقد فاجأنى الروع فلا حيلة لى تحت هذه الأداة القاتلة الشنيعة التى تقترب منى لتخنقنى وأنا راقد .

خذلنى الرشد ، وخاننى اللسان ، وتعلقت أنفاسى وأنا أنظر ، وكانت الشمعة قد نفدت فانطفأت ، ولكن القمر كان يضيء الغرفة . وكان السقف يهبط بلا توقف ، ولا صوت ، وأنا من الفزع كأنما شددت إلى المرتبة ، و بلغ من دنو السقف منى أن شممت رائحة التراب الذى فى السجف المحيط به .

وفى هذه اللحظة الأخيرة تنبهت غريزة المحافظة على الذات ، وأنقذتنى من الذهول الذى استولى علىّ فتحركت ، ولما أكد ، فما كان هناك من المسافة بين المرتبة والسقف أكثر مما يسمح بالانقلاب على جنبى والتدحرج عن السرير . و بينما كنت أهوى إلى الأرض بلا ضجة أو ضوضاء لمست بكتفى سجف هذا السقف القاتل .

ولم أنتظر حتى تنتظم أنفاسى ، ويثوب إلىّ جسمى ، ولم أعن بأن أمسح

العرق البارد الذى تصبب من وجهى ، بل أسرعت فنهضت على ركبتى لأرى سقف السرير من سطحه . وأعترف أنى سُحرت فسُمرت فى مكانى . فلو أنى سمعت حينئذ وقع أقدام خلفى لما استطعت أن أدور أو أتلفت ، ولو أن وسيلة للنجاة أتيحت لى بمعجزة لما وسعنى أن أتحرك لأنتفع بها ، فقد صار كل ما فىّ من قوة وحياة مركزاً فى عينىّ .

ظل السقف كله يهبط ، ومعه السجف الذى يدور به ، حتى لم يبق بينه وبين المرتبة ما يكفى لدس إصبع ، فمددت يدى وتحسست جوانب السقف ، فإذا الذى كنت أحسبه ، وأنا راقد ، سقفاً عاديا لسرير ذى قوائم أربع ، مرتبة سميكة عريضة يحجبها السجف ويسترها من تحتها ظهر الكلة ، فصعدت طرفى فأبصرت القوائم الأربع عارية . وفى وسط السقف الهابط بِزال[1] عظيم خارج من سقف الغرفة ، وهو ولا شك الذى نزل بالسرير ، على نحو ما تفعل المكابس . وكانت هذه الأدوات الضاغطة الرهيبة تتحرك من غير أن تحدث أخفت صوت . فما سمعت شيئاً وأنا راقد ، ولا كان هناك أدنى جرْس من الغرفة التى فوقى . وفى هذا السكوت المروّع ، وفى القرن التاسع عشر ، وفى عاصمة فرنسا المتحضرة ، رأيت أداة للقتل خنقاً ، مثلها لعله كان موجوداً فى أحلك أيام محكمة التفتيش ، أو فى الفنادق النائية المنقطعة فى جبال الهارتز أو فى محاكم وستفاليا السرية . وكنت وأنا أتأملها ، لا أزال عاجزا عن الحركة ، ولا أكاد أستطيع أن أتنفس ، ولكنى استعدت قدرتى على التفكير فتجسدت لى المؤامرة التى دبرت لهلاكى فى أفظع صورها .

لقد كانت القهوة التى قدمت لى ، فيها مخدر ، ولكنه كان أقوى مما يجب

---

(١) البزال البريمة .

فأنجانى من الموت اختناقاً أنى تناولت فوق الكفاية من المخدر ، ولشد ما كنت أتبرم وأسخط على الأرق الذى أنقذنى ! ! ولشد ما وثقت بالوغدين اللذين قادانى إلى هذه الحجرة ، وقد اعتزما أن يقضيا على حياتى ليظفرا بمكاسبى ! ! وما أكثر الذين ربحوا مثلى ، وناموا مطمئنين ، كما كنت أحب أن أنام ، على هذا السرير ثم لم يرم ، ولا سمع بهم أحد بعد ذلك ! ! وسرت فى بدنى الرعدة وأنا أتصور هذا المصير الذى كنت صائراً إليه .

وتعطل كل تفكير ، مرة أخرى ، حينما رأيت أداة الهلاك تتحرك مرة أخرى فبعد أن لبثت جاثمة على المرتبة حوالى عشر دقائق — على قدر ما استطعت التخمين — بدأت ترتفع ، ولا شك أن الأوغاد الذين كانوا يحركونها من فوق اعتقدوا أنهم بلغوا غايتهم وحققوا مآربهم . وكما كانت تهبط فى بطء وسكون كذلك أخذت تصعد إلى مكانها الأول ، فلما بلغت أطراف القوائم الأربع للسرير كانت قد بلغت السقف أيضاً ، واختفى الثقب والبزال جميعاً ، وعاد السرير — كما كان يبدو للعين — سريراً عاديا ؛ وسقفه السقف المألوف الذى لا يبعث على أى استرابة .

ووسعنى الآن — لأول مرة — أن أتحرك ، وأن أنهض عن ركبتى وأرتدى ثيابى وأفكر فى النجاة والتماس الطريق إليها . وكنت أدرك أن على أن أتقى أن أحدث صوتا يدل على أن الذين حاولوا خنقى ، أخفقوا ، وإلا قتلونى على التحقيق . فهل ترانى أحدثت صوتا ؟ أرهفت أذنى ، وجعلت عينى على الباب لأتبين .. كلا ؟ لم أسمع وقع قدم فى الدهليز ، ولا صوتا ، لا خفيضاً ولا عاليا من الغرفة التى فوقى . وكان السكون تاما فى كل مكان ، وكنت قد حرصت قبل الرقاد على السرير ، على إيصاد الباب وتضبيبه ، ولم يكفنى ذلك فوضعت خلفه

صندوقا قديماً من الخشب وجدته تحت السرير ، فاتخذت منه مترسا . وكان من المستحيل نقل هذا الصندوق الآن من موضعه وراء الباب بلا ضجة (وقد اقشعر بدنى وأنا أفكر فيما عسى أن يكون مخبأ فيه !) . كذلك كان من الجنون أن أفكر فى الخروج من البيت من بابه الموصد . فلم يبق لى إلا النافذه ! فمشيت إليها على أطراف أصابعى .

وكانت غرفتى فى الطابق الأول فوق كُنَّة ، وهى تطل على الشارع الخلفى الذى خططته فى رسمك ، فرفعت يدى لأفتح النافذة وأنا أعلم أن سبيل النجاة رهنٌ بهذا ؛ فإن بيتاً كهذا يقتل فيه الناس لا بد أن يكون عليه حُراس لا ينامون ، و إنى لجدير بأن أقضى نحبى على نحو ما ، إذا أطَّ الشباك أو صوّت نجرانه[1] . وقد قضيت خمس دقائق — فى حساب الزمن — وخمس ساعات فيما كنت أحس ، فى فتح هذا الشباك ، ووفقنى الله إلى فتحه فى سكون ، كما كان يمكن أن يفعل أمهر اللصوص وأحذقهم ، ثم أشرفت على الشارع وأدرت عينى فيه ، فوجدت أن إلقاء نفسى من النافذة ، يكون فيه هلاكى المحقق ، فأجلت طرفى فى جوانب البيت ، فرأيت على الجانب الأيسر منه ، أنبوبة الماء الغليظة التى رسمتها ، وكانت قريبة من الشباك ، وما كدت أراها حتى أيقنت من النجاة ، تخلصت أنفاسى لأول مرة مذ رأيت سقف السرير يهبط علىّ !

وقد يرى بعض الناس أن وسيلة النجاة التى اهتديت اليها خطرة ، ولكن انزلاقى على الأنبوبة إلى الطريق ، لم يتمثل لى فيه أى خطر ، فقد استطعت بالمواظبة على الرياضة البدنية ، أن أحتفظ بقدرتى على التسلق و براعتى فيه ،

---

(١) النجران ما يدور عليه الباب أو الشباك ، والأطيط صوت الخشب أو الجلد وما أشبههما .

وكنت واثقا أن رأسي ويديّ ورجليّ لن تخونني . لهذا لم أتردد في الإقدام ، فركبت حافة النافذة ، ولكني تذكرت صرة المكاسب المدسوسة تحت الوسادة ، وكان في وسعي أن أدعها ، ولكني آليت ألا أترك لأشرار هذا البيت ما كانوا يمنّون النفس باستلابه ، ولهذا عدت إلى السرير ، وربطت الصرة الثقيلة برباط رقبتي ، وألقيتها على ظهري .

وخيل إليّ ، بعد أن فرغت من ذلك ، أني سمعت حسيس أنفاس وراء الباب ، فسرت رعدة الفزع في بدني مرة أخرى ، وأنا أنصت وأتسمّع . كلا ! لا ركز ، ولا شيء غير السكون في الدهليز ، وإنما كان ما سمعته هسيس الهواء الداخل في الغرفة ، ولم أضع وقتاً ، فوثبت إلى حافة النافذة ، ومن ثم تعلقت بأنبوبة الماء بيديّ وركبتيّ .

وانحدرت إلى الشارع بسهولة وبغير ضجة ، كما كنت أتوقع ، وذهبت أعدو بأقصى ما يسعني من السرعة إلى مركز الشرطة ، وكنت أعرف أنه في جوار هذا الحي . وكان هناك ضابط وبعض الجنود يحكمون تدبير خطة ، على ما أعتقد ، للاهتداء إلى من ارتكب جريمة خفية كانت باريس كلها تلغط بها يومئذ . فلما شرعت أقص قصتي ، بسرعة ، وبلغة فرنسية محطمة ، كان من الجلي أن الضابط يحسبني إنجليزيا مخموراً سطا على بعضهم وسرقه ، ولكن سرعان ماغير رأيه بعد أن مضيت في قصتي ، وقبل أن أتمها كان قد دس ما أمامه من الأوراق في درج ، ولبس قبعته ، وأعارني قبعة (فقد كنت عاري الرأس) وأمر صفا من العسكر أن يستعدوا ، وطلب من الصناع أن يهيئوا كل ضروب الآلات اللازمة لفتح الأبواب عنوة ورفع بلاط الأرض ، وتناول ذراعي كأني صديق حميم ، وخرج بي . وأجازف فأقول إن الضابط ، لما كان طفلا صغيراً ، وحمله أهله

أول مرة إلى الملعب لم يكن فرحه بذلك كفرحه الآن بما يتوقع أن يجد فى البيت الذى هربت منه .

واجتزنا الشوارع والضابط يستجوبنى ويهنئنى فى وقت معاً ونحن سائران على رأس القوة التى صحبتنا ، ولما بلغنا البيت وضع الحراس أمامه وخلفه ثم أهوى على الباب يدقه ويقرعه فظهر نور فى نافذة ، فأمرنى أن أتوارى وراء الشرطة ، وتلت ذلك قرعات أخرى أشد وأقوى ، وصيحة « افتحوا باسم القانون ! » فانفتحت المزاليج والمغاليق أمام هذه الصيحة المرعبة ، وما كاد المصراع يتحرك حتى كان الضابط فى الدهليز يواجه خادماً ممتقع اللون فى نصف ثيابه فدار بينهما هذا الحوار الوجيز :

« نريد أن نرى الإنجليزى النائم فى هذا البيت » .

« قد خرج منذ ساعات » .

« لم يفعل شيئاً من ذلك — انصرف صاحبه وبقى هو . فاذهب بنا إلى غرفته »

« إنى أقسم لك ياسيدى الضابط أنه ليس هنا . . . إنه . . . » .

« إنى أقسم لك ياسيدى الخادم أنه هنا . نام هنا ثم لم يجد سريركم مريحاً فجاء إلينا يشكو — هذا هو بين رجالى ، وهذا أنا جئت لأبحث عن هناة أو اثنتين فى سريركم ! يا رينو دان (أحد أعوانه) شد وثاق هذا الرجل واربط يديه وراء ظهره . والآن فلنصعد » .

وقبضوا على كل رجل وكل امرأة فى البيت ، وفى طليعتهم ذلك « الجندى القديم » وأريتهم السرير الذى رقدت عليه ثم صعدنا إلى الغرفة التى فوقه . فلم نر أى شىء فيها يمكن أن يستغرب أو يلفت النظر ، فأجال الضابط عينه فيها وأمر الحاضرين أن يلزموا الصمت وضرب الأرض برجله مرتين ودعا بشمعة

وفحص الموضع الذى ضرب به برجله ، وأمر بأن ينزع البلاط ، فكان ما أراد فى أوجز وقت ، وجيء بالأنوار الكافية فرأينا فجوة عميقة مدعمة بالخشب بين أرض الغرفة وسقف الغرفة التى تحتها ، وفى هذه الفجوة صندوق قائم من الحديد عليه شحم كثير وفى جوفه البزال المتصل بسقف السرير ، ووجدنا عدا ذلك ضروباً أخرى من البزال حديثة التزييت ، وروافع مكسوة بالمخمل ، وكل ما تركب منه آلة ضاغطة ثقيلة ، وهى جميعاً مصنوعة بحيث يسهل وصلها بما أُعد فى الغرفة التحتية ، وبحيث تفك وتوضع فى أضيق مكان . وبعد قليل من العناء استطاع الضابط أن يركب هذه الآلة ، ثم ترك رجاله ليديروها وانحدر هو إلى الغرفة التى فيها السرير ، وأُنزل السقف الخانق ولكن نزوله أحدث صوتاً لم أسمعه وأنا راقد ، وقد ذكرت هذا للضابط فكان جوابه العظيم الدلالة : « إن رجالى يستعملون هذه الآلة للمرة الأولى ، أما الذين ربحت مالهم فإن خبرتهم أطول ومراتهم أوفى » .

وغادرنا البيت فى حراسة اثنين من رجال الشرطة فقد نقل كل من كان فيه إلى السجن . وبعد أن دون الضابط أقوالى فى مكتبه ذهب معى إلى فندق ليرى جواز سفرى . وقد سألته وأنا أقدمه له : « أتظن أن أحداً خنق حقيقة على هذا السرير كما حاولوا أن يخنقونى ؟ » .

فقال : « لقد رأيت عشرات من جثث الغرقى فى معرض المجهولين ، وقد وجدت معهم إقرارات بأنهم انتحروا فى نهر السين لأنهم خسروا مالهم على مائدة القمار . ومن أدرانى أنهم لم يدخلوا البيت الذى دخلتـه ؟ وربحوا كما ربحت ؟ وناموا حيث رقدت ؟ واختنقوا فيه ؟ ثم ألقوا بهم فى النهر وفى ثيابهم إقرار كتبه القتلة ؟ إنه ما من أحد يستطيع أن يقول كم لقوا الحتف الذى نجوت أنت منه . وقد كتم أهل هذا البيت سر آلتهم عنا نحن الشرطة — وتكفل الموتى بكتمان

باقى السر . والآن عم مساء ، أو على الأصح عم صباحا يا سيد فولكنر . وأرجو أن تعود فى الساعة التاسعة ، وإلى الملتقى ! » .

ولم يبق من قصتى إلا قليل — سئلت مرة وأخرى ، وفتش كل مكان فى البيت ، واستُجوب المقبوض عليهم ، كل واحد منهم بمفرده ، واعترف اثنان منهم . وتبينت أنا أن « الجندى القديم » هو صاحب بيت القمار ، وأظهر التحقيق أنه طرد من الجيش من سنين لسوء سيرته ، وأنه اقترف كل ضروب الآثام بعد ذلك ، وأن عنده مسروقات شتى عرفها أصحابها ، وأنه هو والضريب وشريك آخر والمرأة التى وضعت لى المخدر فى القهوة ، يعرفون جميعا سر السرير ، وكان هناك شك فى أن غيرهم ممن يعملون فى هذا البيت يعرفون شيئا عن الأداة الخانقة المركبة فيه ، فانتفعوا بهذا الشك ، وعدهم القضاء لصوصا ومتشردين . أما الجندى القديم وشريكاه فحكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وأما المرأة فكان نصيبها السجن سنوات نسيت عددها . وعُد الذين يختلفون إلى هذا البيت بانتظام « مشتبها فيهم » ووضعوا تحت المراقبة ولبثت أسبوعا كاملا (ما كان أطوله !) وأنا أبرز رجل فى المجتمع الباريسى . واتخذ ثلاثة من مشاهر الروائيين ، حادثتى موضوعا لقصصهم المسرحية ، ولكنها لم تر الضوء ولم تمثل منها واحدة لأن الرقابة منعت أن تظهر على المسرح صورة صادقة لهذا السرير .

على أن الحادثة أثمرت خيراً لاشك أن أية « رقابة » لايسعها إلا أن تحمده . ذلك أنها شفتنى وزهدتنى فى لعبة « الأحمر والأسود » وبغضت إلىّ التسلى بها ، وسيظل منظر الغطاء الأخضر ، وعليه أوراق اللعب ، وأكوام الفلوس ، مقرونا عندى بمنظر سقف سرير يهبط علىّ ليخنقنى فى ظلام الليل وسكونه .

وليم هيل هوايت

(مارك روذرفورد)

١٨٣١ — ١٩١٣

نفس رضية

منذ أربعين سنة خلت كنت « كاتبا » فى ديوان للحكومة فى « هوايتهول » وكنت قد قضيت فى عملى هذا ثلاث سنوات . وكان أبى على شىء من الخفض فى العيش وله ألف وخمسمائة فدان ، ولما لم يكن له من الولد سوى بنت وغلام فقد وسعه أن يدخلنى فى مدرسة « هارو » التى تعلم هو فيها وقد انتقلت من « هارو » إلى « كمبردج » وأديت الامتحان الخاص بالخدمة المدنية بنجاح ، وما لبثت أن خطبت « مرغريت راشورث » بنت راعى الكنيسة ببلدة « همسورث » على مسافة خمسة أميال من بلدتنا ، وفى سنة ١٨٧٠ بنيت بها . وكان أبى يوسع علىّ بمائة جنيه فى العام غير ما أتقاضاه من عملى ، وكان لمرغريت خمسون جنيها فى العام ، فاتخذنا لنا بيتا فى « بلاك هيث » .

ولم تكن مرغريت ذات ولوع بالقراءة ، وإن كانت تجيد تحصيل ما تقرأ وقد حدثت نفسى أنها ستتفتح ، أعنى أن تُشغف بالأدب وتُغرى بالاطلاع عليه ولكنها لم تفعل ولم يصدق ظنى ، ولعله كان لا يسعها إلا أن تمو وتنضج وفق طبيعتها ، وعسى أن يكون الله قد شاء — وإن كانت هى لا تدرى — أن تبقى طبيعتها الخاصة غير مشوبة أو متأثرة بطبيعة أخرى . أما أنا فكنت على نقيضها ولم تكن لى حياة إلا فى الكتب ، وكنت أيام كمبردج قد دخلت فى الأدب دخولا ثابتا فأصبحت أمقت اللهو ولا أطيق الفراغ . وكان حبى للكتب هو الذى يرجع إليه بعض ما فىّ من عيوب ، ومن بينها فقدان الشعور بالتناسب ، والإدراك الصحيح للقِيَم الحقيقية للأشياء . فقصيدة قصيرة من ثلاثة مقاطع

أو أربعة ، أو بضعة أبيات من قصة « اغتصاب خصلة الشعر » ترجح عندى بأخبار الحوادث الجسام ، بل كان خيراً عندى ، وأولى بى فى رأيى ، أن أعرف كيف كان شكسبير يربط حذاءه من الإلمام بأحكام قانون ثورى كقانون الإصلاح . وكان الحديث لا يطيب لى إلا إذا دار على ما أقرأ ، ولا شك أن كثيرين كانوا يعدوننى مغروراً مفتونا متحذلقا ، وأعترف أن مخالطتى كانت لا رضية ولا مطلوبة وكان الهزالون والفارغو القلوب والرءوس يضحكون منى ويتهكمون علىّ ، لأن الرجل الجاد مثلى يكون لأمثالهم عرضة استهزاء من العسير عليهم أن يصدوا أنفسهم عن ركوبه بالعبث والمجانة .

على أن هذه الطبيعة الخاصة لم تتكشف إلا بعد الخطبة بقليل . وقد كنت يومئذ أطمع فى السعادة مع مرغريت ، وأحلم بأن أقضى الأمساء الطويلة ونحن معاً ندرس شيللى (الشاعر) ونبحث سياق قصته « ثورة الإسلام » وهى مسألة كانت لا تزال مستعصية الحل علىّ . وكنت عضواً فى ناد يسمى ، لغير داع خاص ، «نادى السبت » وقوامه اثنى عشر رجلا من أترابى وأشباهى فى النزعة يجتمعون فى اليومين الثانى والخامس عشر من كل شهر للاستفادة وتفتيش الكلام والنظر فى المعارف . وما من ريب فى أن كثيرين يستغربون ذلك ، ولكنه لا يبدو لى غريباً ، حتى الآن ، أن يجلس اثنى عشر من أبناء هذا العالم المبتذل ، إلى مائدة وأن يحاولوا ، بغير معونة من شراب أو طباق أو قهوة ، أن يجيلوا النظر ويتبادلوا الرأى فى موضوعات يعدها الأكثرون ثقيلة منفرة . وقد عدت مرة إلى البيت ورأسى مكتظ بأسلوب الشاعر ملتون فى النظم ، فشرعت أصب على رأس مرغريت ما دار فى اجتماعنا ، وأفضى إليها بآرائى وملاحظاتى على الخصوص ، ولكن لما كانت لم تقرأ قط قصيدة « الفردوس المفقود » ولا

تعرف شيئاً عن البحر المرسل ، فقد أقصرت ، وشعرت بخيبة الأمل . وأسفت هى أيضاً ، وانقضى المساء ، كما تنقضى الأمساء فى أخريات سبتمبر الذى قل أن توقد فيه النار ، ومع ذلك يجىء فيه المطر البارد مع الظلام المتكاثف . وكانت عادتنا إذا وقع الثانى أو الخامس عشر من الشهر ، فى يوم سبت ، أن نجتمع فى الساعة الرابعة ، فاتفق مرة أن حاولنا أن نتبين حقيقة ما حدث للزورق المسحور فى قصيدة « ألاستور » فإن الماء المائج يرتفع « درجة فوق درجة » والزورق يستولى عليه الموج المتسامى . فحيرنى ذلك واشتقت إلى الفهم ، وعدت إلى البيت فلم أستطع أن أصد نفسى عن عرض المعضلة التى تحيرنى ، على مرغريت ، فقرأت لها من قصيدة « ألاستور » كل ما له علاقة بحركة الزورق ، وأفضت فى الشرح والبيان وكنت أراها تجشم نفسها أن تتبعنى وأن تستوضح مجرى الماء ولكنها لم توفق ، وأغضبنى ما تقوله مما لا دخل له فى الأمر ، وسألتنى من عسى أن يكون هذا المطوّف ، وما الغرض من رحلته ؟ فلم أطق صبراً وقلت لها وأنا معتمد بمرفقىّ على المائدة ، ورأسى بين كفى من الغم « لشد ما أتمنى يامرغريت أن أجد عندك أكثر من هذا العطف قليلا ! وما أخلقنى بالسعادة لو أنه كان يعنيك ما يعنينى ! » فلم تقل شيئاً ، وتركتها وخرجت . ولكنى ، وأنا خارج ، خيّل إلىّ ، أن الدمع متحيّر فى عينها ، ففزعت ! فقد كنت أحبها حبا جما ، وحدثت نفسى أن هذا لعله بداية الفتور فى حبى لها . فماذا ينبغى أن أصنع ؟ وكيف أكون إذا حلت بيننا الجفوة ، ووقعت النبوة ؟ وشعرت بالفزع القريب من الجنون الذى يشعر به الناس حين تزلزل الأرض وترتج تحت أقدامهم .

وفى تلك الليلة تعشى معنا صديق قديم من أيام الدرس ، وكنت لم أره منذ سنتين . واسمه روبرت باركلى . وكان أبوه قسيساً درس اللاهوت فى مدرسة

سيميون ، فهو لهذا من الإنجيليين ، وكذلك كان ابنه روبرت الذى تعلم فى كمبردج ، ولـكنه تغير لما بلغ الخامسة والعشرين ، كأنما أفاق من سبات ، وشرع يتساءل وكانت النتيجة أن العقيدة التى رُبِّى عليها بدت له كأنها غير ذات أساس ، وكأنما هى معلقـة فى الفضاء . وظل هكذا حتى أصبح لا يستطيع أن يقول شيئاً غير « لا أدرى » . غير أنه كان من المستحيل أن يطمئن إلى هـذا ويرضى به ، فقد كان ممن تغريهم فطرتهم بالنزوع إلى التقرير والحسم ، فما لبث أن تحول إلى العقيدة الـكاثوليكية وحل بهذه الطريقة ، على نحو يرضيـه ، المعضل الناشئ عن إيجاد سـند للسلطان البابوى ، يرجع إلى المركز الذى أعياه أن يجده فى المذهب السيميونى . وقد اقتنع بأن يقف حيث وقف نيومان — « إنه لا حيلة فى ذلك ، فإما أن نرفض الإيمان بالـكنيسة باعتبارها إلٰهيـة وإما أن نقر لها ونعترف بها فى ذلك النظام الذى يرأسه البابا . وعلينا أن نتقبل الأشياء كما هى كائنة . فإنك إن تؤمن بالـكنيسة تؤمن بالبابا » .

وكان باركلى كثيراً ما يزورنا فى بيت أبى قبل هذا التحول ، فأحب فيرونيكا — أخت مرغريت — وكانتا فى ضيافة أمى . وبادلتـه فيرونيكا حبا بحب ، فخطبها ، وإذا به بعد ذلك تستولى عليه الرغبة ، شيئاً فشيئاً ، أن يكون قسيساً ، ويعمق فى نفسه الإيقان ، بأن من واجبـه أن يفعل ذلك ، وكانت فيرونيكا قد صارت كاثوليكية أيضاً ، وساعفتها قوة النفس فكانت تحضه على أن يلبى ما كان كلاهما يعتقـد أنه نداء إلٰهى . وليس فى وسع إنسان أن يحيط بما قاساه واحتمله هذان — الله وحده هو العليم بهما . وكنت أنا ألمح ، بين آونة وأخرى ، آيات المجاهدة النفسية ، والصراع الذى يدفع الدم فى مسام الجلد .

ولم تـكن الصعوبة فى عمل ما كانا يعتقدان أنه الصواب ، بل فى الاهتداء

إلى الصواب ما هو ؟ فقد كان يبدو لها أحياناً أن ما يدعوهما إلى الحب ، جلى الصوت لا خفوت به ولا غموض فيه ، ولا تردد ، وقد كان كلاهما حارا ، مشبوب العاطفة ، قوى الخيال . فهل من الممكن أن يتصور الإنسان أن هذا الهاتف القوى ليس من الله ؟ أما ما يهيب بروبرت أن يكون قسيساً فلم يكن له مثل هذا الجلاء وذلك الوضوح ، غير أن كلا من روبرت وفيرونيكا كان أذكى وأعلم من أن يغيب عنه أن الوضوح ليس شرطاً فى التوجيه ، وأن الطريق القويم قد توحى به همسة خافتة ولكن لها مثل قوة النفخ فى النفير ، فينهج المرء النهج ولو إلى البوار والتلف . على أنى لا أدرى ماذا جعل الفراق بين فيرونيكا وروبرت أشق وأقسى ، وقد يكون فى هذه السطور التى أنقلها من رسائل روبرت إلىّ ، بعض البيان قال :

« إن فى هذه المأساة ما لا قِبَل لى بالعبارة عنه . فإنه الكشف التام عن كل ما تنطوى عليه كلمة « أبداً » والتجسيد الدقيق لحقيقة معناها » .

وهل يستطيع الإنسان أن يعبر بالألفاظ عن منديل أبيض يخفق من نافذة قطار ، أو عن رصيف خال كانت تقف عليه قبل عشر دقائق امرأة معينة لا تزال صورتها ماثلة وإن غاب عن العين شخصها ؟ إن فى هذا شيئاً غير الأسى بمجرده ، عسى أن يكون تفتح الهاوية الرهيبة الكائنة تحت حياة الإنسان . وقد كانت إحدى نتائج هذه المحنة ، الإخلاص الصافى من كل شائبة ، فقد هذّبه الامتحان ، وصفّت نارُ التجربة معدنه من الأخلاط ، وصارت ألفاظه تقوم مقام الحقائق وتغنى غناءها ، ولعل إخلاصه هذا هو الذى أكسبه ذلك السلطان على نفسى ، وقد عجز عن حملى على اعتناق المذهب الكاثوليكى ، ولكن الفضل فى ذلك يرجع إلى مرغريت التى ردتنى عن متابعته ، فقد

كانت هى الوحيدة التى تستطيع أن تمكننى من المقاومة .

وقد أعجب روبرت بما حدثته به مرغريت — على العشاء — من أسلوبها فى معونة جيرانها الفقراء ، فما كانت تعطيهم مالا ، أو ثيابا ، أو طعاما ، أو تكتفى بالزيارة ؛ وإنما كانت تدخل بيوتهم ، وتعمل فيها ، فتطبخ لهذه ، وتغسل ثياب تلك ، أو تنظف الغرف ، أو تمسح البلاط . ولم تكن هذه معونة حقيقية فحسب ، وإنما كانت كذلك فرصة تغتنمها مرغريت لتعليم هؤلاء النسوة كيف ينبغى أن يعملن عملهن ويؤدين واجباتهن ، وقالت مرغريت وهى تصف مساعيها تلك : « وقد يتاح لى من حين إلى حين أن ألحن بكلمة تنفعهن ، فإنى واثقة أن الكلمة تلقى عرضاً ، أفعل فى نفوس هؤلاء النسوة وأجدى عليهن . ومن العبث أن تتحدث إليهن فى مسائل نظرية أو عامة ، أو أن تعظهن وتفيض فى الكلام على الخطيئة وفظاعتها . ولكن إذا كان جار إحداهن قد ضرب امرأته ، أو كان يشرب ولا يعطيها شيئاً مما يكسب فإن فى وسعك أن تقول فى سوء سيرته ما يعن لك ، وأن ترجو أن يكون لكلامك وقعه . أما الدين كما نفهمه حين نركع ونصلى ، فذلك ما لا سبيل إلى تعليمهن إياه . وإنه ليتطلب موهبة سماوية كالتى لا بد منها للشاعر العظيم ، ألا وإن ردّ اليد عن النشل والسرقة لعسير . . . » .

ونهضت مرغريت إلى فراشها ؛ فقد كانت بطفلتنا ، التى بلغت من العمر ستة شهور ، حاجة إلى عنايتها . وبقينا نحن صامتين بضع دقائق ؛ ثم قال روبرت فجأة وبلا تمهيد .

« مرغريت آية . . . عبقرية . . . ولقد شرفتك بزواجها فكانت بركة عليك ، وليقل الأغبياء ما شاءوا ، فإن الابتكار والعبقرية فى الزوجة من أكبر الأنعم وأعظم البركات . ولكن هناك مع ذلك ما هو أكبر وأعظم » .

وكان صوته يرتجف ويضطرب قليلا وهو يقول ذلك .

عبقرية ! ! إبتكار ! ! هذا ما لم يخطر لى من قبل . وتذكرت الزورق فى قصيدة « ألاستور » ولكن سلطان روبرت كان أقوى من الذكرى ، وكان له من الصولة والسطوة ما يكفى لا لتغيير رأى ما ، فقط ، بل لتغيير وجوه الأمور تغييراً تاما شاملا . كما أدرك Saul فى مثل لمح البصر ، وبلا جدال ، أنه كان مخطئاً . وهكذا كشف لى روبرت عن حقيقة مرغريت التى كانت محجوبة عنى ، وكان هذا منه أشبه بالمعجزة ، إذا اعتبرنا الأداة والوسيلة وقسناهما إلى النتيجة والأثر .

ودخلت غرفتها — فتحت الباب برفق فرأيتها نائمة وإلى جانبها الطفلة ، ولكن مصباح الليل كان مضاءاً . نخلعت نعلى عند الباب وتسللت على أطراف أصابعى إلى المنضدة الصغيرة الموضوعة إلى جانب السرير . فإذا عليها نسخة من ديوان شيللى وأرتنى علامة فيه أنها كانت تدرس الأبيات التى قرأتها لها عن الزورق . فعدت إلى غرفتى ، ولكنى لم أنم . وفى بكرة الصبح ذهبت إلى غرفتها ، فتبينت أنها استيقظت فى الليل ، فقد أرتنى العلامة أنها قلبت صفحة . ولكن عينيها كانتا مغمضتين ، وكان ذراعها على الغطاء . فركعت وتناولت راحتها الجميلة الصغيرة ولثمتها لثمة خفيفة . فتنبهت ، واعتدلت وحنت علىّ ، وأحسست شفتيها على رأسى ، وتهدل شعرها الوحف فكسانى . وقد ماتت منذ عشر سنين ، ولكن المحيا الذى يطالعنى ويتراءى لى دائماً ، سعيد ، والحمد لله .

ريتشارد جارينت

١٨٣٥ – ١٩٠٦

أناندا ، صاحب المعجزات

لما أرسل بوذا رسله ليدعوا إلى دينه وينشروه فى الهند ، لم يفته أن يزودهم بالوصايا لهدايتهم ، وناشدهم أن يتوخوا الوداعة والتواضع والرحمة ، والقصد ، وأن يخلصوا فى بث دعوته ، وأمرهم أن لا يأتوا — فى حال من الأحوال — بمعجزة .

ويروون أن رسله كانوا يعانون عناءا شديدا ، ويكابدون مصاعب جمة فى العمل بأوامره ، وأنهم كانوا أحيانا يخفقون ، إلا النهى عن المعجزات ، فما خالفوا ذلك قط ولا مرة واحده ، ما خلا أناندا التقى الورع الذى نورد فيما يلى سيرته فى العام الأول من رسالته .

ذهب أناندا إلى « مجادا » وشرع يفقه الأهالى فى دين بوذا ، ولما كان المذهب مقبولا ، وكان هو رطب اللسان ، مقنع البيان ، فقد أقبل عليه الناس يصغون طائعين ، وانصرفوا شيئاً فشيئاً عن البراهمة الذين كانوا يوقرونهم من قبل ويعدونهم هداة مرشدين .

« ألا بارك الله فى رسول ينشر الحق بقوة الإقناع والقدوة الحسنة والبيان المشرق لا بالخطأ والدجل والشعوذة كما يفعل أولئك البراهمة التعساء ! » .

ولم يكد يدهور فى شدقه هذا الزهو ، حتى تضاءل جبل فضائله ، وهجرته الفصاحة والبراعة والفضيلة ، فلما خطب الجمهور مرة أخرى بعد ذلك سخروا منه واستهزأوا به ثم رشقوه بالحجارة .

ولما صار الأمر إلى هذا الحال ، رفع أناندا عينيه فأبصر عدداً من البراهمة ،

من طبقة دنيا ، حافين بغلام مصروع على الأرض ، وكانوا يحاولون عبثاً أن يردوا إليه نفسه بالرقى والعزائم وما إلى ذلك من وسائل الشفاء المقررة ، ثم قال أحكمهم :

« فلنترك بدن هذا المريض مَسكناً غير حميد للشيطان ، فلعله حينئذ يزهد فيه ويهجره » .

وعلى أثر ذلك شرعوا يكوون الغلام بالحديد المحمى ، وينفخون الدخان فى منخريه ، ويفعلون ما وسعهم غير ذلك لإزعاج الشيطان المتطفل . فكان أول ما خطر لأناندا « أن الغلام مصاب بنوبة صرع » . وكان الخاطر الثانى « أن إنقاذه من معذبيه عمل طيب » . والخاطر الثالث «إذا أحسنت التدبير فقد يخرجنى هذا من المأزق الذى أنا به ، ويعلو به اسم بوذا المقدس » .

ولَانَ للإغراء ، فتقدّم وطرد البراهمة بصوت الآمر المسيطر ، ورفعَ وجههُ إلى السماء وتَلَا أسماء الشياطين السبعة . ولما لم يُحْدث هذا أثراً ، تلا أسماء سبعة آخرين ، ثم غيرها وغيرها . واتفق أن زالت النوبة من تلقاء نفسها ، وانقطع اضطراب الغلام وتلوّيه ، وفتح عينيه ، فرده أناندا إلى أهله . ولكن الناس صاحوا بأعلى صوت : « معجزة ! معجزة ! » . فلما عاد أناندا يعظهم أصغوا له ، واعتنق كثيرون منهم مذهب بوذا . فسر أناندا سروراً عظيما ، وأثنى على نفسه لما كان من براعته وحضور ذهنه ، وقال : « لا شك أن الغاية تبرر الوسيلة » .

وما كاد ينطق بهذا الكفر حتى تضاءل جبل فضائله ومزاياه ، وصار فى القدر قرية من قرى النمل ، وفقد قيمته ووزنه فى عيون القديسين ، ما عدا بوذا الرحيم الواسع المغفرة .

وذاع حديث المعجزة فى طول البلاد وعرضها ، حتى بلغ مسامع الملك ، فدعا به وسأله هل أخرج الشيطان وطرده حقا ؟

قال : « بلى » .

قال الملك : « هذا يسرنى ، فانى أريد منك أن تشفى ابنى ، فقد غشيه سبات لا يفيق منه منذ تسعة وعشرين يوما » .

فقال أناندا بلهجة وديعة : « وا أسفاه يا مولاى ! إن الفضائل التى لا تكاد تكفى لشفاء منبوذ تعس ، كيف تجدى فى إبراء ابن ملك هو فيل بين الأقيال الصيد ؟ » .

فسأله الملك : « وبماذا تُكتَسَب هذه الفضائل ؟ » .

قال أناندا : « بالتكفير عن الذنوب ، ورياضة النفس على النسك ، وبفضل هذا يستطيع الناسك المتبتّل أن يُركد الرياح ، ويُرقد الموج ، ويجادل ويقنع النمور ، ويحمل القمر فى كمه ، ويفعل غير ذلك كل ما يُطمع فيه من ساحر متجول » .

فقال الملك : أما والأمر كما تقول ، فإن من الواضح أن عجزك عن شفاء ابنى سببه ، نقص الفضل ، والنقص فى الفضل سببه النقص فى التكفير ، لهذا سأكل أمرك إلى براهمتى ليساعدوك على سد هذا النقص » .

وعبثاً حاول أناندا أن يبين له أن التكفير الذى يعنيه عقلى وروحى ليس إلا . وقد سر البراهمة أن يقع بين مخالبهم ملحد فى رأيهم ، فانقضوا عليه وحملوه إلى معبد ، وهناك نزعوا عنه ثيابه فأذهلهم أن لا يروا على بدنه أثراً لجرح من ضربٍ أو كيّ . فصرخوا « ياللفظاعة ! هذا رجل يطمع أن يدخل ملكوت السماء بجلد سليم ! » وأرادوا أن يصلحوا هذا الخطأ ، فبطحوه[1] وأهووا عليه بالسوط يجلدونه حتى عفّوا على سلامة جلده البغيضة . ثم انصرفوا عنه على وعد بأن

(١) بطحه ألقاه على وجهه .

يرجعوا إليه فى اليوم التالى ليعيدوا الكرة ، وأكدوا له ساخرين أن فضله بعد ذلك لن يكون دون فضل القديس « باجيراتا » أو حتى فيشوامِترا نفسه .

وبقى أناندا ، حيا كميت ، على أرض المعبد ، وإذا بالهيكل يضيئه شبح باهر اللألاء يقول :

« والآن أيها المرتد ، هل اقتنعت بحماقتك ؟ » .

فلم يسغ أناندا اتهامه فى دينه بالفتون ، ولا الطعن فى عقله وحكمته ، ولكنه مع ذلك تطامن فقال :

« معاذ الله أن أندم أو أتبرم بما يصيبنى فى سبيل دينى وأداء رسالة مولاى »

« أتحب أن تبرأ أولا ، ثم تكون أداة لتحويل أهل « مجادا » جميعاً عن دينهم ؟ » .

فسأله أناندا « وكيف يستطاع ذلك ؟ » .

قال الروح : « باللجاجة فى طريق الغش والعصيان » .

فانتفض أناندا وارتاع ، ولكنه حرص على الصمت انتظاراً للإيضاح .

ومضى الروح فى كلامه فقال : « إعلم أن ابن الملك سيفيق من سباته فى نهاية اليوم الثلاثين ، أى ظهر الغد ، فليس عليك إلا أن تمضى فى الوقت المناسب ، إلى السرير الذى يرقد عليه ، فتضع يدك على قلبه وتأمره أن ينهض . وسيُعزى شفاؤه إلى قواك السحرية ، وسيفضى ذلك إلى تقرير دين بوذا . ولا بد قبل ذلك أن أداوى ظهرك ، وما أسهل هذا علىّ ، وكل ما أدعوك إليه هو أن لا تنسى أنك فى هذا تخالف أوامر مولاك وأنت مدرك لذلك ، ومن الواجب أن تعلم أيضاً أن إنقاذك من المأزق الذى أنت فيه الآن سيوقعك فى مآزق أخرى أدهى وأمر » .

فحدث أناندا نفسه أن روحاً شفافاً ليس له بدن يحلّ فيه لا يستطيع أن يقدر ما يحسه رسول مجلود ، وقال للروح : « داونى إذا استطعت ، واحتفظ بتحذيرك إلى وقت يكون أنسب من هذا » .

قال الروح : « فليكن ما تريد » ومد راحته فأمرّها على جسم أناندا ، فاكتسى ظهره جلداً جديداً ، وزال عنه الوجع . واختفى الروح وهو يقول : « إذا احتجت إلىّ فليس عليك إلا أن تعزم علىّ بهذه العزيمة « جنو إمداب إنام موا[1] » فأظهر لك » .

ومن السهل أن يتصور المرء غضب البراهمة ودهشتهم حين عادوا ومعهم السياط والدّرات الجديدة فألفوا فريستهم سليما معافى فى بدنه ، ولعلهم كانوا خلقاء أن يعتاضوا من السياط حبالا للشنق لولا أنه كان معهم حاجب من حجاب الملك ، فبوأ أناندا كنفه ، وحمله معه إلى القصر فمضوا به من توّتهم إلى مخدع الأمير الصغير حيث كان هناك حشد كبير من الناس ، ولما كان وقت الظهر لم يجىء ، فقد أخذ أناندا يزجّى الوقت الباقى بالتحدث إليهم عن استحالة المعجزات إلا معجزة يأتى بها أتباع بوذا ، ثم نزل عن منبره ، وفى اللحظة التى توسطت فيها الشمس كبد السماء وبلغت سمتها ، أراح يده على قلب الأمير فانتبه من فوره ، وأجرى لسانه ببقية كلام عن لعبة النرد ، كان يقوله فقطعه عليه ما انتابه من السبات .

فضج الحضور ، واستخف الفرح حاشية الملك ، ووجم البراهمة وامتقعت وجوههم . حتى الملك بدا عليه التأثر والاقتناع ، وطلب من أناندا أن يزيده تعريفاً بالبوذية ، فأجابه أناندا إلى ما طلب ، ولكن الأربع والعشرين ساعة الأخيرة

(١) عزيمة البوذيين ، وهى هنا مقلوبة .

كانت قد علمته الحكمة وحسن النظر فى عواقب الأمور ، فلم ير أن يقول شيئاً عن القواعد الأصلية والأركان الرئيسيــة للبوذية ، ولا أن يشير إلى حقارة الحياة والحاجة إلى الخلاص بالتضحيــة ، والسبيل إلى السعادة ، وتحريم إراقة الدم . واكتفى بأن يقول إن كهنــة بوذا مقضى عليهم بالفقر الأبدى ، وأنه بمقتضى الشريعة الجديدة تؤول كل الأملاك الكنائسية إلى أولى الأمر المدنيين .

فصاح الملك : « أما وحق البقرة المقدسة ، إن هذا لدين ! » .

وما كاد الملك ينطق بذلك حتى أعلن رجال الحاشية اعتناقهم لدين بوذا . وتبعتهم الجماهير واقتدت بهم ، وألغيت معابد البراهمة وحُرِمت ما كانت توهب ، وارتُكب فى يوم واحد باسم الدين الجديد الصافى من الأكدار أكثر مما ارتكب فى ظل القديم الفاسد فى مائة عام .

وسر أناندا إحساسه بأن فى وسعه أن يعفو عن أعدائه ، وارتفع قدره فى عينيه تبعا لذلك ، وتمت سعادته بأن ضُم إلى القصر ووُكلت إليه تربية الأمير ابن الملك فتولى تعليمه شريعة بوذا على وجه مرضى . وكان هذا أمراً شاقا لأنه كان يتقاضاه صرف الأمير عن ملهاته المحبوبة وهى تعذيب الزواحف الصغيرة .

و بعد فترة وجيزة دعى مرة أخرى إلى حضرة الملك فألفى عنده اثنين من أفظع الأشرار أحدهما يحمل فأسا عظيمة وفى يد الآخر كلبتان[١] .

وقال الملك : « هذا رئيس الجلادين ، وهذا رئيس المعذبين » .

فأعرب أناندا عن اغتباطه بمعرفة هذين الرجلين الكبيرى المقام .

ومضى الملك فى كلامه فقال : « يجب أن تعلم أيها التقى الورع أن الحاجة قد نشأت مرة أخرى إلى رياضة النفس على الجلد و إنكار الذات من جانبك ، فقد

(١) ما يأخذ به الحداد الحديد المحمى .

غزا العدو بلادى وألحق الهزيمة بجنودى ، وكنت خليقا أن يروعنى ذلك ويهولنى لولا التعزى بالدين ، ولـكن اعتمادى إنما هو عليك يا أبى فى الروح ، ومن المحتم أن تـكتسب أعظم مقدار من الفضل فى أوجز زمن وأقصر مدة ، ولم أستطع أن أستعين على هذه الغاية بالبراهمة أصدقائك القدماء فإنهم الآن ، كما تعلم ، مغضوب عليهم . ولـكنى دعوت هذين الخبيرين الموثوق بهما . على أنهما قد اختلفا . فأما رئيس المعذبين فإنه رجل ليّن رقيق القلب رحيم ، ولهذا يرى أنه يكفى فى البداية أن نتخذ أخف التدابير كأن نعلقك من رجليك ، وندلى رأسك فى دخان حطب موقد ، ونملأ منخريك بالفلفل الأحمر ، أما رئيس الجلادين فإنه على ما يظهر ينظر إلى الأمر نظرة فنية ، ويرى أن الأولى أن نلجأ دفعة واحدة إلى الصلب أو الخازوق . ويسرنى أن أعرف رأيك فى الموضوع » .

فأعرب أناندا — على قدر ما سمح له الرعب بذلك — عن استنكاره الشديد لـكلتا الوسيلتين .

فقال الملك بلهجة المذعن لما لا حيلة له فيه : « حسن . إذا كنا لا نستطيع أن نتفق على إحدى الوسيلتين فإنه لا يبقى أمامنا إلا أن نجربهما جميعا . وسنجتمع إذن لهذا الغرض صباح غد فى الساعة الثانية . والآن ، اذهب بسلام » .

فذهب أناندا ، ولـكن ليس بسلام ، وكان الرعب خليقا أن يذهب بلبه لولا أنه تذكر ما وعده به منقذه . فلما بلغ مكانا يأمن فيه العيون نطق بالعزيمة السحرية . وما كاد يفعل حتى ظهر له ، لا الروح ، بل رجل من أهل النسك والتقشف رأسه معفر بالتراب والرماد وجسمه مدهون بروث البقر .

وقال الفقير : « إن الأمر لا يحتمل التلـكؤ ، فاتبعنى والبس مراقع الفقير » .

فثارت نفس أناندا على هذا ، فقد تلقى عن بوذا الحـكيم الوديع الاحتقار

الذى يستحقه هذا التقشف الفظيع الذى يحيل المرء إلى ما يشبه الجيفة المرمّة .
على أن الضرورة لم تدع له حيلة يحتالها ، فتبع الفقير إلى مقبرة اختارها الفقير مسكنا له . وهناك ، أخذ الفقير ينعى نعومة شعر أناندا وقصر أظافره ، ثم دهنه على مثاله ؛ وطلاه بالطين والكلس حتى صار الرسول الوديع لأرق دين ، أشبه بنمر من نمور البنغال . ثم زيّن له جيده بعقد من جماجم الأطفال ووضع فى إحدى يديه جمجمة شرير ، وفى الأخرى عظمة فخذ عرّاف ، ومضى به بعد الغروب إلى المقبرة المجاورة حيث أجلسه على رماد جثة محروقة حديثة وأمره أن يقرع الجمجمة بالعظمة كما يفعل الطبّال ، وأن يردد التعازيم التى بدأ يطلق الصوت صارخا بها وهو متجه إلى الغرب . ويظهر أن هذه الرقى والتعازيم كانت فعّالة فقد ثار إعصار شنيع ونزل المطر كالسيل وأثخنت البروق الخاطفة بقلب السحب ، وخرجت الذئاب والضباع من أوجرتها تعوى وترغو ، وانشقت الأرض عن عفاريت ومَرَدة تمد أذرعتها المعروقة إلى أناندا وتحاول أن تجرّه فأطار لبّه الفزعُ وراح يقلد صاحبه ويدق ، ويضرب ، ويصيح ، حتى كاد يُشفى على التلف ، وإذا بالرياح العاصفة تركد ، والأشباح تختفى ، بقدرة قادر ، وتحل محلها صيحات فرح ، ودقات طبول ودفوف ، وأصوات معازف ، تنبئ بحادث سار فى المدينة .

وقال الفقير : « مات الملك العدو ، وتفرق جيشه ، وسيعزى هذا إلى تعازيمك وهم الآن قادمون فى طلبك . فوداعا حتى تفتقر إلى معونتى مرة أخرى » .

واختفى الفقير ، ودنا الموكب ، وأصبح دبّ الأقدام مسموعا ، ثم ظهرت المشاعل الخافتة النور فى الفجر المطاول ، وترجل الملك عن فيله وألقى وجهه على الأرض بين يدى أناندا وقال :

« أيها الرجل الفذ ، لماذا لم تقل إنك فقير ؟ لن يساورنى الخوف بعد اليوم من أعدائى ما دمت مقيما بهذه المقبرة ! » .

وطردوا جماعة من أبناء آوى من قبر مهجور أفردوه لأناندا ليسكنه . ولم يسمح الملك بأدنى تغيير فى هيئته ولباسه ، وحرص على أن يخلو الطعام الذى يقدم له من كل ما عسى أن يفقده القداسة التى بلغ مظهرها غاية ما يطمع فيه الطامع فى أقصر وقت ، فتلبد شعره واختلط به الوحل ، وطالت أظافره ، وإذا بزائر جديد من لدن الملك ينبئه أن الراجا أصيب فجأة بمرض خطير خفى وأن الملك على يقين من أن أناندا سيخف إلى نجدته بالرقى والعزائم .

فتناول أناندا ، عظمة الساق والجمجمة ، وهو كاره لذلك ، وراح يقرع هذه بتلك ، وينتظر ما سيكون ، ولكن العزيمة فقدت مزيتها على ما يظهر فما أخذت عينه سوى وطواط ؛ فبدأ أناندا يحدث نفسه بأن الأحجى به أن يكف ، وإذا برجل مديد القامة له سمت ووقار ، وعليه ثياب سود ، وفى يده صولجان ، يبدو له ويقف إلى جانبه كأنما خرج من جوف الأرض .

وقال الرجل الغريب : « إن المرجل مهيَّأ » .

فسأله أناندا : « أى مرجل ؟ » .

قال : « الذى سيُلقى بك فيه » .

قال أناندا : « أنا يلقى بى فى مرجل ؟ ؟ ولماذا ؟ » .

قال الغريب : « لأن تعزيماتك عجزت عن إفادة جلالته . ولما كانت جدواها فى مرة سابقة لا تسمح بأن يظن أحد بها العقم ، فقد انتهى به الأمر إلى الاعتقاد بأن تأثيرها السيئ هو الذى ضاعف الألم الذى يعانيه . وقد عززت له رأيه ذهابا منى إلى أنه من مصلحة العلم أن يحل غضب الملك بمشعوذ دجال مثلك لا بطبيب عالم حاذق مثلى . ومن أجل ذلك أمر جلالته بأن توقد النار

تحت المرجل الأكبر طول الليل ، على أن يلقى بك فى مائه عند الصباح ما لم تفده عزائمك قبل ذلك » .

فصاح أناندا : « ياإلٰهى ! أين المفر ؟ »

فقال الطبيب : « إنه لا مهرب لك من هذه المقبرة . . فإن عليها نطاقا من حرس الملك » .

فسأله أناندا : « إذن كيف السبيل إلى النجاة ؟ » .

فقال الطبيب : « فى هذه الزجاجة . إن فيها سما زعافا . فاطلب أن تشخص أمام الملك ؛ وقل إنك تلقيت دواءاً شافيا من أرواح خيرة . فيتجرعه و يموت و يجزيك خلفه خير جزاء » .

فصاح أناندا ، وقد استشاط غضباً ، ورمى بالزجاجة : « اذهب عنى أيها الشيطان الموسوس ! إنى أتحداك وأعوذ مرة أخرى بمنقذى ... جنو إمداب إنام موا » .

ولـكن العزيمة لم تحدث أثراً ، ولم يبد لعينيه مخلوق أو شبح سوى الطبيب الذى كان ينظر إليـه نظرة الأسف والمرثية ، وهو يضم طيلسانه ، و يختفى فى الظلام الشامل .

و بقى أناندا وحده يجادل نفسه ، وقد هم مرات لا عداد لهـا أن ينادى الطبيب و يتوسل إليه أن يجيئه بزجاجة سم كالتى رماها ، ولـكنه كان كلما هم بذلك يشعر بشىء يصـعد إلى حلقه و يحبس صوته ، حتى أضناه الاضطراب ، وأعياه فنام ورأى هذا الحلم .

رأى ، فيما يرى النائم ، أنه واقف عند مدخل « بتالا » [1] الشاسع المظلم ،

(١) مجمع الشياطين

وكان هذا المكان الموحش يبدو كأنما فيه احتفال شيطانى ، فقد كانت هناك جموع من الشياطين على كل صورة ، ومن كل حجم ، تتدافع فى المدخل لتنظر إلى ما خُيل إليه أنه زينة تقام ، وكانت مئات من العفاريت والأمساخ تنظم المصابيح الملونة عقوداً وأكاليل ، وهى تقفز ، وتُضَوْضى ، وتلجلج ، وتقهقه ، وتتدلى من أذنابها وتتطوح فى الهواء ، كالقردة ، وكان العمل يديره من تحت هؤلاء ، شياطين كبار عليهم سمت ولهم أبهة ، وفى أيديهم صولجانات تدل على منازلهم ومراتبهم يشع من أطرافها لهب أصفر كانوا يلسعون به أذناب العفاريت إذا رأوا أن النظام يوجب ذلك . فلم يستطع أناندا أن يكبح نفسه عن السؤال عن الداعى إلى هذه الاستعدادات للاحتفال .

فقال الشيطان الذى تلقى سؤاله : « هذا احتفال بتكريم أناندا الورع ، أحد رسل الرب بوذا ونحن ننتظر حضوره بيننا بلهفة وارتياح » .

وبعد جهد شديد ، استطاع أناندا المرتاع أن يجمع قواه الخائرة ، ويسأل لماذا يجب أن يتخذ الرسول المذكور — يعنى نفسه — مقامه فى مناطق الجحيم ؟

فقال الشيطان المسئول بإيجاز : « من أجل السم »

فهم أناندا أن يطلب منه الإيضاح ، ولكنه شُغل بجدال عنيف بين اثنين من الشياطين المشرفة على العمل

وكان أحدهما يقول : « كاموراجا ، بالطبع »

فيقول الثانى : « بل دامبورانانا ولا شك »

فالتفت أناندا إلى الشيطان الذى كان يكلمه وقال : « هل تسمح لى أن أستفسر عن كاموراجا ودامبورانانا ، ما هما ؟ »

فقال الشيطان : « هما جحيمان ، ففى كاموراجا يغمس النازل فى القار المذاب

ويطعم الرصاص المصهور ، وأما فى دامبورانانا ، فهو يغمس فى الرصاص المصهور ويطعم ذوب القار ، وزميلاى هذان اللذان تسمعهما يتحاوران ، يتجادلان فى أى الجحيمين أولى بخطايا ضيفنا أناندا »

وقبل أن يتدبر أناندا هـذا النبأ انحدر عفريت شاب من فوق ، ببراعة وخفة ، وتقدم من الشيطانين اللذين يتجادلان وانحنى لهما وقال :

« أيها الشيطانان الجليلان ، هل تسمحان لعفريت ضئيل الشأن أن يقول إن كل تكريم مهما عظم ، دون ما يجب لضيفنا أناندا إذ كان هو الوحيد الذى يحتمل أن نحظى بعشرته من بين رسل بوذا أجمعين ؟ . لهذا أجترئ على القول بأنه لا جحيم كاموراجا تصلح مقاماً له ، ولا جحيم دامبورانانا تليق به ، بل يجب أن تُجمع محاسن كل جحيم من الأربع والأربعين ألفا والمائتى ألف ، وأن تُحشد جميعاً فى جحيم واحدة جديدة تقام لاستقباله خاصة »

فتعجب الشياطين الكبار لذكاء العفريت الصغير وقالوا : « أما إنك لعفريت صغير ممتاز حقا ؟ » ؛ ثم انصرفوا ليعدوا الجحيم الجديدة ويجهزوها بما يليق بمقام الضيف الكريم .

واستيقظ أناندا وهو يرعد من الفزع ؛ ويصيح : « لماذا كنت رسولا ؟ ؟ إيه يا بوذا ! ! ما أوعر طريق الهدى والقداسة ! وما أسهل أن يعثر المرء ويضل وإن حسنت نيته ! وما أسخف الزهو وأحمق صاحبه ! »

فناداه صوت عذب رقيق : « أو أدركت هذا يا بنى ؟ » .

فأدار وجهه فألفى أمامه بوذا فى هالة من النور اللين ، وخُيل إليه أن سحابة تقشعت عن عينه ، فأدرك أن مولاه هو الروح ، والفقير ، والطبيب جميعاً ، وأنه كان يتراءى له فى هذه الصور المختلفة .

فقال وهو شديد الاضطراب : « أيهـا المعلم المقدس ، إلى أين أذهب ؟ إن خطاياى تنهانى عن الدنوّ منك » .

فقال بوذا : « إن خطاياك ليست هى التى تصدك عن الاقتراب منى يا بنى ، بل ما ورطك فيه العصيان والشعوذة ، وقد ظهرتُ لك لأذكرك بأن رسـلى يجتمعون اليوم على جبل فنـديا ليؤدوا الحساب عن رسالتهم ، وأنا أسألك هل أؤدى عنك الحساب أو تؤديه أنت بنفسك ؟ » .

فقال أناندا : « بل أؤديه أنا بنفسى ، ومن العـدل والحق أن أحتمل ذلة الاعتراف بحماقتى وطيشى » .

فقال بوذا : « أحسنت يا بنى ، ولهـذا أسمح لك أن تنضو عنك مراقع الفقير ، وأن تظهر فى الاجتماع فى الطيلسان الأصفر الذى هو رداء الرسـل . بل إنى لأتجاوز عن بعض قواعدى ، لأجلك ، وفى سبيلك ، وآتى بمعجزة غير هينة فأنقلك الآن إلى قمة الجبل حيث بدأ الرسـل يفدون . ذلك أنك ، بغير ذلك ، تتعرض لبوار محقق وهلاك مؤكد فيمزقك الجمهور المقترب الذى شرع يقتلع ديانتى بإيعاز الملك الجديد تلميذك المرجو الغد . فقد مات الملك الهرم — سمه البراهمة ! » .

فبكى أناندا ، بأربع ، وجعل يقول وهو ينتحب « مولاى ! مولاى ! وهل ضاع كل شىء ؟ بخطئى ، وحماقتى ؟ » .

فقال بوذا : « إن ما يبنى على الغش والدجل لا بقاء له ولا ثبات ، وهذا هو الحق ، ولا تحزن ، فستـدعو إلى دينى ، وتوفق ، فى بلاد أخرى . إن الحساب الذى ستؤديه عن رسالتك ، حسابُ سوء ، ولـكنك تستطيع أن تقول ، وأنت صادق ، إنك أطعت أمرى مبنى لا معنى ، فمـا يسع أحداً أن يزعم أنك أتيت بأية معجزة ! » .

فرنسيس برِت هارت

١٨٣٩ – ١٩٠٢

فى نطاق من المجد

لما خرج المستر جون أوكهيرست — المقامر — إلى السكة الرئيسية فى « پوكر فلات » صباح اليوم الثالث والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٥٠ أحس أن جو اليوم غير جو الليلة البارحة ، فقد كان هناك اثنان أو ثلاثة يتحادثون ، ورءوسهم متدانيــة ، فلما اقترب منهم أمسكوا عن الكلام وتغامزوا وتبادلوا نظرات لا تخلو من دلالة . وكان فى الجو هجمة كهجعة « السبت » وهى فى حلة لم تألف فتور السبت ، لا تكون إلا نذيراً .

ولم يبد على محياه الوسيم الساكن قلق من جرّاء هذه النذر . أما أنه كان يدرك البواعث على هــذا التغير ، فشىء آخر . وقال يناجى نفسه : « أحسبهم يطلبون واحداً . وعسى أن أكون أنا المطلوب » وردّ إلى جيبــه المنديلَ الذى كان ينفض به التراب عن حذائيه النظيفين ، وأعفى نفسه من عناء التخمين .

والواقع أن حلة « پوكر فلات » كانت « تطلب واحداً » فقد مُنيت أخيراً بخسارة عدة آلاف من الريالات ، وحصانين عتيــدين[1] ، ورجلٍ من أبرز رجالها . فغضبت لهذا ، وانتابتها نوبة فضيلة ، وثارت نفوسها ثورة جامحة جائحة كالأعمال التى استفزتها وأخرجتها عن طورها . واعتزمت لجنة سرية أن تطهّر الحلة من الطَّغام والرُّذال وغير الصالحين . وقد طهرتها على وجه حاسم من رجلين كانا حينئذ معلقين من جمّيزة فى بطن الوادى ، ومن آخرين لا ترضى سجاياهم ، بالنفى . ويؤسفنى أن أقول إن بين هؤلاء المنفيّين نساءا . على أن واجب

---

(١) العتيد الشديد المعد للعمل والجرى .

الإنصاف لهذا الجنس يقتضى أن نذكر أن هؤلاء كن محترفات لما أثار السخط عليهن وأن حلة « بوكر فلات» ما اجترأت على القعود مقعد الحكم إلا على هؤلاء .

وقد أصاب المستر أوكهيرست فى اعتقاده أنه داخل فى هـذه الزمرة . وقد ذهب بعض أعضاء اللجنـة إلى وجوب شنقه ليعتبر بمصيره غيره ، وليستردوا ما غنمه من مالهم فى القمار . وقال جيم و يلو فى الاحتجاج لذلك : « إنه ليس من العدل أن نسمح لهذا الشاب الذى جاء من « رورن كامب » — فهو غريب — أن يحمل مالنا ويمضى به » . ولـكن الشعور بالعدل فى نفوس الذين كتب لهم حسن الحظ أن يربحوا من المستر أوكهيرست تغلب على هذا الهوى والجنف .

وتلقى المستر أوكهيرست الحكم عليه بمثل سكينـة الفيلسوف ، وخاصة لأنه كان يدرك ما يخالج قضاته من التردد . وقد علمـه القمار أن يتقبل ما تجىء به المقادر . ولم تكن حياته إلا لعبة مجهولة العواقب ، وما كان يخفى عليه مقدار حظ الموكل بالتوزيع .

ورافقت المنفيين سرية من المسلحين إلى ما وراء حدود الحلة ، وكان هناك غير المستر أوكهيرست — الذى كان مشهوراً بأنه مجازف رابط الجأش ، والذى أريد إرهابه بهذا الحرس المسلح — امرأة فى مقتبل العمر يطلقون عليها اسم « الدوقة » وأخرى تعرف باسم « الأم شبتون » ثم « العم بيللى » وهو سكير مدمن متهم باللصوصية . ولم يثر مرور الركب أية ملاحظة من النظارة ، ولا نطق الحرس بكلمة ، إلا بعد أن بلغوا بطن الوادى الذى لا تتجاوزه حدود الحلة ، فقد تـكلم الرئيس بايجاز وأنذرهم الموت إذا عادوا .

وما كاد الحرس يغيب عن النظر حتى انطلق ما كان محبوسا من المشاعر فذرفت الدوقة بضع عبرات ، وأجرت الأم شبتون لسانها ببضع شتمات ، وأطلق

العم بيللى سيلا من اللعنات . أما أوكهيرست الفيلسوف فقد لزم الصمت ، وكان يصغى وهو وادع ساكن إلى ما تعرب عنه الأم شبتون من الرغبة فى جزّ بعض الرقاب ، وإلى ما أبدأت فيه الدوقة وأعادت ، من أنها ستموت فى بعض الطريق لا محالة ، وإلى اللعنات الحرار التى كانت تخرج من فم العم بيللى وهو راكب وكأنها تُطرد من جوفه طرداً ، وقد آثر أوكهيرست المساناةَ على عادة أمثاله ، فأصر على أن يترك جواده للدوقة ويركب هو بغلها البليد ، على أن هذه المجاملة لم تجعل الجماعة أشد تعاطفا وأوثق مودة . فعدلت الدوقة قبعتها المريشة القذرة بدلال فاتر ، ورمت الأم شبتون الجواد بالنظر الشذر ، وصب العم بيللى على الجماعة كلها لعنة شاملة .

وكان الطريق إلى « ساندى بار » — وهى حلة لم تمتد إليها عوامل الصلاح من بوكر فلات ، فثم أمل فى أن يأوى إليها المهاجرون — على جبال وعرة منقادة فى الأرض ، والمسافة إليها سفر يوم لا هوادة فيــه ، وما لبث القوم أن جاوزوا الوادى الرطب المعتدل الجو إلى الجبال الجافة الباردة المنعشة الهواء ، وكان طريقهم فى الجبل ضيقا كالأنبوب ، ووعراً صعب المرتقى . ولما انتصف النهار تدحرجت الدوقة عن سرجها إلى الأرض وأعلنت أنها لن تنتقل من مكانها ، فألقى الجماعة عصا التسيار .

وكان المكان الذى وقفوا فيــه ، موحشا إلا أنه رائع . فقد كان عبارة عن مدرج من الشجر تحيط به من جهات ثلاث ، صخور وعرة من الصوان العارى ، وينحدر فى رفق ولين إلى ذروة نجوة مشرفة على الوادى ، وكان هذا بلا شك أصلح مكان للإقامة لو كان ذلك من سداد الرأى . غير أن المستر أوكهيرست كان يعلم أنهم ما قطعوا نصف المسافة إلى « ساندى بار » وأنه ليس معهم من

المؤونة والعدة ما يسمح بالتلكؤ ؛ وقد نبه رفقاءه إلى هذا بإيجاز و بين لهم خطل الكف عن مواصلة « اللعب » قبل الفراغ منه ولكنه كان معهم خمر ، وقد نابت الخمر عندهم فى ذلك الموقف مناب الطعام والوقود والراحة والعقل و بعد النظر .
ولم يمض غير قليل حتى كان الشراب قد فعل فعله على الرغم من اعتراض أو كهيرست وتحذيره . وانتقل العم بيللى بسرعة من حالة الشراسة إلى حالة الخمود . وأخذ الشراب فى الدوقة فأصابها منه فُتار[1] ، وعلا شخير الأم شبتون . و بقى المستر أو كهيرست وحده معتدل القامة يتكئ على صخرة و يلحظهم بعينه فى سكون .

وكان المستر أوكهيرست لا يشرب ، لأن الشراب يفسد حرفة[2] تتطلب الاتزان وضبط النفس وحضور الذهن ، وكان على قوله لا تسمح له الحال بالمخاطرة بالشراب . و بينما كان ينظر إلى هؤلاء الرقود من رفقائه المنفيين ، ثقلت على نفسه لأول مرة ، وطأة الشعور بالوحدة والوحشة الناجمتين من حرفة المنبوذين ، ومن عادات حياته ، وأساليب عيشه ، ونقائصه . فجعل يتلهى بنفض التراب عن ثيابه السود ، وغسل يديه ووجهه ، وغير ذلك مما اقتضته خصائص طباعه وشدة حرصه على النظافة وحسن السمت ، فنسى شجنه لحظة . ولم يخطر له أن يهجر رفاقه الضعاف الجديرين بالمرثية أو يخذلهم فى محنتهم ، إلا أنه لم يسعه إلا أن يشعر بالحاجة إلى القمار الذى يثير نفسه و يبعثها والذى كان — و يا للغرابة — يفضى به إلى السكينة واعتدال المزاج اللذين اشتهر بهما . ومد بصره إلى الصخور التى تذهب فى الهواء ألف قدم فوق أشجار الصنوبر المحيطة بالمكان ، وصعد طرفه إلى السماء المكفهرّة المنذرة الرُّكام[3] ، ثم صو به إلى الوادى الذى تتكاثف فيه الظلال ، و إذا به يسمع اسمه بغتة .

---

(١) نشوة وفتور (٢) يريد المقامرة (٣) الركام السحاب ركب بعضه بعضا

ونظر فإذا فارس يرتقى فى الطريق ببطء ، فعرف فى وجهه الصابح الصريح « توم سيمون » الذى يسمونه « الغرير » فى « ساندى بار » وكان قد لقيه قبل بضعة شهور وقامره فقمره ، وسلب من هذا الفتى الغرير كل ما يملك — حوالى أربعين ريالا — وبعد أن نهضا عن المائدة مضى به المستر أوكهيرست إلى ما وراء الباب وقال له « توم ، إنك فتى طيب ، ولكنك لا تحسن القمار ، ولا أمل لك فى حذقه ، فلا تحاول ذلك مرة أخرى » ورد إليه ما ناله ، ودفعه فأخرجه من الغرفة ، فصار توم سيمون لهذا عبداً مخلصاً له مدى الحياة .

وكان فى الحماسة والطلاقة الصبيانية التى يحيّى بها المستر أوكهيرست ما يَشِى بذكر هذا الجميل ، وقال إنه أراد أن يذهب إلى « بوكر فلات » التماساً للثراء فسأله أوكهيرست « وحدك ؟ » فقال الفتى « لا . لا أعد وحدى . الواقع (وضحك) إنى فررت مع پَيْنِى وودز » . ألا تعرفها يا مستر أوكهيرست ؟ تلك التى كانت تقوم بالخدمة على المائدة فى « تمبرنس هوس » . وقد ظللنا خطيبين زمناً طويلا ، ولكن أباها جاك وودز اعترض ففررنا ، وكانت وجهتنا پوكو فلات لنتزوج . وها نحن أولاء قد صرنا هنا ! وإنا لمتعبون ، وإنه لمن الحظ أن قد وجدنا هذا المكان وهذه الرفقة ! »

أفضى « الغرير » بهذا كله بسرعة ، ثم برزت « پينى » — وهى فتاة وسيمة بدينة فى الخامسة عشر من عمرها — من وراء الشجرة حيث كان وجهها لا يرى أحد اضطرامه من الخجل ، ودنت بجوادها لحاذت حبيبها .

وكان المستر أوكهيرست قلما يعنّى نفسه بالعواطف الإنسانية ، أو بما يليق وما لا يليق ، وما يجب ، وما لا يجب ، ولكن إحساساً غامضا شاع فى نفسهُ بأن الموقف خال مما يسمى حسن الحظ ، على أنه كان له من حضور الذهن وسرعة

الخاطر ما يكفى لإلهامه أن يرفس العم بيللى الذى كان يهم بكلام ، وكان فى العم بيللى بقية من الإدراك تجعله يفطن إلى ما وراء هذه الرفسة من القوة التى لاتحتمل العبث ولا تصبر عليه . ثم حاول المستر أوكهيرست ، عبثاً ، أن يثنى توم سيمون عما عزم عليه . ثم أنبأه أنه لا مؤونة هناك ولا مأوى ولا وسيلة لمأوى . ولكن الغرير ، لسوء الحظ ، قابل هذا بأن أكد للقوم أن معه بغلا مثقلا بالزاد ، وبأن أشار إلى كوخ من الخشب قريب من الطريق . وقال الغرير ، وهو يومئ إلى الدوقة : « پَيْنى تستطيع أن تكون مع السيدة (المسز) أوكهيرست . أما أنا فأستطيع أن أدبر أمرى » .

ولولا ضغطة زاجرة من قدم المستر أوكهيرست ، لانفجر العم بيللى ضاحكا ، مجلجلا . وعلى أنه ، على الرغم من هذا الانتهار ، لم يستطع أن يكبح الضحك ، فاضطر أن ينهض ويمضى إلى مجرى الوادى حتى يستعيد ضبط أعصابه . وهناك أفضى ببواعث الضحك إلى أشجار الصنوبر وهو يقرع ساقيه بكفيه وينحنى بوجهه المغضن ، ولا ينسى بذاءاته المألوفة . ولما عاد إلى القوم ألفاهم جلوساً حول نار — فقد صار البرد قارساً ، وغلظ السحاب وتراكب . وكان الحديث على ما يبدو له وديا ، وكانت پينى تتحدث على طريقتها الصبيانية الفطرية إلى الدوقة التى كانت تصغى بعناية واهتمام لم تظهر مثلهما فى أيام كثيرة . وكان الغرير يتحدث على هذا النحو أيضاً إلى المستر أوكهيرست والأم شبتون فيُحدث فى نفسها مثل ذلك الأثر حتى لقد ثابت إلى الأم شبتون نفسها فتطلّق وجهها . وقال العم بيللى ، عن احتقار كامن ، وهو يتأمل الجمع والنار المشبوبة والدواب المشكولة[1] « أترى هذه نزهة ؟ » ثم كأنما طافت برأسه المضطرب المخمور فكرة مغرية بالضحك

(١) شكل الدابة ربط قوائمها بالشكال أى الحبل .

فقد قرع ساقه بكفه ودس قبضته فى فمه .

وارتمت الظلال شيئا فشيئا على الجبل ، فهب النسيم بأشجار الصنوبر فحرك رءوسها وناح بين أغصانها . وأفرد الكوخ ، للسيدات بعد أن رمّوه وغطوه بأغصان الصنوبر ، وافترق الحبيبان — الغرير وصاحبته — فتبادلا قبلة لا تكلف فيها — قبلة صريحة مخلصة من المكن أن يُسمع صوتها فوق حفيف الشجر المترنح ... قبلة أذهلت بما كشفت عنه من غرارة النفس وطهارة القلب ، الدوقة الخوّارة ، والأم شبتون اللئيمة ، فدارتا ودخلتا الكوخ بلا كلام . وألقى الحطب فى النار ، ورقد الرجال أمام الباب ، وما لبثوا أن ناموا .

وكان المستر أوكهيرست خفيف النوم ، فقبل أن ينبلج الصبح استيقظ مقروراً ، وبجسمه خدر ، وحرك النار المشفية على الخمود ، فحملت الريح القوية إلى وجهه ما امتص الدمَ منه — الثلجَ !

فوثب إلى قدميه وفى عزمه أن يوقظ النائمين ، فما بقى وقت يُضاع . والتفت إلى حيث كان العم بيللى مستلقياً فلم يجده ، فاختلج الشك فى صدره ، وجرى لسانه بلعنة ، وذهب يعدو إلى حيث كانت الدواب مربوطة فلم يجدها ! وكان الثلج المتساقط يطمس الآثار بسرعة .

ورجع المستر أوكهيرست ، بعد هذا الاضطراب الوقتى ، وهو ساكن كعادته . ولم يوقظ النائمين . وكان الغرير ينام نوما هادئا وعلى محياه ابتسامة ؛ وكانت بينى العذراء راقدة إلى جانب صاحبتيها الطامحتى الطرف ، وكأن عليها من الأملاك حفظةً أمناء . وسحب المستر أوكهيرست غطاءه على كتفيه وراح ينتظر انبثاق الفجر ، فطلع ومعه رَهَج[1] من الثلج تَسْفِره الريح ، فيزوغ البصر . وتغير

(١) الرهج السحاب الرقيق كأنه غبار ، وتسفره تلقيه وتحمله .

ما كان باديا من وجه الأرض كأنما مرت عليه عصا ساحر ، فنظر إلى الوادى ولخص الحاضر والمستقبل فى أربع كلمات « فى نطاق من الجَمَد »

ودلّ الفحص الدقيق للزاد الموجود — وكان لحسن الحظ موضوعا فى الكوخ ، فنجا من الم بيللى — على أنه مع الحرص والحكمة يكفى عشرة أيام . وقال المستر أوكهيرست للغرير : « هذا إذا كنت ترضى أن تضيفنا وتطعمنا ، أما إذا أبيت — وخير لك أن تأبى — فان فى وسعك أن تنتظر حتى يعود الم بيللى بالمؤونة » . فقد عجز المستر أوكهيرست لسبب خفى أن يفضح الم بيللى ويظهر نذالته ، ولهذا زعم أن الم بيللى خرج فنفّر الدواب عفوا ، وحذّر الدوقة والأم شبتون ، وكانتا قد عرفتا الحقيقة . وقال لهما : « سيعرفان حقيقة أمرنا جميعا ، متى عرفا شيئا . ولا خير فى إرعابهما الآن ! » .

ولم يكتف توم سيمون بأن يجعل كل ما معه من زاد ومؤونة رهن مشيئة المستر أوكهيرست ، بل أظهر السرور والاستمتاع بهذه العزلة الاضطرارية ، وراح يقول : « سنبقى أسبوعا ، ثم يذوب الثلج ، فنعود جميعاً معا » . وَأَعْدَتْ القومَ بشاشةُ الشاب وسكينةُ المستر أوكهيرست . واستطاع الغرير ، بفضل أفرع الصنوبر أن يصنع سقفاً للكوخ ، وتولت الدوقة إرشاد پينى فى ترتيب الحجرة ، وأظهرت فى ذلك من الذوق والفطنة ما فتح عينى هذه الغادة الريفية الساذجة ، فقالت : « أحسبك ألفت فى حياتك مناعم العيش فى پوكر فلات » ، فأدارت الدوقة وجهها بسرعة ، لتخفى الدم القانى الذى صبغ وجهها تحت دهانه المألوف . وتقدمت الأم شبتون إلى الفتاة بالرجاء أن لا « تثرثر» . ولما عاد المستر أوكهيرست بعد طول الكد والعناء فى البحث عن الطريق الذى ضاع أثره ، سمع أصوات الضحك ترجعه الصخور المتجاوبة به ، فوقف وقد ارتاع ، ووثب به

الخاطر أولا إلى الويسكى الذى حرص على أن يخبئه ، ولكنه عاد فقال : « ولكن هذه الأصوات ليست من فعل الويسكى » ، ولم يطمئن قلبه إلا بعد أن أبصر النار المستعرة من خلال العاصفة الثائرة ، ورأى الجالسين حولها :

ولا أعلم هل خبأ المستر أوكهيرست ، أو أهمل أن يخبئ أوراق اللعب أيضا ، حتى لا يجعلها فى متناول الجماعة ، ولكن المحقق أنه — كما قالت الأم شبتون — لم يجر لسانه بذكر الورق ولا مرة واحدة فى تلك الليلة ، وزُجي الفراغ بقيثارة أخرجها توم سيمون من أحرازه وهو مباه بها . واستطاعت پينى على الرغم من بعض الصعوبات أن تخرج من هذه الآلة بعض الأصوات ، وكان الغرير يصحبها بصنجين يضرب أحدهما على الآخر ، غير أن هذه الحفلة لم تبلغ ذروتها إلا حين رفع الحبيبان الصوت عاليا بنشيد دينى ساذج ، ويداهما متشابكتان . وأعْدَيا غيرهما ، فانضموا إليهما وأنشدوا معهما : « إنى نخور بأن أحيا فى خدمة الرب ، وأن أموت فى جيشه » .

وتمايلت أشجار الصنوبر ، وهاجت العاصفة ، وزفزفت الرياح ، ودارت فوق هؤلاء التعساء ، ووثبت ألسنة النار فى هذا « المعبد » نحو السماء كأنها شهود على هذا العهد .

وخفت العاصفة حوالى منتصف الليل ، وتفرقت السحب المتراكمة ، وتلامحت النجوم الخفّاقة اللمعان فوق النوام . وكان المستر أوكهيرست قد تركته عادات حرفته (القمار) قليل النوم خفيفه ، فلما اقتسم مع توم سيمون واجب الحراسة ، استطاع بطريقة ما ، أن يختص نفسه بالنصيب الأوفر منها ، وكان مما أقنع به الغرير قوله إنه كثيراً ما كان يقضى أسبوعا كاملا بلا نوم ، فسأله توم : « وماذا كنت تصنع ؟ » . فقال أوكهيرست : « ألعب البوكر . . . متى وقع المرء

على حظه فإن التعب لا يعتوره . . . وما أقوى الحظ وأعجب حاله ! كل ما نعرفه عنه على وجه التحقيق هو أنه لا بد أن يتغير ويتقلب ، وإدراك المرء أن الحظ يوشك أن يتحول ، هو الذى يسعده . ولقد وقعنا على حظ سيئ بعد أن غادرنا بوكر فلات — وإذا بك تجيء وتقع معنا ! وأنت بخير ما وسعك أن تصبر لأنى » (قال المقامر هذا بلا مناسبة ؛ ولكنه كان واضح البشر) « لأنى نخور بأن أحيا فى خدمة الرب ، وأن أموت فى جيشه » .

وطلع اليوم الثالث ، وأظلت الشمس من خلال الغمام الأبيض ، على الطُرَدَاء وهم يقتسمون بعض ما بقى من زادهم المتناقص ، لطعام الإفطار ، وكان من خصائص هذا الإقليم الجبلى أن أشعة الشمس تنشر فيه الدفء على وجوهه الشاتية ، كأنما تعرب بذلك عن عطفها وأسفها لما مضى وفات ، ولكنها كشفت عن طبقة فوقها طبقة من الثلج المتراكب المتعالى حول الكوخ — عن بحر مجهول لا طريق فيه ، ولا درب له ، ولا أمل لسالكه ، من الثلج المتراكم تحت الشطئان الصخرية التى يتعلق بها هؤلاء المقذوف بهم عليها . وكان الجو عجيباً فى صفائه ، حتى لكانوا يرون الدخان المتصاعد من حلة بوكر فلات على مسافة أميال وأميال ؛ وقد رأته الأم شبتون فقذفت الحلة ، من ذروة معقلها الصخرى ، بلعنة أخيرة . وكانت هذه آخر بذاءاتها ، ولعلها لهذا السبب كانت على حظ من الجلال . وقد أخبرت الدوقه أن هذه اللعنة التى أطلقتها نفعتها وشفت نفسها ، ودعتها أن تحذو حذوها قائلة : « أخرجى إلى هناك ، والعنى ، ثم انظرى » ؛ ثم رجعت إلى واجب تسلية « الطفلة » كما كانت هى والدوقة تسميان الفتاة « پينى » ، ولم تكن پينى ضعيفة ، ولكنه كان يسر هاتين المرأتين أن تعداها كذلك ، لأنها كانت لا بذيئة صخابة ، ولا عَسُوساً فاجرة .

وأقبل الليل مرة أخرى ، فعادت ألحان القيثارة تعلو وتهبط متقطعة ، و بعد فترات طويلة ، حول النـار الموقدة ، غير أن أصوات الموسيقى لم تستطع أن تملأ الفراغ الوجيع الذى أحدثته قلة الـكفاية فى الطعام ، فاقترحت پينى ملهاة جديدة هى أن يقص كل واحد قصـته . ولم يكن لا المستر أوكهيرست ولا رفيقتاه على استعداد لذكر شىء من سِيَرهم أو تجاربهم الشخصية ، فكاد الاقتراح يحبط ، لولا الغرير ، فقد عثر قبل بضعة شهور على نسخة من ترجمة المستر پوپ (الشاعر) لإلياذة هومر ، فرأى أن يقص حوادثها الـكبرى باللهجة الدارجة فى حلة ساندى بار ، فقد نسى عبارة الشاعر وألفاظه ، و إن كانت الحوادث منقوشة على صدره . وهكذا عاد أبطال هومر وأربابه فمشوا على الأرض مرة أخرى فى تلك الليلة ، وكان زفيف الريح كأنما يمثل صراع الطرواديين الصخابين ، والأغارقة الماكرين ، وكأنما كانت أشجار الصنوبر العظيمة تنحنى أمام غضب ابن بلياس ،

وكان المسـتر أوكهيرست ينصت وهو راض ساكن ، وقد اهتم على الخصوص بمصير أخيل .

وهكذا — بقليل من الطعـام ، وكثير من هومر والقيثارة — انقضى أسبوع على هؤلاء الطرداء . وخذلتهم الشمس مرة أخرى ، فاحتجبت عنهم ، وألقت السماء المدجنة ، رقائقَ من الثلج المنخول ، على الأرض . وأخذ نطاق الثلج يزداد كل يوم ضيقاً حتى صاروا ينظرون من سجنهم إلى جدران من الجليد اللماع ، ترتفع مقدار عشرين قدما فوق رءوسهم . وتعذر شيئاً فشيئاً تقويةُ النار بإلقاء الحطب عليها حتى من الأشجار المنقصفة القريبة التى اختفى نصفها فى الجمد . ومع ذلك لم يشك منهم أحد . فكان الحبيبان ينصرفان بوجهيهما عن هذا المنظر الجهم ، وينظر كل منهما فى عين صاحبه فيسعد ، ووطن المسـتر أوكهيرست

نفسه على السكون إلى هذه اللعبة الخاسرة ، وتولت الدوقة التى صارت أكثر بشاشة وطلاقة مما كانت من قبل ، العناية بينى ، أما الأم شبتون التى كانت أقوى الجميع ، فقد بدأت تفتر ، وتعتل ، وتدنف ؛ وفى منتصف ليلة اليوم العاشر دعت المستر أوكهيرست إلى جانبها ، وقالت له بصوت الساخط على الضعف : « سأقضى نحبى ، ولكن لا تقل شيئا ، ولا توقظ الطفلين ، وخذ الحزمة التى تحت رأسى وافتحها » . ففعل المستر أوكهيرست كما أمرت ، فألفى نصيبها من الزاد طول الأسبوع ، لم تمسه يدها . وقالت ، وهى تومئ إلى بينى : « أعطه للطفلة » . فقال المقامر : « لقد أمتِّ نفسك من الجوع » . فقالت المرأة بضجر : « كذلك يقولون » . واستلقت ، ثم أدارت وجهها إلى الحائط ، ولفظت النفس الأخير فى سلام .

وأهملت القيثارة والصنج فى ذلك اليوم ، ونُسى هومر ، وبعد أن دفنوا رفات الأم شبتون فى الثلج ، انتحى المستر أوكهيرست بالغرير ناحية وأراه حذاءين للسير على الثلج صنعهما من سرج قديم . وقال : « هناك فرصة — واحد فى المائة — لإنقاذها » ، وأشار إلى بينى ، ثم إلى ناحية بوكر فلات وقال : « إذا استطعت أن تصل إلى هناك فى يومين ، فإنها تنجو » .

فسأله توم سمسون : « وأنت ؟ » .

فكان الجواب الموجز : « سأبقى هنا » .

وافترق الحبيبان بعد عناق طويل ، ونظرت الدوقة إلى المستر أوكهيرست ، فخيل إليها أنه ينتظر ليصحب توم ، فسألت : « أأنت ذاهب كذلك ؟ » ، فقال : « إلى مجرى الوادى فقط » . والتفت إليها فجأة ، وقبلها ، وترك وجهها الشاحب مضطرما ، وأعضاءها المضطربة متصلبة من فرط الذهول .

وجاء الليل ، ولكن المستر أوكهيرست لم يجئ ، وثارت العاصفة مرة أخرى ، وراحت الرياح الدائرة ، تلقى الثلج ؛ وأججت الدوقة النار ، ووجدت أن بعضهم ترك إلى جانبها كوما من الحطب يكفى بضعة أيام ؛ فاغرورقت عينها بالدموع ، ولكنها أخفتها عن پينى .

وصارت الفتاة والدوقة لا تنامان إلا غرارا . ولما أصبح الصباح قرأت كل منهما مصيرها فى وجه صاحبتها . ولم تنطق إحداهما بكلمة ، ولكن پينى نحلت نفسها حقّ الذى هو أقوى ، فدنت من الدوقة ، وأحاطت خصرها بذراعها ، وظلتا هكذا بقية النهار . و بلغت العاصفة فى تلك الليلة أعنف ثوراتها . فمزقت أشجار الصنو بر التى كانت كالوقاء للكوخ ، واقتحمته عليهما .

وقبيل الصبح وجدتا أنهما عاجزتان عن تقوية النار ، فما لبثت أن خمدت ، و بينما كانت الجمرات تسودّ ، والذُّكوات تهمد ؛ اقتربت الدوقة من پينى ، وخرجت من الصمت الذى ظل ساعات ، وقالت : « پينى ، هل تستطيعين أن تصلى ؟ » . فقالت پينى ببساطة : « كلا ، يا عزيزتى » . فأحست الدوقة ، لسبب ما ، أن عبئا انحط عن صدرها ، وأراحت رأسها على كتف پينى ، ولم تقل شيئاً بعد ذلك ، وغلبهما النوم وهما على هذا الحال ، صغراهما وأطهرهما ، تحمل على صدرها البكرِ العفّ ، رأسَ رفيقتها الملوثة .

وهدأت الريح ، كأنما أشفقت أن توقظهما . ونفضت أغصان الصنو بر الطويلة ، ثلجها ، فطار كالريش ، وخفق كالحمائم البيضاء ، ثم هبط عليهما وهما نائمتان . وأطل القمر من خلل السحاب الممزق على المكان . ولكن كل لوثة — كل أثر من آثار الجهد والكد على الأرض ، انطوى تحت هذا الستر الناصع النقى التى ألقته رحمة السماء !

ونامتا طول ذلك اليوم ، واليوم التالى ، ولم تستيقظا لما عصفت أصوات القادمين بالسكون . وامتدت الأصابع الرحيمة ، فنحت الثلج عن الوجهين ، غير أنه ما كان يسع أحدا أن يقول ؛ وهو ينظر إليهما ، أيهما كانت المخطئة ، حتى أهل پوكر فلات ، بقانونهم الصارم ، أدركوا هذا ، فمضوا عنهما وتركوهما فى عناقهما . ولكنهم ، على رأس الوادى ، وعند شجرة من أضخم أشجار الصنوبر ، وجدوا ورقة من أوراق اللعب مسمّرة إلى الجذع بمدية ، وعليها ما يأتى ، مكتوبا بالقلم الرصاص ، وبيد ثابتة :

« تحت هذه الشجرة

يرقد جثمان

چون أوكهيرست

الذى عثر به الحظ فى الثالث والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٥٠

وقد أسلم أمره لقضاء الحظ فيه فى السابع من ديسمبر سنة ١٨٥٠ »

ووجدوا هذا الذى كان أقوى المنفيين من پوكر فلات ، وأضعفهم فى آن معا ، راقدا تحت الثلج ، وقد انقطع النبض وابترد الجسم ، وإلى جانبه مسدس ، وفى قلبه رصاصة !

هنري جيمس

١٨٤٣ — ١٩١٦

أربع مقابلات

رأيتها أربع مرات ، ليس إلا . ولكنى أتذكرها كأوضح ما تكون ؛ فقد وقعت من نفسي وأعجبتنى طلاوتها وحسنها ، وعددتها نموذجا بارع الظرف لطراز بعينه . وقد أحزننى نعيها ، ولكنى أعود فأفكر فى الأمر ، فلا يسعنى إلا أن أتساءل : لماذا يؤسفنى ذلك ؟ إنها على التحقيق ، لم تكن فى آخر مرة لقيتها فيها — ولكنى سأصف مقابلاتنا على الترتيب .

١

كان أول لقاء لنا ، فى الريف ، على الشاى فى حفل صغير ، فى ليلة مثلوجة ، ولا بد أن يكون ذلك منذ سبع عشرة سنة . وكان صديقى « لاتوش » ذاهباً لقضاء عيد الميلاد مع أمه ، فدعانى إلى مرافقته ، واحتفت بنا هذه السيدة الطيبة وأرادت أن تكرمنا بهذه الحفلة التى أسلفت الإشارة إليها . وقد أفدتُ من هذه الرحلة متعة حقيقية ، فما سبق لى أن أوغلت فى « انجلترا الجديدة » فى مثل هذا الوقت . وكانت السماء قد ظلت تثلجنا طول النهار فارتفع ما ألقته على الأرض إلى الركب ، ووددت أن أعرف كيف وصل السيدات إلى البيت .

وسألتنى السيدة لاتوش عن الصور الشمسية وهل أستحسن أن أعرضها على الفتيات ؟ وكانت هذه الصور فى محفظتين كبيرتين جاء بهما ابنها الذى عاد مثلى من أوربا فى الأيام الأخيرة . فأدرت عينى فى الجمع ، فلاحظت أن أكثر الفتيات يشغلهن ما هو أحق بأن يستغرقهن من أية صورة شمسية مهما بلغ من دقتها وإحكامها ووضوحها . ولكن كانت هناك واحدة واقفة على مقربة من الصّفة وهى

تجيل عينها فى الحجرة ، وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة لا توائم فيما بدا لى ، العزلةَ التى آثرتها . فنظرت إليهـا مليا ثم قلت « إنى أحب أن أعرض الصور على هذه الآنسة » .

فقالت السيدة لاتوش « أى نعم . لقد وُفقت فى اختيارك فإنها رَزان[١] . لا تعبأ شيئاً بالمغازلة . سأ كلمها »

فأجبت بأنها لا تكون طلبتى إذا كانت لا تميل إلى المغازلة ، ولـكن السيدة لاتوش كانت قد ذهبت لتعرض عليها الأمر .

وقالت ، وقد عادت « إنها مغتبطة . وهى طلبتك على التحقيق ... هادئة وذكية . . »

ثم أخبرتنى أن اسمها الآنسة كارولين سبنسر ، وقدمتنى إليهـا وقامت بواجب التعريف .

ولم تكن الآنسة كارولين سبنسر بارعة الحسن ، ولـكنها كانت وضيئة رقراقة ، ولا بد أن تكون قدناهزت الثلاثين ، غير أنها كانت غضة ، ولها محيا الطفل ، وكان رأسها دقيقاً جميلا ، وشعرها معقوصاً ، على نحو ما يكون فى تماثيل الإغريق ، وإن كان من المشكوك فيه أن تكون قد رأت فى حياتها تمثالا إغريقيا . ووقع فى روعى أنها « فنانة » على قدر ما تسمح جريمُونتر بتشجيع الميول والنزعات الفنية . وكان فى عينها لين ، وفى نظرتها دهشة ، وفى شفتيها رقة ، ولأسنانها وضاءة وجمال . وكانت تلف جيدها بمنديل تجمع طرفيه بدبوس ، رأسه من المرجان ، وتحمل فى يدها مروحة من القش المضفور يزينها شريط قان . وكان ثوبها القصير من الحرير الأسود . وكانت تتكلم برقة مع الضبط ، وتفتح فمها

---

(١) الرزان العاقلة اللازمة لمقعدها .

الدقيق ، وتفرج شفتيها الرقيقتين ، فتكشف عن أسنانها البيضاء اللامعة ، وقد بدا عليها السرور ، بل التأثر ، لرغبتى فى عرض الصور عليها . وقد تم ذلك بسهولة بعد أن أخرجت المحفظتين من مكانهما ووضعت كرسيين قريباً من مصباح . وكانت الصور رسوما لأشياء أعرفها — مناظر من سويسرا ، وإيطاليا وأسبانيا ، ولقصور وصور وتماثيل شهيرة . وقد أدليت بما وسعنى من الشرح ، وكانت ، وهى تصغى إلىّ ، وتنظر إلى الصور التى أرفعها لعينها ، ساكنة لاتتحرك وطرف مروحتها على شفتها السفلى . وكانت ربما قالت برقة وأنا أرد إحدى الصور إلى مكانها « هل رأيت هذا المكان ؟ » وكان جوابى فى الأغلب والأعم أنى رأيته مرات عديدة (فقد كنت كثير الأسفار) وكنت أحس بعد أن أقول ذلك أنها تلحظنى بعينيها الجميلتين . وقد سألتها فى بدايه الأمر هل سافرت إلى أوروبا ؟ فكان جوابها « لا ، لا » وكان صوتها همسا خافتا ، كأنما تُسر إلىّ شيئاً ؛ ولكنها بعد ذلك لم تكد تقول شيئاً ، وإن كانت لم تحول عينها عن الصور ، حتى توهمت أنها ضجرت ، فلما فرغنا من إحدى المحفظتين اقترحت أن أقصر عن عرض ما بقى ، إذا كانت تؤثر ذلك . وشعرتُ أنها لم تسأم ، ولكن صمتها حيرنى ، واشتهيت أن أحملها على الكلام ، فأدرت وجهى ونظرت إليها فرأيت على خديها احمراراً خفيفاً ، وكانت تروّح على وجهها ولا تنظر إلىّ ، بل تحدج المحفظة الثانية المسندة إلى المنضدة .

وقالت بصوت فيه بعض التهدج والارتعاش : « ألا ترينى ما فى هذه ؟ » فكدت أعتقد أنها مضطربة ، وقلت :

« يسرنى ذلك ، إذا كنت لم تتعبى »

قالت : « لا ، لست متعبة . إنى أحب ذلك »

وتناولت المحفظة الثانية فأراحت كفها عليها ومسحتها برقة .

وسألتنى : « وهل سافرت إلى هذه البلاد أيضاً ؟ »

وفتحتُ المحفظة فتبين أنى سافرت إلى هذه الأقطار ، وكان من بين الصور الأولى منظر كبير لقصر شيلون على بحيرة جينيف .

وقلت وأنا أريها هذا : « لقد زرت هذا المكان عدة مرات . أليس جميلا ؟ »

وأشرت إلى الصور المنعكسة فى الماء الصافى الساكن ، للصخور الوعرة والصروح الذاهبة فى الهواء ، فلم تقل « ما أبدع هذا » ثم تدفعه لترى الرسم الذى يليه ، بل تأملته مليا ثم سألت : أليس هذا هو المكان الذى حُبس فيه بونيفار على ما جاء فى شعر بيرون ؟ فقلت : نعم ، وحاولت أن أنشدها بعض أبيات بيرون فى الموضوع ولكن الذاكرة لم تساعفنى كما ينبغى .

فروحت على وجهها لحظة ثم أنشدت الأبيات على الوجه الصحيح بصوت لين مطرد النبرة إلا أنه حسن ، واتقد وجهها لما فرغت ، فأثنيت عليها وقلت لها إنها مزودة بما يلزم لزيارة سويسرا وإيطاليا ، فنظرت إلىَّ بمؤخر عينها لترى أجاد أنا أم أنا أمزح ، فقلت لها إذا كان المراد أن تعرف المواضع من وصف بيرون لها فإن الواجب أن تعجل بالسفر فإن أوروبا تحول بسرعة عن العهد بها فى أيام بيرون

فسألتنى : « متى ينبغى إذن أن أذهب ؟ »

قلت : « إنى أمهلك عشر سنوات » .

قالت بلهجة متزنة : « أظن أن فى وسعى أن أسافر فى خلال ذلك » .

قلت : « ستستمتعين بالرحلة جدا ، وستلفينها حافلة بالمطرب المعجب » .

وعثرت على صورة لركن فى مدينة أجنبية كنت كلفاً بها وكانت لى فيها عهود يحن القلب لذكراها ، وأحسبنى أفضت فى الكلام عنها ، وكنت فيما

قلت ، رطب اللسان ، فقد كانت مرهفة الأذنين ، وأنفاسها محتبسة .

وسألتنى بعد أن أقصرت برهة : « هل طال مقامك فى البلدان الأجنبية ؟ »

قلت : « سنين عديدة » .

قالت : « وهل رحلت إلى كل مكان ؟ » .

قلت : « كانت أسفارى كثيرة فإنى كلف بالتجوال . ومن حسن الحظ أنى كنت قادراً على ذلك » .

فنظرت إلىّ مرة أخرى بمؤخر عينها وسألت :

« وهل تعرف اللغات الأجنبية ؟ » .

قلت : « إلى حد ما » .

قالت : « هل فى معرفتها والكلام بها مشقة ؟ » .

فقلت : « أعتقد أنك لن تجدى فى الأمر صعوبة » .

قالت : « لا يعنينى أن أتكلم أنا — إنما يكون همى أن أنصت » .

وأمسكت ثم قالت : « يقولون إن المسرح الفرنسى بديع » .

قلت : « هو خير ما فى العالم فى بابه » .

قالت : « هل كثر ترددك إليه ؟ » .

قلت : « لما كنت فى باريس كنت أذهب إليه كل ليلة » .

قالت : « كل ليلة ! » وفَتحت عينيها الصافيتين جدا « إن هذا فى رأيى — » وترددت هنيهة « رائع جدا » ثم سألت بعد دقائق : « أى البلاد تفضل ؟ » .

قلت : « هناك بلاد أفضلها على كل ما عداها ، وما أظن برأيك إلا أنه سيكون كرأيى » .

فنظرت إلى قليلا ثم قالت برقة : « إيطاليا ؟ » .

قلت : بمثل رقتها « إيطاليا » . ورشق كل منا صاحبه بلحظه . وكان يخيل إلىّ وأنا أنظر إلى إشراق محياها ووضاءته وصباحته كأنى كنت أغازلها وأبثها حبى ، ولم أكن أريها صوراً شمسية . ومما قوى هذا الوهم أن وجهها صبغه الدم لخولته عنى . وساد الصمت هنيهة قالت بعدها .

« هذا هو المكان الذى كنت أفكر فى الذهاب إليه على الخصوص » .

قلت : « أوه ... هذا هو ... هذا هو » .

وقلبت صورتين أو ثلاثا فى صمت ثم قالت : « يقولون إن النفقة ليست باهظة »

قلت : « كما هى فى بعض البلاد الأخرى ؟ نعم ، وليس هذا أقل مزاياها » .

« ولكنها غالية كلها ، أليست كذلك ؟ » .

« تعنين أوربا ؟ » .

« السفر والطواف والتنقل ... هذه هى الصعوبة إلى الآن ، فإن المال عندى قليل . إنى مدرّسة » .

قلت : « لاشك أن المال ضرورى ولا غنى عنه ، ولكن الإنسان يستطيع أن يدبر أموره بمبلغ معتدل » .

قالت : « أظن أن فى وسعى ذلك ، فقد ادخرت شيئاً ، ولا أزال أضيف إليه ... لهذا الغرض » وسكتت برهة ثم انطلقت تتكلم بلهفة كأنما كانت مكبوتة ، وكأنما كان إخبارى بذلك فيه لذة نادرة إلا أنها عسى أن تكون غير بريئة « ليس المال كلّ ما عاق ... كل شىء عاق . كل شىء كان يصد ، وقد انتظرت ، وانتظرت ، فما عدوت حال الذى يبنى القصور بخياله فى الهواء ، وإنى لأكاد أخاف أن أتكلم فى هذا ... وقد خايلنى الأمل بالتحقيق مرتين أو ثلاثا فتكلمت به ، فانتسخ الحلم ! ألا لقد تكلمت كثيراً ... أكثر مما ينبغى » قالت ذلك منحية

به على نفسها ، وكانت تجد فى هذا بعض المتعة على ما بدالى « ولى صديقة عزيزة لا تريد أن تسافر ، ولست أمل تكليمها فى هذا حتى لأضجرها جدا . وقد قالت لى مرة إنها لا تدرى ماذا عسى أن يكون مآلى ، فإنى خليقة أن يطير عقلى إذا لم أسافر إلى أوربا ، وسيطير عقلى على التحقيق إذا سافرت » .

فقلت : « على كل حال ، هذا أنت لم تسافرى ، ولم يطر عقلك مع ذلك » .

فنظرت إلىّ مليا ثم قالت : « لست على يقين من ذلك . فما أرانى أفكر فى شىء آخر . أفكر فى السفر دائماً ، حتى ليمنعنى ذلك أن أفكر فيما هو أدنى إلىّ — فيما ينبغى أن أعنى به — وهذا ضرب من الجنون » .

قلت : « الدواء أن تسافرى » .

قالت : « إن لى ثقة و إيماناً بأنى سأسافر . ولى فى أوربا ابن عم ! » .

وقلبنا بضع صور أخرى وسألتها هل قضت كل حياتها فى « جريمونتر ؟ »

فقالت : « لا ياسيدى . لقد قضيت ثلاثة وعشرين شهراً فى بوستون » .

فقلت مازحا إنه مادام الأمر كذلك فإن أوربا ستخيب أملها على الأرجح ، ولكنى لم أزعجها .

وقالت ، وعلى فمها ابتسامتها اللطيفة الوديعة : « إنى أعرف عن أوربا أكثر مما تظننى أعرف — أعنى بالقراءة عنها . فقد قرأت كثيراً ، ولم أقتصر على بيرون وحده ، بل قرأت كتب التاريخ وكتب إرشاد السياح . وأنا واثقة أنى سأرضى عن رحلتى حين يتاح لى أن أقوم بها » .

فقلت : « إنى أعرف حالتك ، وأدرك بواعثها . هو الهوى الذى يلج بنفس الأمريكى . . هوى الجمال والروعة . وأحسب أن هذا عندنا مقدم على كل

ما عــداه ، وسابق لـكل اختبار وتجربة . فإذا جاءت التجربة لم ترنا إلا ما كنا نحلم به » .

فقالت كارولين سبنسر : « أعتقد أن هذا صحيح . فقد حلمت بكل شيء . وسأعرف كل شيء حين أراه » .

قلت : « أظنك ضيعت وقتاً طويلا جدا » .

قالت : « نعم وهذا شر ذنوبى » .

وكان الذين حولنا قد بدأوا ينصرفون ، فنهضت ومدت إلىّ يدها فى دعة ورقة ولكن عينها كانت فيها لمعة غريبة .

فقلت وأنا أهز يدها مودعاً : « إنى عائد إلى هناك ، وسأتطلع إلى لقائك » .

فقالت : « سأخبرك إذا خاب أملى » .

ومضت عنى ، وعليها أمارات الاضطراب الخفيف ، وفى يدها المروحة تتحرك

٢

عدت إلى أوربا بعد هذه المقابلة ، ببضعة شهور ، وانقضت ثلاث سنوات . وكنت مقيما فى باريس ، وفى أخريات أكتوبر رحلت عنها إلى « الهافر » لأقابل أختى وزوجها . وكانا قد كتبا إلىّ يقولان إنهما يوشك أن يصلا إليها . فلما بلغت الهافر وجدت أن الباخرة قد سبقتنى إليها وأنى تأخرت حوالى ساعتين ؛ فانكفأت إلى الفنــدق الذى نزل فيه قريباى . وكانت أختى قد أوت إلى فراشها من الإعياء الذى سببه لها ركوب البحر ، فقد عانت منــه شر ما يصيب الإنسان . وكانت ترغب ألا يزعجها أحد من راحتها أو ينغصها عليها فلم أمكث معها إلا خمس دقائق . ومن أجل هذا اتفقنا على البقاء فى الهافر إلى اليوم التالى . وكان زوجها من فرط قلقه عليهــا لا يريد أن يغادر غرفتها ولـكنها أصرت أن

يخرج معى ويتمشى لينفى عنه ما يشعر به راكب البحر ، ويستعيد إحساسه بالوثاقة والاستقرار . وكنا فى الخريف ، وكان الصباح دافئاً ، منعشاً ، وأعجبتنا المناظر وسرتنا ونحن نجتاز الشوارع البهيجة الألوان الغاصة بالناس فى هذا المرفأ الفرنسى القديم . وسرنا على أرصفة الميناء المشمسة العالية الضوضاء ثم دخلنا فى شارع جميل واسع ، بعضه تضيئه الشمس والبعض فى الظل ، وكان لقدمه ، ولما عليه من الصبغة الريفية يبدو للناظر كأنه رسم بالألوان المائية ، فهذه مساكن عالية كثيرة الطبقات مغبرّة اللون ، وسقوفها الحمراء الآجر على هيئة المثلث ، وعلى نوافذها شبابيك [١] خضراء وفوقها الزخرفة ، وفى الشرفات الزهريات ، وعلى العتبات النساء وقد لففن رءوسهن بمناديل بيضاء . وقد سرنا فى الظل ، وكنا نرى هذه المناظر على الجانب المشمس فكأنها صورة . وإذا بنسيبى يقف بغتة ويضغط ذراعى ويحدق ! فنظرت إلى حيث ينظر ، فرأيت أننا وقفنا على مسافة قصيرة من مقهى رصت أمامه المناضد والكراسى تحت طنف [٢] . وكانت النوافذ مفتوحة ، وعلى جانبى الباب شجيرات ست مرصوصة فى مغارسها ، وقد فرش الرصيف بالتبن النظيف . وكان المقهى صغيراً ، عتيقاً ، ولكنه هادئ ، ورأيت بداخله ، فى الظلام النسبى ، امرأة حسناء سمينة على قبعتها شرائط قرمزية ، ووراءها مرآة ، ، وهى تبتسم لشخص متوار عن النظر . على أنى لم ألاحظ هذا إلا فيما بعد . أما الذى رأيته أول الأمر فسيدة جالسة وحدها على منضدة من تلك المناضد الرخامية المبعثرة على الرصيف . وكان نسيبى قد وقف لينظر إليها ، وكان أمامها شىء على المنضدة ، ولكنها كانت مضطجعة ، وساعداها مطويان

---

(١) الشباك ما وضع من القصب ونحوه على صنعة البوارى — الحصير المنسوج .

(٢) ما أشرف خارجاً عن البناء .

على صدرها ، وعينهـا إلى الناحية الأخرى من الشارع . ولم أر منها سوى لمحة جانبية ومع ذلك كبر فى ظنى أنى رأيتها من قبل .

وقال نسيبى : « سيدة الباخرة ! » .

فسألته : « أكانت على الباخرة معكم ؟ » .

قال : « من الصباح إلى الليل . ولم يصبها الدوار . وكانت تجلس على جانب السفينة وساعداها مطويان كما تراها الآن ، وترسل لحظها إلى الأفق الشرقى » .

فسألته : « أتنوى أن تكلمها ؟ » .

قال : « لست أعرفها . . . لم نتعارف . . . وكنت سيئ الحال من الدوار ، ولـكنى كنت أراقبها ، ولا أدرى لماذا كنت معنيا بهـا . وإنها لأمريكية صغيرة رشيقة . وأكبر الظن أنها مدرسة ، وأنها فى إجازة ، وهى تتنزه بما ادخرته من تلاميذها » .

وأدارت فى هـذه اللحظة خدها قليلا ونظرت إلى المساكن العالية المغبرة الجدران فقلت : « سأكلمها أنا » .

فقال نسيبى : « لو كنت مكانك لما فعلت فانها حيِيَّةٌ جدا » .

قلت : « يا صديقى العزيز ، إنى أعرفها . وقد أريتها مرة بضع صور شمسية فى حفلة شاى » .

وقصدت إليها ، فلفتت وجهها ونظرت إلىّ ، فأيقنت أنها الآنسة كارولين سبنسر ، ولـكنها لم تعرفنى بمثل هذه السرعة ، فقد بدت عليها دهشة المفاجأة ، وقلت ، وقد سحبت كرسيا وقعدت :

« أرجو ألا يكون أملك قد خاب » .

فحدقت فىّ ، وقد احمر وجهها قليـلا ، ثم انتفضت قليلا انتفاضة المعرفة والإدراك وقالت :

« أنت الذى أرانى الصور الشمسية — فى جريمونتر ؟ » .

قلت : « نعم ، أنا هو بعينه ، هذه مصادفة جميلة فإنى أحس كأن علىّ أن أقيم لك استقبالا وترحيباً رسميين . فقد كلمتك كثيراً عن أوربا » .

فقالت بلهجة رقيقة : « لم تقل أكثر مما يجب . وإنى لسعيدة » .

وكانت السعادة بادية عليها ، ولم يكن ثم ما يدل على أن سنها زادت وأنها صارت أكبر ، واحتفظت وسامتها بمزايا الرزانة والوداعة . وإذا كانت قد بدت من قبل زهرة من أزاهير الطهر على عودها الأملود ، وببهجة ألوانها الرقيقة ، فما كانت نضرة هذه البهجة الرقيقة أقل ظهوراً ، الآن ، وكان إلى جانبها رجل كهل يحتسى شراب « الأبسنت » ووراءها السيدة ذات القبعة المزدانة بالشرائط القرمزية ، تصيح « ألِسبْياد » ! « ألِسبْياد ! » للخادم ذى الفوطة الطويلة الملفوفة على وسطه ، وأخبرت الآنسة سبنسر أن زميلى كان معها فى السفينة ، وأنه زوج أختى ، فتقدم وعرفته بها فنظرت إليه كأنها ما وقعت عليه عينها من قبل ، ولا عجب فقد حدثنى أنها كانت لا تنفك تنظر إلى الأفق الشرقى ، ومن الجلى أنها لم تفطن إلى وجوده على الباخرة . وابتسمت له ابتسامة حييّة ولم تحاول أن تزعم أنها رأته من قبل ، وبقيت معها فى المقهى ، ورجع هو إلى الفندق وزوجته . وقلت للآنسة سبنسر إن مقابلتى لها بُعَيد نزولها من السفينة اتفاق عجيب جدا ، ولكنى مغتبط بذلك ويسرنى أن تخبرنى عن وقع السفر فى نفسها .

قالت : « لا أدرى ! ولكنى أشعر كأنى فى حلم . وإنّ لى هنا لساعة ، ولست أريد أن أتحرك . كل شىء جميل . ومن يدرى ؟ لعل القهوة أسكرتنى ، والحق أنها كانت لذيذة ! » .

قلت : « إذا كان هذا مبلغ سرورك بمرفأ الهافر الممل وكنت تفيضين عليه كل

هذا الإعجاب ، فإنك لا تبقين شيئاً من السرور والإعجاب بما هو خير منه . كلا ، لا تنفقى كل ذخرك من الإعجاب فى أول يوم . واذكرى أن هذه وثيقة الاعتماد الأدبية... تذكرى كل البلدان والأشياء الجميلة التى تنتظرك . تذكرى إيطاليا الفاتنة ! » .

فقالت بلهجة الجذل ، وعينها على المساكن أمامها : « لست أخشى الإفلاس وإن فى وسعى أن أجلس هنا طول النهار ، وأقول لنفسى إنى صرت ههنا أخيراً . كل شىء قاتم ، وقديم ، ومغاير للمألوف ! » .

فسألتها : « على فكرة ، كيف اتفق لك أن تقعدى هنا ؟ ألم تقصدى إلى فندق من الفنادق ؟ » فقد استغربت سذاجة القلب التى جعلت هذه المرأة الحسناء الرقيقة تتخذ مكانها فى هذه العزلة البارزة على حافة الطريق .

فكان جوابها : « جاء بى ابن عمى إلى هنا . أتذكر أنى قلت لك إن لى ابن عم فى أوربا ؟ استقبلنى هذا الصباح على الباخرة » .

قلت : « لم تكن به حاجة إلى تجشيم نفسه عناء الاستقبال إذا كان سيهجرك بهذه السرعة » .

قالت : « إنما تركنى مسافة نصف ساعة . ذهب ليجىء بمالى » .

فسألتها : « وأين مالك ؟ » .

فضحكت ضحكة خفيفة وقالت : « إنى أشعر بأن لى شأناً حين أخبرك أنها كلها أوراق نقد » .

فسألتها : « وأين أوراقك النقدية ؟ » .

قالت : « فى جيب ابن عمى » .

قالت هذا بهدوء ، ولكن الخبر — لا أدرى لماذا ؟ — أجرى فى بدنى قشعريرة البرد ، ولو أنى سئلت فى تلك اللحظة عن الباعث لعجزت عن تعليل

هـذا الشعور فما كنت أعرف شيئاً عن ابن عمها فالمفروض أن يكون أميناً ، ولكنه أقلقنى لجأة أن تكون مواردها القليلة قد انتقلت إلى يديه بعد نصف ساعة من نزولها من السفينة .

وسألتها : « أتراه سيسافر معك ؟ » .

قالت : « إلى باريس فقط . فإنه يدرس الفن فيها . وكنت قد كتبت إليه أنى قادمة ولكنى لم أكن أتوقع أن يجىء إلى هنا ليستقبلنى ، ولم أطمع فى أكثر من أن يلقانى على المحطة فى باريس . وإنها لمروءة منه . ولكنه ذو مروءة ، وذكى أيضاً » .

فشعرت برغبة ملحة فى أن أرى ابن عمها الذكى الذى يدرس الفن .

وسألتها : « هل ذهب إلى المصرف ؟ » .

قالت : « نعم ، إلى المصرف . ذهب بى إلى فندق — مكان صغير غريب ولكنه جميل ، وفى وسطه ساحة ، تحيط بها من فوقها شرفة تدور بها ، وصاحبة الخان سيدة ظريفة تلبس ثوباً محبوك التفصيل على قدها . وبعد قليل خرجنا لنتمشى إلى المصرف لأنه ليس معى شىء من النقود الفرنسية ، ولكنى كنت دائرة الرأس من ركوب البحر فاستحسنت أن أقعد ، فجاء بى إلى هنا وذهب هو إلى المصرف ، وسأنتظر هنا حتى يعود » .

وقد يبدو هذا منى إغراقاً فى التخيل ، ولكنه مر بخاطرى أنه لن يعود أبدا . فاعتدلت على الكرسى وقد صممت على البقاء إلى جانبها حتى أرى ما يكون . وكانت دقيقة الملاحظة لا يفوت عينها شىء ، مما تعرضه علينا حركة الشارع — غرابة الثياب ، وأشكال المركبات ، والخيل النورماندية الجسيمة ، والقساوسة الضخام الأبدان ، والكلاب الحليقة . وتحدثنا عن هـذه الأشياء ،

فوجدت متعة من جدة مشاهداتها وكيف كان ذهنها الواسع الاطلاع يدرك الأشياء ويغتبط بها .

وسألتها : « وبعد أن يرجع ابن عمك ، ماذا تنوين أن تصنعى ؟ » .

فترددت لحظة ثم قالت : « لا ندرى تماماً » .

قلت : « ومتى تذهبين إلى باريس ؟ إذا ركبت قطار الساعة الرابعة فإنه يكون من دواعى سرورى أن أكون فى خدمتك فى هذه الرحلة » .

قالت : « لا أظن أننا سنفعل ذلك فإن ابن عمى يرى أن أبقى هنا بضعة أيام »

فقلت : « أوه » ولبثت خمس دقائق لا أنبس بحرف . وكنت أتعجب لابن عمها هذا ماذا يبغى من وراء ذلك ؟ وأدرت عينى فى الشارع وأرسلت لحظى فيه إلى آخر مدى البصر ، ولكننى لم أر أحداً يمكن أن يعد أمريكيا ذكيا من طلاب الفنون . وأخيراً سمحت لنفسى أن ألاحظ أن الهافر ليس بالمكان الذى يختاره من يطوّف فى أوربا ليتلبث فيه ويعجب به . فما هو بأكثر من استراحة ، ومعبر ومجاز ينبغى أن ينفذ منه المرء بسرعة ، ونصحت لها أن تسافر إلى باريس على قطار العصر ، وأن تتسلى فى أثناء ذلك بالركوب إلى القلعة القديمة عند مدخل الميناء — ذلك البناء الداثر الجميل الذى يحمل اسم فرنسيس الأول ويبدو للعين كأنه قصر صغير من قصور سنت أنجلو .

وكانت تصغى بعناية ، ثم بدا عليها الجد وهى تقول :

« أخبرنى ابن عمى أنه بعد عودته سيحدثنى فى أمر خاص ، وقال إننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً أو نقرر أمراً إلا بعد أن أستمع إلى ما عنده ، ولكنى سأحمله على الإسراع فى إخبارى ، ثم نذهب بعد ذلك إلى القلعة القديمة . ولا داعى للتعجيل بالسفر إلى باريس ، فإن الوقت فسيح » .

وكانت تبتسم بشفتيها الرقيقتين الحادتين قليلا وهى تقول هذا ، ولكنى كنت أتفرس فى وجهها ، فلمحت طيفاً من الخوف فى عينيها .

وقلت : « لا تقولى إن هذا الرجل التعس سيفضى إليك بأخبار سيئة ! » .

قالت : « أحسب أنها ستكون سيئة قليلا ، ولكنى لا أعتقد أنها سيئة جدا . على كل حال لا بد من الاستماع » .

فنظرت إليها هنيهة ثم قلت : « ما أظنك جئت إلى أوربا لتصغى إليه أو لغيره ، إنما جئت لتنظرى ! » .

وأيقنت أن ابن عمها سيعود ، وما دام أن لديه أخبارَ سوء يريد أن يطلعها عليها فلا بد أن يرجع . وسألتها عن البلدان التى تنوى أن تزورها ، فألفيتها قد رتبت رحلتها على أدق نحو ، وسردت لى أسماء البلاد بلهجة الجد ، فهى ستذهب من باريس إلى ديجون وأفينيون ، ومن ثم إلى مارسيليا وطريق الساحل « الكورنيش » ثم إلى جنوة ، وسبيزا ، و بيزا ، وفلورنسة ، ورومية . ويظهر أنه لم يخطر لها قط أن فى السفر وحدها و بلا رفيق أىَّ عناء ، ولما كان لا رفيق لها ؛ فقد حرصت على اجتناب إقلاقها أو إضعاف شعورها بالاطمئنان والثقة .

وأخيراً جاء ابن عمها . رأيته يخرج علينا من زقاق جانبى ، وما كادت عينى تأخذه حتى أيقنت أنه هو الأمريكى الذكى الذى يدرس الفن فى باريس . وكان يلبس قبعة ناعمة عريضة الحافة ، وسترة لبيسة [1] من المخمل الأسود ، رأيت أمثالها كثيرا فى « شارع بونابرت » ، وكان قميصه ينفرج عن جانب كبير من عنق لم يبد لى على البعد جميلا . وكان طويلا نحيفاً وشعره أحمر ، وفى

---

(١) اللبيس : ما طال لبسه فأخلق .

وجهه حَطاط[١] ، وقد لاحظت هذا كله وهو يدنو من المقهى ويحدق فيّ مستغرباً وجودى . ولما صار معنا عرفته بنفسى وقلت إنى صديق قديم للآنسة سبنسر ، فأحدَّ النظرَ إلىّ بعينيه الضيقتين المحمرتين . ثم انحنى لى على الطريقة الفرنسية ملوّحا بقبعته العريضة .

وقال : « أكنت على السفينة ؟ » .

قلت : « كلا ، لم أكن هناك ، فإنى فى أوربا منذ ثلاث سنوات » .

فانحنى مرة أخرى بتؤدة وأومأ إلىّ أن أجلس كما كنت ، فقعدت لأراقبه وأفحصه قليلا ، فقد آن لى أن أعود إلى أختى ، وبدا لى أن ابن العم هذا غريب ، فما خلقه الله فى صورة يلائمها زى بيرون أو روفائيل ، ولا كانت سترته المخملية ، وعنقه العارى على اتساق مع خصائص وجهه ، وكان شعره مقصوصاً إلى قريب من جلدة الرأس ، وأذنه عظيمة مقبلة على الوجه ، متباعدة عن الرأس . وكان فى هيئته فتور ، وفى قامته انحناء يناقضان ما فى عينه الغريبة اللون من الحدة والشدة . ولعلى كنت متحاملا عليه ، ولكنه خيل إلىّ أن فى عينيه غدراً .

وظل لحظة لا يقول شيئاً ، وكان يعتمد بيديه على عصاه ويصعّد طرفه ويصوّبه فى الشارع ، وأخيراً رفع عصاه ببطء وأشار بها وهو يقول : « هذا حسن » ، وكان يُميل رأسه ويُدانى بين جفونه وهو ينظر ، فوجهت عينى إلى حيث كان يومئ بعصاه ، فرأيت خرقة حمراء معلقة من شباك قديم . وقال : « لون حسن » وحوّل إلى لحظه من غير أن يحرك رأسه وقال : « يكون جميلا فى الرسم » ، وكان صوته ناشفاً جامداً خالياً من الصقل .

فقلت : « أرى أن لك لنظراً . وقد أخبرتنى ابنة عمك أنك تدرس الفن » .

---

(١) الحطاط : بثر صغير يظهر فى الوجه ويقبح اللون ولا يفرح .

فنظر إلىّ بعينه المغضية ولم يجب ، فمضيت فى كلامى بلطف متكلف : « أحسبك تعمل مع واحد من هؤلاء الرجال العظماء » .

فظل ينظر إلىّ ثم قال برقة : « جيروم » .

قلت : « أحسبك مغتبطاً هناك ؟ » .

قال : « هل تعرف الفرنسية ؟ » .

قلت : « إلى حد ما » .

فأبقى عينيه على وجهى ثم قال بالفرنسية : « إنى أعبد التصوير » .

فقلت : « أوه . إنى أستطيع أن أفهم هذا حين تقوله » .

ووضعت الآنسة سبنسر راحتها على ذراع ابن عمها ، وكان فى حركتها اضطراب خفيف من السرور ، وكأنما أعجبها أن يكون المرء ذرب اللسان فى اللغات الأجنبية ! ونهضت لأودعهما ، وسألت الآنسة سبنسر أين فى باريس يتاح لى أن أتشرف بلقائها ؟ وإلى أى فندق تنوى أن تقصد ؟ .

فالتفتت إلى ابن عمها مستفسرة ، فشرفنى مرة أخرى بنظرة فاترة بمُؤخر عينه وسألنى : « أتعرف فندق الأمراء ؟ » .

قلت : « أعرف مكانه » .

قال : « سآخذها إليه » .

فقلت لكارولين سبنسر : « إنى أهنئك . فإنى أعتقد أن هذا خير فندق فى العالم . وإذا اتفق أنى استطعت أن أختلس من وقتى هنا لحظة أراك فيها ، فأين أجدك ؟ » .

فقالت بلهجة الجذل : « ما أحلاه من اسم .. ألَا بِلْ نورماند ! » .

ولما غادرتها انحنى لى ابن عمها ملوحا بقبعته فى دائرة واسعة .

٣

تبين أن أختى لم تعد إليها نفسها إلى حد يسمح بأن تغادر الهافر على قطار العصر ، فلما كان الغسق ألفيت نفسى فى فسحة من الوقت ، وأن فى وسعى أن أزور فندق « ألا بل نورماند » . ويجب أن أعترف أنى قضيت وقتاً طويلا أفكر فيما عسى أن يكون هذا القريب الرّذْل لصديقتى الجميلة قد أفضى إليها به من أخبار السوء . وكان « ألا بل نورماند » خاناً صغيراً فى سكة ظليلة مريبة ، لا يرتاح المرء حين يتصور أن الآنسة سبنسر لا بد أن تكون قد صادفت فيها كثيراً من « اللون المحلى » ، وكان هناك — فى الخان — فناء ضيق يتخذ للسمر ، وسلم إلى غرف النوم ، دَرَجه على ظاهر الحائط ، ونافورة صغيرة يقطر منها الماء وفى وسطها تمثال من الجص ، وغلام يلبس طاقية بيضاء ويلف وسطه بفوطة ، ينظف بعض الأوانى النحاسية فى مدخل المطبخ الظاهر ، وربة الفندق وهى سيدة ثرثارة ، فى شفوف نظيفة ، ترتب الكمثرى والعنب على هيئة الهرم فى طبق قرمزى . فأجلت عينى فى المكان فرأيت كارولين سبنسر على دكة خضراء ، خارج باب مفتوح كتب عليه : « حجرة الطعام » ، وما كادت عينى تأخذها حتى تبينت أن شيئاً حدث بعد أن تركتها فى الصباح ؛ فقد كانت مضطجعة على الدكة ، ويداها متشابكتان فى حجرها ، وعينها على ربة الخان فى الناحية الأخرى من ساحة البيت وهى ترتب الكمثرى .

ولكنى أدركت أيضاً أنها لم تكن تفكر فى الكمثرى ، وإنما كانت تشخص وهى ذاهلة عما حولها ، مفكرة فى خلافه ، ودنوت منها فتبينت أنها حديثة عهد بالبكاء . وقعدت على الدكة إلى جانبها قبل أن ترانى ، فلما أبصرتنى لم تزد على أن تلتفت بلا دهشة ، وأن تريح عينها على وجهى . ولا بد أن

ما وقع كان غاية فى السوء ، فقد تغيرت جدا .

ولم أتوان فى مصارحتها برأيى فقلت : « إن ابن عمك قد أبلغك خبراً سيئاً . فإنى أراك فى كرب شديد » .

فلبثت لحظة لا تقول شيئاً ، وخيل إلىّ أنها تخشى أن تتكلم لأن الدموع تتحير فى عينيها . ولكنى ما لبثت أن تبينت أنها أراقت كل عبرة فى الفترة الوجيزة التى غبت عنها فيها ، وأنها استرجعت ، واستردت جلدها وسكينتها .

وقالت أخيراً : « إن ابن عمى المسكين مكروب ، وقد كان ما أبلغنيه سيئاً » . وترددت قليلا ثم قالت : « كانت حاجته شديدة إلى المال » .

فقلت : « تعنين حاجته إلى مالك ؟ » .

قالت « إلى أى مال يمكن أن يحصل عليه — بطريقة شريفة ! وكان مالى كل ماله إليه وسيلة » .

فسألتها : « وأخذ ما معك ؟ » .

فترددت مرة أخرى ، وكانت عينها تتوسل إلىّ وتضرع ، ثم قالت : « أعطيته ما عندى » .

وما زلت أذكر نبرة صوتها وهى تنطق بهذه الكلمات ، وما فتئت أعدها أشبه ما سمعت ، بأصوات الملائكة ، ولكنى حين سكت أذنى هذه الألفاظ ، انتفضت قائماً كأنما أصابتنى مساءة شخصية وقلت : « يالله ! هل تسمين هذا حصولا على المال بوسيلة شريفة ؟ » .

وكان هذا شططاً منى ، فقد اتقد محياها وقالت : « دع الكلام فى هذا ؟ » .

فقلت وأنا أقعد ثانية : « بل يجب أن نتكلم فى هذا ! إنى صديقك ، ويخيل إلىّ أن بك حاجة إلى صديق . فما خطب ابن عمك ؟ ماذا دهاه ؟ » .

قالت : « إنه مدين » .

قلت : « لا شك ، ولكن ماذا يجعل من حقه أن تؤدى عنه دينه ؟ » .

قالت : « قص على قصته كلها ، وأنا آسفة جدًّا له » .

قلت : « وأنا مثلك ، ولكنى أرجو أن يردّ إليك مالك » .

قالت : « لا شك فى ذلك ... متى وسعه أن يفعل » .

فسألتها : « ومتى يكون هذا ؟ » .

قالت : « بعد أن يُتم رسم الصورة العظيمة التى يعمل فيها الآن » .

فصحت : « يا سيدتى العزيزة ، لعنة الله على صورته العظيمة ! أين ابن العم السادر هذا ؟ » .

فترددت تردداً واضحاً ثم قالت : « يتعشى » .

فتلفت ونظرت من الباب المفتوح فى « حجرة الطعام » ، فأبصرت ذلك الشاب الذكى ، طالب الفنون فى باريس ، وموضع عطف الآنسة سبنسر ، قاعداً إلى طرف مائدة طويلة . وكان مقبلاً على الطعام فلم يرنى فى بادئ الأمر ، ولكنه — وهو يضع على المائدة قدحًا أفرغ ما كان فيه من النبيذ فى جوفه — لاحظ أنى أراقبه . فتوقف عن الأكل ، وأمال رأسه إلى ناحية ، ورشقنى بلحظه كما أرشقه ، وفكاه يتحركان ببطء . ثم مرت بنا ربة الخان وعلى يديها طبق الكمثرى .

فقلت : « وهذه الفاكهة اللذيذة له ؟ » .

فنظرت إلى الطبق برقة وقالت « إنهم يحسنون تقديم ما عندهم » .

فسخطت وأحسست أنه لم تبق لى حيلة ، وقلت : « تعالىْ ، تعالىْ ! هل توافقين على أن يأخذ منك هذا الشاب الطويل القوى مالك ؟ » .

فحولت وجهها عنى ، وكان من الواضح أنى أؤلمها . وخامرنى اليأس ، فما من شك فى أن هذا الشاب الطويل القوى « يعنيها » .

وقلت : « اغفرى لى أنى أتكلم عنه بلا كلفة . ولكنك أسخى يداً مما ينبغى أن تكونى ، وهو أقل تعففاً مما يجب . لقد جرّ على نفسه الدين ، فحقيق به أن يؤديه ويرده بنفسه ومن موارده » .

فقالت : « لقد كان أحمق . أعرف ذلك ، فقد قص علىّ كل شىء . وطال حديثنا فى هذا صباح اليوم . وقد قصد إلىّ فى حاجته . فقد وقّع سندات بمبالغ جسيمة » .

قلت : « ما أعظم حماقته ! » .

قالت : « إنه يعانى همّاً ثقيلاً . وليس الأمر بقاصر عليه وحده ، فإن هناك أيضاً زوجته المسكينة » .

قلت : « آه ! أوَله زوجة مسكينة ؟ » .

قالت : « لم أكن أعرف هـذا حتى أقرّ لى به . تزوجها منذ سنتين — سراً » .

وتلفتت كارولين سبنسر حولها كأنما كانت تخشى أن يسترق السمع أحد ، ثم قالت برقة ، وبنبرة مؤثرة : « لقد كانت كونتيسة » .

فسألتها : « أواثقة أنت من ذلك ؟ » .

قالت : « لقد كتبت إلىّ رسالة ما أجملها ! » .

قلت : « تطلب منك فيها قرضاً حسناً ؟ » .

قالت : « بل تلتمس الثقة والعطف . فقد حرمها أبوها حقوقها . وقد خبرنى ابن عمى بقصتها ، وفصلتها هى لى فى رسالتها . إنها أشبه بالقصص القديمة . فقد

رفض أبوها أن يوافق على هــذا الزواج ، ولما عرف أنها خالفت أمره سرًّا ، رمى بها . الحقيقة أنها حادثة مؤثرة . وأسرتها أعرق الأسر فى مقاطعة بروفنس » .

وكنت أنظر وأصغى وأنا أتعجب . وبدا لى أن هــذه المسكينة تجد لذة حقيقية فى هذه الرواية التى تدور وقائعها على كونتيسة منبوذة يتزوجها ابن عمها ، وقد بلغ من استغراق هذه الرواية لها أن صرفتها عن التدبر فى أمرها وفيما يجره عليها ضياع مالها .

وقلت : « يا سيدتى العزيزة ، هل تريدين أن تخربى فى سبيل الخيال ؟ » .

قالت : « لن أخرب ! وسأعود بعد قليل لأقيم معهما . فإن الـكونتيسة تلح فى ذلك وتصر عليه » .

فسألت : « تعودين ؟ هل تعنين أنك راجعة إلى بلادك ؟ » .

فغضت طرفها هنيهة ، ثم قالت وهى تجاهد أن تخفى اضطراب صوتها : « ليس معى مال للسياحة » .

قلت : « أو أعطيته كل ما معك ؟ » .

قالت : « احتفظت بما يكفى للإياب » .

فتوجعت من الغيظ ، وفى هــذه اللحظة خرج من غرفة الطعام ابن عمها السعيد الذى استحوذ على مدخرها ، وعلى يد الـكونتيسة أيضاً ! ووقف لحظة على العتبة ، يقشر كمثراة ، ثم دسها فى فمه ، وتركها فيه ملتذًّا بها ، وجعل ينظر إلينا وساقاه متباعدتان ، ويداه فى جيبى سترته . فنهضت الآنســة سبنسر ، ورمت إليه نظرة لم تفتنى ، واشية بالاستسلام والافتتان ، بل بالنشوة . وقد كان هــذا الشاب قبيحاً ، وسوقيًّا ، ودعيًّا خائناً ، فى رأيى ، ولـكنه استطاع أن يخلب لبها و يسحر خيالها . وقد كان حنقى عليه شــديداً ، وتقززى منه عظيما ،

ولـكنه لم يكن لى حق فى الدخول فى الأمر ، وعلى أنه لم يغب عنى أن الدخول فى هذا عبث لا طائل تحته .

ولوَّح الشاب بيده تلويحاً مسرحيًّا وقال : « ساحة جميلة . ومكان طيب . هذه الآجرة لونها حسن . وهذا السلم الملتوى أيضاً ! » .

فنفد صبرى ، ولم تعد لى طاقة على الاحتمال ، ومددت يدى إلى كارولين سبنسر من غير أن أرد على ابن عمها ، فنظرت إلىّ بوجهها الدقيق وعينيها الواسعتين وبدت لى أسنانها ، كأنما أرادت أن تبتسم وقالت : « لا تأسف من أجلى . فإنى واثقة أنى سأرى شيئاً من هذه القارة العتيقة يوماً ما » .

فقلت لها إنى لا أودعها ، وأنى سأعود إليها فى صباح الغد . وكان ابن عمها قد لبس قبعته العريضة ، فنزعها ولوَّح لى بها على سبيل التحية ، فانصرفت .

ورجعت فى صباح اليوم التالى إلى الخان حيث التقيت بربته ، وكانت أقل عناية بثيابها مما كانت فى المساء ، فلما سألتها عن الآنسة سبنسر قالت : « سافرت يا سيدى . غادرتنا فى الساعة العاشرة البارحة مع ... مع ... إنه ليس زوجها ، هه ؟ على كل حال مع السيد ... وذهبا إلى الباخرة الأمريكية » .

فانصرفت . فيا لها من مسكينة ! لم تقض فى أوربا إلا حوالى ثلاث عشرة ساعة !

٤

وكنت أسعد حظًّا منها فقضيت فى أوربا حوالى خمس سنوات . وفى هذه المدة فقدت صديقى لاتوش ، فقد أصيب بحمى الملاريا أثناء رحلة على الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، فقضى نحبه . وكان أول ما صنعت بعد عودتى إلى أمريكا أن قصدت إلى بلدة « جريمونتر » لأعزى أمه المسكينة ، وكانت

شديدة الحزن ، فجلست معها الصباح كله (وكنت قد وصلت فى ساعة متأخرة من الليلة السابقة) أصغى لحديثها الباكى ، وأتغنى بسجايا صديقى . ولم يكن لنا كلام فى غير ذلك ، ولم يقطع حديثنا إلا وصول سيدة صغيرة خفيفة تسوق مركبتها ، وقد رأيتها ترمى الأعنة على ظهر الجواد بمثل سرعة النائم أفزعه شىء فرمى الغطاء ونهض . ووثبت من المركبة ، ودخلت الغرفة وثباً من فرط النشاط فى حركتها والخفة فيها . وعرفت أنها زوجة القسيس ، وأنها « راوية » البلدة ، وكان يبدو عليها أن لديها نخبة متخيرة من الأحاديث تتلهف على الإفضاء بها ، وكنت على يقين من هذا ، كيقينى من أن السيدة لاتوش لا يمنعها جزعها على وحيدها وثكلها له أن تصغى إلى صاحبتها . ورأيت أن الانصراف أكيس فقلت إنى سأذهب لأتمشى قبل الغداء ، وسألت قبل الخروج : « وعلى فكرة ، إذا استطعت أن تدلينى على بيت الآنسة سبنسر ، ذهبت إليها » .

فردت زوجة القسيس وأخبرتنى أن الآنســة سبنسر تسكن البيت الرابع بعد الـكنيسة ، وهى على اليمين ، وفوق بابها طَنَف محمول على عمودين ، تراه هى أشبه بإطار السرير .

وقالت السيدة لاتوش : « نعم ، اذهب وزر كاروابن المسكينة ، فسيرد إليها نفسها أن ترى وجها غريبا » .

وقالت زوجة القسيس : « أحسبها رأت فوق الـكفاية من الوجوه الغريبة ! »

فأصلحت السيدة لاتوش العبارة وقالت : « إنما أعنى أن ترى زائرا » .

فعادت صاحبتها تقول : « وأحسبها شبعت من الزوار ! ولـكنك أنت لا تنوى أن تبقى عشر سنين ؟ » .

فقلت وأنا متحير : « أو عندها زائر من هذا الضرب ؟ » .

قالت : « سترى ضربه . ومن السهل أن ترى زائرتها ، فإنها تجلس عادة فى الساحة المقدّمة أمام البيت ، وعليك أن تكون لبقا وشديد الحذر فى كلامك ، وتوخ الأدب على الخصوص » .

فقلت : « آه ، حساسة جدا ، أليست كذلك ؟ »

فوثبت زوجة القسيس إلى قدميها ، وانحنت لى ، إنحناء سخر وتهكم ، وقالت : « هى كما تقول ، من فضلك ، فإنها كونتيسة ! »

ونطقت اللفظ بلهجة لاذعة ، حتى خيل إلىّ أنها تضحك ساخرة ، فى وجه الكونتيسة ، فوقفت لحظة أحدّق ، وأتعجب ، وأتذكر .

ثم قلت : « أوه . . . سأكون مؤدبا جدا » ، وتناولت قبعتى وعصاى ، وانصرفت .

ولم أجد مشقة فى الاهتداء إلى بيت الآنسة سبنسر . فقد عرفت الكنيسة بلا جهد ، وكان البيت الصغير الحائل البياض ، ذو المدخنة الكبرى والنباتات الزاحفة ، أخلق مسكن بعانس مقتصدة لها ذوق وخيال .

وتباطأت لما دنوت من البيت ، فقد سمعت أن بعضهم لا يفتأ جالسا فى الساحة المقدمة ، فأحببت أن أستطلع وأتبين أولا ، ورفعت رأسى محاذرا ونظرت من فوق السور الأبيض الواطئ الذى يفصل الحديقة الصغيرة عن الطريق ؛ ولكنى لم أر كونتيسة أو سواها ، وكان هناك ممر مستقيم يؤدى إلى عتبة الباب وعلى الجانبين رقعة صغيرة من الحشيش حولها إطار من شجيرات العنب الجافة . وفى وسط الرقعة — فى كلا الجانبين — شجرة كبيرة ، حافلة بمظاهر الشظف والقفول[١] . وتحت إحدى الشجرتين منضدة صغيرة ، وكرسيان . وعلى المنضدة

(١) الشظف فى الشجرة أن لا تجد ريها فتخشن وتذهب ندوتها ، والقفول أن تجف الجفوف كله .

شقة من النسيج لم ينته العمل فيها ، وكتابان أو ثلاثة مجلدة بورق زاهى الألوان .
فدخلت من البوابة ، ووقفت فى منتصف الممر ، ونفضت المكان عسى أن أبصر ما يدل على حال ساكنته التى ترددتُ فجأة ، بلا داع أعرفه ، أن أقدم نفسى إليها . ثم خطر لى أن البيت رث ، وأنه ليس من حقى أن أتطفل ، فقد كان الشوق إلى استطلاع طلعها هو كل باعثى ، ولكن هذه الرغبة بدت لى الآن غير لائقة . و بينما كنت متردداً ظهرت سيدة فى مدخل الباب ووقفت تنظر إلىّ ، فعرفت أنها كارولين سبنسر ، ولكنها هى كانت تنظر إلىّ كأنها ما رأتنى قط من قبل ، فتقدمت بتؤدة و إشفاق إلى الباب ، ثم قلت وأنا أتكلف اللهجة الودية :

« لقد انتظرت هناك عودتك ولكنك لم تجيئى أبدا » .

فقالت برقة ، وقد زادت عيناها اتساعا : « انتظرت أين يا سيدى ؟ » .

لقد كبرت ، وظهر عليها التعب ، والتلف .

وقلت : « انتظرت فى الهافر » .

فحدّقت فىّ ، ثم عرفتنى ، وتبسمت ، واحمر وجهها ، وضمت راحتيها ، وقالت : « الآن تذكرتك ، وتذكرت ذلك اليوم » . ولكنها ظلت واقفة ، لا تخرج إلىّ ، ولا تدعونى أن أدخل ؛ وكانت مرتبكة .

وكنت أنا أيضاً مرتبكا . فغرزت عصاى فى الأرض وقلت : « ظللت أترقب مجيئك عاما بعد عام » .

فهمست : « أتعنى فى أوربا ؟ » .

قلت : « فى أوربا ، طبعا . أما هنا فإن من السهل أن يهتدى إليك المرء ، على ما يظهر » .

فأراحت رأسها على جانب البـاب غير المدهون ، ونظرت إلىّ لحظة بلا كلام ، وخيل إلىّ ، أنى اجتليت فى وجهها ما يرتسم على وجه المرأة حين تشفى على البكاء ؛ و إذا بها فجأة تخطو إلى الحجر أمام العتبة ، وتغلق البـاب وراءها ، ثم بدأت تتبسم ، وقد بقيت أسنانها كأجمل ما عهدتها ، ولـكنه كان هناك دموع أيضاً ، ولا شك .

وسألت بصوت كالهمس : « أو كنت هناك طول الوقت منذ ذلك اليوم ؟ » .

قلت : « عدت منذ ثلاثة أسابيع ، وأنت ؟ ألم تذهبى قط ؟ » .

وكانت تنظر إلىّ ، وعلى ثغرها ابتسامتها الثابتة ، ثم مدت يدها من خلفها وفتحت الباب وقالت : « إنى أهمل واجب الضيافة ، ألا تدخل ؟ » .

قلت : « أخشى الإثقال عليك و إزعاجك » .

قالت : « كلا » وهى تبتسم ، ودفعت الباب ، وأومأت إلىّ أن أدخل .

فدخلت وتبعتها ، فمضت بى إلى غرفة صغيرة على يسار الردهة الضيقة ، أحسبها غرفتها ، و إن كانت فى الناحية الخلفية ، ومررنا بباب غرفة أخرى ، موصد ، تطل ، فيما قدرت ، على رقعة الحشيش والشجرة ؛ وكانت الغرفة التى دخلناها تشرف على خص من الخشب ، ودجاجتين تصيحان ، وكانت الغرفة جميلة جدا ، ولـكن ما فيها مما يكسبها معنى الأناقة والرشاقة ، ينبىء بشدة التدبير ودقة الاقتصاد ؛ وقد زاد هذا فى حسنها ، فما رأيت من قبل أثاثاً باهتاً ، وصورا قديمة فى إطارات من أوراق الخريف المموهة ، مرتبة على خير من هذا النظام أو آنق وأحلى . وقعدت الآنســة سبنسر على حرف الأريكة ، ويداها متشابكتان فى حجرها . وكانت تبدو أسنّ بعشر سنين ؛ ولو قلت إنها وسيمة لكان هــذا القول الآن غير سائغ ، ولـكنها كانت فى عينى وسيمة ، أو على

الأقل لهيئتها وقع فى النفس . وكانت مضطربة ، فحاولت أن أتكلف الإغضاء ، ولكنى قلت لها فجأة و بلا أدنى تدبر — وبدافع لا يقاوم من ذكرى صداقتنا فى الهافر — :

« إنى أثقل عليك ، فإنك مهمومة » .

فرفعت يديها إلى وجهها ، وأبقته مدفوناً فيهما لحظة ، ثم ردتهما وقالت :

« ذاك لأنك تذكرنى ... » .

قلت : « أتعنين أنى أذكرك بذلك اليوم المشئوم فى الهافر ؟ » .

فهزت رأسها وقالت : « لم يكن مشئوما ؛ كان حسنا » .

فقلت : « لم أُصدم قط كما صُدمت ساعة ذهبت إلى الخان فى صبيحة اليوم التالى لأسأل عنك فإذا بك قد سافرت » .

فلبثت قليلا لا ترد ، ثم قالت : « أرجو أن تعفينى من الكلام فى هذا » .

فسألتها : « هل عدت إلى هنا مباشرة ؟ » .

قالت : « عدت إلى هذه البلدة بعد ثلاثين يوما ليس إلا من سفرى منها » .

« و بقيت هنا بعد ذلك دائما ؟ » .

فقالت برقة : « نعم » .

« ومتى تذهبين إلى أور با كرة أخرى ؟ » .

وكان السؤال عن هذا لا يخلو من قسوة و إيلام ، ولكن ظراوة استسلامها استفزتنى ، وأغرتنى بأن أنتزع منها عبارة تدل على الملل والتبرم .

فصو بت عينها إلى دائرة ضيقة من نور الشمس على السجادة ، ثم نهضت وأرخت الشباك قليلا لترد هذا النور ، وقالت ، بلهجتها اللينة ، ردا على سؤالى :

« لن أذهب أبدا » .

« عسى أن يكون ابن عمك قد رد إليك مالك ؟ » .

فحولت وجهها عني وهي تقول : « لست أبالي هذا الآن » .

« ألا تحفلين بما لك ؟ » .

« للسفر إلى أوربا » .

« أتعنين أنك لن تذهبي ولو قدرت على السفر ؟ » .

فقالت : « لا أقدر — لا أقدر — انتهى الأمر ... ولست أفكر في هذا أبدا » .

فقلت : « إذن لم يرد إليك مالك ؟ » .

فبدأت تقول : « أرجو ... أرجو ... »

ثم أمسكت ، وكانت تنظر إلى الباب ، فقد تأدى إلينا من ورائه حفيف ثوب ، ووقع قدم .

ونظرت مثلها إلى البـاب ، وكان مفتوحا ؛ فظهرت فيه سيدة أخرى على عتبته ، وجاء وراءها شاب ، وأحدّت السيدة النظر إليّ جدا ، وطال لحظها حتى وسعني أن أنقش صورتها على لوح صدري ، ثم التفتت إلى كارولين سبنسر ، وقالت بنبرة أجنبية واضحة :

« اغتفري لي تطفلي ؛ لم أكن أعرف أن معك أحدا ؛ فقد دخل السيد في سكون تام » .

وردت إليّ لحظها مرة أخرى .

وكانت غريبة حقا . ومع ذلك كان أول ما وقع في نفسي أني رأيتها من قبل ؛ ثم أدركت أني إنما رأيت سيدات يشبهنها ، ولكني رأيتهن بعيدا جدا من جريمونتر ، فأحدثت لي رؤيتها هنا إحساساً غريباً ، فإلى أين يحملني

مرآها ؟ إلى باب مفتوح على غرفة مقدمة قذرة ، وإلى سيدة تميل على درابزين وعلى ذراعها مشملة باهتة الألوان ، وهى تصيح بالخادمة أن تصعد إليها بالقهوة .

وكانت ضيفة الآنسة سبنسر سيدة ضخمة ، جاوزت ميعة الشباب ، ووجهها السمين فى مثل صفرة الموت ، وشعرها مسرح إلى الخلف على الطريقة الصينية ، وعينها صغيرة ، ولكن نظرتها حادة نافذة ، ولها ما يسميه الفرنسيون ابتسامة مرضية ، وكانت ترتدى طيلساناً قديماً قرمزيا من الكشمير موشى بنقوش بيض . وكانت — كالصورة التى رفعتها ذاكرتى لعينى — تضم طرفيه أمامها بذراع عارية مستديرة ، ويد بضة كثيرة الحطاط .

وقالت للآنسة سبنسر : « إنما جئت لأذكرك بقهوتى ، فإنى أرجو أن ترسل إلىّ فى الحديقة تحت الشجرة الصغيرة » .

وكان الشاب الذى خلفها قد دخل الغرفة ووقف ينظر إلىّ ، مثلها ، وهو شاب جميل المحيا ، وعليه سيما الريفى المتأنق ، وله أنف دقيق معتدل القصبة ، وذقن صغيرة حادة ؛ وقدمان لم أر أصغر منهما أو أدق ؛ وكان ينظر إلىّ كالأبله وفمه مفتوح .

وقالت الآنسة سبنسر وعلى خديها جمرتان طافئتان : « ستجيئك القهوة » .

وقالت السيدة ذات الطيلسان : « حسن » والتفتت إلى الشاب وقالت : « هات كتابك » .

فأدار عينه فى الغرفة وقال بصوت من لا حيلة له « أتعنين أجروميتى ؟ » .

وكانت السيدة ترشقنى بلحظها متعجبة ، وتضم طرفى كسائها بذراعها البيضاء وتقول : « هات كتابك يا صديقى » .

فقال وهو يرميني بعينه : « هل تعنين ديوان الشعر ؟ » .

فقالت صاحبته : « لا بأس ! دع الكلام ، ولنتمش اليوم . وسنتحدث . ولكنه لا ينبغى لنا أن نقطع عليهما حديثهما — تعال » واستدارت وهى تقول للآنسة سبنسر على سبيل التذكير : « تحت الشجرة الصغيرة » .

ورمت إلىّ ما يشبه التحية ، وكلتى « أيها السيد » وانصرفت ، والشاب فى إثرها .

ووقفت كارولين سبنسر وعينها على الأرض .

فسألتها : « من هذه ؟ » .

« الكونتيسة — زوجة ابن عمى » .

« ومن هذا الشاب ؟ » .

« تلميذها ، المستر مِكستَر » .

فأغرانى وصف العلاقة بين هذين الشخصين اللذين غادرا الغرفة ، بالضحك ، فنظرت إلىّ الآنسة سبنسر بجد وقالت : « إنها تدرس اللغة الفرنسية ، فقد فقدت ثروتها » .

قلت : « يظهر أنها مصممة على ألا تكون حملة على أحد ، وهذا هو الواجب » .

فصوبت كارولين عينها إلى الأرض مرة أخرى وقالت : « يجب أن أذهب لأعد لها القهوة » .

فسألتها : « هل لها تلاميذ كثيرون ؟ » .

قالت : « المستر مكستر تلميذها الوحيد ، وهى تهبه وقتها كله » .

ولم أستطع أن أضحك من هذا ، وإن كنت قد أحسست بالاستفزاز ، فقد

كانت الآنسة سبنسر جادة جدًا ، وما لبثت أن قالت ببساطة : « إنه يدفع أجراً حسناً ، فهو غنى جدًا ، ورقيق عطوف جدًا . يخرج بها فى مركبته للتنزه » .

وهمت بأن تمضى فسألتها : « أذاهبة أنت لإعداد قهوة الكونتيسة ؟ » .

« إذا أذنت لى ... بضع دقائق » .

« أليس هنا أحد غيرك يستطيع أن يعدّها لها ؟ » .

فرمت إلىّ نظرة عذبة السكون وقالت : « ليس لى خدم » .

فسألتها : « ألا تستطيع أن تخدم نفسها ؟ » .

« لم تتعود هذا » .

فقلت بأرق لهجة أقدر عليها : « مفهوم . ولكن قبل أن تذهبى ، خبرينى من هذه السيدة ؟ »

« لقد أخبرتك من قبل — فى ذلك اليوم . زوجة ابن عمى الذى رأيته » .

« السيدة التى نبذتها أسرتها على أثر زواجها ؟ » .

« نعم . ولم ترها أسرتها بعد ذلك أبداً . نبذتها كل النبذ » .

« وأين زوجها ؟ » .

« مات » .

« وأين مالك ؟ » .

فانتفضت المسكينة من حز الألم ، فقد كانت أسئلتى واضحة السياق ، جلية الغاية . وقالت بضجر وتعب : « لا أدرى » .

وألححت فى خطتى فسألتها : « و بعد أن مات زوجها ، جاءت السيدة إلى هنا ؟ » .

« نعم ، جاءت ذات يوم » .

« وكم لها هنا ؟ » .

« سنتان » .

« و بقيت مذ جاءت ؟ » .

« طول الوقت » .

« وكيف رضاها عن مقامها هنا ؟ » .

« ليست راضية » .

« وكيف رضاك أنت ؟ » .

فأخفت وجهها بين كفيها لحظة ، كما فعلت قبل عشر دقائق ، ثم خرجت مسرعة لتعد قهوة الـكونتيسة .

و بقيت وحدى فى الغرفة ، فقد أردت أن أرى فوق ما رأيت ، وأن أعرف أكثر مما عرفت . و بعد خمس دقائق أقبل الشاب الذى قالت الآنسة سبنسر إنه تلميذ الـكونتيسة ، ووقف ينظر إلىَّ وشفتاه متباعدتان ، فلم يخالجنى شك فى أنه شاب غرير جدًا .

وأخيراً قال : « إنها تريد أن تعلم هل تحب أن تخرج إليها ؟ » .

« من هو الذى يريد أن يعلم ؟ » .

« الـكونتيسة ... تلك السيدة الفرنسية » .

« هل طلبت منك أن تجيئها بى ؟ » .

فقال بضعف وهو يتأمل قامتى الطويلة : « نعم يا سيدى » .

فخرجت معه فألفينا الـكونتيسة جالسة فى ظل شجرة من الأشجار الصغيرة المغروسة أمام البيت . وكانت تعمل بالإبرة فى رقعة النسيج التى كانت على المنضدة ، وتلطفت فأومأت إلىَّ أن أقعد على الـكرسى إلى جانبها ، ففعلت . وتلفت المستر

مكستر ثم قعد على الحشيش عند قدميها . ورفع عينه ، وراح ينقلها من وجه الكونتيسة إلى وجهى .

وقالت الكونتيسة وهى ترشقنى بعينيها الصغيرتين البراقتين : « إنى واثقة أنك تتكلم بالفرنسية » .

فقلت بالفرنسية : « نعم يا سيدتى إلى حد ما » .

فصاحت : « أرأيت ! لقد فطنت إلى ذلك من أول نظرة ؛ لا شك أنك أقمت فى بلادى » .

« زمناً طويلا » .

« وتعرف باريس ؟ » .

« أتم معرفة يا سيدتى » ؛ وتعمدت أن أنظر إليها — فى عينيها .

فما لبثت أن حولت عينيها وصوبتهما إلى تلميذها المستر مكستر ، وسألته : « فى أى شىء كنا نتكلم ؟ » .

فرفع ركبتيه ، وقلع بعض الحشيش ، واضطرم وجهه وهو يقول : « إنكما تتكلمان بالفرنسية » .

فقالت الكونتيسة : « لى عشرة أشهر وأنا أدرس له . لا تخف أن تقول إنه أبله ، فلن يفهم » .

فقلت : « أرجو أن يكون تلاميذك الآخرون أبعث على رضاك » .

« ليس لى تلميذ غيره . فإنهم لا يعرفون ما اللغة الفرنسية ، ولا يحفلونها هنا ولا يريدون أن يعرفوها . ففى مقدورك أن تتصور سرورى بلقاء من يتكلمها مثلك » .

فأجبت بأن سرورى ليس دون سرورها ، وأقبلتْ على النسيج تعمل فيه

إبرتها وخنصرها مثنى ، وكانت كل بضع دقائق تدنى عينها مما تصنع على نحو ما يفعل قصيرو النظر . فوقع فى نفسى منها أنها شخص بغيض ، فقد كانت خشنة غير مصقولة ، ومتكلفة خائنة ، وليست كونتيسة ولا شيئا من هذا القبيل ، كما أنى أنا لست خليفة .

وقالت : « حدثنى عن باريس . فإن ذكر اسمها بمجرده يحرك نفسى . كم لك مذ تركتها ؟ » .

« شهران » .

« ما أسعدك ! حدثنى عنها . قل لى ماذا يصنعون هناك ؟ إيه ما أشوقنى إلى ساعة واحدة فى البوليفار ؟ » .

« إنهم يصنعون مالا يزالون يصنعون — يتسلون على قدر ما يسعهم ! » .

فتنهدت وقالت : « فى المسارح ؟ وفى المراقص ؟ وحول المناضد الصغيرة أمام الأبواب ؟ يالها من حياة ! إنك تعرف أنى باريسية من رأسى إلى قدمى » .

فتشجعت وقلت : « إذن كانت الآنسة سبنسر مخطئة حين قالت لى : إنك من بروفنس » .

فحدقت أمامها لحظة ثم دست أنفها فيما تنسج ؛ وقالت :

« أنا من بروفنس مولدا ، ولكنى باريسية هوى » .

فقلت : « وتجربة أيضاً فيما أظن ؟ » .

فتفرست هنيهة فى وجهى بعينيها الحادتين وقالت :

« التجربة ! فى وسعى أن أتحدث عن التجربة إذا شئت . فما كنت أتوقع مثلا أن تدخر لى التجربة هذا » ، وأشارت بكوعها العارى وبهزة من رأسها إشارة تشمل كل ما يحيط بها — البيت الصغير ، والشجرة ، والسياج ، والمستر مكستر أيضاً .

فقلت بابتسامة : « إنك فى منفى » .

« يمكنك أن تتصور أى منفى هو ! ! السنتان اللتان قضيتهما هنا عشتهما ساعة فساعة ، والمرء يعتاد الأشياء والحالات ، ويخيل إلى أحيانا أنى ألفت هذا . ولكن هناك أشياء ولا تزال تبدأ من جديد ، قهوتى مثلا » .

فسألتها : « أتشربين القهوة دائما فى هذه الساعة ؟ » .

فرمت رأسها إلى الوراء وراحت تفحصنى وتزننى .

وقالت : « فى أية ساعة تفضل أن أشرب قهوتى ؟ إنه لابد لى من فنجان قهوة بعد الإفطار » .

« آه ! الإفطار فى هذه الساعة ؟ » .

« فى منتصف النهار ، هنا يفطرون بعد الساعة السابعة بربع ساعة ... وقت ظريف ! » .

فقلت بلهجة العطف : « ولكنك كنت تحدثيننى عن قهوتك ؟ » .

فقالت : « إنها (تعنى كارولين) لا تؤمن بها ، ولا تستطيع أن تفهمها . هى فتاة رائعة ، ولكن فنجان القهوة وعليها قطرة من الكونياك ، فى هذه الساعة — هذا يتجاوز نطاق فهمها وإدراكها ، فأنا مضطرة أن أنبهها كل يوم ، وأنت ترى ما يستغرقه من الوقت صنع هذه القهوة ، ووصولها إلى ، وعند ما تصل ... آه يا سيدى ، لا تلمنى إذا لم أقدم لك شيئا منها ، فإنى أعرف أنك شربتها فى البوليفار ... » .

لحز فى نفسى هذا التحقير لمروءة كارولين سبنسر وكرمها ، ولكنى اتقيت أن أقول شيئا اجتنابا لإساءة الأدب ، ونظرت إلى المستر مكستر الذى طوق ركبتيه بساعديه ، وقعد يرقب حركات الكونتيسة وهو مفتون ، ولاحظت هى

أنى أتأمله ، وألقت إلى نظرة وابتسامة تفسيرية جريئة ، وقالت : « إنك ترى أنه يعبدنى . » ودست أنفها ثانية فيما تطرز ، فأعربت لها عن تصديقى لذلك ، واقتناعى به ، ومضت فى كلامها فقالت : « إنه يحلم بأن يكون عشيقى . نعم ، هذا حلمه . وقد قرأ رواية فرنسية .. استغرقت من عمره ستة شهور ... وما زال منذ ذلك الوقت ، يتوهم أنه هو البطل وأنا البطلة » .

وكان من الجلى أن المستر مكستر لم يخطر له أنه موضوع كلامها ، فقد كان ذاهلا عن ذلك بما هو فيه من نشوة التأمل . وفى هذه اللحظة برزت كارولين سبنسر من البيت تحمل إبريق القهوة على صحن صغير ، ولاحظت أنها وهى تقطع المسافة من الباب إلى المنضدة ، ألقت إلى نظرة خاطفة — نظرة توسل غامض . ولم أدر ماذا تعنى بها ، وحسبت أن المراد أنها اشتاقت ، وهى واجفة الفؤاد ، أن تعرف رأى خبير بالحياة عاش فى فرنسا مثلى ، فى الكونتيسة ، ولم أسترح إلى هذا الظن ، فما كان يسعنى أن أقول لها إن الكونتيسة ليست على الأرجح سوى زوجة حلاق فرت منه . وقد حاولت على العكس أن أبدى لها الاحترام والتوقير . ولكنى نهضت . ولم أعد أطيق أن أبقى . وساءنى أن أرى كارولين سبنسر واقفة هناك كأنها خادمة !

وقلت للكونتيسة : « هل تتوقعين أن تبقى زمناً آخر فى جريمونتر ؟ » .

فهزت كتفيها هزة عنيفة وقالت :

« من يدرى ؟ ربما أقمت هنا سنين ، وسنين . متى كان المرء بائسا ... » ، والتفتت إلى الآنسة سبنسر وقالت : « يا عزيزتى لقد نسيت الكونياك » .

واستبقيت كارولين سبنسر حين همت ، بعد أن ألقت نظرة صامتة على المنضدة الصغيرة ، بأن تذهب لتجىء بالشراب الناقص . ومددت إليها يدى

فى سكون ، مودعا . وكان التعب باديا عليها ، ولـكنه كان على وجهها الصغير الوديع لمحة غريبة من ذخيرة الجلد والصبر . وكبر فى وهمى أن انصرافى يسرها .
وكان المستر مكستر قد نهض وأقبل على إبريق القهوة يصب منـه فى الفنجان .
وخطر لى وأنا أمر فى عودتى بالـكنيسة أن الآنسة سبنسر المسكينة كانت موفقة حين قالت لى فى الهافر إنها سترى « شيئا » من أوربا العتيقة !

روبرت لويس ستيفنسون

١٨٥٠ – ١٨٩٤

سيد الباب

كان « دنيس ده بوليه » دون الثانيــة والعشرين ، ومع ذلك كان يعد نفسه رجلا مجتمعا تاما ، وفارسا مدرّبا أيضا . وكان الغلمان يخوضون القتال فى حداثتهم فى ذلك العهد الحافل بالحروب . ومتى اشترك الواحد فى وقعة ، وبضع غارات ، وأردى خصماً وهو ينازله ، وعرف شيئا عن الناس والحروب ، فإن مما يغتفر له أن يكون فى مشيته بعض الاختيال والتبختر . وكان دنيس قد ربط جواده وعلفه ، ثم تعشى على مهل ، ثم خرج ، وهو أتم ما يكون رضى عن الدنيا ليؤدى زيارة فى الغسق . ولم يكن هذا من الحكمة فقد كان خيراً له أن يدّفئ على النار ، أو أن يأوى إلى فراشه . فقد كانت البلدة غاصة بجنود برجندى ، وانجلترا تحت قيادة مختلطة . ومع أن دنيس كان يحمل ترخيصا وتأمينا ، إلا أن هــذا كان خليقا أن يكون ضئيل الجدوى إذا اعترضه معترض .

كان ذلك فى شهر سبتمبر من سنة ١٤٢٩ ، وكان البرد قارسا ، والرياح الزفزافة [1] المتقلبة ، المثقلة بالماء تضرب البلدة وتعصف بالأوراق الذاوية فى الطرق وكان المرء يرى هنا ، وههنا ، نافذة ينبعث منها الضوء ، وكانت أصوات المقاتلة ، وهم يتناولون عشاءهم ويشربون ، ويسمرون عليــه ، تسمع متقطعة ، وتحماها الرياح ولا تلبث أن تبتلعها . وأظلم الليل بسرعة ، وصار علم انجلترا الخافق يزداد غموضا وخفاء مع تكاثف السحب السابحة ، حتى صار نقطة سوداء ، كأنه العصفور فى عماية السماء المطبقة الدّجن . ومع الليل ثارت الرياح وصارت تصفر

(١) الزفزافة التى لها صوت .

تحت العقود ، وتزأر بين رءوس الأشجار فى الوادى تحت البلدة .

وأغذ دنيس ده بولييه السير ، وما لبث أن بلغ بيت صاحبه وقرع بابه وكانت نيته ألا يطيل المكث وأن يبكر فى الأوبة ، ولكنه وجد من الحفاوة والأنس والإكرام ما أذهله عن الوقت فتقضى من الليل أكثر من نصفه قبل أن يودع صاحبه على عتبة بيته ، وكانت الريح قد سكنت فى خلال ذلك ، ولكن الليل كان أحلك من القبر ، فلا نجم يومض ، ولا سنا قمر يبدو من خلال السحاب المتبسط . ولم يكن دنيس خبيراً بمداخل الطرق ومخارجها فى « شاتو لاندون » . حتى فى النهار كان يجد عناء فى سلوك هذه الطرق الألغاز [١] فضل فى هذا الظلام الطاخى . على أنه كان على يقين من شىء واحد ، هو أن سبيله أن يصعد فى الجبل ، فقد كان بيت صديقه فى الجانب المتطامن من « شاتو لاندون » أما الخان فكان فى رأس الجبل ، وفى ظل الكنيسة الكبيرة . فمضى — ولا هادى له إلا علمه هذا — يتعثر ويتحسس طريقه ، فتخلص أنفاسه تارة فى المواضع الرحيبة التى تتسع فوقها رقعة السماء ، وتارة أخرى يمشى وراحته على الحائط فى المضايق الخانقة . وإنه لمن بواعث الرعب والخشية أن يغرق المرء على هذا النحو فى لجة صماء من السواد فى مدينة مجهولة ، فإن السكون يكون منطويا على احتمالات مرعبة ، وتلمس اليد المتحسسة قضبان الشباك الباردة فكأنما لمست ثعبانا من ثعابين الماء . وتتعثر الرجل من قلة استواء الطريق فيثب القلب إلى الفم ، ويكثف الظلام فى موضع فيكون هذا نذيراً بكمين ، أو مدعاة للخوف من الوقوع فى فجوة أو حفيرة ، وإذا كان الهواء أصفى والسواد أخف ، اتخذت المساكن مظاهر غريبة محيرة كأنما تتعمد أن تزيد المرء ضلالا . وكان على دنيس

---

(١) الألغاز الطرق التى تلتوى وتشكل على سالكها .

أن يعود إلى الخان من غير أن يلفت إليــه الأنظار ، وكان معرضا لخطر جدى فضلا عما يعانيه من مشقات هذا السرى . فكان يمشى محاذراً مرهف الأذن ولـكن فى غير وجـل ، وكان يتمهل عند كل زاوية ومنعطف ليتسمع وينفض الطريق .

وقضى وقتا ما ، يخترق زقاقا بلغ من ضيقه أن وسعه أن يلمس الجدارين على الجانبين بيديه ، وإذا بالزقاق يتفتح ويرحب وينحدر انحداراً شديداً صعبا . فلم يبق عنده شك فى أن هذا ليس طريقه إلى الخان ، غير أن الرغبة فى شىء من النور والوضوح أغرته بالتقدم ليتبين . وكان الزقاق ينتهى بشرفة مسوّرة ، كأنها وهى تطل من بين المنازل العاليــة على الوادى الغامض المظلم تحتها ، المرقب فى الحصن . وصوب دنيس لحظه إلى الوادى فتبين رءوس بضع أشجار تخفق ، ونقطة مضيئة واحــدة فى حيث يجرى ماء النهر عند السد . وكان الجو قد بدأ يصفو ، والسماء تُفصح ، فبدا رحى السحاب ومستداره فى حيثما كان أغلظ ، وبانت خطوط الجبال . ورأى دنيس ، على هذا الضوء الخافت ، منزلا على يساره ينبغى أن يكون على حظ غير قليل من الفخامة ، وكان على مستداره من أعاليه أبراج ومراقب وقد برزت من بنائه مؤخرة مستديرة لمعبد قائم على عمد ذات عقود . أما الباب فتحت طنف مشْرفٍ خارجا عنه وعليه نقوش بارزة ومن فوقه ميزابان طويلان . وكانت نوافذ المعبد يلتمع من خلال زخارفها المعقدة ضوء كأنه منبعث من شموع كثيرة فصارت العمد والسقف الناتئ أشد سواداً تحت السماء . وكان من الجلى أن هذا بيت أسرة كبيرة من أهل هذه الناحية . فتذكر دنيس بيتا له فى بورج ووقف لحظة ينظر إليه ويقيس براعة المهندسين ومنزلتى الأسرتين .

ولم يبد له أن للشرفة منفذاً غير الزقاق الذى وصل منه إليها ، ولم يكن يسعه

إلا أن يعود أدراجه من حيث جاء ، ولـكنه ألم بالمـكان فصار فى مرجوه أن يهتدى إلى الطريق الأعظم ليبلغ منه خانه . وكان لايدور فى خلده أن سيقع له من الحوادث فى ليلته هـذه ما يجعلها أبداً بالذكر بين عينه وقلبه طول حياته . ذلك أنه ما كاد يرجع نحو مائة ذراع حتى أبصر ضوءاً مقبلا عليه وسمع أصواتا عالية فى هذا الزقاق الذى تتجاوب فيه الأصداء . وكان القادمون نفراً من الحراس يعسُّون ومعهم المشاعل ، ولم يخالج دنيس شك فى أنهم قد ارتووا من النبيذ ، وأنهم ليسوا بحيث يعبأون شيئا بالرخصة التى يحملها أو يحفلون بأحكام الفروسية وأصول النزال . ومن المحتمل أن يقتلوه كما يُقتل الكلب ، وأن يتركوه حيث يقع . وكان الموقف يثير النخوة ، ويغرى بالإقدام ولـكنه يبعث على الاضطراب . وقد خطر له أن مشاعلهم خليقة أن تخفيه عن عيونهم ، وأن وقع قدميه حقيق أن يغرق فى لجة أصواتهم الفارغة . وإذا ساعفه الحظ فمضى مسرعا وفى سكون فقد يستطيع أن يفلت من غير أن يتنبهوا .

ولـكن من سوء الحظ أنه وهو يدور ليتراجع صادفت قدمه حصاةً فوقع على الحائط ، وندت عنه صيحة ورن سيفه على الحجارة . فارتفع صوتان أو ثلاثة تطلب أن تعرف من هناك — بعضها بالفرنسية ، والبعض بالإنجليزية ، غير أن دنيس لم يجب ، وذهب يعدو بأسرع ما يستطيع فى الزقاق ، حتى إذا بلغ الشرفة وقف ونظر وراءه ، وكانوا لايزالون يصيحون به ، وضاعفوا سرعتهم فى تعقبه ومطاردته ، وكانت قعقعة السلاح ، وهم يجرون ، عالية ، وجلبته عظيمة ، والمشاعل تدفع إلى هنا ، وههنا ، فى الزقاق الضيق .

فأجال دنيس لحظه فيما حوله ، واندفع إلى ما تحت الطنف ، وهنـاك قد يخطئونه فلا يرونه ، أو إذا كان هذا أملا بعيدا ، فهو فى مكان ليس أصلح منه

للحوار والدفاع ، واطمأن إلى هذا فجرد سيفه وأسند ظهره إلى الباب . فما راعه إلا أن الباب انفتح وراءه ، ومع أنه وقف فى مدخله هنيهة إلا أن الباب ظل يضطرب على عقبه المزيت بلا صوت ، ثم سكن ، و بقى مفتوحا على المغيّب وراءه فى ظلمة الليل . والإنسان حين يسعفه الحظ بمنجى مما يتقيه لا يفكر فى الأمر كيف كان ، ولماذا كان ، بل يعد راحته الشخصية و إلحاح مطالبه التى لا تحتمل الإرجاء سببا كافيا لأغرب الغرائب وأعجب ما تحور إليه الأحوال فى أرضنا هذه ، وهكذا — بلا أدنى تردد — دخل دنيس ، ووارب الباب وراءه ليستر ملجأه . ولم يكن أبعد من ذهنه ، من أن يوصد الباب ، ولكن الذى حدث هو أن الباب ، لسبب خفى ، عسى أن يكون زنبركاً أو لِزازا [١] أفلتت كتلته البلوطية من أصابعه وانغلق ، وأحدث ضجة عظيمة وضوضاء كالتى يحدثها مزلاج يغلق و يفتح من تلقاء نفسه .

وكان العسس قد بلغوا الشرفة فى هذه اللحظة ، وراحوا يدعونه إليهم بالصيحات واللعنات . وكان هو يسمعهم يبحثون عنه فى الأركان المظلمة ، بل لقد اصطدمت صعدة رمح بالباب الذى يحتجب خلفه ، غير أنهم كانوا سكارى فلم يطل تلكؤهم ، وما عتموا أن انحدروا فى طريق ملتو كالبزال لم يفطن إليه دنيس ، ثم غابوا عن العين والسمع فى المدينة .

فتنفس دنيس الصعداء ، وترك دقائق تمضى تفاديا للحوادث ، ثم ذهب يتحسس باحثا عن وسيلة لفتح الباب والخروج من حيث دخل . وكان سطحه أملس ، فلا مقبض ، ولا زخرفة ، ولا نتوء من أى نوع ، وقد أدخل أظافره فيما يلى إطار الباب ، وشدّ ، ولكن الكتلة كانت رازحة لا تتقلقل . وهز

(١) خشبة يشد بها الباب

الباب فألفاه أثبت وأمتن من الصخرة الصماء ، فقطب ، وصفر صفيرا خافتا . وتعجب للباب ما خطبه يا ترى ؟ لماذا كان مفتوحا ؟ ثم كيف اتفق أن يوصد بمثل هذه السهولة والإحكام بعد دخوله ؟ ولم يرتح دنيس إلى ما بدا له فى هـذا من الغموض والخفاء والخدعة ، وخيل إليه أن هذا شرك ، ولـكن من الذى يخطر له أن ينصب شركا فى زقاق هادئ كهذا ، وبيت ظاهره له مثل هذه الوجاهة والأبهة ، وعلى أنه سواء أكان هذا أم لم يكن شركا ، وكان ما حدث قد حدث عفوا أم عمدا — فالواقع من الأمر أنه فى فخ ، وأنه لا يدرى كيف يتسنى له النجاة منه . وثقلت وطأة الظلام عليـه ، فأرهف أذنه . وكان السكون تاما فى الخارج ، أما فى الداخل وعلى مقربة منه ، فخيل إليه أنه سمع تنهدا خافتا وشهيقَ باكٍ ، وحفيفَ ثوب ، وحسيسا خفيفا كأنما دنا منه أشخاص ، يحرصون على السكوت ويحبسون حتى أنفاسهم بحذق و إحكام . وأزعجه هـذا الظن ، فدار فجأة كأنما يريد أن يدافع عن حياته ، فأبصر — لأول مرة — ضوءاً بحيال عينيه ، وعلى مسافة فى داخل البيت — خيطا أفقيا من النور يعرض فى نهايته كأنه خارج من فرجة بين سـترين مقرونين على باب . ووجد دنيس روحا وراحة فى أن يرى شيئا ما . فقد كان كالذى يمشى فى أرض سبخة نزّازة فخرج منها إلى أرض صلبة ، وتعلقت نفسه بهذا الضوء ، بلهفة ، ووقف شاخصا يحاول أن يضم أشتات ما يحيط به و يؤلف منـه صورة يأنس بهـا العقل . وكان من الواضح أن هناك سلما يبدأ من الرقعة التى هو فيها ويرتقى إلى الباب الذى ينبعث منه الضوء ، بل لقد كبر فى وهمه أنه يرى شعاعا آخر من النور ، دقيقا كالإبرة وخافتا كأنه من جسم مضىء بطبيعته ، فمن الممكن أن ينعكس على الخشب المصقول للدرابزين . ولمـا كان يتوهم أنه ليس وحده فقد جعل قلبه يدق بعنف

خانق ، ومن أجل ذلك لجت به الرغبة فى عمل شيء ما . واعتقد أنه مستهدف لخطر عظيم ، وأن حياته مهددة ، فمن الطبيعى أن تحدثه نفسه بالصعود فى السلم ، ورفع الستار أو تنحيته ، ومواجهة ما عسى أن يكون وراءه ، فيخرج بهذا مما هو فيه من الحيرة والقلق ، وأقل ما فى هذا من الجدوى أن يصبح أمام شيء محسوس وأن يخلص من الظلام والجهل . ومشى يخطو ببطء ، و يداه ممدودتان أمامه حتى ضربت قدمه أولى درجات السلم ، فارتقى فيه بسرعة ، ثم وقف هنيهة يضبط أعصابه ، ثم نحى الستر ودخل .

وألفى نفسه فى حجرة كبيرة مصقولة الجدران ، ولها ثلاثة أبواب — لكل حائط باب ، وعلى الأبواب أستارها ، أما الحائط الرابع ففيه نافذتان كبيرتان وموقد من الحجر نقش عليه شعار « آل مالتروا » . وعرف دنيس الشعار وسره أنه فى بيت قوم من ذوى المحتد والأرومة الكريمة ، وكان الضوء فى الحجرة قويا ، ولم يكن فيها من الأثاث والمتاع سوى مائدة ثقيلة وكرسى أو كرسيين . ولم يكن فى الموقد نار ، وكان على البلاط قليل من القش ، من الواضح أنه ألقى منذ بضعة أيام .

ورأى دنيس أمامه ، وهو يدخل ، رجلا هرما ضئيل الجسم متلفعا بالفرو على كرسى عال بجانب الموقد ، وكانت إحدى ساقيه على الأخرى وإحدى يديه على الأخرى فى حجره ، وعلى صفة للجدار ، قريبا من كوعه كأس من النبيذ . أما وجهه فكانت معارفه كأنها مصبوبة فى قالب حاد يطالعك منه ، لا ما تراه فى محيا آدمى ، بل ما يطالعك من وجه ثور أو جدى ، أو خنزير أليف ، وتقرأ فيه معانى الحب ، والغدر ، والنهم ، والقسوة ، والفتك . وكانت الشفة العليا غليظة جدا ، كأن بها ورما من ضربة أو وجع فى الأسنان ، وكانت ابتسامته وحاجباه

المحددان ، وعيناه الضيقتان القويتان ، ناطقة بالشر . وكان شعره الأبيض الجميل يسيل فينسدل حول رأسه ، كشعر القديس ويلتوى عند التقائه بالفرو ، وكانت لحيته وشارباه تكسبه جلالا وتفيض على محياه عذوبة ملطّفة ، ولم تترك الشيخوخة على راحتيه أثرا ، وعسى أن يكون ذلك من الدقة فى تحرى القصد ، والتزام الاعتدال فى المعيشة . وكانت « يد » ال مالتروا مشهورة ، ومن العسير أن يتصور المرء كفا كثيرة اللحم ودقيقة الخلق فى آن معا ، كهذه . وقد كانت الأصابع الطرية تنتهى بأنامل كرأس الشمعة فكأنها أصابع امرأة مما صور ليوناردو ، وكان الأبهام حين ينطوى تبرز عظمته جدا ، والأظافر بارعة الشكل وشديدة البياض ، وقد زاد فى جلال منظره وعمق وقعه فى النفس أن تكون له هاتان الكفان وأن يريح إحداهما على الأخرى فى حجره ، كأنه ضحية بكر ، وأن يكون لمحياه هذا التعبير الحاد المزعج ، ويجلس صامتاً يتأمل الناس بعين لا تطرف كأنه رب من الأرباب أو تمثاله . وكان سكونه هذا يبدو كأنه من السخر والغدر ، فما يلائم ما ينطق به وجهه .

وكان هذا هو « ألين » كبير آل ما لتروا .

ومضت ثانية أو اثنتان ، وكل من الرجلين يرشق الآخر بلحظه .

ثم قال السيد مالتروا : « تفضل بالدخول . لقد كنت أنتظر مقدمك طول هذا المساء » .

ولم ينهض وهو يدعوه ، ولكنه شفع دعوته بابتسامة ، وحنى رأسه قليلا على سبيل التلطف . فشعر دنيس بقشعريرة قوية من المقت والتقزز تسرى فى عظامه ، وكان هذا وقع الابتسامة وفعل تمتمة غريبة مهد بها الرجل لكلامه . وقد كاد دنيس ، لما عراه من اضطراب الذهن ، وما جاشت به نفسه من

بغض الرجل ، لا يجد كلاماً يقوله فى جواب ما سمع .

ثم وجـد لسانه فقال : « أظن أن خطأ مزدوجاً قد وقع . فإنى لست من تتوهمنى . ويظهر أنك كنت ترتقب زائراً — ولـكنى أؤكد لك أن هذا التطفل منى لم يكن يجرى لى فى خاطر ، ولا كانت تدفعنى إليه رغبة » .

فقال الرجل بلهجة المتسامح : « حسن . حسن . هذا أنت هنا ، وهذا هو المهم . أقعد ياصاحبى ، واسترح . وسنرتب ما بيننا من الأمور التافهة حالا » .

ورأى دنيس أن الغلط لا يزال يعقد الأمر فأراد أن يمضى فى بيانه وقال : « إن بابك . . . » .

فرفع الرجل حاجبيه المحددين وقال : « بابى ؟ إنه آية صغيرة من آيات الذكاء والبراعة » وهز كتفيه « هوى لى فى الـكرم ! وقد قلت إنك لم تكن راغبا فى لقائى ومعرفتى . ونحن الشيوخ نعرف هذا الزهد فينا والعزوف عنا أحياناً وإذا مس ذلك شرفنا التمسنا وجوه الحيلة للتغلب عليه . لقد جئت غير مدعو ، ولـكن صدقنى حين أقول إنى أرحب بك » .

فقال دنيس : « إنك تلج فى الخطأ يا سيدى . فما ثم أى شأن بينى وبينك وإنى لغريب فى هذه البلدة . واسمى دنيس ده بوليبه . وإذا كنت ترانى الآن فى بيتك فذاك . . . » .

فقاطعه الرجل : « يا صاحبى أرجو أن تسمح لى برأيى فى هذا الموضوع . وأحسبه يخالف رأيك فى اللحظة الحاضرة » ثم أضاف بضحكة « وستظهر الأيام أينا كان المصيب وأينا المخطئ » .

فأيقن دنيس أن هـذا الرجل مخبول ملتاث العقل ، وهز كتفيه وقعد ، وقد راض نفسه على الصبر حتى يرى ختام الأمر . وتلت ذلك فترة صمت خيل

إليه فى أثنائها أنه سمع همهمة كهمهمة الصلاة وراء الستر المقابل له . وكانت حرارة الصوت على الرغم من خفوضه تشى بالعجلة الشـديدة أو الألم الوجيع . وخطر له أن هذا الستر يحجب مدخل المعبد الذى رآه من الزقاق .

وكان الرجل فى أثناء ذلك يلحظ دنيس و يقيسه من رأسه إلى قدمه ، وهو يبتسم ، وكان من حين إلى حين يخرج أصواتاً كأصوات الطير أو الجرذان تدل على الرضى والارتياح . وصارت الحالة بسرعة مما لا يطاق ، وأراد دنيس أن يضع حدا لها فقال بتلطف إن الرياح قد سكنت .

فعرت الرجل نوبة من الضحك الصامت ، طالت واشتدت حتى لقد اتقّد منها وجهه . فوثب دنيس إلى قدميه ووضع قبعته على رأسه ملوحاً بها وقال :

« سيدى ، إذا كان عقلك فى رأسك ، فإنك تكون قد امتهنتنى جدا . و إذا كان عقلك عازباً عنك ، فإنى أحسب أن فى وسعى أن أجد شيئاً آخر أشغل به نفسى غير الكلام مع المجانين . إن ضميرى مرتاح . وقد هزئت بى من أول لحظة ، ورفضت أن تصغى إلى بيانى و إيضاحى ، فالآن لاتوجد قوة غير قوة الله تضطرنى أن أبقى هنا ، و إذا لم أستطع أن أخرج على نحو آخر يكون أكرم وأمثل ، فسأقطع بابك وأحطمه بسيفى » فرفع الرجل يمناه لدنيس وحركها وكانت السبابة والخنصر والبنصر ممدودة دون البقية .

وقال : « اجلس يابن أخى العزيز » .

فصاح دنيس : « ابن أخيك ؟ إنك كاذب » وفرقع أصابعه فى وجهه .

فصاح به الرجل بصوت حاد كنباح الكلب : « إجلس أيها الوغد ! أتظن أنى لما نصبت هذا الباب ، اجتزأت به واقتصرت عليه ؟ إذا كنت تفضل أن تقيد يداك ورجلاك حتى تشتكى عظامُك التوصيم فانهض وحاول أن تخرج ! أما

إذا كنت تؤثر أن تظل حرا وأن تحادث شيخاً كبيراً — فاقعد حيث أنت فى سلام ، وليكن الله معك ! » .

فسأله دنيس : « أتعنى أنى هنا سجين ؟ » .

فقال الرجل : « إنما أسرد الحقائق . وأرى أن أترك لك أن تستخلص مدلولها » .

فقعد دنيس مرة أخرى ، وحاول أن يكون فى الظاهر هادئاً ساكن الطائر أما باطنه فقد كان جائشاً ، فتارة تفور نقمته وحنقه ، وتارة أخرى تشيع فى بدنه رعدة من الحذر . وتزعزع يقينه بأنه يخاطب مجنوناً . ولكن إذا كان الرجل سليم العقل ، فماذا يتوقع ؟ وما هذه الحادثة الفاجعة أو السخيفة التى وقعت له ؟ وبماذا ينبغى له أن يواجه الموقف ؟

وبينما كان يفكر فى هذا غير مسرور به أو مرتاح إليه ، رفع السجف المرخى على باب المعبد ودخل قسيس طويل القامة عليه مسوح الكهنة ، ورمى دنيس بنظرة طويلة حادة ثم قال شيئاً بصوت خفيض للشيخ .

فسأله هذا : « أو صارت أسلس وألين ؟ » .

فقال القسيس : « إنها أكثر استسلاماً » .

فقال الشيخ متهكما : « كان الله فى عونها فإن مرضاتها عسيرة . شاب وجيه وسيم ، وليس بوضيع الأصل ، فماذا تبغى الفاجرة أكثر من هذا ؟ » .

فقال القسيس : « إن الموقف غير مألوف ، ومخجل لفتاة خفرة » .

فقال الشيخ : « كان عليها أن تتدبر هذا وتنظر فى العواقب قبل أن تقدم على هذه الرقصة ! وما كنت أنا الذى اختار لها هذا علم الله . ولكن لما كانت قد دخلت فى هذا ، فوحق العذراء لتمضين فى الأمر إلى ختامه » .

ثم التفت إلى دنيس وقال يخاطبه : « هل لى أن أقدمك إلى ابنة أخى ياسيد ده بولييه ؟ لقد كانت تنتظر قدومك بصبر أنفد من صبرى » .

وكان دنيس قد أسلم أمره لقضاء الحظ فيه ، فكل ما كان يبتغى هو أن يعرف آخر الأمر بأسرع ما يستطاع . ولهذا نهض من توته وانحنى موافقاً . واحتذى كبير آل ما لتروا مثاله وسار يعرج متكئا على ذراع القسيس ، إلى باب المعبد ، فنحى القسيس السجف ، ودخل الثلاثة . وكان المكان على حظ وافر من جمال الهندسة و براعتها . وكان عقد القبة محمولا على ستة عمد متينة ، وقد تدلى مصباحان فى حفل من الزينة . وكان المعبد فى نهايته — وراء الهيكل — مستديراً مفرط الزخرف ، وله نوافذ صغيرة على صور النجوم وأوراق الشجر والعجلات ، ولم يكن زجاج النوافذ سليما كله ، فكان هواء الليل يتخلل المكان ، وكانت الشموع المضاءة على الهيكل لا تقل عن خمسين ، وكان الهواء ينفخها بلا رحمة ، فينتقل النور من السفَر والالتماع إلى ما يشبه الكسوف . وكانت هناك فتاة فى ثياب عرس تركع على درجة أمام الهيكل . فأحس دنيس بالبرد فى بدنه لما رأى ثيابها ، وجاهد مجاهدة اليائس أن ينفى الخاطر الذى يأبى إلا أن يدور فى نفسه . فما يمكن أن يكون الأمر كما يخشى ، ولا ينبغى أن يحدث هذا .

وقال الشيخ بأعذب أصواته : « بلانش ! لقد جئت بصديق ليراك يا فتاتى الصغيرة . فأولنا وجهك ومدى إليه يدك الجميلة . حسن أن يكون المرء ورعا تقيا ، ولكن من الواجب أن يكون مهذبا مؤدبا يا ابنة الأخ » .

فنهضت الفتاة إلى قدميها ودارت فواجهت القادمين . وكان جسمها يتحرك كله معا . وكان الخجل والإعياء باديين على كل خط من خطوط جسمها البض الصابح ، وكانت مطرقة ، وعينها على الأرض وهى تخطو على مهل ، وأبصرت

— وهى تتقدم — رجلىْ دنيس ، وكان نخوراً بقدميه بحق ، وشديد العناية برشاقة حذائيه حتى حين يكون على سفر ، فوقفت — انتفضت كأنما كان حذاءاه الأصفران قد أوحيا إليها بمعنى مفزع — ورفعت عينها بغتــة إلى وجه دنيس . فالتقت عيونهما ، فحل الجزع والفزع فى عينيها محل الخجل ، واصفرت شفتاها ، وندت عن صـدرها صرخة عالية وغطت وجهها بيديها وهوت إلى الأرض .

وصاحت : « هذا رجل آخر ، ياعمى ، هذا رجل آخر » .

فقال الشيخ بلهجة الراضى : « بالطبع لا . . . لقد كنت أتوقع هذا . . . من سوء الحظ أنك لم تستطيعى أن تتذكرى اسمه » .

فعادت تصيح : « صدقنى . صدقنى . ما رأيت قط وجه هذا الرجل إلا الساعة — لم تقع عينى عليه من قبل — ولست أريد أن أراه مرة أخرى » .

والتفتت إلى دنيس وقالت : « سيدى . إذا كنت رجلا شريفاً فليس يسعك إلا أن تشهد لى . فهل رأيتك قط ؟ هل رأيتنى قط ؟ قبل هـذه الساعة المشئومة ! » .

فقال دنيس : « أما عن نفسى فأقول إنه لم يكتب لى هذا الشرف من قبل . وهذه أول مرة يا سيدى التقيت فيها بابنة أخيك الجميلة » .

فهز الشيخ كتفيه وقال :

« يحزننى أن أسمع هذا . ولـكن الابتداء لا يضيع وقته ولا تذهب فرصته مهما تأخر . وما كانت معرفتى بزوجتى التى توفيت أوثق من معرفتكما — قبل زواجنا — ، وهذا يثبت أن الزواج المرتجل كثيرا ما يسفر عن تفاهم بديع على العموم . ولما كان الزوج يجب أن يكون له رأى فى الموضوع ، فسأدعه ساعتين

ليعوض ما فات من الوقت قبل أن نمضى بالمراسم إلى غايتها » .

واتجه إلى الباب والقسيس وراءه .

فنهضت الفتاة على قدميها بسرعة وصاحت : « عمى ! لا يمكن أن تكون جادا . إنى أقسم أمام الله أنى أوثر أن أقتل نفسى على أن أرمى على هذا الرجل ؛ إن النفس تثور على هذا . الله يحرم مثل هـذا الزواج ، وأنت تلوث شعرك الأبيض ، وتجر عليه العار . عمى ! إرحمنى . ما من امرأة فى العالم إلا وهى تفضل الموت على مثل هذا الزواج . هل من الممكن (باضطراب وتردد) هل من الممكن أن لا تصدقنى ... هل يمكن أن تظل تعتقد — (وأشارت إلى دنيس وهى ترعد من الغضب والاحتقار) أن تظل تعتقد أن « هذا » هو الرجل ؟ » .

فقال الشيخ وهو واقف على العتبة : « أقول لك الحق . نعم ، ولـكن دعينى أبين لك ، يا بلانش ده مالتروا ، أسلوب تفكيرى فى هذا الموضوع . لما نزا بك الطيش ، فلوثت كرامة أسرتى والاسم الذى أحمله فى السلم والحرب منذ ستين سنة ، أسقطت بذلك حقك فى مجادلتك فيما أصنع ، بل فى أن تنظرى إلى وجهى . ولو كان أبوك حيا لبصق عليك وطردك . فقد كانت يده من حديد ومن واجبك أن تشكرى الله لأن يدى من المخمل يا آنسة ! لقد كان واجبى أن أزوجك بلا تلكؤ ، ودفعنى طيب القلب وحسن النية فبحثت لك عن حبيبك وأعتقد أنى وفقت . وأقسم بالله وملائـكته أنى لا أعبأ شيئا إذا كنت لم أوفق يا بلانش ده مالتروا . لهذا أنصح لك بأن تكونى مؤدبة مع صاحبنا الشاب . إذ من يدرى ! ؟ قد يكون الذى يليه أقل لياقة ! » .

وخرج ، والقسيس فى أثره . وانسدل الستر عليهما .

وواجهت الفتاة دنيس بعينين تقدحان شررا وسألته :

« ماذا يمكن أن يكون معنى هذا يا سيدى ؟ » .

فقال دنيس باكتئاب : « الله وحده هو العليم ، إنى سجين فى هذا البيت الغاص بالمجانين على ما يظهر . ولست أعرف أكثر من هذا ولا أنا فاهم شيئا » .

فسألته : « وكيف جئت إلى هنا ، من فضلك ؟ » .

فأخبرها بأوجز ما يستطيع ثم قال : « وقد يكون الأصوب أن تحتذى مثالى وتحلى لى هذه الألغاز ، وتقولى لى ما آخر هذا ؟ » .

فوقفت برهة وهى صامتة ، وكان دنيس يرى شفتيها ترتجفـان ، وعينها التى جمـدت فيها الدموع ، تتقد وتومض بنار الحمى ، ثم أراحت جبينها على كفيها وقالت بفتور وتعب :

« وا أسفاه ! لشـد ما يَوْجعنى رأسى ! بله قلبى ! ولـكن من حقك أن تعرف قصتى و إن كانت تبدو غير لائقة . اسمى بلانش ده مالتروا . وأنا يتيمة — لا أم ولا أب — منذ — أوه . . . . مذ صرت أعرف شيئا . وكنت ، وما زلت ، شقية طول عمرى . ومنذ ثلاثة شهور ، بدأ ضابط شاب يقف إلى جانبى كل يوم فى الـكنيسة . وتبينت أنه يحبنى . و إنى لملومة ، ولـكنه سرنى أن أجد إنسانا يحبنى . ودس فى يدى رقعة ، فحملتها معى إلى البيت وقرأتها وأنا فرحة . وقد كتب إلىّ رقعا كثيرة بعد ذلك . وكان يتلهف على محادثتى — مسكين — وجعل يلح علىّ أن أدع الباب مفتوحا فى بعض الليالى لنتبادل كلمتين على درج السلم . فقد كان يعرف مبلغ ثقة عمى بى » .

وشهقت وهى تقول ذلك ، ولم تستطع أن تستأنف الـكلام إلا بعد لحظة .

« وعمى رجل قاس . ولـكنه ذكى حاذق . وقد أبلى بلاء حسنا فى الحروب وكان ذا حظوة ومقام فى بلاط الملك ، وكانت الملـكة إيزابو تثق به فى الأيام السالفة .

ولا أدرى كيف استراب بى وشك فى أمرى ، غير أن من الصعب أن يخفى الإنسان عنه شيئا . وفى الصباح ، ونحن عائدون من صلاتنا وضع يدى فى يده ، وأكرهنى على فتحها ، وقرأ الرقعة التى كتبها الضابط . وكان يقرأ وهو يمشى ، ولما أتم القراءة ردها إلىّ بلطف . وكانت الرقعة رجاء جديداً أن أدع الباب مفتوحا . فكان فى هذا خرابنا جميعا . فقد أبقانى عمى فى غرفتى وحرص على أن لا أبرحها حتى دخل الليل ثم أمرنى أن ألبس هـذه الثياب التى تراها علىّ — فيالها من سخرية بفتاة مثلى ! أليس هذا رأيك ؟ وأحسبه لما عجز عن حملى على الإفضاء باسم الضابط ، نصب هذا الفخ له ، فوقعت أنت فيه ، ويا للأسف ! وقد توقعت ارتبا كا كثيراً إذ من أدرانى أنه يقبل أن يتخذنى زوجة بهذه الشروط ؟ ولعله كان يلهو غير جاد من أول الأمر ، وعسى أن أكون أرخصت نفسى فى عينه . ولكننى لم أكن أتوقع مثل هـذه العقوبة الفاضحة ! ولم يكن يخطر لى أن الله يأذن أن يعصب رأس فتاة بالعار على هذا النحو أمام شاب . والآن انتهت قصتى . ولست أجرؤ أن أرجو ألا تحتقرنى » .

فانحنى لها دنيس احتراما وقال :

« سيدتى . لقد شرفتنى بثقتك بى ومصارحتك لى ، وقد بقى علىّ أن أثبت لك أنى لست غير أهل لهذا الشرف . فهل السيد ده مالترو اقريب من هنا ؟ » .

قالت : « أظنه ينتظر فى الحجرة الأخرى » .

فسألها دنيس وهو يعرض عليها ذراعه بأقصى ما يسعه من التلطف : « هل تسمحين لى أن أمضى بك إليه ؟ » .

فقبلت ، فخرجا من المعبد — بلانش مكتئبة خجلة ، ودنيس يخطر وهو معتز بغايته وثقته الصبيانية بقدرته على تحقيقها وسلامة شرفه بذلك .

ونهض السيد ده ما لتروا لاستقبالها ، وانحنى لها ساخراً .

وقال دنيس بأقصى ما يسعه من الشموخ : « سيدى . إنى أعتقد أنه سمح لى بإبداء رأى فى هذا الزواج ، فلأقل بلا تلكؤ ، إنى لن أكون شريكا فى إرغام هذه السيدة . ولو أن الأمر عرض على ، بغير إكراه ، لكان من دواعى الشرف لى أن أقبل يدها . فإنها لنبيلة بقدر ماهى جميلة ، فأما والأمر كما هو فان لى الشرف ياسيدى أن أرفض » .

فنظرت إليه بلانش شاكرة ، أما الشيخ فابتسم ، وظل يبتسم حتى صارت ابتسامته تغثّى نفس دنيس .

وقال الشيخ : « اعتقد ياسيد ده بولييه أنك لا تدرك حق الإدراك ما أعرضه عليك من الخيار . فأرجو أن تتبعنى إلى هذه النافذة » ، ومضى أمامه إلى إحدى النوافذ الكبيرة المفتوحة على ظلام الليل وقال : « ترى أن فى البناء من فوق حلقة من الحديد ، فيها حبل متين . والآن أصغ إلى . — إذا وجدت أن زهدك فى ابنة أخى لا يُغالب ولا يفتر ، فسأشنقك بهذا قبل طلوع الشمس . ولن أفعل ذلك حين أضطر إليه إلا وأنا شديد الأسف ، لو صدقت ، فليس موتك طلبتى ، وإنما مبتغاى كفالة المستقبل لابنة أخى . ولكنه لا حيلة لى سوى هذا إذا عاندت . إن أسرتك ياسيد ده بولييه كريمة ، ولكن لو أنك كنت من نسل شرلمان ، لما كان لك أن ترفض يد سيدة من آل مالتروا وأنت آمن — حتى ولو كانت مبتذلة كطريق باريس — حتى ولو كانت دميمة كالميزاب الذى على بابى . وليس لابنة أخى ، ولا لك ، ولا لإحساسى الخاص ، شأن أو دخل فى هذا الموضوع ، وإنما تعرض شرف بيتى لما يخدشه . وإنى أعتقد أنك الذى اجترح هذا الإثم ، وأنت على الأقل أصبحت عارفاً بالسر ومطلعاً

عليه ، فليس لك أن تتعجب إذا طلبتُ منك أن تمحو هـذه الوصمة ، و إذا لم تفعل فإن دمك يكون على رأسك ، وتكون أنت الجانى على نفسك . ولن يكون من بواعث اغتباطى أن أرى جثمانك يضطرب فى الهواء ، تحت نوافذى . ولـكن نصف الرغيف خير من لاخبز ، و إذا لم يسعنى أن أمحو الوصمة فسأخنق ، على الأقل ، الفضيحة » .

وكان صمت .

ثم قال دنيس : « أعتقد أن هناك طرقا أخرى لفض النزاع بين الرجال ذوى الشرف والـكرامة . و إن معك لسيفاً وقد سمعت أنك استعملته بحذق » .

فأومأ سيد ده مالتروا إلى القسيس فقطع أرض الحجرة بخطى واسعة صامتة ونحى السجف عن ثالث الأبواب ، و بعد هنيهة أرخاه كما كان ، ولكن دنيس وسعه أن يرى أن الدهليز المظلم غاص بالرجال المدججين بالسلاح .

وقال سيد ده مالتروا : « لما كنت أصغر قليلا ، كان يسرنى أن أشرّفك يا سيد ده بولييه ولـكنى الآن أسن من أن أفعل ذلك . والأتباع الأوفياء هم عضلات الشيخوخة وزنودهم ، ولا معدى لى عن استعمال ما لدى من قوة . وهذا من أشق ما يضطر المرء إلى احتماله كلما علت به السن ، ولـكن بقليل من الصبر يصبح الأمر عادة . وأنت وابنـة أخى تفضلان على ما يظهر أن تقضيا فى هـذه الحجرة ما بقى لـكما من الساعتين المضروبتين أجلا ، ولست أحب أن أعترض لـكما طريق رغبة ، لذلك أخلى لـكما الحجرة مسروراً ! » .

ورأى نظرة خطرة فى عينى دنيس فرفع يده زاجراً وقال : « لا تتسرع ! إذا كانت نفسك تثور على الشنق فإنه لا يزال أمامك ساعتان تلقى بعدهما نفسك من النافذة ، أو تلقيها على حراب أتباعى . والساعتان من العمر هما دائماً ساعتان

وقد يحدث كثيراً مما ليس فى الحسبان حتى فى مسافة وجيزة من الزمن كهذه .
وإذا كانت فراستى لم تخنى ، فإنه يبدو لى أن ابنة أخى تريد أن تحدثك بشىء
ولا أحسبك ترضى أن تشوه ما بقى لك من العمر بسوء الأدب مع سيدة ! » .

فنظر دنيس إلى بلانش ، فأومأت إليه متوسلة ضارعة .

ويظهر أن الشيخ الهرم سره جدا هـذا الفهم ، فقد ابتسم لهما وقال بلهجة لينة : « إذا بذلت لى وعداً بشرفك يا سيد بولييه أن تنتظر عودتى عند انقضاء الساعتين ، قبل أن تخاطر بشىء ، فإنى مستعد أن أصرف أتباعى وأن أدعك تتكلم مع الآنسة وأنت آمن أن يسمعك أحد » .

فنظر دنيس مرة أخرى إلى الفتاة ، فألفاها تتوسل إليه بعينها أن يقبل .

فقال : « أعدك بشرفى » .

فانحنى السيد ده ما لتروا ومضى يظلع على أرض الغرفة ويتنحنح ويخرج تلك الأصوات التى استك منها مسمع دنيس . وتناول أولا أوراقاً كانت ملقاة على المائدة ثم قصد إلى مدخل الدهليز وأمر الذين وراء الستر بشىء ، ثم خرج من الباب الذى دخل منه دنيس ، بعد أن وقف على العتبة ليلقى ابتسامة أخيرة إليهما ، وتبعه القسيس وفى يده مصباح .

فلما صارا وحدهما دنت بلانش من دنيس ويداها ممدودتان ، وكان وجهها مضطرماً ، وعيناها تلمع فيهما العبرات .

وقالت : « لن تموت . يجب أن تتزوجنى » .

فقال دنيس : « يظهر يا سيدتى أنك تحسبين أنى أخاف الموت » .

فقالت : « لا لا لا . . فإنى أرى أنك لست بالجبان . وإنما أدعوك إلى هذا من أجلى أنا ، فما أطيق أن أدعك تذبح لهذا » .

فقال دنيس : « أظن يا سيدتى أنك تبالغين فى الاستخفاف بالصعوبة . فان ما تكونين أنت أكرم من أن ترفضيه ، قد أكون أنا أشد كبراً من أن أقبله . و إنك ليغمرك الآن شعور كريم ، فأنت تنسين ما أنت به مدينة لآخرين » .

وكان كيسا فكانت عينه على الأرض وهو يقول ذلك ، وظل كذلك بعد أن فرغ من الكلام ، حتى لا يرى اضطرابها . و بقيت هى صامتة لحظة ثم مضت عنه وهوت على كرسى عمها وانفجرت تبكى وتنتحب . فبلغ الاضطراب والارتباك بدنيس غايتهما ، وتلفت كأنما يستلهم ما حوله ، ورأى مقعداً فهوى عليه ، فقد كان لا بد له أن يصنع شيئاً . وهكذا جلس يعبث بمقبض سيفه ، ويتمنى لو أنه كان قد مات ألف ميتة ودفن فى أقذر مزبلة فى فرنسا ! وكانت عينه تدور فى الحجرة ، ولكن لحظه لم يستوقفه شىء ، وكانت المسافات بعيدة بين قطع الأثاث والضوء يقع منحرفاً على كل شىء وهواء الليل خارج الغرفة يدخل من نافذتها بارداً ، فخيل إليه أنه لم ير أرحب من هذه الكنيسة ، ولا قبراً أسود وأقتم من هذا . وكانت شهقات بلانش ده مالتروا منتظمة كدقات الساعة . وقرأ دنيس الشعار الذى على الترس مرة أخرى ، وثانية ، وثالثة ، حتى زاغ بصره ، وحدق فى الأركان المعتمة حتى بدت له كأن هواما فظيعة تسرح فيها وتمرح . وكان من حين إلى حين ، يتنبه فزعاً فيتذكر أن الساعتين تنقضيان ، وأن الموت يزحف . وكثر ، مع كر الوقت ، لحظانه الفتاة نفسها . وكانت مطرقة ، و يداها على وجهها ، وكان شهاق الحزن يهزها آنا بعد آن . ولكن هذا لم يفقدها جمالها ، ولم يجعل العين أقل استراحة إلى النظر إلى بضاضتها وحسنها ، وسمرة بشرتها الحارة ، و إلى أجمل ما رأت عين دنيس من الشعر فى عالم النساء . وكانت يداها كيدى عمها ، ولكنهما كانتا أليق بذراعيها الطويلين وأنطق بالرقة والحنو .

وتذكر كيف كانت عيناها الزرقاوان تومضان وهى تنظر بهما إليه ، وفيهما الغضب والعطف والطهر . وصار كلما أوسع محاسنها نظراً وتأملها ، يزداد نفوراً من الموت وزهداً فيه ، وندماً وأسفاً لأنه يطيل بكاءها . وكان يحس تارة أنه ما من إنسان تؤاتيه الشجاعة فيترك دنيا فيها مثل هذا الجمال ، وتارة أخرى يود لو أن أربعين دقيقة انتقصت من ساعته الأخيرة ، وأنه لم يقل لها ما قال .

وصافحت مسامعها فجأة صيحة ديك من الوادى المظلم تحت النافذة ، فكانت هذه الضوضاء التى مزقت حجاب السكون كالنور ينبثق فى الظلمة ، فهزها ذلك وردها عما كان يستغرقهما من الفكر .

وقالت وهى ترفع إليه وجهها : « وا أسفاه ! أما من شىء أستطيع أن أساعدك به ؟ » .

فقال بلا مناسبة من كلامها : « سيدتى ، إذا كان فيما قلته ، ما جرحك فثقى أنه كان من أجلك ، وفى سبيلك ، لا من أجلى » .

فشكرته بعين مغرورقة بالدموع .

ومضى فى كلامه فقال : « إنى أدرك أوجع إدراك ما فى مركزك من الحرج . لقد قست عليك الدنيا قسوة مرة . وإن عمك لوصمة لبنى الإنسان . وصدقينى يا سيدتى ، حين أقول إنه ما من شاب فى فرنسا إلا وهو يرحب بفرصتى ، ويسره أن يموت ليؤدى لك خدمة وقتية » .

فقالت : « إنى أعرف أن فى وسعك أن تكون شجاعاً وكريماً . والذى أريد أن أعرفه هو هل أستطيع أن أخدمك — الآن أو فيما بعد » ، وارتعش صوتها وهى تنطق بالكلمات الأخيرة .

فأجابها بابتسام : « على التحقيق . ودعينى أقعد إلى جانبك كما يفعل

الصديق ، وكأنى لست ذلك المتطفل الأحمق . ولتنسى ما ينطوى عليه موقفنا — بعضنا حيال بعض — من الحرج . دعى لحظاتى الأخيرة تمر حميدة . و بهذا تؤدين لى خير خدمة ممكنة » .

فقالت بصوت ينم على ازدياد حزنها : « إنك شهم باسل ... شهم جدا ... وهذا يؤلمنى لسبب ما ... ولكن ادن منى من فضلك و إذا وجدت كلاما تقوله لى فإن فى وسعك على الأقل أن تكون على يقين من ود المصغى إليك . آه يا سيد ده بولييه ! كيف أقوى على النظر إلى وجهك ؟ » .

وعادت تنتحب مرة أخرى وتبكى بأربع .

فتناول دنيس يدها وجعلها بين يديه وقال : « سيدتى ، فكرى فى الوقت القصير الباقى لى ، وفى الألم المر الذى يحدثه لى حزنك . أعفنى فى لحظاتى الأخيرة من رؤية ما لا أستطيع أن أداوى حتى ببذل حياتى » .

فقالت بلانش : « إنى شديدة الأنانية . ولكنى سأتشجع يا سيدده بولييه من أجلك ، ولكن فكر فيما أستطيع أن أصنعه فى سبيلك فى المستقبل — أليس لك إخوان أحمل إليهم وداعك ؟ إحمل علىّ بما تشاء ! كلفنى كل ما يخطر لك . فإن كل عبء سيخفف قليلا ألم ما أنا مدينة به لك . اجعل فى وسعى أن أصنع شيئاً من أجلك أكثر من البكاء » .

فقال دنيس : « لقد تزوجت أمى ثانية ، ولها أسرة صغيرة تُعنى بها ، وسيرث أخى جيشار اقطاعاتى ، و إذا كنت غير مخطىء ، فسيعزيه هذا كثيراً عن موتى . إن الحياة أنفاس تذهب على ما يقول لنا رجال الدين . والمرء حين يكون على منهاج السعادة ، وتتفتح أبواب الحياة أمامه ، يتوهم أنه شىء عظيم الخطر فى الدنيا . حصانه يصهل له ، والنفير ينفخ ، فتطل الغانيات من النوافذ لتراه

وهو يتقدم فرقته ، ويتلقى مواثيق عديدة ، بعضها بالبريد ، كتابة ، وبعضها باللسان ، والعين فى العين ، ويهوى على عنقه الرجال ذوو المنازل الملحوظة . ثم يموت ، فما أسرع ما يُنسى ولو كان أشجع من هرقل وأحكم من سليمان . منذ أقل من عشر سنوات قتل أبى فى معركة عنيفة وقتل معه كثيرون من الفرسان ولست أظن اسم أحد منهم ، أو حتى اسم الوقعة ، يذكر الآن ! لا لا لا ، ياسيدتى كلما اقترب المرء من الموت ، ألفى أنه ركن مظلم معفر ، يدخل منه الرجل إلى قبره ويوصد عليه الباب إلى يوم الحساب . إن أصدقائى الآن قليلون ، وبعد أن أموت ، لا يكون لى صديق » .

فقالت : « آه يا سيد ده بولييه ، إنك ينسى بلانش ده مالتروا » .

فقال : « إن أخلاقك كريمة يا سيدتى ، وقد شئت أن تبالغى فى قيمة عمل صغير » .

فقالت : « ليس هذا ما أعنى . وإنك لتخطئ إذا كنت تظن أنى متأثرة بما يعنينى . إنما أقول ذلك لأنك أنبل وأشرف رجل رأيته — لأنى أرى لك روحا لو حلت فى بدن واحد من حثالة الناس لرفعته وجعلت له شأناً فى الأرض » .

قال : « ومع ذلك هذا أنا أقضى نحبى فى مصيدة جرذان ، بلا ضجة أكثر من صيحاتى » .

فبان فى محياها الألم ، وسكتت لحظة ، ثم أضاءت عينها ، وقالت بابتسام : « لا أستطيع أن أسمح لفارسى أن يحقّر نفسه ويسخر منها . إن كل من يبذل حياته فداء لحياة أخرى ، تستقبله فى الجنة ملائكة الله بالترحيب . ومع ذلك لا داعى لأن تُشنق إذ ... إذ ... من فضلك أترانى جميلة ؟ » .

واصطبغ وجهها بالدم القانى .

فقال : « إنك يا سيدتى جميلة حقا » .

فقالت من قلبها : « إنى فرحة بهذا . فهل تظن أن فى فرنسا كثيرين من الرجال خطبتهم لنفسها عذراء جميلة — بلسانها ، فرفضوها ، وردوها ، فى وجهها ؟ و إنى لأعرف أنكم معشر الرجال تحتقرون مثل هـذا النصر ، ولكن صدقنى ، إننا نحن النساء أعرف بما له قيمة فى الحب . وما من شىء أحق من هـذا بأن يرفع مقام المرء فى عينه ، ونحن النساء لا نرى أنفس من هذا ولا أحق بالضن به » .

فقال : « إنك رقيقة القلب جدا ، ولكنك لا تستطيعين أن تُنسينى أن هذه الرغبة صادرة عن العطف على ، لا الحب لى » .

فقالت وهى مغضية : « لست على يقين من أن هذا هكذا . إسمع كلامى إلى ختامه يا سـيد ده بولييه . إنى أعرف أنه لا يسعك إلا أن تحتقرنى ، وأنا أشعر أنك على حق فى هـذا ، و إنى لمخلوقة مسكينة لا تستحق أن تشغل بها خاطراً واحداً و إن كنت لا بد أن تموت مع الأسف من أجلها فى الصـباح ! ولكنى إنما رجوت منك أن تتزوجنى ، لأنى احترمتك وأعجبت بك ، وأحببتك من أعمـاق قلبى منذ اللحظة التى انتصرت فيها لى على عمى . ولو أنك كنت ترى نفسك ساعتئذ وأن تبصر نبل مظهرك ، لأدركك العطف علىّ بدلا من أن تحتقرنى » . والآن (وأسرعت فى الكلام ، وصدته بكفها عن مقاطعتها) « وقد نبذت كل تحفظ ، وأفضيت إليك بالكثير ، فتذكر أنى أعرف شعورك نحوى ، وثق أنى — وقد انحدرت من أصـل شريف — لن أضجرك بالإلحاح عليك أن تقبل . فان لى أنا أيضاً لـكرامة ، و إنى لأعلن أمام الله أنك لو رجعت فيما قلت ، لمـا تزوجتك كما لن أتزوج خادم عمى » .

فابتسم دنيس ابتسامة لا تخلو من مرارة وقال : « إنه حب صغير ذلك الذى يعفى عليه شعور عارض بالغضاضة » .

فلم تجب ، و إن كانت خواطرها تدور فى نفسها .

وقال وهو يتنهد : « تعالى هنا ، إلى النافذة .. هذا هو الفجر يطلع » .

وكان الفجر قد بدأ يتنفس ، وامتلأ عنان[1] السماء بالضوء الصافى الذى لا لون له . وفاض على الوادى ما انعكس منه ، و بقى شىء من السديم[2] على الغابة أو فوق مجرى النهر المتعرج . وكان المنظر عجيباً فى سكونه الذى لم يكد يقطعه صياح الديكة ، ولعل الديك الذى أطلق فى الظلام قبل نصف ساعة صيحته المنكرة ، هو بعينه الذى صاح بالتحية المرحة للصباح الجديد . وهب النسيم بالأشجار تحت النوافذ ، ومضى الصبح يغمر الدنيا بالنور من المشرق الذى مالبث أن توهج ثم أطلع قرص الشمس المضطرم .

ونظر دنيس إلى هذا كله ، وبه ارتعاش خفيف ، وكان قد تناول يد بلانش وأبقاها فى يده ، وهو لا يكاد يعى .

وسألته : « أوطلع النهار ؟ » ، ثم بلا مبالاة بالمنطق : « لقد كان الليل طويلا وأسفاه ! ماذا نقول لعمى حين يعود ؟ » .

فقال : « ما تشاءين » .

وضغط أصابعها بأصابعه .

فلم تقل شيئاً

وقال هو ، مندفعاً فى الكلام ، وصادراً فيه عن عاطفة جياشة : « بلانش ، لقد رأيت هل أخاف الموت أو لا أخافه ، ولا شك أنك تعرفين أنه آثر عندى

---

(١) ما عن لك منها إذا نظرت . (٢) الضباب الرقيق .

أن أثب من هذه النافذة وأرمى بنفسى مسروراً فى هذا الهواء الفارغ ، من أن ألمسك بإصبعى بغير رضاك . ولـكن إذا كنت تعبئين بى شيئاً ، فلا تدعينى أفقد حياتى من أجل خطأ . فإنى أحبك ، و إنك لأعز على من كل مافى الدنيا ، و إنى لمستعد أن أفديك بنفسى ، وأموت فى سبيلك وأنا قرير العين ، ولـكنه يكون الجنة ونعيمها ، ورضوان الخلد أن أحيا فى خدمتك » .

وسكت ، فسمعا ناقوسا يُقرع فى داخل البيت ، وقعقعة سلاح فى الدهليز تدل على أن الأتباع يعودون إلى مراكزهم ، وأن الساعتين انقضتا . فهمست وهى تميل عليه بشفتيها وعينيها : « بعد كل الذى سمعته ؟ » .

فأجابها : « لم أسمع شيئا » .

فقالت فى أذنه : « إن اسم الضابط فلوريمون ده شانديفير » .

فقال : « لم أسمع شيئا » .

وطوق جسمها الرخص بذراعيــه ، وأهوى بالقبل على محياها الذى بللته الدموع .

وسمعا صوتا عذبا وراءها تلته ضحكة حلوة ، وتمنى السيد ده مالتروا لنسيبه الجديد صباحا سعيداً !

أوسكار وايلد

١٨٥٦ – ١٩٠٠

عيد ميلاد الأميرة

كان ذلك عيد ميلاد الأميرة ، وكانت قد بلغت الثانية عشر ، وكانت الشمس تغمر بنورها حدائق القصر .

ولم يكن لها سوى عيد ميلاد واحد ، فى كل عام ، كغيرها من بنات الفقراء وأبنائهم ، وإن كانت أميرة حقيقية ، ووارثة عرش إسبانيا . فكان مما تعنى به البلاد كلها أعظم العناية أن يكون اليوم أجمل وأبهى ما يدخل فى الوسع ، وقد كان اليوم جميلا حقا ، فاعتدلت أزهار « الطوليب » الطويلة المخططة ، على سوقها ، كأنها صف من الجند ، وشخصت إلى الورود المقابلة لها وقالت : « إننا مثلك الآن نضرة وبهجة » . وخفقت الفراشات القرمزية ، وعلى أجنحتها تراب النضار ، فوق زهرة بعد زهرة . وخرجت السحالى الصغيرة من شقوق الجدران وراحت تضحى فى الشمس ، وتشقق الرمان من وقدة الحر ، وفتح قلبه الدامى ، حتى الليمون الأصفر الذى حفلت به أفنانه ، أفاد من ضوء الشمس لوناً أزهى ، ونورت شجيرات المنوليا ، وتفتحت أكمامها عن العاج المطوى ، ونشرت فى الجو عبيرها القوى .

وراحت الأميرة الصغيرة تمشى على الشرفة مع أترابها ، وتلعب معهن لعبة « الاستخفاء » حول الزهريات المصنوعة من الحجر ، أو التماثيل التى نمت عليها الأعشاب . وكانت فى الأيام العادية لا يؤذن لها فى اللعب إلا مع اللواتى هن من طبقتها ، فكان لعبها وحدها دائما ، ولكن عيد ميلادها كان يوما استثنائيا ، فأمر الملك أن تدعو الأميرة من لداتها من تحب من الجنسين ، ليلهوا معها ؛ وكان

لهؤلاء الأطفال الإسبانيين الدقاق اللطاف سمت ، وفيهم رشاقة ، وهم ينسابون هنا وهناك — الصبيان بقبعاتهم الكبيرة المريشة ، ومعاطفهم القصيرة ، والبنات وهن يمسكن فضل أفوافهن المنفوشة الموشّاة بخيوط الذهب والفضة ، و يحجبن الشمس عن عيونهن بمراوح كبيرة سوداء مفضضة . ولكن الأميرة كانت أرشقهن جميعاً وأبرعهن ثيابا على ما كان يقضى به ذوق تلك الأيام . وكان ثوبها من الأبريسم ، وقد وُشى مجوله[1] وكماه المنتفخان بالفضة ؛ أما الصِّدار[2] فمرصع بوصائل من اللآلئ العجيبة ؛ وكان على رجليها حذاءان لطيفان مزدانان بوردتين كبيرتين قرمزيتين ، يبدوان من تحت ذلاذل ثوبها إذ تمشى ، وكانت مروحتها الكبيرة من أسلاك لؤلؤية وقرمزية الألوان ، وكان شعرها كأن عليه هالة من العسجد الباهت ، وكان ينسدل على جانبى محياها الدقيق الحائل اللون وفيه وردة بيضاء جميلة .

وكان الملك الحزين يشرف عليهم من نافذة فى قصره ، وخلفه أخوه — دون بدرو أمير أراغون ، وكان الملك شديد الكراهة له — وقسيسه — رئيس محكمة التفتيش فى غرناطة — وهو جالس بجانبه . وكان الملك يبدو فى يومه هذا أشد حزناً وأسى ، فقد كان وهو ينظر إلى الأميرة وهى تنحنى بوقار صبيانى لرجال الحاشية المجتمعين ، أو تضحك وتستر وجهها بالمروحة ، من دوقة ألبوكيرك الصارمة الوجه ، التى لا تفارق الأميرة ، ينثنى به الخاطر فيتذكر الملكة الشابة — أم الأميرة — التى جاءت منذ عهد قصير — هكذا كان يخيل إليه — من بلاد فرنسة المرحة ، فذوى غصنها الرطيب فى بلاط إسبانيا الجهم على فرط

(١) المجول فى الأصل ثوب تجول فيه المرأة ، أو هو قميص خفيف يلبس تحت الثياب ، وقد استعملته هنا للجونلة .

(٢) جزء من الثوب يغشى الصدر والمنكبين وقد استعملت اللفظ لكلمة Corset .

أبهته ، وقضت نحبها بعد ستة شهور من ميلاد الأميرة ، وقبل أن ينور شجر اللوز فى البستان ويظهر بهجته وزهرته مرة ثانية ، أو تُجنى ثمار الحول الثانى من شجرة التين القديمة المُعَجْرَمَة[1] التى كانت قائمة فى الساحة التى يكسوها العشب الآن . وقد بلغ من عظم حبه لها ، أن أبى أن يدع القبر يحجبها عنه ، فحنطها طبيب عربى جازاه على ذلك بالإبقاء على حياته التى كان مقضيا عليها لكفره وسحره ، فلا يزال جثمانها يرقد على نعشه المسجف فى الهيكل المبنى بالرخام الأسود فى القصر ، مذ حمله الكهنة إليه فى يوم عاصف من أيام مارس ، منذ اثنتى عشرة سنة ، وفى كل شهر مرة ، يتلفع الملك بملحفة سوداء ، ويحمل فى يده مصباحا مخنوق الضوء ويدخل الهيكل ويركع إلى جانب الجثمان ويصيح : « يا ملكتى ! يا ملكتى ! » . وقد يغلبه الحزن أحيانا ، فيتجاوز ما تقضى به التقاليد التى تسيطر فى إسبانيا على كل عمل من أعمال الحياة ، وتضع حدودا حتى لحزن الملك ، فيقبض على اليدين الصفراوين المزدانين بالحلى ، وقد ذهبت بلبه حرقات الكمد ، ويحاول بقبلاته الجنونية أن يرد الحياة إلى المحيا الباهت المصبوغ .

وكان يراها اليوم ، مرة أخرى ، كما رآها أول مرة فى قصر « فينتنبلو » ، وكان هو يومئذ فى الخامسة عشر من عمره ؛ وكانت هى أصغر ، وقد عقد خطبتهما حينئذ السفير البابوى بحضور ملك فرنسا ورجال الحاشية أجمعين ، ثم عاد إلى الإسكوريال يحمل حلقة صغيرة من شعر ذهبى ، وذكرى شفتين رقيقتين تنحنى بهما على يده لتلثمها ، وهو يستقل المركبة ، ثم كان الزواج بعد ذلك ، فاحتفل به على عجل فى برغوس ، وهى بلدة صغيرة على الحدود بين المملكتين ،

---

(١) المعجرمة الكثيرة العقد ، والعقد مخارج الغصون .

ثم الموكب الفخم ساعة دخول مدريد والاحتفال المألوف فى كنيسة « لا أتوشا » ، والاحتفال الذى جاوز المألوف بتسليم حوالى ثلاثمائة من الكفار والملاحدة — بينهم انجليز كثيرون — للسلطة المدنية لإحراقهم .

وكان حبه لها على التحقيق حب جنون ، ومن رأى الكثيرين أنه أضر بذلك بلاده التى كانت يومئذ فى حرب مع انجلترا فى سبيل الاستيلاء على العالم الجديد . وكان لا يكاد يتركها تغيب عن عينه ، وفى سبيلها نسى — أو خيل إلى الناس أنه نسى — شؤون الدولة الخطيرة ، وأعمى الحب الجامح بصيرته — كما هو شأنه دائماً — فعجز عن أن يرى أن المراسم الدقيقة التى أراد أن يدخل بها السرور على قلبها زادت داءها الغريب تفاقما ، فلما ماتت ، ظل زمناً ما ، كالمذهوب بعقله ، بل إنه ما من شك فى أنه كان حقيقا أن ينزل عن العرش ، ويدخل دير غرناطة — وكان هو رئيسه الفخرى — لولا أنه خشى أن يترك الأميرة الصغيرة تحت رحمة أخيه ، الذى كان مشهورا فى إسبانيا بالقسوة وغلظ الكبد ، والذى يزعم كثيرون أنه كان السبب فى موت الملكة ، فقد أهداها ، على ما يقال ، قفازين مسمومين لما زارت قصره فى أراغون . وحتى بعد أن انقضت أعوام الحداد العام الثلاثة التى أمر بها فى مملكته ، لم يسمح قط لوزرائه بأن يخاطبوه فى عقد زواج جديد . ولما كتب إليه الإمبراطور نفسه يعرض عليه يد بنت أخيه أرشيدوقة بوهيميا الجميلة ، كان جوابه لسفرائه أن قولوا لمولاكم إن ملك إسبانيا قد زُوِّج الأسى ، وإنها لعروس عاقر ، ولكنها أحب إليه من الجمال . وقد كلفه هذا الجواب ثمناً غاليا ، ففقد تاجُه إقليمَ البلاد الواطئة الخصيب الذى ما لبث ، بإيعاز من الإمبراطور أن ثار بزعامة بعض المتهوسين من رجال الإصلاح الدينى .

وتمثل لعينيه وهو يرقب الأميرة إذ تلعب فى الشرفة ، عهد زواجه كله بأفراحه العنيفة المتوهجة الألوان ، والحرقات الكاوية التى كان بها ختام ذلك العهد ، وكان فى الأميرة من أمها سرعة البادرة وحدة الطباع ، وهزة رأسها إذ تجنح إلى العناد ، وتقويسة فمها الجميل الواشية بكبرياء النفس ، وابتسامتها الخلابة إذ ترفع رأسها من حين إلى حين ، وترمق النافذة ، أو تمد راحتها الصغيرة لكبراء إسبانيا ليلثموها . ولكن ضحكات الأطفال العالية كانت تسك مسامع الملك ، كما كان نور الشمس القاسى الوهاج يسخر من أساه ، وكان يشوب هواء الصباح الصافى فيما يحس أو يتوهم ، أرج بخور غريب شبيه بما يتخذه المحنطون . فدفن وجهه فى يديه ، فلما صعدت الأميرة طرفها كانت الأستار قد أسدلت ، والملك قد دخل .

فأبدت علامة امتعاض ، وهزت كتفيها . أفما كان فى وسعه أن يظل معها فى يوم عيدها ؟ ؟ ما قيمة شؤون الدولة السخيفة هذه ؟ ؟ أم تراه قد ذهب إلى ذلك الهيكل القاتم الذى لا تنطفئ فيه الشموع والذى لا يؤذن لها فى دخوله ؟ وتالله ما أحمقه إذا كان قد ذهب إلى هناك وترك هذه الشمس المشرقة وزهد فى السعادة التى ينعم بها كل أحد ؟ وستفوته مصارعة الثيران التى بدأت الأبواق تنفخ إيذانا بها ، وألعاب القراقوز وغيرها من المتع والمسرات . ألا إن عمها ورئيس محكمة التفتيش لأرشد وأهدى سبيلا . فقد خرجا إلى الشرفة وسرّاها وشرحا صدرها بالتحيات والتهنئات . وهزت الأميرة رأسها مرة أخرى وتناولت يد « دون بدرو » ونزلت من السلم إلى سرادق طويل من الحرير القرمزى نصب فى آخر الحديقة ، وتبعها الأطفال المدعوون على ترتيب درجاتهم ومنازلهم ، فأطولهم أسماء أسبقهم وأحقهم بالتقديم .

***

وتقـدم موكب من الصبيان الأشراف فى أفواف موشاة ، ومطارف من السندس والأبرسيم لاستقبال الأميرة ، وأقبل « كونت تييرا — نو يفا » — وهو غلام بارع الحسن يناهز الرابعة عشر ، ونزع قبعته برشاقة من وُلد وشب فى بيوت السيادة والمجد وصحبها إلى كرسى صغير مذهب ومطعم بالعاج على منصة مرفوعة تشرف على الساحة . وانتظم الأطفال الآخرون صفوفا حولها ، وهم يهزون مراوحهم الـكبيرة ، ويتهامسون فيما بينهم ، ووقف دون بدرو ورئيس محكمة التفتيش فى المدخل يضحكان . حتى الدوقة — وهى امرأة نحيلة معروقة صارمة معارف الوجه — لم تكن كالمعهود فيها من الشراسة وسوء الخلق ، فمر بوجهها المغضن طيف ابتسامة اختلجت لها شفتاها الرقيقتان الظمياوان[١] .

وكانت مصارعة الثيران الصورية بديعة جدا ، وحدثت الأميرة نفسها أنها أمتع من تلك المصارعة الحقيقية التى حملوها إلى سيفيل لمشاهدتها لما زار دوق بارما والدها ، وكان بعض الغلمـان يتوقصون و يقرّبون[٢] على خيول صناعية زاهية السرج ، و بأيديهم حراب طويلة محلاة بأشرطة مختلفة الألوان ، وكان آخرون منهم يروحون و يجيئون و ينشرون المطارف الأرجوانية أمام الثور ، فإذا هجم عليهم قفزوا خفافا من فوق السور . أما الثور فكان أشبه شىء بثور حقيقى وإن كان مصنوعا من أعواد وجـلد مُصْحَب[٣] . وكان يأبى أحيانا إلا أن يذهب يعدو حول الساحة من داخلها ، على قائمتيه الخلفيتين ، وهو ما لا يحلم ثور حقيقى بأن يفعله . وقد أبلى فى المصارعة بلاء حسنا حتى لقد كان الأطفال ينهضون عن مقاعدهم و يلوحون بمناديلهم المطرزة و يصيحون ، هاتفين بالثور : « مرحى

(١) الظمى ذبول الشفة وذهاب لونها .
(٢) التوقص هو أن يثب الجواد وثبا ، والتقريب رفع اليدين معا ، ووضعهما معا .
(٣) جلد مصحب عليه صوفه أو وبره أو شعره .

يا ثور ! مرحى يا ثور » كما يفعل الكبار — وأخيرا بعد صراع طويل أرديت فيه خيول صناعية عديدة وترجل فرسانها ، استطاع كونت تييرا — نويفا (الأرض الجديدة) أن يلقى الثور على ركبتيه على هيئة المتكئ ، ثم استأذن الأميرة فى الإجهاز عليه ، وغرز سيفه الخشبى فى عنق الثور بعنف ففصله عن سائر الجسد ، وبرز محيا صغير مشرق هو محيا « دى لورين » ابن السفير الفرنسى فى مدريد .

وأخليت الساحة بين التصفيق والصياح ، وأخرجت الجياد الصناعية — جرها اثنان من الخدم فى ثياب صفراء وسوداء — وبعد فترة وجيزة لعب فيها فرنسى على حبل مشدود ، ظهر « قرقوز » إيطالى على مسرح صغير أعد له ، وقد كان التمثيل جيدا ، والحركات طبيعية متقنة حتى لقد اغرورقت عين الأميرة بالدموع فى ختام الفصل . بل لقد بكى بعض الأطفال ، فكان لابد عن التسرية عنهم بالحلواء ، حتى رئيس محكمة التفتيش نفسه قال لدون بدرو إن مما لا يطاق أن تشق وتتعذب بمثل هذه المصائب الكبر أشياء مصنوعة من الخشب والشمع الملون تحركها أسلاك خفية بطريقة آلية .

وجاء بعد ذلك « حاو » افريقى يحمل سلة واسعة روحاء[1] مغطاة ووضعها فى وسط الساحة ، وأخرج من عمامته قصبة جعل يشيّع فيها وينفخ ، فبدأ الغطاء يتحرك وعلا صوت المزمار فأطل ثعبانان أخضران برأسيهما العجيبين اللذين يشبهان الوتد ، وجعلا يرتفعان ببطء ويتمايلان على صوت الزامر تمايل النبات فى الماء . غير أن الأطفال أفزعهما منظر الرأسين المنقطين واللسانين الدقيقين البارزين وكان سرورهم أعظم لما استنبت الحاوى الأرض شجيرة برتقال منورة تتهدل أغصانها بالثمار الحقيقية . ولما أخذ مروحة ابنة المركيز ده لاس توريس فانقلبت عصفوراً

---

(١) قريبة القعر

أخضر يطير حول السرادق ، وهو يغرد ، جاوز سرورهم كل حد . وكانت الرقصة الدينية التي رقصها الغلمان الآتون من كنيسة « نويسترا سينورا دل بيلار » جميلة . ولم تكن الأميرة قد شاهدت من قبل هذا الرقص البديع الذي يجرى كل عام في الربيع أمام مذبح العذراء العالى ، بل إنه ما من أحد من الأسرة المالكة في إسبانيا دخل ساراتوجا الكبيرة مذ حاول قسيس مجنون ، يقال إن اليصابات ملكة انجلترا كانت تستخدمه ، أن يطعم أمير أستوريا كعكة مسمومة . لهذا لم تكن الأميرة تعرف « رقصة العذراء » — كما كانت تسمى — إلا سماعا ، لا عيانا ، والحق أنها كانت رقصة جميلة . وكان الغلمان يرتدون ثيابا من المخمل الأبيض عتيقة الطراز ، وكانت قبعاتهم المثلثة لها حافة مفضضة ، وعليها ريشات كبيرة من ريش النعام ، فكان بريق أرديتهم البيضاء الناصعة يزداد لمعانا إذ يخطرون في نور الشمس ، ويضاعف النصوع وجوههم السمراء وشعرهم الطويل الدجوجي . وقد سحروا النظارة بأبهتهم وسمتهم إذ يقومون بحركات الرقصة المعقدة ، ورشاقة إيماءاتهم البطيئة وانحناءاتهم ، فلما انتهوا من ذلك ونزعوا قبعاتهم المريشة وانحنوا بالتحية للأميرة تقبلت منهم التحية بتلطف ، ونذرت فيما بينها و بين نفسها أن تهدى شمعة عظيمة لمعبد العذراء تجزية لها على ما سرتها به في يومها هذا .

ثم تقدم صف من المصريين ذوى القسامة — كما كان الغجر [١] يسمون في ذلك الزمان — وقعدوا القرفصاء في حلقة ، وأنشأوا يعزفون برقة وعذوبة على قيثاراتهم ويحركون أجسامهم على أنغامها ، ويغنون ، وكأنما يهمسون ، صوتا شجيا ، وكانوا إذا أخذت عيونهم دون بدرو ، يزلقونه بأبصارهم متسخطين

---

(١) Gipsies .

متجهمين ، وربما بدا على بعضهم الذعر ، فقد شنق اثنين من قبيلتهم فى سوق سيفيل بدعوى أنهما من السحرة ، ولكن الأميرة كانت تفتنهم وتسحر ألبابهم وهى مضطجعة ومشخصة بصرها إليهم لا تصرفه عنهم من فوق مروحتها ، وكان يقينهم وهم يلحظونها أن من كان له مثل جمالها لا يمكن أن تكون فيه قسوة أو جبروت . ومن أجل هذا جعلوا يعزفون برقة ولا يكادون يلمسون أوتار القيثارات بأظافرهم الطويلة المحددة ، وكانت رؤوسهم تخفق كأن النعاس يغالبها ويثنيها . وإذا بهم ينتفضون ويثبون إلى أقدامهم فجأة ويطلقون صيحة عالية مجلجلة ذعر منها الأطفال ، وانثنت يد دون بدرو إلى مقبض خنجره المحلى ، وانطلقوا كالعاصفة يعدون حول الساحة ويقرعون طبولهم ، ويضربون بدفوفهم ، ويغنون صوتا فيه غزل جامح بلغتهم الغريبة . ثم أومأ إليهم رئيسهم فارتموا على الأرض كرة أخرى والتزموا السكون فلم يكن يسمع إلا هزيج الأوتار الخفيف . وكرروا هذا عدة مرات اختفوا بعدها ، ثم برزوا يجرون دبة كثيفة الشعر ، من سلسلة ، وعلى أكتافهم قردة صغار . ووقفت الدبة على رأسها ، ولعبت القردة المفطومة ألعابا شتى مسلية ، مع اثنين من الغجر كانا على ما يظهر هما اللذان يدربانها ، فكانت القردة تتضارب بسيوف صغيرة قصيرة وتطلق بنادق ، وتقوم بالتداريب العسكرية المنتظمة كما يفعل حرس الملك سواء بسواء . فكان الغجر موفقين ، وفازوا بإعجاب المشاهدين أجمعين .

ولكن أمتع الملاهى كلها بلاشك رقص القزم الصغير ، فما كاد يدخل الساحة متعثرا ، ويمشى متكفئا فى جانبيه ، متخلعا يهز منكبيه ، ويميل رأسه العظيم المشوه الخلق فى هذه الناحية مرة ، وفى تلك مرة أخرى ، حتى ضج السامر بصيحات الجذل ، وراحت الأميرة نفسها تضحك وتكركر مستغربة فى ذلك

حتى اضطرت وصيفتها أن تذكرها بأن هناك سوابق فى إسبانيا تجيز أن تبكى ابنة الملك على مرأى من أترابها ولداتها ، ولـكنه ليس هناك ما يبيح لأميرة من نسل الملك أن تظهر مثل هـذا الطرب والسرور على مرأى ممن هم دونها مولدا وأصلا . ولـكن الحقيقة أن القزم كان وقعه فى النفس لا يُغالب أو يقاوم ، وقد كان البلاط الإسبانى مشهورا بحبه للفظيع والشنيع ، ولـكن مثل هذا المخلوق العجيب لم يُر فيه من قبل . وكانت هذه أول مرة ظهر فيهـا القزم ، فما عثروا عليه إلا فى اليوم السابق ، وكان يعدو فى الغـابة ، واتفق أن كان اثنان من النبلاء قد خرجا للصيد والقنص فى ناحية قصية من الغابة العظيمة المحيطة بالمدينة ، فحملاه معهما إلى القصر ، هدية لم تكن فى الحسبان ، للأميرة ؛ وكان أبوه رجلا فقيرا ، فسره أن يتخلص من طفل دميم مشوه مثله ، لا خير فيـه ولا جدوى منه . ولعل أبعث ما فى الغلام على التسلية والمسرة أنه كان غافلا ذاهلا عن دمامته وقبح منظره ، لا يدرى من هذا الأمر شيئا ، بل لقد كان بَيِّنَ السعادة واضح الابتهاج والمرح ، وكان إذا ضحك الأطفال ، يضحك مثلهم و به ما بهم من خفة الفرح والجذل ؛ وكان فى آخر كل رقصة ، ينحنى لهم أغرب انحناء وأدعاه إلى الضحك ، و يبتسم ويهز رأسه لهم كأنما كان واحدا منهم ، لا خلقا مشوها صاغت منه الطبيعة ضُحْكَة للآخرين . وقد سحرته الأميرة واستولت على هواه ، فكان لا يستطيع أن يحول عينه عنها ، وكأنما كان يختصها برقصه ؛ وفى آخر اللعب تذكرت الأميرة أنها رأت سيدات البلاط يلقين طاقات الزهر على كافاريللى المغنى الإيطالى المشهور ، الذى اختاره البابا من رجال هيكله الخاص و بعث به إلى مدريد ليُذهب من حزن الملك و يُجلِّد قلبه على مصابه ، بحلاوة صوته وعذوبة غنائه ، فانتزعت من شعرها الوردة البيضاء ، على سبيل المزاح من

ناحية ، ولتكايد الوصيفة وتعابثها من ناحية أخرى ، ورمت بها إلى القزم فى الساحة وهى تفتر له عن أعذب ابتساماتها ، فتناولها جادا ، وأهوى عليها بشفتيه الغليظتين الخشنتين ، ووضع يده على قلبه ، وجثا على ركبتيه أمامها ، وفمه مفتوح من أذن إلى أذن ، وعينه تلمع سرورا ، فغلب الضحك الأميرة حتى لقد ظلت تُرَجِّع فيه بعد أن خرج القزم من الساحة بزمان طويل ، وأعربت لعمها عن رغبتها فى أن تعاد الرقصة ، ولكن الوصيفة قالت إن الشمس حامية جدا ، ورأت أن الأصوب أن ترجع الأميرة من توّتها إلى القصر ، حيث أعد مقصف فاخر لها ، وكعكة بديعة لعيد ميلادها ، سُطرت عليها الحروف الأولى من اسمها بالسكر الملون ، ورفع فوقها علم جميل من الفضة . فنهضت الأميرة ، وأمرت أن يرقص لها القزم مرة أخرى بعد أن تأخذ حظها من الراحة ، وشكرت للكونت الصغير ده تييرا نويفا (الأرض الجديدة) حسن استقباله لها وحفاوته بها ، وعادت إلى الجانب المفرد لها فى القصر ، يتبعها الأطفال على الترتيب الذى جاءوا به .

* * *

ولما سمع القزم أن عليه أن يرقص ثانية أمام الأميرة ، وأن هذا هو أمرها الصريح فرح فرحاً عظيما ، وامتلأت نفسه زهوا ، فخرج يعدو إلى الحديقة وجعل يبوس الزهرة البيضاء من فرط سروره وابتهاجه ، ويأتى من حركات الجذل والخفة أغربها وأبعدها من الظرف والرشاقة .

وقد أغضب « الأزهار » أنه اجترأ على التطفل عليها فى حديقتها الجميلة ، ولما رأته يقفز فى المماشى والممرات ، وهو يروح ويجئ فيها ، ويلوح بذراعيه فوق رأسه على نحو سخيف ، لم تستطع أن تكبح شعورها .

فقالت أزهار الطوليب : « إنه فى الحقيقة دميم جدا ، ولا يليق أن يُسمح له باللعب فى أى مكان نكون فيه » .

وقالت أزهار السوسن القرمزية الكبيرة : « ينبغى أن يُسقى عصير الخشخاش وينام ألف سنة » ، واضطرمت غلائلها من حدة الغضب .

وصاحت الصبّارة : « إنه هولة مفزعة ! كل ما فيه أعوج ، ناقص ، مشوه ، وليس بين رأسه ورجليه أى تناسب ، وإنى لأشعر حين أراه بالوخز فى كيانى كله ، وقد آليت أن أشكه بشوكى إذا دنا منى » .

وقالت شجيرة الأزهار البيضاء : « إن معه زهرة من أجمل أزهارى ، وكنت قد أهديتها للأميرة بنفسى هذا الصباح ، فى عيدها ، فسرقها منها » .

وراحت تصيح بأعلى صوت : « لص ! لص ! لص ! » .

حتى زهرة الخبيزى المشهورة بالدعة والتواضع ، التى يكثر بين ذوى قرباها أهل الفقر والمتربة ، سخطت عليه لما بصرت به ، ولما قالت أزهار البنفسج إنه حقيقة دميم ، ولكنه لا حيلة له فى هذا ، لأنه ليس ذنبه ، ردت عليها تلك بأن هذا عيبه ، وأنه ليس ثم ما يدعو إلى الإعجاب بمخلوق لا سبيل إلى شفائه من دائه ، أو إصلاح عيبه وعلاجه ، وقد أحست بعض البنفسجات أن القزم يعرض دمامته مباهيا بها ، وأنه كان أمثل به وأدل على حسن الذوق أن يبدى الاكتئاب ، أو يظهر على الأقل على هيئة المفكر بدلا من أن يذهب ينط ويقفز مرحا ، ويتخذ لنفسه هيئات سخيفة قبيحة .

أما الساعة الزوالية التى كانت فيما خلا تبين الوقت للإمبراطور شارل الخامس نفسه فقد راعها منظر القزم الصغير ، حتى لقد ذهلت فنسيت أن تشير إلى انقضاء دقيقتين كاملتين بأصبعها الظلى الطويل ، ولم يسعها إلا أن تقول للطاووس الذى يضحى فى بهو الأعمدة إن كل واحد يعلم أن أبناء الملوك ، ملوك ، وأن أبناء الفحامين فحامون ، ومن السخف أن يدعى أحد أن هذا ليس كذلك .

وهو قول وافق عليه الطاووس أتم موافقة ، بل لقد صاح « صحيح ! صحيح ! » بصوت عال جاف أزعج الأسماك الذهبية الصغيرة التى تسبح فى حوض النافورة فأخرجت رؤوسها من الماء وسألت تماثيل أرباب البحر ، عن الخبر ؟

ولكن العصافير أحبته لسبب ما ، وكانت قد رأته من قبل مرارا فى الغابة ، يرقص كالعفريت وراء الأوراق التى تعبث بها الرياح وتثور ، أو منطويا على نفسه فى فجوة فى شجرة قديمة ، والطير تأكل الجوز من يده . ولم تكن العصافير تبالى قبح خلقته أو تعبأ بذلك شيئاً ، ومع ذلك ماذا من الجمال فى البلبل الذى يغرد فى الليل فى أحراش البرتقال فيصغى له القمر ويهبط قليلا ليسمعه ؟ ؟ ثم إن هذا القزم كان يحنو على العصافير ويرق قلبه لها ، فكان فى الشتاء القارس ، الذى يغدو فيه ظهر الأرض صلبا كالحديد ، ويتعرى الشجر فلا يبقى عليه من الحب أو الثمر ما يُلقط ، وتزحف الذئاب إلى قريب من أبواب المدينة التماسا للقوت ، لا ينسى العصافير ولا مرة واحدة ، فكان يبقى لها فتاتاً من خبزه الأسود ، ويجعل لها نصيبا من كل طعام يصيبه .

لهذا راحت العصافير تطير حوله فى حديقة القصر ، وتلمس خده بأجنحتها ، وتزقزق فيما بينها ؛ وبلغ من سرور القزم بها أن لم يسعه إلا أن يُريها الزهرة البيضاء الجميلة ، وأن يخبرها أن الأميرة نفسها جادت بها عليه لأنها تحبه .

ولم تفهم العصافير مما يقول ولا كلمة واحدة ؛ ولكن هذا لم تكن له قيمة ، فقد أدنت رءوسها ، بعضها من بعض ، وبدت كأنها فاهمة مدركة ، وهو ما يعادل الفهم ، ويفضله بأنه أسهل .

كذلك أحبته السحالى ، فلما تعب من الجرى والنط ، وقعد على بساط الروض ليستريح راحت تلعب حوله وعلى بدنه ، وتحاول أن تسره وتسليه جهد

طاقتها . وكانت تقول فيما بينها : « ليس فى الإمكان أن يكون كل أحد جميلا كالسحلية ، فإن هذا مرام بعيد ومطلب عسير ؛ ثم إنه ليس بالدميم جدا ، وإن كان هذا القول يبدو غريبا ، على شرط أن يغمض الواحد عينيه ولا ينظر إليه » . والسحالى مطبوعة على الفلسفة ، وكثيرا ما تقضى ساعات وساعات فى تفكير عميق إذا لم يكن ثم شىء تصنعه غير ذلك ، أو إذا كان الجو مطيرا لا يسمح بالخروج من الشقوق .

وقد ساء الأزهار جدا مسلك السحالى والعصافير ، فقال بعضها لبعض : « هذا يرينا أن هذا الجرى والطيران المستمرين يفسدان النفس ، ويجعلانها سوقية مبتذلة ، والمهذبون من الناس يبقون حيث هم ، ولا يبرحون مكانهم — مثلنا — وما رآنا قط أحد ننط فى ميادين البستان ، أو نعدو كالمجانين وراء الذباب . وإذا احتجنا إلى تغيير الجو ، بعثنا فى طلب البستانى فينقلنا إلى أحواض أخرى . وهذا هو الوقار والاحتشام الواجبان ؛ ولكن الطيور والسحالى لا تدرك معنى السكون والرصانة ، بل إن العصافير ليس لها عنوان ثابت ! وهى أبدا شاردة كالغجر ، وينبغى أن تعامل كما يعامل الغجر » . وصعرت الأزهار خدها ، كبرا وشموخا ؛ وسُرت جدا لما رأت القزم ينهض عن الخضرة ويمضى إلى الشرفة فالقصر :

وقالت لنفسها : « إنه حقيق بأن يبقى أبدا وراء الأبواب . انظروا إلى ظهره الأحدب وإلى ساقيه المعوجتين ! » .

وراحت تتهاتف .

ولكن القزم لم يدر شيئا من هذا كله ؛ وكان يحب العصافير والسحالى حبا جما ، ويرى أن الأزهار أجمل وأعجب ما فى الدنيا كلها ، ما عدا الأميرة ، ولكن

الأميرة أعطته الوردة البيضاء الجميلة ، وهى تحبه ، فأمرها مختلف جدا . ولشد ما يتمنى لو أنه رافقها فى أوبتها إلى القصر ! ! إذن لجعلته عن يمينها وابتسمت له ، فلا يفارقها أبدا ، ويكون ملاعبها ويعلمها كل ضروب اللعب . ولا نكران أنه لم يعش من قبل فى قصر ، غير أنه يعرف أشياء كثيرة تروق وتدهش . ففى مقدوره مثلا أن يصنع أقفاصا صغيرة من الحصير للصراصير تغنى فيها ، ومن القصب ذى العقل الطويلة يراعة[1] يشتهى « بان » أن يسمع صوتها وهو يشيع فيها . وهو يعرف صوت كل طائر ، ويميز الزرزور من مالك الحزين ، ولا يخفى عليه أثر دابة ، ويستطيع أن يقفو الأرنب بما يخلفه من أثر دقيق ، والخنزير بما يطأه من أوراق الشجر ، ويعرف كل الرقصات الآبدة — الرقصة العنيفة فى الثياب الحمر فى الخريف ، والرقصة الخفيفة بالخفاف[2] الزرق ، على القمح ، ورقصة الشتاء ، ورقصة الربيع فى البساتين والرياض ، ويعرف أين تجعل الحمائم عشها ، وقد حدث مرة أن جاء صائد فأوقع فى شركه حمامتين ، فتولى هو تربية صغارهما ، وبنى لهما عشا صغيرا فى فجوة فى شجرة وألفته فكانت تأكل من يديه كل صباح . وإن الأميرة لخليقة أن تحب الطير ، والأرانب التى تجرى فى العشب الناهض ، وأبا زريق بريشه القوى ومنقاره الأسود ، والقنفذ الذى يجعل من جسمه كرة شائكة ، والسلاحف الكبيرة الرزينة التى تدلج[3] ، وتهز رءوسها وتثنيها لتأكل من الورق ، نعم ، يجب أن تذهب الأميرة إلى الغابة وتلعب معه فيها ، وهناك يدع لها فراشه لترقد عليه ، ويبقى هو قائما بحراستها خلف النافذة إلى مطلع الفجر ، حتى لا يؤذيها قرن حيوان ، أو تدنو من كوخها الذئاب الجائعة النحيلة ، وفى الفجر ينقر على الشباك ويوقظها ،

---

(١) مزمار . (٢) جمع خف وهو مايلبس فى الرجل .
(٣) تمشى بطيئة متقلة بحملها .

فيخرجان معاً ، ويرقصان معاً ، طول النهار ، وما فى الغابة وحشة ، فإنه يتفق أحياناً أن يجتازها أسقف على حمار أبيض ومعه كتاب مزخرف يقرأ فيه ، وأحيانا يجىء الصقارون [١] ، وعلى رؤوسهم قبعات خضراء من المخمل ، وقد اكتسوا ثيابا من جلود الظباء المدبوغة ، والصقور على أرساغهم ، وفى موسم العنب ترى العصارين مكللى الرؤوس ، حمر الأيدى والأرجل ، ومعهم القرب يقطر منها النبيذ . ويجلس الحطابون فى الليل حول الوطيس العظيم يلحظون الأجذال الجافة وهى تحترق ببطء ويشوون الجوز فى الرماد ، ويخرج اللصوص من كهوفهم وغيرانهم ويجيئون إليهم ويسمرون معهم ، وقد رأى مرة موكبا جميلا فى الطريق الطويل المغفّر إلى طليطلة ، وكان الرهبان فى الطليعة يغنون أعذب غناء ، ويحملون أعلاما زاهية وصلبانا من الذهب ، وتلاهم الجنود فى المغافر [٢] والدروع والتروس ، ومعهم البنادق والرماح وبينهم ثلاثة رجال حفاة يلبسون ثيابا صفرا عجيبة عليها نقوش وصور غريبة وبأيديهم شموع مضاءة . ألا إن فى الغابة لكثيرا مما يسر ويبهج ، وإذا تعبت (الأميرة) فإنه يستطيع أن يجد لها مكانا معشوشبا لينا . فيحملها على ذراعيه — فقد كان قويا ، وإن كان يعرف أنه ليس بالطويل — وينظم لها عقدا من أطراف العذارى [٣] فيكون له جمال هذه الأعناب التى تلبسها على ثيابها ، وإذا ملتها رمتها ، فإنه يستطيع أن ينظم لها غيرها ، ويجيئها بثمار الأشجار وبالأزهار المخضلة واليراعات الوهاجة البريق لتزين بها شعرها الذهبى فتكون فيه كالنجوم المتلامحة .

(١) الصقار قيم الصقور ومعلمها ليصيد بها .
(٢) المغفر زرد ينسج على قدر الرأس .
(٣) عنب أبيض طوال

ولـكن أين هى ؟؟ سأل الوردة البيضاء فلم تجبه ، وبدا له القصر كأنه نائم كله — حتى فى حيث لم تغلق النوافذ ، أسدلت الأستار الكثيفة لتحجب الضوء . فمضى يحوم حول القصر باحثا عن مدخل إلى أن انتهى إلى باب صغير كان مواربا فتسلل منه وألقى نفسه فى قاعة فخمة — أفخم وأروع من الغابة ، فقد كان كل ما فيها مذهبا ، حتى البلاط كان من قطع كبيرة ملونة مرصوفة على نحو هندسى ، ولـكن الأميرة لم تكن هناك ، ولم يكن ثم سوى تماثيل صغيرة بديعة تنظر إليه من فوق القوائم التى رفعت عليها بعيون بيضاء وشفاه مفترة .

وكان فى آخر القاعة سجف من المخمل الأسود المطرز وعليه صور الشمس والنجوم التى كان الملك يؤثرها كشعار له ، أفتراها مختبئة وراء هذا ؟ ؟ سيرى !

فمشى على أطراف أصابعه إلى السجف ونحاه قليلا . كلا ! كل ما هنالك حجرة أخرى و إن كانت أجمل فيما بدا له من التى أقبل منها ، وكان على الجدران رقعة خضراء مطرزة وعليها صور أناس خارجين للصيد ، وقد صنعها فنانون من البلاد الواطئة سلخوا من أعمارهم فيها سبع سنوات . وكانت هـذه فى بعض الأعصر الخوالى حجرة — « جان المجنون » — كما كان يسمى ، ذلك الملك الذى كان مجنونا بالطراد ، فكان كثيرا ما يحاول أن يمتطى الخيل العظيمة الشديدة الشماس أو الجماح أو الـكثيرة التقريب [1] ، وأن يصرع الظبى الذى تقفز حوله الكلاب ، وهو ينفخ فى النفير و يضرب بخنجره ، وقد صارت هـذه الحجرة تتخذ لمجلس الوزراء ، وكان على المنضدة الوسطى فيهـا محافظ الوزراء الحمراء ، وعليها شارة أسبانيا وشعار آل هابسبرج .

وأدار القزم عينيه فى الحجرة متعجبا ، وخامره الخوف من الاستمرار ، وكان

---

(١) رفع اليدين معا ووضعهما معا .

يخيل إليه أن هؤلاء المصورين الذين يركضون بسرعة ومن غير أن يحدثوا صوتا ، مثل تلك الأشباح المرعبة التى سمع الحطابين يتحدثون عنها و يقولون إنها تخرج للصيد فى الليل فإذا لقيت إنسانا قلبته غزالا وراحت تطارده . ولكنه تذكر الأميرة فتشجع ، وكان يريد أن يلقاها وحدها وأن يقول لها إنه هو أيضا يحبها ، فلعلها فى الغرفة التى وراء هذه !

وذهب يجرى على السجاد المراكشى الناعم الوثير وفتح الباب . كلا ! ولا هنا أيضاً ! فقد كانت الغرفة خالية .

وكانت هذه قاعة العرش التى يستقبل فيها الملك سفراء الدول الأجنبية . وما أقل ما يفعل الآن . وهى نفس القاعة التى جاء إليها منذ سنوات عديدة رسل من انجلترا ليتفقوا على التدابير اللازمة لزواج ملكتهم — وكانت يومئذ كاثوليكية — بابن الإمبراطور . وكانت الأستار من جلد قرطبة المذهب ، وقد تدلت ، من السقف المدهون باللونين الأسود والأبيض ، شجرة عظيمة تحمل أغصانها ثلاثمائة شمعة . وكان فوق العرش ظلة مذهبة صورت عليها أسود قسطيلية وصروحها باللآلئ الدقيقة ، وكان العرش مجللا بمخمل أسود موشى بأزهار من الفضة ، وأطرافه محلاة بالفضة واللؤلؤ ، وعلى الدرجة الثانية من منصة العرش مقعد الأميرة وفوقه وسادة كسوتها من نسج الفضة ، وتحت هذه الدرجة وفيما يخرج عن نطاق الظلة ، كرسى لسفير البابا وكان هذا وحده هو الذى له الحق فى الجلوس فى حضرة الملك فى أى احتفال عام ، وكانت قبعته ذات الزر القرمزى ، موضوعة على محمل بنفسجى أمام الكرسى . وعلى الجدار المواجه للعرش صورة بالحجم الطبيعى لشارل الخامس فى ثياب الصيد و إلى جانبه كلب عظيم ، وعلى حائط آخر صورة لفيليب الثانى وهو يستقبل وفد البلاد الواطئة الذى جاء ليعرب عن الولاء

والخضوع . وبين النافذتين صندوق من الآبنوس مطعم بصفائح من العاج نقشت عليها صورة « رقصة الموت » لهولبين ، ويقول البعض إن هذا المصور هو الذى نقشها بيديه .

ولكن القزم لم يكن يعبأ شيئاً بهذه الأبهة كلها . وما كان ليرضى أن يعتاض من وردته البيضاء كل ما فى نسج الظلة من لآلئ . بل ما كان ليستبدل بغلالة واحدة من غلائل وردته ، العرش نفسه . وما كان يبغى سوى أن يرى الأميرة قبل أن تنزل إلى السرادق ، ليرجو منها أن تذهب معه بعد أن يقوم برقصته . فقد كان الجو هنا ، فى القصر ، محبوساً خانقاً ، وكان له على الصدر جثوم ، ولكن الهواء فى الغابة حر ، ونور الشمس يفرق أوراق الشجر المضطربة بأيد من الذهب . وهناك فى الغابة الأزهار أيضاً . وقد لا يكون لها جمال نظائرها فى الحديقة ، ونضرتها وبهجتها ، ولكنها أزكى أرجاً وأطيب عبيراً ، وأشد توهجاً — هناك الحوجم الذى يغمر الوادى والهضاب المنبسطة المعشاب ، بحمرته المتموجة ، والذَّرْيب [1] الذى ينمو حول جذور أشجار البلوط ، وكل بيضاء وصفراء وحمراء من الأزهار كالعيون أو النجوم أو الأقمار — نعم ، لا شك فى أنها تصحبه إذا استطاع أن يهتدى إلى مكانها ، — ترافقه إلى الغابة الساحرة ، فيرقص لها طول النهار ليسرها . ولمعت عينه بنور البشر والجذل وهو يتخيلها معه ، ومضى إلى الغرفة التالية .

وكانت هذه أجمل وأبهى ما رأى . وكانت الجدران مكسوة بالديباج من نسج « لوكا » ، وعليه صور الطير ، وقد حلى بأزاهير من فضة ، وكان الأثاث من الفضة المحلاة بأكاليل الزهر الأرجوانى وصور كوبيد ، إله الحب ، وأمام

---

(١) الحوجمة وردة حمراء ، والذريب صفراء

الموقدين الـكبيرين ستران موشـيان بصور الببغاوات والطواويس . وكانت الأرض مفروشة بأحجار خضراء لونهـا كلون البحر ، ويخيل للناظر أنها ممتدة ذاهبة إلى غير مدى . ولم يكن القزم وحده فى هـذه الحجرة فقد كان هناك فى مدخل فى آخر الحجرة ، من ينظر إليه ويلاحظه ، وقد خفق قلب القزم وندت عنه صيحة فرح وبرز إلى النور ، فتقدم الشـخص الواقف أيضاً ، ورآه القزم كأوضح ما يكون .

أهذه الأميرة ؟ ! كلا بل هذا شخص بشع مشوه لم ير القزم أبشع من منظره ولم يكن مستوى الخلق كغيره من الناس ، بل أحدب متعوج الأعضاء ملتويها ضخم الدماغ . أسود الشعر . وعبس القزم لمـا رأى هذا المخلوق ، فعبس مثله . فضحك ، فضحك مثـله ، ووضع يديه فى خاصرتيه كما فعل ، فانحنى له القزم ساخراً ، فرد تحيته بمثلها ، فمشى إليه فتقدم ذاك منه ، وكان يقتاس به ويحاكيه فى كل خطوة ، ويقف إذا وقف . فصاح من سروره بذاك وراح يعدو ، وبسط يده ، فلمست كف الوحش البشع يده ، فخاف وحرك يده يميناً وشمالا ، فقلده الذى أمامه . فحاول أن يدفع يده إليه ولـكن شيئاً أملس صلباً صده عن ذلك . وكان وجه هذا الوحش قريباً منه الآن ، فطالعه من عينيه الذعر ، فنحى الشعر عن عينيه . فقلده الذى هو أمامه . فضربه بجمع يده . فتلقى ضربة بضربة . فهاج عليه سخطه ومقتـه ، فلم يكن الوجه الذى يراه أقل نطقاً بالـكراهية والحنق ، فتراجع ، فارتد ذاك أيضاً .

ما هذا ؟ ! وفـكر القزم لحظة ، ثم أجال لحظه فى بقية الحجرة ، فرأى عجباً ! ذلك أن كل شىء هنا له نظير يقابله فى هذا الجدار الذى كأنما هو مصنوع من الماء الصافى . لـكل صورة ، وكل أريكة ، أختها ، حتى تمثال الإله النائم فى فجوة

بالجدار إلى جانب الباب له توأم نائم . وحتى تمثال فينوس الفضى القائم فى نور الشمس ، يمد يده إلى فينوس أخرى ليست دون تلك جمالا .

أهذا هو الصدى ؛ لقد نادى الصدى مرة فى الوادى ، فرد عليه نداءه كلمة كلمة . أفترى الصدى يعابث العين كما يعابث الأذن ؟ أفى وسعه أن يجعل عالم التقليد كعالم الحقيقة ؟ وهل يتسنى أن يكون لخيال الأشياء لون وحياة وحركة ؟ هل يمكن . . . ؟

وانتفض ، ونزع الوردة البيضاء من صدره ، ودار فلثمها ، فإذا الذى هناك ، معه وردة كوردته ، لا تنقص غلالة واحدة ، وإذا هو يلثمها كلثماته ، ويضمها إلى قلبه بحركة بشعة وإيماءات ثقيلة .

وفطن إلى الحقيقة فأطلق صرخة يأس ، وهوى إلى الأرض يبكى ويعول . إذن هو هذا المشوه الأحدب الكريه المنظر الشتيم الخلق ! هو الوحش البشع ، وهو الذى كان الأطفال جميعاً يضحكون منه — حتى الأميرة التى حسبها تحبه — هى أيضاً كانت تسخر منه وتهزأ به ، وتضحكها أعضاؤه المعوجة ! لماذا لم يتركوه فى الغابة حيث لا مرآة تقول له إنه بغيض مشنوء الهيئة ؟ ولماذا لم يقتله أبوه بدلا من أن يبيعه ليفضحه ؟ وانهمرت الدموع الحارة على خديه ، ومزق الزهرة البيضاء . ففعلت صورته مثله ونثرت الغلائل الرقيقة فى الهواء ، وتمرغت[1] على الأرض ، فلما رفع عينه لينظر رأى الألم مرتسما على وجهه ، فتسلل راجعاً لئلا يرى صورته ، وغطى عينيه بيديه — جر رجليه كالجريح ، إلى ركن ظليل مظلم وراح يئن ويتوجع .

وفى هذه اللحظة دخلت الأميرة من الشباك المفتوح ، فى حاشية من أترابها ،

---

(١) أى صورته فى المرآة .

فلما بصروا بالقزم مرتمياً يضرب الأرض بجمع يده ، جلجلت ضحكاتهم وحفوا به ينظرون إليه .

وقالت الأميرة : « كان رقصه مضحكا ، ولكن تمثيله أبعث على الضحك وأغرى به — أشبه بحركات الدمى فى القراقوز ، إلا أن هذه أقرب إلى الطبيعة وأشبه بها » .

وهزت مروحتها الكبيرة ، وصفقت .

ولكن القزم لم يرفع عينه قط ، وصارت شهقاته أخفت ، وإذا به يفهق ويمسك جانبيه ، ثم ارتمى ، وظل ساكنا لا يتحرك .

وقالت الأميرة بعد هنيهة : « هذا بديع . والآن يجب أن ترقص لى » ، فصاح الأطفال جميعاً : « نعم ، قم وارقص ، فانك ماهر كالقردة ، ولكنك أبعث منها على الضحك » .

لكن القزم لم يجب .

فضربت الأميرة الأرض برجلها ، ونادت عمها الذى كان يتمشى على الشرفة مع أحد الأمناء ، وهو يقرأ رسائل جاءت الساعة من المكسيك حيث أنشئت الكنيسة منذ عهد قريب . وقالت الأميرة : « إن قزمى الصغير المضحك يعاند ، فتعال انهضه ومره أن يرقص » ، فابتسما ودخلا ، وانحنى دون بدرو ولطم القزم على خده بقفازه الموشى وقال : « يجب أن ترقص أيها الوحش الصغير . يجب أن ترقص . فإن أميرة أسبانيا وأترابها يردن أن يتسلين » .

ولكن القزم لم يتحرك .

فقال دون بدرو بضجر : « يجب أن نبعث فى طلب جلاد » وعاد إلى الشرفة ، ولكن الأمين بدا عليه الجد والاهتمام وجثا إلى جانب القزم ووضع يده على قلبه ،

ثم هز كتفيه ونهض ، وانحنى للأميرة وقال :

« أيتها الأميرة الجميلة ، إن قزمك الصغير لن يرقص أبداً . وهذا مما يؤسف له ، فقد كان دميا مشنوء الطلعة إلى حد كان يُرجى أن يحمل الملك على الابتسام » .

فسألته الأميرة : « ولكن لماذا لا يرقص ثانية ؟ » وضحكت .

فقال الأمين : « لأن قلبه انفطر » .

فعبست الأميرة ، واستدارت شفتاها الرقيقتان زراية واحتقاراً وقالت : « فى المستقبل ، يجب أن يكون الذين يجيئون ليلعبوا معى بغير قلوب » .

وخرجت تعدو إلى الحديقة .

جورج جوسنج

١٨٥٧ – ١٩٠٣

رجل فقير

كان ذلك فى حجرة الجلوس بعد الغـداء ، وقد قعدت المسز شارمن — ربة الدار الجسيمة الطيبة القلب — على كرسى إلى جانب صديقتها الصغيرة المسز لورنج وتنهدت سائلة :

« كيف ترين المستر تمبرلى ؟ » .

قالت : « ظريف جدا ولـكن فيه بعض الشذوذ » .

قالت الأولى : « نعم شاذ . لا يجرى على قياس . وقد أردت أن أحدثك عنه قبـل أن ننزل ولـكن الوقت ضاق بى ، وهو صديق قديم لنا ، وقد كان هو وزوجى العزيز فى مدرسة واحدة — هارو . وأنه لأحلى وأعذب وأرق الناس . وأخشى أن يكون خيراً من أن يصلح لهذه الدنيا . يتناول كل شىء جادا . ولن أنسى حزنه لوفاة زوجى المسكين — إنى أحدث المسز لورنج عن المستر تمبرلى ، يا أده » .

وكانت العبارة الأخيرة موجهة إلى بنتها المتزوجة ، وهى غادة ساكنة ، فيها من أمها دماثتها وطيبها ، ولـكنها أذكى وأفطن .

وقالت أده — المسز وير — : « إنى آسفة لأنه يبدو أبعـد ما يكون من الصحة » .

فقالت الأم : « إنه لم يكن قط مشرق الديباجة ، وحياته . . . . ولـكنى سأحدثك عنه (والتفتت إلى المسز لورنج) إنه عزب ، وفى رغد من العيش ،

و — هل تصدقين ؟ — يعيش وحده فى حى زرى من أحياء لندن . أى حى هو يا أده ؟ » .

« شارع حقير فى اسلنجتون » .

« نعم ، هناك يعيش ، فى مسكن وضيع — ولا بد أن يكون غير صحى — لا لشىء سوى أنه يريد أن يحيط علما بحياة الفقراء والمساكين ، ليكون بذلك أقدر على معونتهم . أليست هذه بطولة ؟ ؟ وقد وقف حياته على هذا على ما يظهر فما يلتقى به أحد فى مكان آخر . وأحسب أن بيتنا هو الوحيد الذى يظهر فيه للناس . حياة نبيلة ! ولا يخوض فيها بكلام ، أو يشير إليها بحرف ، وإنى لواثقة أنك لم يخطر لك أن هذا هكذا من حديثه على المائدة ! » .

فقالت المسز لورنج مستغربة : « لم يخطر لى قط . على أنه لم يكن كثير الكلام ، وقد استطعت أن أعرف أن أكبر ما يعنيه ، زخرفة الخشب ، والسياسة الخارجية » .

فضحكت المسز وير وقالت : « هو بعينه ! لما كنت طفلة كان يصنع لى لعبا شتى جميلة بمنشاره ، ولما كبرت كان يحدثنى عن التوازن الدولى ! ومن يدرى ؟ لعله يكتب مقالات افتتاحية فى الصحف ، يا أمى ! » .

فقالت الأم : « يا بنيتى العزيزة ، ما من شىء يستغرب من المستر تمبرلى ! وإنها لحياة جديدة هذه التى يحياها بعد حياته فى الريف . لقد كان له بيت صغير جميل قرب بيتنا فى بيركشير . وليس يسعنى إلا أن أعتقد أن وفاة زوجى هى التى حملته على مغادرته وتركه . فقد كان وثيق الصلة به وصديقا حميما له . فلما مات زوجى وتركنا بيركشير اختفى المستر تمبرلى — حوالى سنتين — ثم التقيت به مصادفة فى لندن . ومن رأى أده أنه لابد أن يكون قد خاب له أمل فى حب » .

فقالت بنتها : « يا أمى العزيزة ، لقد كان هذا تأويلك أنت لاختفائه لا تأويلى أنا » .

قالت الأم : « صحيح ؟ ربما ! إن الإنسان لا يسعه إلا أن يلاحظ أنه قاسى بعض الآلام . وقد يكون هذا من أثر عطفه على الفقراء والمساكين الذين وقف عليهم حياته ! رجل عجيب ! » .

وسمعن أصوات رجال عند باب الغرفة ، فتطلعت المسز لورنج إلى رؤية هذا الرجل الشاذ . وكان هو آخر من دخل ، وهو طويل ، وفى كتفيه انحناء ، ونحيل وغير رشيق ، وفى خطوته اضطراب وفى مشيته تردد ، و به حياء ظاهر ؛ وعينه الرقيقة النظرة كثيرة التلفت هنا وههنا ، وفى خط الحاجب ما يشى بالتردد والضعف ، وفى الابتسامة التى تخفق على شفتيه ما ينم على وهن الشخصية بل إمحائها . وكان شعره قد بدأ يخف ويشيع فيه البياض ، وكان شارباه كثيفين وأليق بوجه أصرم وأحزم . وكان وهو يدخل الغرفة ، أو يتسلل إليها ، لا تزال كفه تنقبض وتنبسط على نحو يغرى بالضحك ، وقد أفرده بين الرجال أنه كان فى هيئة ما يمكن أن يوصف بأنه انطفاء اللمعة ، أو ذهاب الصقل ، وإن كان لا يبلغ حد الرثاثة ، فإذا أحد المرء النظر إليه تبين أن ثيابه السوداء مفصلة على طراز يرجع إلى بضع سنوات مضت ، وكان قميصه ناصع البياض ، ولم يكن يتخذ من الحلى أكثر من أزرار بسيطة على كميه وصدره .

ومضى إلى ركن ، وكان خليقاً أن يبقى فيه وحده ، فى سلام ، لولا أن المسز وير جرت كرسيها إلى جانبه .

وقالت له : « أتراك ستبقى فى المدينة فى شهر أغسطس ؟ » .

فقال : « لا ... لا لا ... كلا ... لا أظن » .

« ولكنك تبدو مترددا ، وسامحنى حين أقول إنى واثقة أن بك حاجة إلى تغيير الهواء . فالحقيقة أنك لا تبدو فى صحة جيدة . فهل لى أن أغريك بالانضمام إلينا واللحاق بنا فى لوسرن ؟ إن زوجي يكون مسروراً جدا ... بأن تتاح له فرصة للحديث معك فى أحوال أوربا . فهب لنا من وقتك أسبوعين ... أرجو ... »

فقال : « ياعزيزتى المسز و ير ، إنك الرقة مجسدة . و إن شكرى لك لجزيل ، و إنى لعاجز عن العبارة عما أحس به تلقاء هذه العناية ، ولكن الحقيقة أنى أكاد أكون مرتبطا بوعد لإخوان آخرين . بل فى وسعى أن أقول إنى فى حكم ... نعم هذا هو الواقع » .

وكان صوته كالصفير ، ونطقه واضحاً ، وكان يبتسم ابتساما يحول إلى ما يشبه الإشفاء على البكاء وهو ينتقل من عبارة إلى عبارة فى ارتباك واضطراب ، وكانت كفاه المعروقتان الطويلتان متضاغتين حتى صارت عقل أصابعه بيضاء .

وقالت المسز و ير : « إن المهم أنك ستغادر لندن . فانى أخشى أن تغالى فى إرضاء ضميرك . وأحسبك تعلم أنك لن تفيد أحداً بأن تتلف صحتك » .

فقال : « هذا واضح . ها ها ! و إنى أؤكد لك أن هذه الحقيقة غير خافية علىّ . الصحة أول ما ينبغى العناية به . وليس أولى بأن يجعل الإنسان أقل نفعاً من صحة متداعية . على التحقيق ! على التحقيق ! » .

قالت : « فما القول فى الجهد الذى تكلفك إياه معاطفك ؟ إن لهذا أثراً فى الصحة فضلا عن الجو الفاسد » .

قال : « ولكن اسلنجتون ليست فاسدة الجو ياعزيزتى المسز و ير ، وصدقينى حين أقول إن جوها كثيراً ما يكون منعشاً . ولا تنسى أن موقعها مرتفع . أما لو تسنى أن نقلل ما تنفثه مداخن المنازل والمصانع ! على كل حال أؤكد لك أن

اسلنجتون تتوفر فيها كل المطالب الصحية » .

وقبيل انقضاء السهرة ، عُزفت بعض الأصوات ، وكان المستر تمبرلى يبدو كأنه يستطيبها . فقد ثنى رأسه إلى الخلف ، وشخص إلى فوق ، وبقى شارداً على هذه الهيئة إلى ما بعد انتهاء العزف ثم تنبه وتنهد .

ولما بارح البيت ارتدى معطفا أكثف من أن يتخذ فى ذلك الوقت ، ودس فى جيبيه ، حذاءيه . وكانت قبعته من المخمل ، وعالية وتناول مظلته — ولم تكن محكمة القفل — وانطلق يمشى بسرعة ، كأنما يقصد إلى المحطة القريبة من هناك . ولكن القطار لم يكن مقصده ، لا ولا سيارات النقل المشترك . فمضى يمشى ، ويمشى ، فى الليل المطر ، بخطوة موزونة ، شأن من ألف هذا الضرب من الرياضة ، وخرج من « نوتنج هيل » إلى « ماربل آرتش » ، ومن ثم إلى « نيو اكسفورد ستريت » ، ومن طريق تيوبولد إلى بنتونفيل ، وراح يصعد حتى بلغ عُدوة حيه الصحى ! وبعد نصف الليل دخل فى زقاق ضيق ، يبدو فى ضوء القمر الباهت ، نظيفاً وإن لم يكن فيه ما يدعو إلى الإقبال عليه . وفتح بابا بمفتاح معه ، ودخل بيتاً صغيراً تفوح فيه رائحة الصمغ . وأوقد شمعة وجدها فى جيبه ، وارتقى فى السلم دورتين إلى غرفة خلفية طولها ثمانى أقدام وعرضها سبع أقدام ونصف قدم ، وبعد دقائق كان مستغرقا فى النوم .

واستيقظ فى الساعة الثامنة — وكان يعرف الوقت من جرس يدق فى الحى — فارتدى ثيابه بسرعة ، وفتح الباب فألفى على العتبة صينية عليها طعام الإفطار وقد نقص إلى أدنى حد — قعب من لبن ، وخبز ، وزبدة . وفى الساعة التاسعة نزل ، ونقر بأدب على باب الغرفة المقدمة ، فأذن له صوت أجش فى الدخول ، وكان فى الغرفة رجل كهل وفتاة ، وهما عاكفان على عمل اليوم — تجليد الكتب .

وقال المستر تمبرلى : « عم صباحاً ياسيدى » ، وحنا رأسه للفتاة وقال : « عمى صباحاً يا آنسة سَجْس . يوم مشرق . . مشمس . . منعش ! » .

ووقف يفرك يديه كما يفعل المرء فى ليـلة مصقوعة مبرودة[1] . وهز المجلد رأسه هزة جافة ، و بين للمستر تمبرلى عمله فأقبل هذا عليـه بهمة وعزم . وكان يتعلم مبادئ هذا الفن ، و يقضى ساعات العمل كلها مكبا صابرا ، مظهراً فى عمله من الاستعداد الطبيعى له حظا غير قليل .

إلى هذا الحضيض انحدر المستر تمبرلى ، وكان من سادة بركشير ، وكان يعيش فى دعة وخفض من ربح ماله المستثمر ، وقد تعلم فى مدرسة هارو ، وتخرج فى كمبردج ، وفكر فى اختيار مهنة ، حتى بدا له ، على العموم ، أن وقت الاختيار مضى وانقضى ، ولما لم تكن به حاجة إلى تجشيم نفسه عناء العمل ، فقد عاش عيشـة الفراغ والبطالة البريئة على مقربة من البيت الريفى لصديقه المثرى الوجيه المستر تشارمن . وكرت الأعوام لينة سمينة . وخطر له الزواج مرة أو مرتين ولكن طبيعة الحياء الشديد صدته عن اتخاذ الخطوة الأولى ، ووقع فى روعه آخر الأمر أنه معزابة[2] . وكان قانعاً بذلك وراضياً عنه ، وليته أظهر مثل هذه الحكمة و بعد النظر فى مغريات أخرى ! ولـكنه فى ساعة مشئومة صـدر عن رأى المستر تشارمن الذى كان لا ينفك يلهج بالمضاربة والشركات والأرباح العظيمة ، ولم يخاطر المستر تمبرلى بباعث من الطمع ، فقد كان عنده فوق الكفاية ولـكنه كان معنيا بأمر أخته التى تزوجت محامياً ريفيا غير موفق ، وفى أبنائها الستة ، الذين كان يشتهى أن يساعدهم على نحو ما يفعل الخال المثرى فى

---

(١) من الصقيع والبرد بالتحريك .

(٢) من طالت عزوبته حتى ما له فى الأهل من حاجة .

الأقاصيص ، ويمدهم بالعون اللازم لخوض الحياة ، فوثق بالمستر تشارمن ثقة عمياء ، فكان أن ألفى نفسه ذات يوم يرعش على شفا الهاوية . وجاءت الأنباء تترى بما حاق به من الخراب فهوى إلى الحضيض .

ولم يكن أحد يعلم ذلك سوى المستر تشارمن ، وقد مرض هذا بعد بضعة أيام ثم قضى نحبه ، ولم تتحيف الخسارة التى عصفت بصديقه ، إلا جانباً يسيراً من ثروته ، ولم ينبس المستر تمبرلى بكلمة لأرملة صديقه ، ولا أفضى بحرف إلى أحد من الناس ، ما عدا محاميه الذى سوى له أموره فى هدوء ، وأخته التى لم يبق لبنيها إلا أن يحيوا حياتهم بلا عون ، وحدث أن غابت أسرة المستر تشارمن بعد موته عن البلدة فترة من الوقت ، فاختفى المستر تمبرلى فى سكون .

وكان المسكين قد ناهز الأربعين ، وقد بقى له من رأس المال قدر يسير لم يجترئ على مد يده إليه للإنفاق منه ، فاستثمره ، فأفاده دخلا لا يكاد يكفى عاملا .

وكانت لندن هى المدينة الوحيدة التى يستطيع أن يعيش فيها ، لأنها المكان الوحيد الذى يسعه أن يستخفى فيه وهو مطمئن آمن ، فقصد إليها ، واحتاج إلى زمن غير قصير ليتعلم فن مكافحة الجوع بأيسر مقدار من المال . وقد بلغ من سوء حاله فى أول عهده بهذه المحنة ، ومن عض الجوع وذل الفاقة ، أن اضطر أن يغالب كبرياءه فكتب إلى صاحب له يستشيره ويستعينه ، وليس يعرف عبث النصح وإن حسنت فيه النية ، وقلة جدوى الجاه الاجتماعى ، إلا من كان فى مثل موقف المستر تمبرلى وحاله . ولو أنه استجدى مالا لتلقى شيئا مشفوعا بكلمات العطف ، غير أن المستر تمبرلى ما كان يستطيع أن يحمل نفسه على هذا .

وحاول أن ينتفع بما كان يتسلى به قديما من زخرفة الخشب ، ونجح إلى

حد ما ، فربح فى ستة شهور نصف جنيه ! ولكن الأمل فى اكتساب جنيه فى العام يضيفه إلى دخله الضئيل لم يكن من شأنه أن يشجعه ويحضه على المثابرة !

وكان فى ذلك الحين يعيش فى عزلة تامة . والفقر أقوى ما زهد فى الاختلاط ورغّب فى الاعتزال والوحدة ، إلا إذا كان المرء قد ولد وشب فى أحضان الفاقة . وليس يسع الرجل المرهف الحس حين يلفى أنه قد صار أدنى من أقرانه منزلة ، إلا أن يلوذ بالوحدة ، وما أسرع ما يتبين أن الناس لايجدون عسراً أو عناء فى نسيانه . وقد كانت لندن ، وما زالت ، غاصة بالزهاد والمعتزلة ، برضاهم أو كرههم ، وكان المستر تمبرلى ، كلما ذهب يجوب الشوارع أو الحدائق ، أو يزجّى الوقت فى المتاحف (التى لا يؤدى داخلها شيئا) لا يزال يلتقى بمن يفطن إلى أنهم نظراؤه و إخوانه فى الاعتزال ، وكان يفهم النظرة المخالسة حين تلتقى بنظرته ، و يقرأ صفحة الوجه المقطب ، ويلاحظ الثياب اللبيسة بعطف . وليس بين هذه الخلائق المستخفية المتسللة بث متبادل ، وما منهم إلا من يود أن يقول بشجوه ، ولكن الكبرياء تصده وتكبحه ، فيمضى فى طريقه صامتا مستفرداً حتى يجد نفسه آخر الأمر — لحسن الحظ — فى مستشفى أو ملجأ ، فتنحل عقدة اللسان المُمتَسك و يقول القلب الكليم الموجع بعتبه على الدنيا .

و يحذق من هذا حاله دروسا كثيرة لم تكن له فى حساب ، فيتعلم أساليب عجيبة للاقتصاد والتدبير ، و يُزهى بأن يتبين أن المُسكة من الرزق حسب المقلّ ليعيش بها ، وقد كان المستر تمبرلى فى أيام خفضه و يساره ، خليقا أن يجزم بأن الإنسان لايستطيع أن يعيش بأقل من كذا وكذا ، فلما أعسر عرف أن الرجل يقدر أن يعيش بقروش قليلة فى اليوم . وصار يعرف أثمان المآكل ، وتعلم المزايا النسبية للأطعمة ، والخصائص الغذائية المختلفة لكل منها ، واضطره الشظف أن

يكون نباتيا فوجد أن الطعام من النبات أصح له ، فجعل يلقى على نفسه خطبا ساخرة بآكلى اللحوم ، ويحاضرها فى مضار القرم ، وآلى مكرها ألا يذوق خمراً ، واشتاق أن يعتلى منبراً من منابر الدعاة إلى نبذ الخمر ، وأن يؤدى من فوقه الشهادة . وفى هذا كله عزاء ، و إن فيه لعوضا عن فقد كثير من ضروب الاحترام الذاتى .

واتفق يوما أن كان يهم بأن يقبض من بنك انجلترا المبلغ الزهيد الذى يأخذه كل ثلاثة شهور ، فلمحته سيدة وعرفته . وكانت أرملة المستر تشارمن .

وصاحت به : « أين كنت كل هذا الزمن يامستر تمبرلى ؟ لماذا لم يجئنى منك أى نبأ ؟ هل صحيح ما حدثنى به بعضهم من أنك كنت تعيش فى الخارج ؟ »

و بلغ من ارتباكه من جراء هذه المباغتة ، أن ردد ، بطريقة آلية ، آخر ما سمعه من السيدة — « فى الخارج » .

فألحت عليه المسز تشارمن تسأله ولا تدع له فرصة لكلام بقوله : «ولكن لماذا لم تكتب إلينا ؟ تالله ما أقساك ؟ ولماذا سافرت من غير أن تخبرنا ؟ إن ابنتى تقول إننا لا بد أن نكون قد أسأنا إليك بشىء ما ، قل بالله ! إنه لا يمكن أن يكون هناك شىء . . . . » .

فقال : « ياعزيزتى المسز تشارمن ، إنى أنا الملوم وحدى . إنى . . . ولكن الإيضاح صعب لأنه يستدعى تفصيلا طويلا ، و بيانا مسهبا ، و إنى لأرجو أن تحملى سلوكى الذى لا مسوغ له على — على محمل الشذوذ المحض » .

« لا بد أن تجىء إلينا وتزورنا . وهل تعلم أن آده تزوجت ؟ نعم ، منذ سنة أو حوالى ذلك . ولشد ما يسرها أن تراك ! فإنها تلهج بذكرك كثيراً ، متى تستطيع أن تتعشى معنا ؟ غدا ؟ » .

« بسرور — بسرور عظيم » .

وأعطته عنوانها ، وافترقا .

وكان من الدلائل على أن المستر تمبرلى لم ييأس قط من العود إلى عالمه القديم أنه عنى بالتحفظ بثياب السهرة والحذاءين الملائمين لها . وما أكثر ما هَمَّ مدفوعا بحاجته وضنكه ، أن يبيع هذه الأشياء التى لا نفع لها عنده ! وقد رهنها أكثر من مرة ، من أجل بضعة شلنات ، ولكن النزول عن عنوان منزلته ورمز طبقته ، لم يكن إليه من سبيل ، لأن معناه اليأس المطلق ، واليأس شىء أجنبى ، لا يوائم طبيعة المستر تمبرلى المبنية على الجلد . وقد ذهبت حليه جميعا — حتى ساعته وسلسلتها — فإن مثل هذه الأشياء ليست لازمة لازبة ، لمظهر الرجل الكريم ، وقد هنأ نفسه بما كان من حسن تدبيره لأموره ، ذلك أن لقاء المسز تشارمن سره بقدر ما ربكه ، وخفق قلبه خفقة الجذل وهو يتطلع إلى قضاء المساء فى بيئته القديمة . وعاد مسرعا إلى غرفته وفحص ثيابه بعناية وتدقيق فلم يجد فيها عيبا ظاهراً أو ملحوظا . على أنه احتاج أن يشترى قميصا ورباطا . وكان معه لحسن حظه المال الكافى لسد هذه الخلة ، ولكن بماذا يؤول لهم غيبته الطويلة ؟ هل يسعه أن يطلعهم على خصاصته ويدلهم على مسكنه ؟ إن هذا يكون معناه استدرار العطف من أصدقائه القدماء ، وهذا موقف لا قِبل له به ولا قدرة له على احتماله . والرجل الكريم لا يكشف عن حالة تسوء وتؤلم إذا كان يسعه كتمانها . فهل يكذب إذن صراحة أو ضمنا ؟ وذكر الحقيقة لا سبيل إليه لأنها تنطوى على لوم لزوج المسز تشارمن .

وجاء مساء اليوم التالى وهو لا يزال حائرا لا يستقر على رأى . وبلغ بيت المسز تشارمن من غير أن يصح له عزم على أمر ، وكان فى غرفة الجلوس ثلاثة

ينتظرونه — المسز تشارمن ، وابنتها ، وزوجها — المستر والمسز وير — وقد أشفى على البكاء من حسن ما استقبل به ، وغلبته عواطفه ففقد رصانته وصار يتكلم جزافا ، فصاغ قصة خرافية لم يكد يفرغ منها حتى بهت هو نفسه لها !

وقد جاءت هذه القصة فى جواب سؤال طبيعى عن مسكنه أين هو ؟

فقال بابتسامة سخيفة ، «فى الوقت الحاضر — أسكن غرفة للنوم والجلوس معا فى شارع صغير فى حى إسلنجتون » .

فساد الصمت ، ورشقوه بنظرات التعجب والدهشة ، ولولا هذه النظرات لما درى أحد بماذا كان المستر تمبرلى حقيقا أن يعترف .

وقال : « لقد قلت يا مسز تشارمن إنه لا يسعنى إلا أن أعترف بشىء من الشذوذ . و إنى لأرجو ألا يزعجك ذلك . وأوجز فأقول إنى وقفت جهودى الضعيفة على العمل الاجتماعى . فأنا أعيش بين الفقراء ، كواحد منهم ، لأحصل بذلك على المعرفة والخبرة اللتين لا سبيل إليهما بغير هذه الوسيلة » .

فصاحت مضيفته : « تالله ما أنبلك ! » .

وكان ضمير المسكين يخزه وخزا أليما . فلم يسعه أن يزيد على ما اخترع شيئا وأراد القوم أن يترفقوا بعواطفه و يعفوه من الحرج فغيروا موضـوع الحديث . ولم يخطر لهم قط وقتئذ ، ولا فيما بعد ، أن يشكوا فى صدقه . ولقد رأته المسز تشارمن يعامل بنك انجلترا ، وهو مكان لا يوحى إلى النفس فـكرة الفقر ، وكان العهد بالمستر تمبرلى أنه غريب الآراء والأساليب . وهكذا تورط فى كذبة عجيبة ، وخدعة لا يسهل تبينها ، ولا ضرر منها إلا عليه .

ومضى نحو عام على ذلك ، التقى المستر تمبرلى فى خلاله بأصـدقائه هؤلاء ست مرات أو حوالى ذلك ، وكان ينعم باجتماعه بهم على نحو يدعو إلى المرثية ،

ولم يكن يزعجه منهم أى إشارة إلى أسلوب حياته ، فقد صار من المفهوم والمقرر أنه يؤثر أن يظل نوره محجوبا ، ومروءته مكتومة ، فلم يكن يحتاج أن يكذب مرة أخرى . وما من شك فى أنه ندم على الكذب والخداع ، وجال بخاطره أن المسز تشارمن — وهى سيدة غنية — لعلها كانت تستطيع أن تساعده على ما يبتغيه من وسيلة كريمة لكسب الرزق . على أن الواقع أنه لم يخطر له إلا أن يكون مجلد كتب ، وهى حرفة توافق ذوقه بعض الموافقة ، واجترأ يوما فاتفق مع رب البيت على أن يعلمه هذه الحرفة بالعمل له زمنا ما ، بعد أن يحذقها . وقد صار الآن هذا اليوم قريبا ، وأحس المستر تمبرلى أنه على العموم أسعد مما كان أيام البطالة واجترار الهموم ، وأصبح يتطلع إلى اليوم الذى يزداد فيه دخله ، فلا يعود يفرق من الأسبوعين الأخيرين من كل ثلاثة شهور ، ومن النوم فيهما كل ليلة بغير عشاء .

وقد أورثته دعوة المسز ويرله أن يلحق بها فى لوسرن ، ألما مرا . لوسرن ! أفترى تلك كانت حياة سابقة أيام كان يسعه أن يسافر ويجوب الأرض ، ويركب البحر ، ويتنزه كما يحب ، ولا يعنّى نفسه بحساب المال ؟ وارتسمت لعينه أماكن كثيرة جميلة رحل إليها ، ومناظر حسنة كالأحلام نعم بها ، وقد أصارتها شوارع لندن ، بعيدة نائية ، وأشبه بالصور الخيالية منها بالحقيقة ، وصارت السنوات الثلاث التى قضاها فى لندن فى البأساء والضنك أطول فيما يحس من كل حياة الدعة والخفض التى كانت قبلها . لوسرن !! ولو كانت طبيعة المستر تمبرلى أحد وأقوى لطار عقلة ، ولكنه جعل يدير هذا الخاطر فى نفسه النهار كله ، ولا يعبر عن عواطفه بأكثر من زفرة أو ابتسامة حزينة .

ولما كان قد أصاب من طعام العشاء ، البارحة ، حظا جزيلا ، فقد أحس

أن عليه أن ينفق على طعامه فى يومه أقل من القدر المألوف ، وحوالى الساعة الثامنة مساء ، بعد أن تمشى فى ذلك الجو الذى أثنى عليه ، عرج على الدكان الذى ألف أن يشترى منه حاجاته القليلة ، وكانت فيه امرأة سمينة ، فهزت رأسها له بالتحية ، وابتسمت لزبون آخر ، فانحنى لها المستر تمبرلى ، كما هى عادته ، ردا لتحيتها وقال :

« تفضلى بإعطائى بيضة طازجة ، وخسة صغيرة » .

فسألته المرأة : « واحدة فقط فى هذه الليلة ؟ » .

فقال ، وكأنما كان يتحدث فى غرفة استقبال : « شكرا لك ، نعم واحدة . وسامحينى إذا أعربت عن الأمل فى أن تكون طازجة بأدق معنى للفظ . فإنه يخيل إلىّ أن الأخيرة كانت فى هذا الصندوق من قبيل الخطأ والسهو — وهو يغتفر بسبب زحمة العمل » .

فقالت المرأة السمينة : « إنها جميعا سواء ، ودائما سواء ، ولسنا نغلط مثل هذا الغلط » .

فقال : « عفوا ! لعلى توهمت — » .

ووضع البيضة والخسة بعناية فى حقيبة صغيرة معه ، ورجع إلى البيت ، وبعد ساعة من تناول هذه الأكلة ، قعد على كرسى مستقيم الظهر يفكر ، وإذا بنقر على الباب ، ويد تمتد إليه بكتاب . وكان يندر جدا أن يتلقى رسالة أو رقعة ، فاضطربت يده وهو يتأمل الظرف . وكان أول ما رآه بعد أن فض الرسالة ، شيكا ، فزاد اضطرابه ، وفتح الرقعة ونفسه تجيش ، فإذا بالرسالة من المسز ويز ، وفيها تقول :

« عزيزى المستر تمبرلى .

بعد الحديث الذى دار بيننا البارحة ، لم أستطع إلا أن أفكر فيك وفى حياة التضحية الجميلة التى تحياها ، وقد قارنت حياة هؤلاء التعساء المساكين بحياتى التى لا يسعنى إلا أن أحس أنها مباركة حافلة بالمناعم ، وقد دفعتنى هذه الخواطر إلى الاكتتاب بقدر يسير لأساهم فى عملك المجيد — وإنى أعد هذا ضربا من الشكر لله فى اللحظة التى أسافر فيها لأقوم برحلتى . فاقسم المبلغ من فضلك بين اثنين أو ثلاثة ممن تراهم أحق وأولى ، أو إذا بدا لك أن تهبه كله لواحد، فافعل . هذا وإنى أتشبث بالأمل فى أن أراك فى لوسرن . وتحياتى إليك » .

وكان المبلغ خمسة جنيهات . فرفع الشيك قرب النافذة ، وتأمله . وخمسة جنيهات تعد مبلغا جسيما إذا اعتبرنا الحياة التى يحياها ، وقيم الأشياء فيها . وتصور ما يستطيع المرء أن يفعله بقدر من المال كهذا ! حذاءاه — اللذان رقعهما مرتين — لم يبق من عمرهما إلا القليل ، وبنطلونه صار غاية فى الرثاثة . وقبعته (لشد ما عنى بها) هى التى جاء بها إلى لندن منذ ثلاث سنوات . وقد أصبحت حاجته شديدة إلى ثياب جديدة ، يكتسيها ، من رأسه إلى قدمه ، وفى اسلنجتون ، تُعد خمسة جنيهات فوق الكفاية لقضاء هذه الحاجات جميعا ، ومتى يتاح له أن يُلقى إليه بمبلغ كهذا مرة أخرى ، لينفقه على هواه ، بلا حساب ؟

وتنهد وتلفت فى الغسق ،

وكان الشيك مصلبا ، فأدرك المستر تمبرلى للمرة الأولى فى حياته أن رسم صليب على شيك ، قد يسبب لمن يحمله متاعب كثيرة . فكيف يصرفه ؟ وإنه ليعرف أن صاحب البيت رجل ليس أسرع منه إلى إساءة الظن ، وأخلق بأن يكون الرفض — مقرونا بالنظرة التى يُحسن المستر سَجْز أن يحدج بها الإنسان —

مهانة شـديدة . ثم إن من المشكوك فيه جدا أن يستطيع المستر سجز أن ينتفع بهذا الشيك . فإلى من يتجه غيره ؟ لا أحد فى لندن كلها !

وحدث نفسه أن أول ما ينبغى أن يصنع هو أن يرد على رسالة المسز وير . فأضاء المصباح ، وجلس إلى منضدة صغيرة ، ولـكنه غمس القلم فى الدواة عدة مرات قبل أن يستطيع أن يكتب إليها شيئا .

« عزيزتى المسز وير » .

وتلت ذلك فترة توقف طويلة حتى بدا كأنه نام ، ثم انتفض وانحنى مرة أخرى على الورقة .

« أشكرك شكرا جزيلا على هذه الهبة الـكريمة . وسيوزع المبلغ ... » .

(وتوقف مرة أخرى دقائق عديدة) .

« على الوجه الذى أردته ، وسأقدم لك بيانا مفصلا بوجوه إنفاقه » .

ولم يسبق قط أن كابد مثل هذا العسر فى الـكتابة . وأحس أنه يسىء العبارة جدا ، عما يريد ، وكأنما عوّق ذهنَه عن الدوران شىء ، ولم يستطع أن يتم الـكتابة إلا بمجهود بدنى كبير ، فلما فعل ، خرج واشترى طابعا وألقى بالرد فى صندوق البريد .

ولم ينم فى ليلته تلك إلا غرارا ، فما كاد يرقد حتى شرع يفكر فى الأمر ، وأين وكيف يجد هؤلاء الفقراء الحقيقيين بأن يقتسموا هـذه الهبة ؟ ولم تكن له معرفة بالطبقة التى تعنيها المسز وير ، وتتبرع لها . وصحيح أن الأسر التى حوله ، فقيرة كلها ، ولـكن هل للفقر عند هؤلاء نفس المعنى الذى يفهمه هو من اللفظ ؟ وهل فى هذا الشارع القذر من يحق له — بالقياس إليه هو — أن يُدعى فقيرا ؟ والمتعلم الذى يضطره انتقال الأحوال أن يعيش بين الطبقات الدنيا ، تتكون له

آراء غريبة . مثال ذلك أن المستر تمبرلى صار يعتقد أن ما يقال عما تقاسيه هذه الطبقات مبالغ فيه لأنه مقيس بمقياس غير صالح ، وكان المستر تمبرلى يرى حوله عالما من المرح الصاخب ، والعمل مع الرضى ، و بلادة الحس . وكان يخيل إليه أنه فى هذا الحى ، هو الوحيد الذى يشعر بالفاقة و بألمها .

وتنبه من إغفاء كالكابوس ، على خاطر جلى ، وذكرى تشق رأسه شقا . إلى من يرجع « الفضل » فيما صار إليه من البؤس والفلاكة بعد الرفاهة وخصب العيش ؟؟ إلى والد المسز وير ! وإذا نظر إلى الأمر من هذه الناحية ألا يكون له أن يعد الشيك ضربا من التعويض !

وأخذه النعاس لحظة ، ثم أفاق وفى رأسه خاطر آخر غريب . أيمكن أن تكون المسز وير (وهى امرأة ذكية) قد شكت فى أمره أو وقفت على حقيقته ؟ ألا يجوز أن تكون قد أرادت فيما بينها وبين نفسها أن يأخذ هو المال الذى بعثت به .

ولكن هذا الخاطر بدا فى الصباح غير مقبول ، أو محتمل ، وكل ما أثمره هو أنه قوى فى نفسه شعوره بدين المستر تشارمن له . ووثب من الفراش ، وتناول الشيك ، فظل فى يده ساعة ، ثم نهض وارتدى ثيابه .

و بعد أن أدى عمله فى يومه ، خرج يتمشى فى شارع كبير الدكاكين . فاستوقفه دكان حذاء ، فبقى برهة غير قصيرة أمام الواجهة ، ويده فى جيبه تعبث بجنيه فيه — وماجنيه بقليل ، من المبلغ الذى يعيش به إلى أن يجىء يوم القبض — ثم تخطى العتبة . ولم يكن أقل منه حزما أو حكمة ، فقد فرغ من الأمر فى مثل لمح البرق ، وكان يتكلم ولا يسمع ما يجرى به لسانه ، وينظر إلى الأشياء ولا يراها ، وكانت النتيجة أنه لم يدرك إلا بعد أن بلغ بيته ، وحذاءاه العتيقان تحت

إبطه ، أن الحذاءين الجديدين ضيقان جدا ، وأن ضغطهما شديد الإيلام ، وكان لهما أيضا أطيط وصريف ، ألا ما أعلى صوتهما !! ولكن الأحذية الجديدة لا تخلو من أمثال هذه المعايب . ولعله نسى ذلك لطول عهده بالقديم البالى . وكان يشعر بالإعياء الشديد ، فتناول لقمة واستلقى على سريره لينام .

وظل طول الليل يحلم بالحذاءين الجديدين ، وكان يرى فى منامه أنه يظلع فى شوارع مدينة خيالية يكمن له بعضهم فيها عند كل ركن وزاوية ، وفى كل مرة يتبين أن العدو المتربص له هو المسز وير ، وكانت تنظر إليه باحتقار ، وتدعه يمضى فى سبيله . وكان أطيط جلد الحذاءين صوتا ناطقا لاينفك يصيح به ويعلن إليه اسما مرعبا ، فكان يتضاءل ، ويتقبض ، ويرعش ، ويتوجع ، ولكنه مع ذلك كان يمضى على سننه وفى يده شيك عليه صليب ، يحاول عبثا أن يجد من يعطيه به مالا .

ولما استيقظ كان رأسه أثقل من الرصاص ، ولكن ذهنه كان صافيا ، وتفكيره مستقيم ، فسأل نفسه : ماذا يعنى بإنفاق المال على هذا النحو الجنونى مع افتقاره إليه ؟ وليت الحذاء الجديد يطاق لبسه ؟ أكان ينوى .. يا حفيظ !

ولم يكن المستر تمبرلى من أهل العلم بالنفس الإنسانية ، ولكنه فطن بغتة وعلى أجلى صورة ، إلى الأزمة النفسية التى كان يعانيها ، واطلع بذلك على حقيقة أخرى من حقائق الفقر .

وبعد أن تناول طعام الإفطار ، نزل ونقر على باب المستر سجز ، وكان الرجل يأكل ، فسأله ، وفمه ملآن ، « ماذا تريد ؟ » .

قال : « سيدى ، إنى أرجو أن تأذن لى فى الغياب ساعة أو ساعتين فى هذا الصباح ، فإن هناك أمرا له بعض الخطر ، يتطلب عنايتى » .

فقال المستر سجز بما عرف عن أهل طبقته من الذوق : « أحسب أن لك أن تصنع ما تشاء ، فما أنقدك أجرا » .

فانحنى المستر تمبرلى وانصرف .

و بعد يومين آخرين كتب رقعة ثانية إلى المسز و ير ، هذا نصها :

« إن المبلغ الذى تفضلت بإرساله إلى وأجبتك بأنى تلقيته ، قد وزع الآن . وقد رأيت أن الأولى والأمثل أن أسلم الشيك إلى قسيس فى هـذا الحى ، مشفوعا بأوامر صريحة ، وقد دون على الرقعة التى ترينها مع هذه الرسالة ، بيانا بأسماء الذين انتفعوا بهبتك ، فعسى أن ترضى عما فعل .

ولـكنك قد تسألين ، لمـاذا رأيت أن ألجأ إلى قسيس ؟ ولمـاذا لم أستعن فى هـذا الأمر بخبرتى وتجاربى ، فأفيد الرضى والسرور الحاصلين من مساعدة الفقراء الذين أعنى بهم — أنا الذى وقفت حيـاتى على هذا العمل الإنسانى النبيل وجعلت من نفسى رسولا للرحمة ؟ ؟ .

والجواب وجيز وسهل . ذلك أنى كذبت عليك .

فأنا لا أعيش فى هذا الحى بإرادتى الحرة ، ولست أقف حياتى على أعمال البر والإحسان . وأنا لست — كلا ، بل لم أكن إلا — رجلا تبين فى يوم من الأيام أنه ضيع ماله فى مضاربة حمقاء ، فاستحيى أن يطلع أصدقاءه على ماصار إليه أمره ، فلاذ بحياة العزلة والشقاء ، فأنت ترين أنى أضفت الجبن إلى سوء الحظ ولن أخبرك كيف كدت أفعل ما هو شر من ذلك .

وأنا أقضى فترة فى تعلم حرفة ستمكننى بلا شك من زيادة دخلى فأصبح أحسن حالا . وإنى لأرجو أن تغفرى لى ما كان منى ، إذا استطعت ، وأن تنسينى .

وإنى لك يا سيدتى لخادم غير جدير بشىء » . س . ف . تمبرلى

هنرى هارلاند

١٨٦١ – ١٩٠٥

بيت يولالى

هو بيت صغير جميل فى رقعة ساحرة من الريف — ركن قلما يغشاه أحد ، من بلاد نورمندى ، على مقربة من البحر — تكثر فيه البساتين ، وتمتد الحقول والمراعى للماشية ، وتستقيم الطرق الظليلة .

والمرء لا يسعه إلا أن يستغرب أن يجد هـذا البيت قائماً هنا ، فقد كانت البيوت الأخرى مساكن فلاحين أو أكواخ عمال ، ولـكن هـذا كان منزلا أنيقا مبيّضا ، وله نوافذ كالأبواب ، وشرفات ذات أسوار من حديد فيه صنعة ، وستائر من نسج البندقية — منزلا للهو والمسرة تحيط به حديقة صغيرة نضيرة ، وتعطر جوه الورود والأزهار المنســقة ، وترتاح العين إلى الخضرة اليانعة حوله . وكان هناك ، مما يلى الحديقة ، بستان تقوم فيه صفوف من أشجار التفاح القديمة ، وقد مال بعضها على بعض فكأنها كانت ترقص ثم وقفت ولزمت آخر ما كانت عليه من هيئة . وتدير عينك فترى حقولا منبسطة ، من القمح والبقول المنسطحة على الأرض ، إلى البحر ، وصخوراً بيضاء غير مستوية تستحم فى الماء الأخضر ، وترى لها ظلالا لامعة خفّاقة .

ورأيت لوحاً معلقاً على الحائط عليه كتابة ساذجة ، أيدت ما علمته من السمسار فى « دييب » . فصحيح إذن أن البيت للإيجار . وقد ركبت ساعتين طويلتين لأراه ، والآن صرت على عتبته ، فدققت الجرس . وهو جرس كبير معلق وله مقبض من البرنز مصنوع على هيئة حبل وزر . وخليق بصوته أن يذهب إلى بعيد فى هذا الريف الساكن .

وقد ذهب الصوت ، على كل حال ، إلى مسكن كالكوخ على مسافة مائة ذراع ، فخرج منه رجل وامرأة ، ووقفا هنيهة ينظران إلى ناحيتى ثم أقبلا نحوى . وكان الرجل شيخاً والمرأة مثله ، وكلاهما أسمر . وكان الرجل يلبس ثوباً غليظاً مفتول الغزل طاقين ، وعلى المرأة قبعة من القطن ، بيضاء نظيفة ، وفوطة زرقاء تلفها على وسطها . وكان خطوهما رويداً على عادة أهل الريف .

فسألتهما : « السيد والسيدة ليرو ؟ » .

وذلك بعد أن تبادلنا التحيات التمهيدية ، وأخبرتهما أنى جئت من دييب حيث أنبأنى السمسار أن هذا البيت للإيجار ، وكانا على ما بدا لى ينتظران مقدمى . فقد أبلغنى السمسار أنه سيبلغهما رغبتى .

ولكن لشد ما استغربت إذ رأيت أن هذا الكلام العملى ربكهما ! بل يخيل إلىّ أنه أورثهما اضطراباً وأحدث لهما ألماً . فقد رفعا وجهيهما المغضّنين ونظرا إلى نظرة القلق ، وتبادلا النظرات الواشية بالحيرة ، وقبضت المرأة بيد على الأخرى وجعلت أصابعها تتحرك ، وتردد الرجل وتلجلج قبل أن يستطيع أن يقول : « جئت لترى البيت يا سيدى ؟ » .

قلت : « نعم . أو لم يكتب إليك السمسار ؟ لقد علمت منه أنك تنتظرنى فى هذه الساعة ، اليوم ؟ » .

قال الرجل معترفاً : « نعم ، كنا فى انتظارك » .

غير أنه لم يفعل شيئاً يتقدم به الأمر خطوة واحدة ، وبادل امرأته نظرة حيرة أخرى فهزت رأسها كأنما تريد أن تقول إنه لا حيلة لها وأن الأمر لله ، وأطرقت .

وقال الرجل بلهجة من يحاول جلاء الغامض : « شف[1] يا سيدى … شف … » ثم تلجلج وزوى ما بين عينيه كأنما يعانى أزم التعبير .

فسألته مقترحاً : « هل استؤجر البيت ؟ » .

فقال : « كلا ، لم يؤجر » .

فقالت امرأته أخيراً بلهجة المكروب ومن غير أن ترفع عينها عن الأرض : « يحسن أن تذهب وتجىء بالمفتاح » .

فانكفأ راجعاً يجر رجليه إلى كوخه ، وبقينا نحن واقفين صامتين بجانب الباب ، وكانت أصابع يديها المتشابكتين لا تزال تضطرب ، وحاولت أن أجرها إلى الحديث ، وأفتح لها أبواب الكلام ، فأثنيت على موقع البيت وجمال المنظر ، فتمتمت موافقتها فى رقة ولطف ، ولكن بضجر غير خاف . فلم يشجعنى هذا على المضى فى الكلام .

وعاد إلينا الرجل بالمفتاح ، وشرع وامرأته معه يريني البيت ، وكان فيه حجرتان جميلتان للجلوس والاستقبال فى الطبقة الأرضية ، وثالثة للطعام ، ومطبخ واسع من الآجر الأحمر المصقول ، ومدخنة ، وأوعية شتى من النحاس اللامع ، وكان المتاع فى غرف الجلوس والاستقبال والطعام خفيفاً على الطراز الفرنسى ، وكانت النوافذ تفتح على الشمس وعلى أرج الحديقة وخضرتها البهيجة ، فأعربت لهما عن سرورى وإعجابى بما شاهدت ، وإذا بحالتهما تتغير شيئاً فشيئاً ، من الكآبة ، والتردد ، والحيرة ، إلى الاستجابة والانشراح ، وصارا يتلقيان كلامى بابتسام ، ويجيبان عن أسئلتى بلهفة وبإفاضة . ولكن الاضطراب لم يزايلهما ، اضطراب العاطفة الجياشة ، وكانت أيديهما المعروقة

---

(١) شاف بمعنى رأى ، صحيحة اللفظ .

تختلج وترتعش إذ يفتحان لى الأبواب والنوافذ ، وينحّيان الأستار ، وصوتهما يتهدج ، حتى ابتسامهما كان عن ألم مكنون ؛ فهو لا يجاوز السطح ولا يؤثر فى المطوى من الهم .

وحدثت نفسى أن حاجتهما ملحة إلى المال ، وأنهما عسى أن يكونا قد أنفقا على هذا البيت كل ما كان عندهما ، فهما إذ يجدان مستأجراً معذوران إذا اضطربا .

وقال الرجل : « والآن ، إذا شئت ياسيدى ، تفضل بنا إلى فوق لنريك غرف النوم » .

وكانت هذه الغرف حسنة التهوية ، تدخل السرور على النفس ، وكانت جدرانها مورّقة ، وعلى نوافذها ستائر قطنية مطبوعة ، وأثاثها كالمعهود فى حجرات النوم الفرنسية . وكانت إحداها تبدو كأن هناك من يستعملها ، فقد كان فيها متاع وأشياء — أشياء شخصية — لامرأة . وكانت آخر ما دخلنا من الغرف ، وهى مقدمة وتطل على البحر ، ورأيت على المنضدة فيها أمشاطا وفرشا ، وعلى المكتب الصغير أقلاما ومحبرة ومحفظة ، وعلى الرفوف كتبا مرصوصة ، وعلى الصفة صوراً شمسية فى إطاراتها ، وفى الصّوان ثيابا معلقة ، وعلى الأرض أحذية وخفافا نظيفة مرتبة ، وعلى السرير حِبْسا مبسوطا ، من الحرير الأزرق ، وعلى الحائط مما يلى السرير ، صليبا معلقا وإلى جانبه وعاء من الخزف فيه ماء مقدس .

فالتفت إلى الرجل وامرأته وقلت : « يظهر أن هذه الغرفة مسكونة » .

فلم يبد على السيدة ليرو أنها سمعت ما قلت ، فقد كانت شاخصة لا تطرف وكانت شفتاها متباعدتين ، وعلى وجهها سيماء الضجر كأنما يكون من دواعى

سرورها أن نفرغ من تجوابنا فى البيت وطوافنا بغرفه ، أما السيد ليرو فرفع يده إلى السقف بإيماءة غريبة وقال :

« كلا ، إن الغرفة ليست مأهولة فى الوقت الحاضر » .

ونزلنا ، وعقدنا الاتفاق على أن أتسلم البيت للسكنى مدة الصيف ، وأن تقوم السيدة ليرو بطبخ الطعام لى ، ووعد السيد ليرو أن يركب إلى دييب يوم الأربعاء ليعود بى وبحقائبى .

* * *

وفى يوم الأربعاء ، كنا عائدين ، ومضى نصف ساعة ونحن صامتان ، وإذا بالسيد ليرو يقول لى فجأة :

« هذه الغرفة ياسيدى . . الغرفة التى ظننت أنها مأهولة ؟ »

فقلت ، وقد رأيته يسكت : « نعم ... ما لها ؟ » .

قال : « إن لى اقتراحا أعرضه عليك » .

وكان يتكلم وبه على ما خيل إلى ، خجل ، وفى لهجته ما يدل على الإصرار وكانت عينه على أذنى حصانه .

فقلت : « هات اقتراحك » .

قال : « إذا وافقت على أن تترك هذه الغرفة على حالها ، بما فيها من المتاع ، فإنى مستعد لنقص الإيجار إذا رضيت أن تدعنا نحتفظ بها كما هى » .

قال ذلك بلهجة المتوسل المتلهف ، وزاد عليه : « إنك وحيد ، ولا حاجة بك إلى هذه الغرفة ، فإن ما يبقى من البيت فوق الكفاية . . أليس كذلك ياسيدى ؟ »

فوافقت ، وقلت له إن فى وسعه هو وامرأته أن يحتفظا بالغرفة إذا شاءا .

فقال : « شكراً لك ، وستحفظ لك زوجتى هذا الجميل » .

وعدنا إلى الصمت فترة ، قال بعدها :

« أنت أول مستأجر لبيتنا ، فما أجرناه لأحد من قبل » .

فسألته : « صحيح ؟ منذ كم بنيتماه ؟ » .

قال : « أنا بنيته — بنيته منذ خمس ، أو ست سنوات » وأمسك ثم قال :

« بنيته لبنتى » .

وخفت صوته وهو يقول ذلك ، ووقع فى نفسى أن هذه ليست سوى فاتحة لشىء يريد أن يفضى به إلى ، فقلت أستحثه وأشجعه : « آه ! صحيح ؟ » .

فقال : « إنك ترى أى ناس نحن — زوجتى وأنا — فلاحون . . خشنون . ولكن ابنتى ياسيدى » ، ووضع يده على ركبتى وحدق فى وجهى ، « ابنتى كالشفوف رقة » .

ورد عينه إلى حصانه ، ولزم الصمت دقيقة أو اثنتين ، ثم عاد يقول ، وعينه على أذنى حصانه لا يرفعها عنهما :

« لم يكن فى كل هذه الناحية سيدة أرق منها وألطف » — وكان يتكلم بسرعة و بصوت غليظ كأنما يحدث نفسه — « كانت جميلة ، ومن أحلى خلق الله طباعا ، ومن أحسن الناس تعليما . تربت فى الدير ، بروان ، دير « القلب المقدس » . . ست سنوات قضتها فى الدير تتعلم — من الثانية عشرة إلى الثامنة عشرة . وكانت تعرف الإنجليزية — لغتك ياسيدى . . ونالت جوائز فى التاريخ وفى الموسيقى . ما من أحد يحسن العزف على البيانو كما تحسنه » . وسألنى فجأة

و بعنف : « فهل كان يليق بها كوخ ريفي كـكوخنا ؟ » وأجاب عن سؤاله فقال : « كلا ، ياسيدى ! فما يجوز أن تلوث الثياب الرقيقة بوضعها فى صندوق قذر . وقد كانت ابنتى سَكْبَ ماء من الرقة ، وكانت يداها أنعم من مخمل « ليون » وآه ! من حسن مشمهما ! أعنى يديها ! لقد كان الطيب الذى أجده فى يديها ينعشنى . وكنت ألثمهما ، وأشمهما كما تشم الزهرة » .

وأخفتت الذكرى صوته ، ومضت لحظة أخرى من الصمت ، ثم عاد يقول :

« وكنت كثير المال — مدثَّراً ومُدرها — وكنت أغنى فلاح فى هـذه الناحية فبنيت هذه الدار — بناها المسيو كلير مون أكبر مهندس فى روان ، وخريج مدرسة الفنون الجميلة بباريس — هو الذى شيد الدار لابنتى — بناها وأثثها ، وجعلها لائقة بكونتيسة . حتى إذا عادت من الدير لتقيم معنا ، وجدت الدار جديرة بها ، انظر إلى هذا يا سيدى ! أترى أن أفخم قصور العـالم يكون كثيرا عليها ؟ » .

وأخرج كيسا قديماً من الجلد الأحمر ، وناولنى منه صورة غادة ناعمة لينة فى السابعة عشرة من العمر ، وفى وجهها قسامة ، وفى معارفها عذوبة ورقة . وكان الرجل معلق الأنفاس محتبسها وأنا أتأمل الصورة ، ثم ألح على يسألنى : « أليست ظريفة ؟ أليست جميلة ؟ » وكأنه يناشدنى أن أعطف عليه وأرق له فأشاركه فى ثنائه . وقد أجبت بما وسعنى — بخير ما قدرت عليه ، فأعاد الصورة بيد مرتعشة إلى كيسها ، وأخرج من ناحية أخرى من الـكيس بطاقة صغيرة بيضاء ، عليها ما اعتاد الفرنسيون أن يحفروه على قبورهم — صورة الصليب ، وحمامة — تحتها ما يأتى :

« يولالى — جوزفين — مارى ليرو . ولدت فى ١٦ مايو سنة ١٨٧٤ ، وتوفيت فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٩٢ . صلِّ لها » .

وقال : « الله يعرف ما هو صانع . لقد بنيت هذه الدار لبنتى ، فلما تم تشييدها اختارها الله إلى جواره . وقد ذهب بعقلنا الحزن — زوجتى وأنا — ولكن هذا ما كان ليردها إلينا . وما يدريني ؟ لعل عقلنا مازال مذهوبا به من الحزن . فما نستطيع أن نفكر فى شىء آخر . وما نحب أن نتكلم عن شىء آخر . ولم نستطع أن نعيش فى البيت — بيتها — وهى ليست فيه ولم يخطر لنا قط أن نؤجره . لقد بنيته لابنتى ، وفرشناه وأثثناه لها ، فلما جهّزناه . . ماتت . أليست هذه قسوة ياسيدى ؟ وكيف أؤجر البيت للأغراب ؟ ولكنى منيت فى المدة الأخيرة بخسائر . فأنا مضطر أن أؤجر البيت لأقضى دينى . ولكنى لا أستطيع أن أؤجره لأى إنسان . وأنت إنجليزى . ولو كنت لم أرتح إليك لما أجرته لك ولا بمليون من الجنيهات الإنجليزية . ولكنى مغتبط بأن كنت أنت المستأجر . وستحترم ذكراها ، وستأذن لنا فى الاحتفاظ بتلك الغرفة . — غرفتها . وسندعها كما هى ، بما فيها من الأشياء — نعم ، هذه الغرفة التى حسبتها مسكونة ، كانت غرفة بنتى » .

وكانت السيدة ليرو تنتظرنا فى الحديقة . فرفعت عينها إلى زوجها مستفسرة فهز رأسه وقال : « كل شىء على ما يرام . السيد موافق » .

فتناولت المرأة يدى وهزتها هزاً عنيفاً وقالت : « آه ياسيد ! إنك رجل طيب » . ورفعت عينيها إلىّ ولكنى لم أستطع أن أنظر فيهما ، فقد كان الحزن الذى يطالعنى من نظرتهما أهول وأقدس من أن أمتهنه بالنظر إليه .

* * *

وصرنا أصدقاء أصفياء ، فى الشهور الثلاثة التى قضيتها فى البيت . وكانت السيدة ليرو تتعهدنى ، وترعانى ، وتبرنى وتسرنى ، كأنها أمى . وكان كلاهما — كما قال السيد ليرو — يؤثر أن يجعل ابنته موضوع حديثه ، وكنت أصغى إليهما بغير نفور أو ملل ، فقد كان فى حزنهما عليها ، ودوام تفكيرهما فيها جمال عميق الوقع فى النفس ، وكان يخيل إلى أن طيف الفتاة يرود البيت — البيت الذى بناه لهما الحب وهو لا يدرى أن الموت سيعدو عليها و يغولها منه ، وكانت المرأة لا تمل أن تقول لى : « آه ياسيدى ، إن من بواعث السرور لنا أن تركت لنا غرفتها » . وقد صعدت بى مرة إلى الغرفة ، وأرتنى ثياب يولالى ، وحليها ، وكتبها المجلدة الجميلة التى فازت بها تجزية لها ، على اجتهادها فى الدير . وفى يوم آخر أطلعتنى على رسائل يولالى وسألتنى عن خطها أليس جميلا ، وعن عبارتها أليست حسنة ؟ وعرضت على صوراً لها فى كل سن ، وخصلة من شعرها وملابسها فى حداثتها ، وشهادة الأسقف ، ورسائل من راهبات « القلب المقدس » بروان ، تصف تقدم يولالى فى الدرس والتحصيل ، وتطرى سلوكها وأخلاقها ، وكانت المرأة ربما غلبها الحزن فتقول ، وكأنها لا تصدق ما حاق بها من الفقدان ، وما منيت به من الخسارة : « وتصور أنها ذهبت ! تصور هذا ! » . ثم تعود فتقول همساً . بلهجة الاستسلام لقضاء الله : « إنه هو أدرى بما يصنع ! » وترسم الصليب على صدرها !

وفى الثانى عشر من أغسطس — يوم ذكرى وفاتها — صحبتهما إلى كنيسة القرية حيث أقيمت الصلاة على روح يولالى ، و بعد انتهائها جاء القسيس الطيب إليهما وضغط يديهما ، ورفه عنهما بكلمات عذاب .

* * *

وفى سبتمبر بارحت البيت عائداً إلى دييب . واتفق عصر يوم أن التقيت فى الطريق الأعظم لهذه المدينة بقسيس القرية ، فوقفت معه قليلا نتحدث عن ليرو وامرأته ، وطيب نفسيهما ، وحزنهما على ابنتهما فقال القسيس : « لقد كان حبهما لها شيئا فوق الحب . كان عبادة ، وتأليها . وما رأيت فى حياتى الطويلة مثل هذا أو ما يقرب منه . وقد خفت عليهما ، لما قضت نحبها ، أن يذهب عقلهما . فقد كانا مذهولين . . . غائبين عن الوعى . ولبثا مدة طويلة كالمجنونين . ولكن الله رحيم ، فقد تعلما أن يعيشا ومعهما مصابهما » .

فقلت : « إن فى احتفاظهما بذكراها ، وعبادتهما لها ، لجمالا . وما أظن بك إلا أنك تعرف أنهما أبقيا غرفتها وفيها أشياءها ، كما تركتها . . هذا فيما أرى جميل . . . رائع » .

فسألنى القسيس ، وهو غير فاهم : « غرفتها ؟ أية غرفة ؟ » .

فقلت متعجبا : « أوه ، أو لم تكن تعرف ؟ غرفة نومها فى البيت . احتفظا بها كما هى ، أشياءها ، وكتبها ، وملابسها » .

فقال القسيس : « لا أظن أنى فاهم . فما كان لها قط غرفة نوم فى هذا البيت » .

فقلت : « عفواً . إحدى الغرف المقدمة فى الطبقة الثانية كانت غرفتها » .

فهز رأسه وقال : « هنا بعض الخطأ . فما نزلت قط فى هذا البيت ، لأنها ماتت فى البيت القديم . وكان البيت الجديد لم يكد يتم تشييده . العمال لم يكونوا قد خرجوا منه » .

فقلت : « كلا ، لابد أن تكون أنت المخطئ ، ويظهر أنك ناسٍ . فإنى

على يقين من الأمر ، وقد حدثنى ليرو وامرأته بهذا مرات لا يأخذها حصر » .

فأصر القسيس على زعمه وقال : « ولكن ياسيدى العزيز ، إنى لست واثقا فقط بل أنا أعلم . فقد حضرت وفاتها ، وكنت إلى جانبها وهى تجود بنفسها ، وقد ماتت فى البيت القديم . وكانا لم ينتقلا إلى الدار الجديدة ، وكانت الدار لا تزال تؤثث وتجهز ، وقد وضعت فيها آخر قطع الأثاث قبل وفاتها بيوم . ولم يسكن أحد هذه الدار قبلك . أنت أول ساكن لها . وإنى أؤكد لك هذا » .

فقلت : « إن هذا أمر غريب جدا » .

وساورتنى الحيرة دقيقة ، فلم أهتد إلى حل لهذا اللغز ، ولكن حيرتى لم تطل أكثر من دقيقة ، قلت بعدها : « فهمت . فهمت . » .

فهمت ، ورأيت ، وأدركت كيف غالط هذان المنكوبان نفسيهما ، وخلقا لها وهماً يتعزيان به ، فقد بنيا الدار لابنتيهما ، فلما اكتملت الدار وتجهزت ، ماتت الفتاة . ولكنهما لم يطيقا أن يتصورا أن لا تعيش فى هذه الدار وتنعم بها ولو أسبوعا واحدا ، بل ولو يوما واحداً ، أو حتى ساعة مفردة ! عجزا عن احتمال هذا الحرمان . ولم يستطع قلباهما الثاكلان أن يعترفا به ، فأغمضا عيونهما حتى لا يريا ما يصنعان ، وحملا متاع الفتاة الميتة فى خشوع ، إلى الغرفة التى أرادا أن يفرداها لها ، ورتباها فيها ، وقالا لنفسيهما بإلحاح : « هذه كانت غرفتها . هذه كانت غرفتها » . ليتقرر فى روعهما بالإيحاء ، وأبيا أن يصدقا النفس ، أبيا أن يسمحا بأن يجرى فى خاطرهما أنها لم تم فيها ولم تنعم بها ولا ليلة واحدة . أوحيا إلى نفسيهما هذه الأكذوبة الجميلة ، هذه الخدعة الكريمة الرحيمة كأنهما طفلان يصدقان مايتخيلان وهما يلعبان . وقد قالها القسيس : « الله رحيم ! فقد

استطاعا أن يخلطا كذبتهما الجميلة بالحقيقة ، وأن يجدا فى هذا عزاءهما ، ووسعهما أن ينسيا أن ما غالطا به نفسيهما ليس أكثر من خدعة ، ووهم وباطل ليس يجدى ، وأن يعدا الأمر كله حقيقة يستمدان منها السلوان والصبر الجميل ، وبهذا وقاهما الله أن يتقاضاهما الحزن آخر مجهودهما . فبقيت لهما هذه السلوة ، فهى كنز لهما — كنز أنفس وأجدى من الذهب الإبريز » .

الباطل ؟ — الحق ؟ أحسب أن هناك أوهاما ليست من الأباطيل — وإنما هى ابتسامات من الحق رحمة بنا ، وعطفا علينا .

وليم سدني بورتر

(و . هنري)

١٨٦٧-١٩١٠

تقرير

« المدائن كلها زهو — يتحدى بعضها بعضا ، هذه من سفوح جبالها وتلك من سيف شطئانها » .

رديارد كبلنج

« تصور رواية عن شيكاجو ، أو بفالو ، أو قل عن ناشفيل بولاية تنسى ! إنه ليس ثم سوى ثلاث مدن كبيرة بالولايات المتحدة ، تصلح للرواية — نيويورك بالطبع ، ونيوأورلينس ، وخير منهما سان فرنسيسكو » .

فرانك نوريس

الشرق شرق ، والغرب هو سان فرنسيسكو ، فيما يرى أهل كاليفورنيا . وهم جيل من الناس ، لا مجرد سكان ولاية ، وهم الجنو بيون من أهل الغرب . وليس أهل شيكاجو ، مثلا ، بأقل ولاء لمدينتهم ، ولكنك تسألهم عن السبب فيتمتمون و يتحدثون عن سمك البحيرة ، والبنى الشامخة . أما أبناء سان فرنسيسكو فيسهبون و يفيضون فى التفصيل .

ولا شك أنهم يجدون فى الجو والمناخ ما يصلح أن يكون حجة يقضون فى الإدلاء بها نصف ساعة تكون أنت فى خلالها مشغولا بالتفكير فى تكاليف الفحم والثياب التحتية الغليظة ، و يركبهم الغلط فيتوهمون أن صمتك اقتناع ، فيروحون يسبحون على متن التيار و يصورون لك مدينة البوابة الذهبية كأنها بغداد الدنيا الجديدة . وإلى هنا ، وما دامت المسألة مسألة رأى ، لا داعى للمناقضة والجدال ، ولكن يا أبناء الأعمام جميعا (من نسل آدم وحواء) إنه لمتهور ذاك الذى يضع إصبعه على الخريطة و يقول : « فى هذه البلدة لا يمكن أن يحدث شيء يجرى مجرى القصة — وما ذا يمكن أن يحدث هنا ؟ » . نعم من الجرأة بل

التهور أن يتحدى الإنسان — بجملة واحدة — التاريخ ، والخرافة ، وراند ، وماك نااللى !

« ناشفيل — مدينة وثغر وعاصمة ولاية تنيسى ، واقعة على نهر كمبرلاند ، وملتقى خطوط حديدية . وتعد هذه المدينة أهم مركز للتعليم فى الجنوب » .

نزلت من القطار فى الساعة الثامنة مساء . وقد أعيانى الاهتداء إلى لفظ أصف به المدينة ، فأنا ألجأ إلى تأليف « تذكرة » من المقارنات .

خذ من ضباب لندن ثلاثين جزءاً ، ومن الملاريا عشرة أجزاء ، ومن الثقوب فى أنابيب الغاز عشرين جزءاً ، ومن قطر الندى عند شروق الشمس فى ساحة مبلطة خمسة وعشرين جزءاً ، ومن أرج الأزهار خمسة عشر جزءاً ، وامزجها .

وخليق بهذا الخليط أن يعينك على تصور ناشفيل إذ تجودها السماء .

وذهبت إلى الفندق فى مركبة ، واحتجت إلى كل ما أملك من قدرة على كبح النفس لمقاومة ما يغرينى منها بالصعود إلى ظهرها وتقليد سدنى كارتون . وكانت الدواب التى تجرها ترجع إلى عصر مضى وانقرض ما كان فيه ، وكان السائق أسود ظامئا ضاويا .

وكنت مثقل الرأس من الإعيـاء والحاجة إلى النوم ، فلما بلغت الفندق أسرعت فدفعت إلى السائق الخمسـين سنتا التى طلبها ، وكنت أعرف عادات هؤلاء الزنوج ، ولا أريد أن أتيح له فرصة يلغط فيها بذكر « سيده » ولا بما كان يحدث « قبل الحرب » .

وكان الفندق من الضرب الذى يوصف بأنه « مجدد » ومعنى التجديد إنفاق عشرين ألف ريال على عمد الرخام ، والبلاط ، والنور الـكهربائى ، والمقابض النحاسية والمباصق ، ودليل جديد للسكة الحديدية ، ورسم بارز للجبال فى كل

واحدة من الحجرات الكبيرة . وكانت الإدارة لا عيب فيها ، ولا اعتراض عليها ، والمعاملة كالمعهود من حفاوة أهل الجنوب ورقتهم ، والخدمة أبطأ من السلحفاة ، والقائمون بها فى مثل سجاحة رب ثان ونكل وسلاسة طباعه ، أما الطعام فيستحق أن يقطع المرء إليه ألف فرسخ ، وليس فى الدنيا فندق آخر تستطيع أن تظفر فيه بأكباد الدجاج مطبوخة على هذا النحو .

وسألت على العشاء خادما زنجيا عن ملاهى المدينة ، فوقف يقدح زناد فكره لحظة ثم قال :

« الحقيقة يا سيدى أنى لا أظن أن هناك شيئا بعد الغروب » .

وكان الغروب قد تم ، وغرق فى المطر من زمان طويل ، وحرمت فرصة مشاهدته ! ولكنى مع ذلك خرجت إلى الشوارع فى المطر لأرى ما عسى أن يكون هناك .

« وهي مبنية على عارض من الأرض ينقاد ويرتفع ، والشوارع مضاءة بالكهرباء وتبلغ تكاليفها فى العام ٣٢٫٤٧٠ ريالا »

وما كدت أغادر الفندق حتى رأيت سباقا مضطربا . فقد أقبل علىّ جماعة من الزنوج المحرّرين ، أو الزولو ، أو لا أدرى من غير هؤلاء وأولئك ، مسلحين بالـ ... كلا ، فقد تبينت أن فى أيديهم سياطا لا بنادق ، فتنفست الصعداء — ورأيت كذلك ، ولكن فى غير وضوح ، قافلة من المركبات السوداء ، ولما سمعت صيحاتهم المطمئنة « إلى أى ناحية فى المدينة بخمسين سنتا » أدركت أنى زبون ليس إلا ، ولست بفريسة أوضحية .

وسرت فى شوارع طويلة ، كلها إلى صعود ، وكنت وأنا أمشى أتعجب لهذه الطرق كيف تنحدر مرة أخرى ، ولعلها لا تنحدر إلا على درجات . وفى بعض الطرق الكبرى رأيت أضواء فى حوانيت هنا وهناك ، ومركبات تقل بعض

أهل المدينة الكرام إلى هنا ، وههنا ، وناسا يمرون بى وهم يتحدثون ، وسمعت انفجار ضحكة شبه مرحة صادرة عن دكان أشربات مشلوجة ، أما الطرق التى ليست « بالكبرى » فيظهر أنها مجعولة للسكينة والسلام والأعمال المنزلية ، وكان فى كثير من مساكنها أنوار تضىء من وراء الشبابيك المسدلة ، وسمعت من بعضها عزفا محتشما لا يعاب . فالحق أنه لا شىء فى المدينة . فليتنى دخلتها قبل الغروب ! ومن أجل ذلك رجعت إلى فندق .

« فى نوفبر سنة ١٨٦٤ زحف القائد الاتحادى الجنرال هود على ناشفيل وحاصر فيها قوة وطنية يقودها الجنرال طوماس . وقد خرج الأخير بعد ذلك وهاجم الاتحاديين وهزمهم فى معركة فظيعة » .

وأنا طول حياتى أسمع ببراعة أهل الجنوب فى إصابة المرمى فى معاركهم السلمية فى مناطق مصنع « الطباق » وأعجب بحذقهم هذا وأحب أن أشهد آياته ، ولكنى فوجئت بما لم يكن لى فى حسبان ، فى الفندق . فقد كانت هناك فى البهو اثنتى عشرة مبصقة جديدة لامعة فى البهو الكبير ، وهى عالية حتى ليمكن أن يقول المرء إنها قماقم ، وواسعة حتى لتستطيع الواحدة من لاعبات كرة السلة أن ترمى الكرة فى واحدة منها على مسافة خمس خطوات ، ومع أن الحرب كانت ولا تزال دائرة بأقصى شدة وأعنف حال ، إلا أن العدو لم يصبها سوء ، وظلت المباصق لامعة براقة ، وواسعة نظيفة لا يمسها سوء . ولكن البلاط ! البلاط الجميل ! ولم يسعنى إلا أن أفكر فى معركة ناشفيل ، و إلا أن أستخلص كما هى عادتى ، بعض النتائج ، وأنتهى إلى بعض الآراء فى وراثة البراعة فى إصابة المرمى .

وهنا رأيت لأول مرة الماجور ونتورث كازويل ، وما كادت عينى تقع عليه وتتأذى بالنظر إليه حتى أدركت أنه طراز قائم بذاته ، وليس للجرذ موطن ، وقد

قال صديقى القديم الفريد تنيسون (الشاعر) وأجاد — كما هى عادته — « أيها النبى ، إلعن لى الشفة الثرثارة ، والعن لى الآفة البريطانية — الجرذ ! » .

وكان الرجل يروح ويجىء فى البهو كالكاتب المتضور الذى نسى أين خبأ عظمة ! وكان وجهه عظيم الرقعة كبير المساحة ، وأحمر ضخم الصفحتين ثقيلهما ، مكتلهما مع فتور كفتور النعاس . ولم تكن له سوى فضيلة واحدة ، هى أنه حليق ناعم الخد أملسه . وأخلق بسمة الحيوان أن تلازم الإنسان إذا استبقى على وجهه سحالة [1] . ولو أنه لم يجر الموسى على خديه فى ذلك اليوم لما أطقته . ولكنت خليقاً أن أصده عنى ، ولكان إحصاء الجرائم فى هذا العالم قد نقص جريمة قتل !

وكنت واقفاً على مسافة خمس أقدام من مبصقة ، وإذا بالماجور كازويل يصوب إليها قذائفه ! ولاحظت أنه يستعمل فى هجومه مدفعاً رشاشاً لا بندقية ، فتنحيت عن ميدان الضرب بخفة ، فاغتنمها الماجور فرصة للاعتذار إلى مسالم غير محارب . وكانت « الشفة الثرثارة » ، ففى أربع دقائق ليس إلا صار صديقى ، وجرنى إلى الحانة .

وهنا موضع التنبيه إلى أنى من أهل الجنوب ، ولكنى لست كذلك بحكم المهنة أو الحرفة أو العادة . فأنا لا أتخذ رباط الحبل . ولا ألبس القبعة العريضة الحافة ، ولا أبالى أكياس القطن التى أتلفها « شيرمان » ، ولا أمضغ الطباق ، وإذا عزفت الموسيقى « ديكسى » لم أهتف ، وأتطامن على المقعد الجلدى وأطلب قدحا وآخر ، وأتمنى لو أن — ولكن ما الفائدة ؟ ؟

وضرب الماجور كازويل منضدة الحانة بجمع يده ، فجاوبه المدفع الأول بقلعة « سانتر » ولما أطلق آخر قذائفه على « أبوماتوكس » انتعشت آمالى . ولكنه

---

(١) السحالة للبر والشعير قشرهما

شرع يتحدث عن شجرة الأسرة ، ويبين أن آدم ليس سوى فرع ثالث من فروع أبناء الأعمام فى أسرة كازويل ، و بعد أن فرغ من أمر هذا النسب ، تناول على كره منى وسخط ، شؤون أسرته الخاصة ، فتكلم عن زوجته ، ونماها إلى حواء ، ونفى كل قول بأنها قد تكون ذات قرابة بأحد من الأرض .

وقد دعانى هذا إلى الاسترابة به ، فكبر فى ظنى أنه يحاول بهذه الضوضاء أن يذهلنى عن كونه هو الذى طلب الشراب ، عسى أن أؤدى ثمنه عنه ، ولكنه بعد أن شربنا رمى ريالا فضيا على المنضدة ، فصار على أن أسقيه كما سقانى ، ففعلت وأديت الثمن واستأذنت فى الانصراف ، ومضيت بلا تمهل ، فقد أضجرنى فلم أعد أطيقه ، على أنه قبل أن أنجو منه حدثنى بصوت عال عن زوجته ودخلها وأرانى حفنة من النقود الفضية .

وقال لى كاتب الفندق ، وأنا آخذ مفتاحى منه « إذا كان هذا الرجل — كازويل — قد أزعجك وكنت تحب أن تشكوه ، فنحن مستعدون أن نقصيه عن المكان ، فإنه عاطل مزعج وليست له وسيلة معروفة لكسب الرزق وإن كان يبدو معظم الوقت ومعه شىء من المال . ولكننا لا نهتدى إلى ماننتكىء عليه لطرده » .

فقلت بعد تفكير : « كلا لست أرى سبيلا إلى الشكوى ، ولكنى أحب أن يُروى عنى أنى أقرر أنى لا أحب صحبته » ثم أضفت إلى هذا « إن مدينتكم هادئة على ما يظهر ، فأين يجد الغريب لهوا أو مغامرة أو ما هو من ذلك بسبيل خارج بابكم » .

فقال الكاتب « سيكون هنا معرض يوم الخميس الآتى ، وهو — سأبحث وأبعث إلى غرفتك بالإعلان ، مع الماء المثلج . عم مساء ياسيدى » .

وصعدت إلى غرفتى ، ونظرت من النافذة ، وكانت الساعة حوالى العاشرة ولـكن الشارع كان ساكنا ، وكانت السماء لا تزال تمطر ، والأنوار تلمع هنـا وههنا على مسافات بعيدة كالزبيب فى الـكعكة .

فقلت لنفسى : « مكان هادئ ليس فيـه شىء من الحياة التى تـكسب المدائن فى الشرق والغرب ، تلك البهجة وذلك التنوع — مدينة أعمـال — حسنة ، عادية ، ساذجة » .

وتعد ناشفيل فى طليعة المراكز الصناعية ، ولها المرتبة الخامسة بين أسواق الأحذية فى الولايات المتحدة ، وفيها أكبر مصانع الحلواء فى الجنوب ، ولهـا تجارة عظيمة بالجملة فى المنسوجات والأغذية والعقاقير .

ويجب أن أحدثك عن قدومى إلى ناشفيل كيف اتفق ، وأن أؤكد لك أن هذا الاستطراد فيه من الإملال لى بقدر ما فيه لك — كنت ذاهبا إلى بلد آخر فى شأن لى ، فتلقيت من مجلة أدبية تصدر فى الشمال رسالة تكلفنى فيها أن أقف فى ناشفيل ، وأن أوجـد صلة شخصية بين المجلة و بين سيدة تكتب إليها اسمها أزاليا أدير .

وكانت أدير (التى لم يكن ثم مفتاح لشخصيتها غير خطها) ، قد بعثت إلى المجلة بطائفة من الفصول فى الأدب ، ومن القصائد ، أطراها المحررون إطراءاً عظيما ، فوكلوا إلىّ أن أتصل بأدير هذه ، وأن أعقد معها اتفاقا على أن توافى المجلة بما تكتب ، وأن يكون الأجر سنتين (الريال مائة سنت) لـكل كلمة ، وأن أعجل بذلك قبل أن يقع عليها ناشر آخر ، ويعرض عليها عشرة سنتات أو عشرين للكلمة .

ففى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى بعد أن قضيت وطرا من أكباد الفراريج (جربها إذا استطعت أن تهتدى إلى الفندق !) خرجت ، وكانت السماء

لا تزال تمطر ، فوقفت فى أول منعطف ، على « العم قيصر » ، وهو زنجى عظيم هرم كالأهرام ، وله وجه ذكرنى ببروتوس ، ثم بعد هنيهة بوجه المرحوم الملك ستّيوايا . وكان يرتدى أعجب معطف رأيته ، أو أتوقع أن أراه فى حياتى . فقد كان طويلا يتدلى إلى ساقيه ، وكان فى زمنه من أكسية قواد الاتحاديين فى الحرب الأهلية ، ولكن المطر والشمس والأيام نالت منه ، فرث ، وبهت وصار لونه ألوانا . ولا يسعنى إلا أن أتريث عند هذا المعطف ، فإن له لشأناً فى القصة — تلك القصة التى طال تلكؤها ، لأن المرء لا يكاد يتوقع أن يحدث شىء فى ناشفيل .

ولا شك أنه كان معطف قائد . وقد ذهب رأسه الذى كان ملتزقا به ، وكان صدره محلى بالأشرطة الزاهية الألوان . ولكن هذه الأشرطة اختفت ، وحلت محلها أشرطة من الكتان خيطت بعناية ، وقد بليت هذه الخطوط التى أريد بها أن تكون عوضا عما زال من البهاء ، وهيهات هذا من ذاك ، ولكن اليد التى خاطت هذه الأشرطة ، توخت أن تجرى على الأصل وتتبع خطوطه ، وتمت مأساة الكساء أو مهزلته بأن سقطت أزراره جميعا ما خلا واحدا هو الثانى من فوق . وكان لابسه يشده على بدنه بحبال من الكتان تمر بعرى المعطف و بثقوب فيما يقابلها من الشق الثانى . وما رأيت قط ثوبا كهذا فى ألوانه وحلاه ! وكان الزرار الباقى فى حجم نصف الريال ، وهو مصنوع من العظم الأصفر ومخيط إلى الثوب بالكتان .

وكان الزنجى واقفا بجانب مركبة عتيقة كان يمكن أن يفتتح بها حام بن نوح خطا بعد أن نزل من السفينة ، فلما اقتربت منها فتح الزنجى الباب ، وتناول منفضة من الجلد جعل يلوح بها ولا يستعملها ، وقال بصوت عميق :

« تفضل ياسيدى ! لن تجد ذرة واحدة من التراب فيها . . . عدت الآن فقط من جنازة يا سيدى ! »

فاستخلصت من قوله هـذا أنهم يعنون بنظافة المركبات فى مثل هذه المناسبات . فأجلت عينى فى صف المركبات الواقفة إلى جانب الرصيف ، فلم أر محلا للمفاضلة . فنظرت فى مذكرتى باحثا عن عنوان أزاليا أدير وقلت :

« إنى أريد أن أذهب إلى المنزل رقم ٨٦١ بشارع جيسامين » .

وهممت بالركوب ، ولـكن ذراعا طويلا غليظا كذراع الغوريللا اعترضنى وبدت على الوجه الضخم الـكئيب آيات الريبة والعداء ، ثم كأنما اطمأن فسأل :

« ماذا تبغى من الذهاب إلى هناك يا سيدى » .

فسألته بحدة : « وكيف يعنيك هذا ؟ » .

فقال : « لا شىء يا سيدى ، لا شىء يا سيدى . ولـكنه جانب موحش من المدينة ؛ وقل من له فى تلك الناحية عمل . ولـكن تفضل ياسيدى . المقعد نظيف ... عدت الآن فقط من جنازة يا سيدى » .

ولا بد أن تكون المسافة ميلا ونصف ميل إلى غايتنا ، وكنت لا أسمع إلا صوت العجلات القديمة على الطريق الذى لا استواء فيه ، ولا أشم إلا رائحة المطر مشوبة بدخان الفحم والقار ونوارات النبات المصوّح . وكل ما وسعنى أن أراه من خلال النافذة التى يسيل على وجهها المـاء ، صفان غير واضحين من المنازل على الجانبين .

« ومساحة المدينة عشرة أميال مربعة . ويبلغ طول شوارعها ١٨١ ميلا ، منها ١٣٧ ميلا مرصوفة . وقد كلفت المجارى مليون ريال ، وطولها ٧٧ ميلا » .

وكان البيت الذى وقفنا عنده عتيقا متداعيا . وهو قائم على مسافة ثلاثين ذراعا من الطريق ، وأمامه عدة أشجار جميلة ، ونباتات هائجة لم تشذب أو تقلم . وكان النبات يكاد يحجب السور الباهت ، وكان مصراعا الباب مربوطين بحبل فإذا دخلت أيقنت أن البيت لم يبق منـه إلا طيف أيامه الخوالى . ولـكنى لم أدخله بعد ، فيحسن أن أقصر حتى أفعل .

لما كفت العجلات عن ضوضائها ، ووقف الجوادان المـكدودان ، ناولت السائق خمسين سنتا ، وشيئا على سبيل التجزية ، وشعرت وأنا أفعل ذلك بوهج الـكرم ، ولـكنه رفض وقال :

« الأجر ريالان يا سيدى » .

فقلت : « كيف ؟ لقد سمعتك بوضوح تام تقول عند الفندق خمسون سنتا إلى أى مكان فى المدينة » .

فقال بعناد : « ريالان يا سيدى . هذه مسافة طويلة من الفندق »

فقلت : « إنها داخل نطاق المدينة . فلا تتوهم أنك وقعت على أبله ياصاحبى . أترى هذه الجبال ؟ » وأشرت إلى الشرق (وكنت أنا نفسى لا أراها من المطر !) ، لقـد ولدت ونشأت فى الناحية الأخرى منها ، أفلا تستطيع أيها الزنجى الأحمق أن تميز الناس وتعرف بعضهم من بعض حين تراهم ؟ » .

فلان ما كان جامدا من وجه الملك ستيوايا ، وقال : « أو أنت من أهل الجنوب يا سيدى ؟ أحسب أن حذاءيك هما اللذان خدعانى وغلطانى » .

« فقلت : « أحسب أن الأجرة الآن خمسون سنتا » .

فطاف بصفحة وجهه مزيج من الحرص والعداء ، ولـكنه ما لبث أن زال فقال :

« يا سيدى . الأجر خمسون سنتا ، ولا جدال : ولكنّ بى حاجة إلى هذين الريالين يا سيدى . إنى مضطر أن أحصل عليهما . ولست أطلبهما منك ، بعد أن عرفت من أين جئت ، ولكنى أقول فقط إن بى فقرا شديدا إلى هـذا القدر الليلة ، والعمل نزر ، وشحيح الخير » .

وانطبعت على أسارير وجهه آيات الثقة والاطمئنان . فقد كان أسعد حظا مما كان يرجو . فبدلا من أن يقع على غرير جاهل بالأجور ، ألفى نفســه حيال كنز موروث !

وقلت وأنا أدفع يدى فى جيبى « يا لك من لعين ! لأولى بك أن تسلم إلى الشرطة ! »

وللمرة الأولى رأيته يتبسم . لقد عرف ... وفهم ... وأدرك !

وناولته ورقتين بريالين . ولاحظت وأنا أمد يدى بهما إليه ، أن إحداها رثة ، أبلاها التداول ، فقد كانت الزاوية العليـا من اليمين مقطوعة ، وكانت الورقة مشطورة من منتصفها وموصولة بقطعة من الورق ملتزقة عند موضع التمزيق .

وحسبى الآن هذا عن الزنجى الشاطر ، فقد تركته سعيدا ، وحللت وثاق الباب وفتحته .

والبيت ، كما أسلفت ، صَدَفة ، وأحسب أن الفرشاة لم تلمسه بدهان منـذ عشرين سنة ، وقد تعجبت كيف لم تهدمه ريح قوية ، ثم رجعت البصر فى الأشجار القـائمة التى تحتضنه — الأشجار التى شهدت معركة ناشفيل والتى لا تزال تمد أغصانها الواقية حول البيت وتدفع عنه شر العواصف والأعداء والبرد واستقبلتنى أزاليا أدير ، وهى سيدة فى الخمسين من عمرها ، من سـلالة

الفرسان ، نحيلة معروقة منسرقة المنة كالبيت الذى تعيش فيه ، وعليها أرخص وأنظف ثياب وقعت عليها عينى ، ولها سمت ملكة .

وخيل إلىّ أن حجرة الاستقبال ميل مربع ، لأنه لم يكن فيها إلا بضعة صنوف من الكتب على رفوف من خشب أبيض غير مدهون ، ومنضدة قديمة متخاذلة عليها رخام ، و بساط كالخرقة البالية ، وأريكة رثة ، وكرسيان أو ثلاثة ، نعم كان على الحائط صورة — رسم بالطباشير الملون لزهرات من البنفسج ، وقد تلفت باحثا عن صورة أندرو جاكسون والسلة المعلقة ، ولكنى لم أجدها .

وقد دار بيننا حديث سأروى لك بعضه . وهى امرأة أنجبها الجنوب ، ونشأت فى عزلة ، ولم يكن علمها واسعا ، ولكنه كان عميقا ، وروح الابتكار فيها رائعة ، وقد تربت وتعلمت فى البيت ، فمعرفتها بالدنيا مستفادة من التفكير والإلهام ، وهذا هو طراز كتاب الفصول والرسائل . وكنت — وهى تحدثنى — أمسح أصابعى ، وأحاول ، وأنا غير مدرك لما أصنع ، أن أنفض عن يدى التراب الذى لم يعلق بهما من لام ، وتشوسر ، وهازليت ، ومارك أوريلياس ، ومونتانى ، وهود . والحق أنها كانت كنزاً رائعا ! فإن كل امرئ تقريبا يعرف فى هذه الأيام أكثر مما يجب — بل أكثر جدا مما يجب — عن الحياة الحقيقية .

وتبينت أن أزاليا أدير فقيرة جدا ، وخيل إلى أنها لا تملك أكثر من هذا البيت ، والثوب الذى ترتديه . وكنت ، وأنا أصغى إلى صوتها الذى يشبه صوت المعازف ، موزع النفس بين واجبى للمجلة وولائى للشعراء والكتاب ، ثم أيقنت أنى لا أستطيع أن أجرى لسانى فى هذا المقام بذكر اتفاق أو عقد . وعسير فى حضرة بنات الشعر أن يهبط المرء بالحديث إلى المساومة ، فلا بد من إرجاء

الأمر إلى جلسة أخرى بعد أن أستعيد روحى التجارية . ولكننى أفضيت إليها بالغاية من زيارتى ، واتفقنا على الاجتماع مرة أخرى فى الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم التالى لبحث الموضوع .

وقلت وأنا أتهيأ للانصراف (وهذا هو أوان الكلام العام الناعم) « إن مدينتك تبدو هادئة رزينة — قلما يحدث فيها شىء غير عادى » .

فبدا عليها التفكير ، وقالت بلهجة الإخلاص القوية التى هى من خصائصها « لم يخطر لى هذا من قبل . أليست الأماكن الهادئة الساكنة هى التى يحدث فيها ما ليس فى الحسبان ؟ يخيل إلى أنه لما شرع الله يخلق الأرض فى صباح يوم الاثنين الأول كان المرء يستطيع أن يطل من النافذة ، وأن يسمع صوت الطين الذى يسقط من الأصيص [1] وهو يبنى الجبال الخالدة ويرفعها . وماذا أثمر فى النهاية أشد الأعمال ضجة وضوضاء — أعنى بناء برج بابل ؟ ؟ صفحة ونصف صفحة من الإسبرنتو فى مجلة أمريكا الشمالية » .

فقلت : « إن الطبيعة البشرية واحدة فى كل مكان . ولكن بعض البلدان أقوى ألوانا ، وأحفل بالحركة وأزخر بالحياة من بعض » .

فقالت : « على السطح فقط . لقد جبت العالم وطوّفت فى آفاقه عدة مرات فى طيارة ذهبية ذات جناحين — الكتب والأحلام — ورأيت (فى إحدى رحلاتى الخيالية) سلطان تركيا يردى بيديه إحدى زوجاته لأنها سفرت أمام الناس . ورأيت رجلا فى ناشفيل يمزق بطاقات الدخول إلى المسرح لأن زوجته خرجت وعلى وجهها حجاب — من المساحيق والأصباغ . وفى حى الصينيين بسان فرنسيسكو رأيت الجارية « سنج بى » تُغمس قيراطا فقيراطا فى زيت الجوز

(١) شىء كالجرة يحمل فيه الطين الذى يستعمل فى البناء .

المغلى لتقسم ألا ترى عاشقها الأمريكى مرة أخرى . وقد أذعنت ، وأقسمت لما جاوز الزيت المغلى ركبتها بمقدار ثلاثة قراريط . ورأيت « كيتى مورجان » ينكرها ويقاطعها سبع من رفيقات صباها فى المدرسة وصواحبها طول حياتها لأنها تزوجت مبيّض حيطان . لقد كان الزيت المغلى يرتفع ويفور إلى ما فوق قلبها ، وليتك رأيت ابتسامتها الجميلة وهى تتنقل من مائدة إلى مائدة ! نعم . مدينتنا هادئة ! لاشىء سوى بضعة أميال من البيوت المبنية بالآجر الأحمر ، وإلا الطين ، والدكاكين ، والمخازن » .

ونقر بعضهم على الباب الخلفى للبيت ، فهمست أزاليا باعتذار خافت ، ونهضت لترى من الطارق ، وعادت بعد ثلاث دقائق ، وفى عينيها وميض ، وعلى وجنتيها اضطرام خفيف ، وبدت كأنما انحطت عنها عشر سنوات من عمرها .

وقالت : « ينبغى أن تتناول فنجانا من الشاى قبل أن تنصرف ، وكعكة مسكرة » .

ومدت يدها فهزت ناقوسا صغيراً من الحديد ، فجاءت زنجية صغيرة فى الثانية عشرة من عمرها ، وكانت حافية القدمين ، رثة غير نظيفة ، وحملقت فى وجهى بعينين جاحظتين وإصبعها فى فمها .

وفتحت أزاليا أدير كيسا دقيقا عتيقا بالياً وأخرجت منه ورقة نقدية بريال — وكانت الزاوية اليمنى من الورقة مقطوعة ، وهى ممزقة من الوسط وملزقة بورقة زرقاء . أعنى أنها إحدى الورقتين اللتين أخذهما منى السائق الزنجى — ما فى هذا شك .

وقالت أزاليا وهى تمد يدها بالورقة إلى الفتاة : « اذهبى إلى مخزن المستر بيكر يا إمبى وهاتى منه ربع رطل من الشاى — من النوع الذى يبيعنى منه دائماً —

وكمكا محلى بعشرة سنتات . اسرعى» ، والتفتت إلىّ وقالت على سبيل الإيضاح :
« لقد اتفق أن نفد ما عندنا من الشاى » .

وخرجت إمبى من الباب الخلفى ، وقبل أن ينقطع صوت قدميها الخافيتين هتكت حجاب السكون صرخة — لم يخالجنى شك فى أنها صرخة الفتاة — ثم اختلط صوت خشن عميق بصيحات البنت وألفاظها .

فنهضت أزاليا أدير وهى لا مستغربة ، ولا متأثرة وذهبت ، وظللت نحو دقيقتين أسمع صوت الرجل ، وتلت ذلك لعنة ثم وقع أقدام ، وعادت أزاليا هادئة إلى كرسيها .

وقالت : « إن البيت واسع ، وعندى ساكن فى جانب منه . وإنى آسفة لاضطرارى إلى العدول عن دعوتك إلى الشاى ، فقد تعذر الحصول على ذلك النوع من الشاى الذى أبتاعه دائماً . ولعل المستر بيكر يستطيع غداً أن يمدنى بحاجتى منه » .

وكنت على يقين من أن الفتاة إمبى لم تغادر البيت ، فاستأذنت فى الانصراف ، وتذكرت بعد أن قطعت مسافة من الطريق أنى لم أعرف اسم أزاليا أدير ، ولكن هذا يمكن إرجاؤه إلى الغد .

وفى ذلك اليوم نفسه ، تنكبت النهج القويم وأمالتنى عنه هذه المدينة التى لايحدث فيها شىء ، وما مضى علىّ فيها يومان ، ولكنى فى هذه المسافة القصيرة من الزمن ، رحت أكذب بلا حياء ، وأبرق بالكذب ، وأصبحت شريكا — بعد الحادثة — فى جريمة قتل .

وانعطفت عند آخر زاوية قرب الفندق ، فطالعنى ذلك العفريت السائق ذو المعطف الأثرى المتعدد الألوان ، وفتح باب ناووسه المتحرك ، ولوح بمنفضة

الريش وبدأ يكرر عبارته المحفوظة : « تفضل ياسيدى . المركبة نظيفة ، وقد عادت الآن من جنازة ، خمسون سنتا إلى أى — » .

ثم عرفنى فتبسم وقال : « لا تؤاخذنى ياسيدى ، إنك السيد الذى ركب معى هذا الصباح ، شكراً لك يا سيدى » .

فقلت له : « إنى ذاهب فى الساعة الثالثة بعد ظهر الغد إلى هناك مرة أخرى ، فإذا وجدتك هنا ، ركبت معك . إنك تعرف الآنسة أدير ؟ » .

وكنت أفكر فى ورقتى النقدية وأنا أسأله فقال :

« لقد كنت عبداً لأبيها القاضى أدير ياسيدى » .

فقلت : « أحسبها فقيرة جدا ، وليس عندها ما يستحق الذكر ، هه ؟ » .

فاربدت صفحة وجهه مرة أخرى ، وطالعنى منها محيا الملك سيتوايا ، ولكن سحنته ما لبثت أن عادت إلى مألوفها وقال ببطء :

« لن تراها تموت جوعا ياسيدى ،فإن لها الموارد للعيش ياسيدى . نعم لها موارد » .

فقلت : « سأنقدك خمسين سنتا ليس إلا » .

فقال بلهجة المتطامن : « لا ريب ياسيدى ، ولكنه كان لابد لى فى هذا الصباح من الحصول على الريالين » .

وعدت إلى الفندق ، وأبرقت بالأكاذيب وزعمت فى برقيتى أن الآنسة أزاليا أدير تطلب ثمانية سنتات أجراً للكلمة الواحدة . فجاءنى الرد : « أجبها إلى سؤلها وعجل ياغبى » .

وقبيل العشاء أقبل علىّ « الماجور » ونتورث كازويل يحيينى تحية من طال افتقاده لصديقه ، وقل بين من عرفت فى حياتى من أثاروا فى نفسى شعور

الـكراهية لهم من أول لحظة ، كما فعل هذا الرجل ، يضاف إلى هذا أن التخلص منه لم يكن بالأمر السهل ، وكنت واقفا عند المشرب « البار » لما « غزانى » فلم يتيسر لى أن أنشر فى وجهه الراية البيضاء ، وكان يسرنى أن أدفع ثمن الشراب ، على رجاء الخلاص ، ولـكنه كان من أولئك السكيرين الحمقاء ، الصخابين الذين ينشدون الإعلان عن أنفسهم ، ويودون لو عزفت الموسيقى وأطلقت الألعاب النارية كلما أنفقوا سنتا واحداً على حماقاتهم .

واتخذ هيئة المليونير وهو يخرج ورقتين كل منهما بريال ويلقى بواحدة على المشرب فوقعت عينى مرة أخرى على الورقة المقطوعة زاويتها العليا من اليمين ، والممزقة من الوسط ، وقد وصل النصفان بورقة زرقاء . فهى تطالعنى ثانية ، ولا يمكن أن تـكون غيرها .

وصعدت إلى غرفتى ، وقد اعترانى الملل والتعب والسهوم من هذه المدينة الجنوبية الـكئيبة التى لاينقطع مطرها ولا يحدث فيها شىء يختلف به الحال وتتنوع وجوه الحياة ، وأذكر أنى قبل أن يأخذنى النوم فـكرت فى أمر هذه الورقة النقدية فقلت لنفسى والنعاس يغالبنى : « يخيل إلى أن كثيرين هنا يملـكون أسهما فى شركة حوذية ! وتالله ما أسرع ما يقبض الشركاء أرباحهم ! ومن يدرى ... » ، وهنا غلبنى النوم .

وكان « الملك سيتوايا » فى مكانه فى اليوم التالى ، فأركبنى ورض لى بدنى فى الطريق الوعر إلى البيت رقم ٨٦١ . وقد أوصيته أن ينتظر ليرض لى عظامى مرة ثانية فى الإياب .

وكانت أزاليا أدير أنظف ، وأشد اصفراراً ، وأضعف منها فى اليوم السابق ووقعت العقد الذى يجعل أجرها على الـكلمة الواحدة ثمانية سنتات ، فزاد لونها

امتقاعا ، وانحدرت عن كرسيها إلى الأرض مغشيا عليها ، فحملتها بلا عناء إلى الأريكة العتيقة ، ثم ذهبت أعدو وأصيح بالزنجى أن يدعو طبيبا ، فأبدى من العقل مالم أكن أتوقع منــه ، وترك جواديه المعروقين وراح يجرى وقد أدرك قيمة السرعة ، وعاد بعد عشر دقائق ومعه طبيب حاذق وقور أبيض اللحية ، فشرحت له فى بضع كلمات (قيمة الواحدة منها دون ثمانية سنتات بكثير) سبب وجودى فى هذا البيت الفارغ الحافل مع ذلك بالأسرار والمعميات ، فانحنى لى وقد فهم عنى ، والتفت إلى الزنجى العتيق وقال بلهجة متزنة :

« ياعم قيصر ، إجر إلى بيتى واطلب من الآنسة لوسى أن تعطيك ملء وعاء من اللبن الطازج ، وقدحا من النبيذ وعد بسرعة . لا تركب — إجر . فإنى أريد أن تعود فى هذا الأسبوع ! » .

نخطر لى أن الدكتور مريمان أيضاً يشك فى قدرة جوادى الزنجى على العدو ، وبعد أن خرج العم قيصر مسرعا إلى الشارع رمانى الطبيب بنظرة فاحصة ولـكنها رقيقة ، وقال :

« إنها مسألة غذاء غير كاف ، وبعبارة أخرى ، هذه نتيجة الفاقة والـكبرياء والجوع . وإن للسيدة كازويل لأصدقاء مخلصين عديدين يسرهم أن يمدوا إليها يد المعونة ، ولـكنها لا تقبل شيئاً إلا من ذلك الزنجى العتيق — العم قيصر — الذى كان فيما مضى عبداً لأسرتها » .

فسألت متعجباً « السيدة كازويل ؟ » .

ثم ألقيت نظرة على العقد فرأيتها قد وقعته باسم « أزاليا أدير كازويل » .

وقلت : « كنت أحسبها الآنسة أدير » .

فقال الطبيب « لقد تزوجت سكيراً متشرداً يا سيدى . ويقال إنه يسلبها

حتى المبالغ الضئيلة التى يمدها بها خادمها القديم على سبيل المعونة » . .

واستطاع الطبيب ، بفضل اللبن والنبيذ ، أن ينعش أزاليا أدير ، فانطلقت تتحدث عن جمال أوراق الخريف وألوانها الزاهية ، وأشارت إلى نوبة الإغماء التى عرتها وعزتها إلى لغط قديم فى القلب ، وكانت الخادمة إمبى تروح على وجهها وهى راقدة على الأريكة ، وكان الطبيب مطلوبا لعيادة أخرى فتبعته إلى الباب وأخبرته أن فى وسعى وفى عزمى أيضاً أن أنقدها مبلغاً من المال على الحساب سلفاً ، فسره هذا .

وقال « على فكرة . قد يسرك أن تعرف أن هذا الحوذى من أرومة الملك ، فقد كان جده ملكا فى الكونجو ، ولعلك لاحظت أن لقيصر بعض سجايا الملوك »

وبينما كان الطبيب يمضى عنى ، سمعت العم قيصر يقول : « هل أخذ منك كلا الريالين جميعاً ياسيدتى ؟ » .

وسمعت أزاليا أدير تقول بصوت ضعيف « نعم يا قيصر » .

ودخلت بعد ذلك ، وقدمت لها خمسين ريالا على الحساب زاعما أن هذا إجراء شكلى لازم لنفاذ العقد . ثم عاد بى العم قيصر إلى الفندق .

وإلى هنا ينتهى ما أستطيع أن أقسم على الشهادة به . أما ما يلى فليس أكثر من سرد لوقائع .

حوالى الساعة السادسة خرجت من الفندق لأتمشى ، وكان العم قيصر واقفاً بمركبته فى مكانه المألوف . ففتح بابها ، ولوح بمنفضته ، وشرع يلقى عبارته المحفوظة التى تبعث على الكآبة « تفضل يا سيدى . خمسون سنتا إلى أى مكان فى المدينة . المركبة نظيفة جدا يا سيدى . عادت الآن فقط من جنازة — » .

ثم عرفنى ، وأحسب أن نظره بدأ يضعف . وكان معطفه قد اكتسب

ظلالا أخرى باهتة من الألوان ، وغاب الزرار الباقى الأخير — المصنوع من القرن الأصفر . فياله من حفيد ملك !

و بعد ساعتين رأيت ناساً كثيرين يتزاحمون على باب صيدلية . فكان هذا الحادث فى مدينة مملة أشبه بنزول المن والسلوى فى الصحراء ، فزاحمت حتى دخلت ، فأبصرت صناديق فارغة وكراسى قد اتخذ منها مرقد امتد عليه جثمان الماجور ونتورث كازويل ، وكان الطبيب يفحصه باحثاً عن ذماء من الحياة ، فلم يجده .

وقد وجدوه ميتاً فى طريق مظلم فحملوه إلى الصيدلية ،وكان كل شىء يدل على أنه سقط بعد عراك شديد . وقد كان فى حياته متشرداً ونذلا ، ولكنه كان شجاعاً ، غير أنه غُلب ، وكانت أصابعه مطبقة لا تفتح . وقد وقف حوله الذين عطفوا عليه ونقلوه إلى الصيدلية ، يحاولون أن يجدوا ما يثنون به عليه ، فقال رجل طيب منهم بعد تفكير طويل .

« لما كان كازويل فى الخامسة عشر كان من أبرع تلاميذ المدرسة فى التهجّى » .

و بينما كنت واقفاً ، تراخت أصابع يده اليمنى وكانت متدلية على جانب الصندوق ، فسقط منها شىء عند قدمىّ . فوضعت رجلى عليه بلا ضجة ، ثم احتلت حتى وسعنى أن ألقطه وأدسه فى جيبى . وقلت لنفسى أن يده ، وهى تعترك ، قبضت على هذا الشىء ، على غير قصد ، ثم تخشبت عليه فبقى فيها .

وكان أكثر ما يجرى فيه الحديث تلك الليلة بالفندق — مقتل الماجور كازويل . وقد سمعت بعضهم يقول لمن حوله .

« رأيى أيها السادة أن الذى قتل كازويل بعض هؤلاء الزنوج ، طمعاً فى

ماله ، فقد كان معه بعد ظهر اليوم خمسون ريالا أراها لـكثيرين فى الفندق .
ولما وجدوا جثته لم يجدوا معه المال » .

وبارحت المدينة فى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى ، ولما أخذ القطار يعبر الجسر القائم على نهر كامبرلاند ، أخرجت من جيبى زراراً من القرن الأصفر فى حجم نصف الريال وعليه خيوط عالقة به . وقذفت به من النافذة فى الماء الجارى تحت الجسر .

هـ . ج . ولز

١٨٦٦ – ....

آلة الزمان

مقـــدمة

كان الرحالة فى الزمن (ويحسن أن نعرفه بهذه الصفة) يشرح لنـا أمراً عويصاً وكانت عيناه تومضان ، ووجهه الممتقع فى العادة مضطرما يجرى فيه ماء الحياة ، وكانت النار الموقدة مرتفعة اللهب ، ومقاعدنا كأنما تضمنا وتغازلنا ، والجو كما يكون بعد العشاء ؛ إذ تجرى الخواطر فى سلاسة لا تعوّقها الدقة والإحكام . وكان هو يتكلم شارحا — ومشيراً بإصبعه المعروق — ونحن جلوس حوله ، نعجب فى كسل واسترخاء بأخذه هـذه النقيضة (كما كنا نتوهمها) مأخذ الجد ، إعجابنا بخصوبة ذهنه .

فقال « يجب أن تتبعونى بدقة وعناية ، وسأنقض رأيا أو بضعة آراء شائعة ، فإن الهندسة التى تعلمتموها فى المدرسة ، مثلا ، قائمة على خطأ فى التصور » .

فقال فيلبى — وهو رجل أحمر الشعر يحب الجدل — « أليس من الشطط أن تتوقع منا الابتداء بهذا القول ؟ » .

فقال « لست أنوى أن أطالبكم بالتسليم بشىء بغير دليل كاف . وستسلمون بما فيه الكفاية لى . وأنتم تعرفون أن الخط الرياضى — الخط الذى لا سمك له — ليس له وجود حقيقى . ألم يعلموكم هذا ؟ ومثله السطح الرياضى . هذه مجرد فروض نظرية ليس إلا . »

فقال النفسانى « صحيح » .

فعاد يقول « والمكعب الذى ليس له سوى طول وعرض وسمك ، ليس له وجود حقيقى » .

فقال فيلبى « أنا أعترض على هذا التقرير ، فإن الجسم ذا الطول والعرض والسمك يوجد . وكل حقيقى من الأشياء . . . » .

قال « هذا ما يظنه الأكثرون . ولكن مهلا . هل يمكن أن يوجد مكعب لا يبقى أى بقاء زمنى ؟ » .

فقال فيلبى « لست فاهما » .

قال «هل يكون للمكعب الذى لا يبقى أية فترة من الزمن ، وجود حقيقى ؟ »

فبدت على فيلبى هيئة المفكر ، ومضى الرحالة فى الزمن يقول .

« من الواضح أن كل جسم حقيقى لا بد أن يكون له امتداد فى أربعة اتجاهات . فلا بد أن يكون له طول ، وعرض ، وسمك و — بقاء زمنى . ولكننا لضعف طبيعى فينا — سأشرحه بعد لحظة — نميل إلى إغفال هذه الحقيقة ، وهناك إذا اعتبرنا الواقع ، أبعاد أربعة ، الثلاثة المعروفة ، والرابع الزمن ، ولكنّ هناك ميلا إلى التفريق بين هذه الأبعاد الثلاثة ، و بين الرابع ، لأن وعينا يتحرك على نحو متقطع فى اتجاه واحد مع الزمن من بداية العمر إلى ختامه » .

فقال شاب يحاول أن يشعل سيجارته مرة أخرى من المصباح « هذا ... هذا واضح جدا » .

وعاد الرحالة فى الزمن يقول « ومن العجائب أن الإغضاء عن هذا عام . وهذا هو معنى البعد الرابع ، وإن كان بعضهم حين يذكرونه لا يدرون أنهم يعنون هذا . على أن هذه ليست إلا وجهة نظر أخرى . فما ثم فرق بين الزمن و بين أى واحد من الأبعاد الثلاثة سوى أن وعينا يسير فى اتجاهه ، غير أن

بعض الحمقى تناول الفكرة من طرفها المغلوط ، وأحسبكم سمعتم بما يقولون فى هذا البعد الرابع ؟ » .

فقال عمدة من الريف « أنا لم أسمع » .

فقال « هذا هو — إن الفضاء ، كما يقول علماؤنا الرياضيون ، له ثلاثة أبعاد يمكن أن نقول إنها الطول ، والعرض ، والسمك ، ويمكن تحديده دائما بالنسبة إلى سطوح ثلاثة كل منها على زاوية قائمة من الآخرين . ولكن بعض المتفلسفين يتساءلون لماذا تكون الأبعاد ثلاثة على الخصوص ؟ لماذا لا يكون هناك اتجاه آخر على زاوية قائمة من الأخرى ؟ وقد حاولوا فعلا أن يوجدوا هندسة رباعية الأبعاد . وقد كان الأستاذ سيمون نيوكوم يشرح هذا للجمعية الرياضية فى نيويورك منذ حوالى شهر فقط ، وأنتم تعرفون أننا نستطيع — على سطح ليس له سوى بعدين اثنين — أن نرسم شكلا ذا أبعاد ثلاثة . ولهذا يرون أنه بواسطة نماذج ذات أبعاد ثلاثة ، يمكن تمثيل شكل ذى أبعاد أربعة إذا وسعهم أن يتمثلوا صورته . »

فقال العمدة الريفى « أظن ذلك » وزوى ما بين عينيه ، وشردت نظرته ، وصارت شفتاه تختلجان كأنما يردد ألفاظاً خفية « نعم . أظن أنى فهمت الآن » قال هذا بعد هنيهة ، وأشرق وجهه لحظة .

« ولست أكتمكم أنى شغلت نفسى بهذه الهندسة الرباعية الأبعاد زمنا ، وبعض ما وصلت إليه ، عجيب . فمثلا ، هذه صورة رجل فى الثامنة من عمره ، وهذه أخرى فى الخامسة عشرة ، وثالثة فى السابعة عشرة ، ورابعة له فى الثالثة والعشرين وهكذا ، وبديه أن هذه جميعاً جوانب له — صور ثلاثية الأبعاد . لكيانه الرباعى الأبعاد — وهو شىء ثابت لا يتغير » .

ومضى فى كلامه بعد فترة كافية لاستيعاب هذا المعنى « إن العلماء يعرفون أن الوقت ليس إلا ضربا من الفضاء . هذا رسم بيانى لتقييد الحالة الجوية . وهذا الخط الذى أتتبعه بإصبعى يبين حركة البارومتر ، وقد كان المقياس أمس عاليا إلى هنا ، فهبط فى الليل ، وعاد هذا الصباح إلى الارتفاع إلى هنا . ومن المحقق أن الزئبق لم يرسم هذا الخط فى أى واحد من أبعاد الفضاء المعترف بها . ولكنه رسم الخط ، فهذا الخط لايسعنا إلا أن نقرر أنه على اتجاه بعد الزمن » .

فقال رجل الطب ، وهو يحدق فى النار « ولكن إذا كان الزمان ليس أكثر من بعد رابع فى الفضاء ، فلماذا يعد — ولماذا كان دائماً يعد — شيئاً مختلفا ؟ ولماذا لا نستطيع أن نتحرك فى الزمن كما نتحرك فى الأبعاد الأخرى فى الفضاء ؟ » .

فابتسم الرحالة فى الزمن وقال : « أواثق أنت أننا نستطيع أن نتحرك بحرية فى الفضاء ؟؟ إننا نذهب يميناً ونذهب شمالا ، ونمشى قدما ، ونرجع القهقرى بحرية ، ومازال الناس يقدرون على ذلك ، وإنى لأعترف أننا نتحرك بحرية فى بعدين ، ولكن ما القول فى « فوق » و « تحت » ؟ إن الجاذبية تحد من حركتنا هنا » .

فقال رجل الطب : « كلا ، فإن هناك البالون » .

قال : « ولكن قبل عهد البالون ، وفيما عدا القفز والوثب وعدم استواء السطح ، لم تكن للإنسان حرية فى الحركة الفوقية » .

فقال رجل الطب : « على كل حال يستطيع أن يتحرك قليلا إلى فوق ، وإلى تحت » .

« الحركة إلى تحت ، أسهل — أسهل جدا » .

« ولا سبيل إلى الحركة فى الزمن — لا تستطيع أن تجاوز اللحظة الحاضرة » .

« يا سيدى العزيز ، هذا هو موضع الخطأ . هذا هو الذى أخطأ فيه العالم كله ، فإننا لا ننفك نجاوز اللحظة الحاضرة ، ووجودنا العقلى — وهو غير مادى وليس له أبعاد — يمضى على بعد الزمن بسرعة منتظمة من المهد إلى اللحد كما نسير إلى تحت ، إذا بدأنا وجودنا على ارتفاع خمسين ميلا فوق سطح الأرض » .

وقال النفسانى مقاطعاً : « ولكن الصعوبة هى أننا نستطيع أن نتحرك فى كل اتجاه فى الفضاء ، أما فى الزمن فلا » .

« هذه جرثومة اكتشافى العظيم ، وأنت مخطئ حين تقول إننا لا نستطيع أن نروح ونجىء فى الزمن . مثال ذلك ، أن أتذكر حادثة بوضوح ، فأنا أكر راجعاً إلى اللحظة التى وقعت فيها ، أو يشرد فكرى ، فأنا أثب راجعاً مسافة لحظة . ولا أحتاج أن أقول إنه ليس لنا وسيلة نستطيع بها التلبث فى رجعاتنا وكراتنا هذه ، أى مسافة من الزمن ، كما لا يستطيع الإنسان المستوحش ، أو الحيوان أن يبقى فى الهواء على ارتفاع ستة أقدام من الأرض ، ولكن الإنسان المتحضر أحسن حالا من المستوحش فى هذا ، فإن فى وسعه أن يصعد فى الجو ببالون على الرغم من الجاذبية ، فلماذا لا يحق له أن يرجو أن يستطيع آخر الأمر أن يقف ، أو يسرع على سنن البعد الزمنى ، أو حتى أن يدور ، ويطوف فى الناحية الأخرى ؟ » .

فقال فيلبى : « آه ، هذا كله . . . »

فسأله الرحالة فى الزمن : « لم لا »

قال فيلبى : « إنه مما لا يقبله العقل » .

فسأله : « أى عقل ؟ » .

فقال فيلبى : « قد تستطيع أن تثبت أن الأسود أبيض ، ولكنك لن تقنعنى » .

قال : « ربما .. ولكنك بدأت تدرك الغرض من بحوثى ، فى الهندسة الرباعية الأبعاد . ومنذ زمن بعيد خطر لى على نحو غامض ، أن فى الوسع صنع آلة » .

فصاح الشاب: « للطواف بها فى الزمن ؟ » .

« يمكن الطواف بها فى أى اتجاه فى الفضاء والزمن على هوى مسيّرها » .

فاكتفى فلبى بالضحك .

فقال : « ولكنى جربت إثبات ذلك عمليا » .

فقال النفسانى : « إن هذا يكون مفيدا جدا للمؤرخ ، فيستطيع أن يكر راجعاً ، ويحقق ما حدث فى معركة هيستنجز مثلا » .

وقال رجل الطب : « ألا تخشى أن تلفت إليك الأنظار ؟ إن أجدادنا لم يكن حظهم جزيلا من سعة الصدر » .

وقال الشاب : « ويسع الإنسان أن يتلقى اللغة الإغريقية من فم هومر أو أفلاطون ! وثم المستقبل ، تصور هذا ! فى وسع المرء أن يستثمر كل ماله ويتركه ينمو ويزداد ، ويسرع فيسبقه » .

فقلت : « فيجد الجماعة الإنسانية قائمة على مقتضى نظام شيوعى دقيق ! » .

وقال النفسانى : « يا له من شطط فى التصور والخيال ! » .

« نعم ، هذا ما كنت أظن فى بداية الأمر ، ولهذا لم أفه بكلمة عنه حتى — » .

فصحت : « حتى حققته بالتجربة ! أتريد أن تثبت هذا ؟ » .

وصاح فيلبي وقد كل ذهنه : « التجربة ! » .

وقال النفسانى : « أرنا تجربتك على كل حال ، وإن كان الأمر كله كلاما فارغا » .

فابتسم لنا الرحالة فى الزمن ، وهو يدير فينا عينيه ، ثم تركنا وخرج على مهل ، ويداه فى جيبى بنطلونه ، وكنا نسمع وقع قدميه ، وهو ماض إلى معمله .

فقال النفسانى : «ترى ماذا عنده» .

فقال رجل الطب : « لعبة بارعة ، أو ما هو منها بسبيل » .

وهم فلبي أن يحدثنا عن حاو فى « بيرسلم » ، ولكن قبل أن يفرغ من مقدمة كلامه دخل الطواف فى الزمن ، فانهارت القصة .

— ٢ —

الآلة

كان الذى يحمله الرحالة فى الزمن آلة من المعدن اللامع لا تزيد فى الحجم على ساعة صغيرة ولكنها دقيقة الصنع . وكان فيها عاج ومادة أخرى بلورية شفافة . ويحسن بى هنا أن أتحرى الدقة لأن ما سأورده ليس له تعليل إلا إذا سلمنا بتعليله . فقد تناول إحدى المناضد المثمنة الأضلاع ووضعها أمام الموقد ، فكانت اثنتان من قوائمها على السجادة . ووضع الآلة على هذه المنضدة ، ثم جر كرسيا وقعد عليه . ولم يكن على المنضدة شيء آخر سوى مصباح صغير مظلل كان ضوءه مسلطاً على هذه الآلة النموذجية . وكان فى الغرفة أيضاً حوالى اثنتى عشرة شمعة ؛ اثنتان منها فى شمعدانين من النحاس على الصفة ، والبقية فى شمعداناتها الموزعة فى الغرفة ، فالغرفة حسنة الضوء . وقعدت أنا على كرسى

بجانب الموقد وزحفت به حتى صرت بين الرحالة فى الزمن و بين النار . وجلس فيلبى وراءه يطل من فوق كتفه ، وكان رجل الطب والعمدة على يمينه والنفسانى على يساره ، ووقف الشاب خلف النفسانى وكنا جميعاً متحفزين متربصين ؛ فما لا يقبله العقل أن يخدعنا خادع مهما بلغ من حذقه و براعته .

ونظر إلينا الرحالة فى الزمن ثم رد بصره إلى الآلة فقال النفسانى « نعم ؟ » .

فأسند المطوف مرفقيه ، وضم راحتيه فوق الآلة وقال : « هذه الآلة الصغيرة ليست سوى نموذج لآلة يطوف المرء بها فى الزمان . وتلاحظون أنها تبدو مائلة ، وأن لهذا القضيب وميضاً غريباً ، كأنه شىء لا حقيقة له » . وأشار إلى القضيب بإصبعه « وهنا أيضاً رافع أبيض صغير . وهنا واحد آخر » .

فنهض رجل الطب عن كرسيه وحدق فى الآلة وقال : « إنها بديعة الصنع »

فقال الرحالة فى الزمن : « قد سلخت فى صنعها عامين » و بعد أن تأملناها جميعاً مضى يقول : « وأحب أن تعرفوا أن هذا الرافع إذا ضُغط يدفع الآلة فتنساب فى المستقبل ، وهذا الرافع الآخر يعكس الحركة والاتجاه . وهذا السرج يمثل مقعد المطوف . وسأضغط الرافع فتنطلق الآلة ماضية ، وتختفى ، وتنتقل إلى المستقبل ، وتغيب فيه . فتأملوها جيداً ، وأديروا عيونكم فى المنضدة لتكونوا على يقين من أنه لا خدعة هناك . فلست أحب أن أفقد هذا النموذج ثم يقال لى بعد ذلك إنى مشعوذ » .

وساد السكون لحظة ، وكأنما هم النفسانى بأن يخاطبنى ثم عدل ثم مد المطوف إصبعه إلى الرافع ولكنه قال فجأة : « كلا . بل هات أنت يدك » والتفت إلى النفسانى فتناول يده وأمره أن يمد سبابته ، فكان النفسانى هو الذى أرسل نموذج آلة الزمان فى رحلتها التى لا نهاية لها . ورأينا كلنا الرافع

يتحرك . وكنت على يقين جازم من أنه لا خداع فى الأمر . وهبت نسمة فوثب لهب المصباح ، وانطفأت إحدى الشمعتين على الصفة ، ودارت الآلة بغتة ، وغمضت ، وبدت كالشبح مقدار ثانية ، أو كموجة من لمع العاج والنحاس ، ثم غابت — اختفت . ولم يبق على المنضدة سوى المصباح .

وساد السكون مرة أخرى ثم قال فيلبى إنه لعين .

وأفاق النفسانى من ذهوله وانحنى لينظر تحت المنضدة ، فضحك الرحالة فى الزمن مسروراً وقال : « ثم ماذا ؟ » ثم نهض إلى وعاء الطباق على الصفة وشرع يحشو بيبته ، وظهره إلينا .

ونظر بعضنا إلى بعض ثم قال رجل الطب : « اسمع . أأنت جاد ؟ أتعتقد حقيقة أن هذه الآلة ذهبت تطوف فى الزمن ؟ » .

فقال الرحالة وهو ينحنى ليشعل عوداً من النار « لا شك » ثم دار وهو يوقد الطباق ، ونظر إلى وجه النفسانى الذى أراد أن ينفى عن نفسه مظنة الاضطراب فتناول سيجاراً وهم بأن يشعله من قبل أن يقطعه .

ومضى الرحالة يقول : « وأزيد على ذلك أن عندى آلة كبيرة كاد صنعها يتم . (وأشار إلى المعمل) ومتى تمت فإن فى عزمى أن أقوم برحلة » .

فسأله فيلبى : « هل تعنى أن هذه الآلة تطوف فى المستقبل ؟ » .

« فى المستقبل — أو فى الماضى — فلست أعرف على وجه التحقيق » .

فقال النفسانى بعد هنيهة ، وكأنما ألهم شيئاً : « لا بد أن تكون قد ذهبت فى الماضى ، إذا كانت قد ذهبت إلى شىء » .

فسأله الرحالة فى الزمن : « ولماذا ؟ » .

فقال : « لأنى أفترض أنها لم تذهب فى الفضاء ، فلو أنها ذهبت تطوف

فى المستقبل لبقيت هنا طول الوقت » .

فقلت : « ولكن إذا كانت قد ذهبت تجوب الماضى ، فقد كانت خليقة أن تكون مرئية عند ما دخلنا هذه الغرفة — ويوم الخميس الماضى لما كنا هنا — والخميس الذى قبله ، وهكذا » .

فقال العمدة بلهجة المنصف الذى لا يتحيز : « اعتراضات وجيهة » ، ونظر إلى الرحالة فى الزمن .

فقال هذا : « كلا . (ونظر إلى النفسانى) فكر ، فإن فى وسعك أن تشرح هذا ، إنه عرض مركز » .

فقال النفسانى ، وهو يطمئننا : « صحيح . صحيح . هذه مسألة سهلة فى علم النفس . وكان ينبغى أن أتذكرها ولا أغفل عنها ، وهى واضحة كفيلة بتعليل التناقض على وجه مرضى . فنحن لا نستطيع أن نرى هذه الآلة ، ولا أن ندرك وجودها ، كما لا نستطيع أن نرى محور عجلة دائرة ، أو رصاصة منطلقة فى الهواء . وإذا كانت تجوب الزمن بسرعة أكبر من سرعتنا خمسين مرة أو مائة مرة ، وإذا كانت تقطع الدقيقة على حين لا نقطع نحن سوى ثانية ، فإن الوقع الذى تحدثه يكون بالبداهة معادلا لواحد على خمسين ، أو واحد على مائة من وقعها لو أنها لم تكن تجوب الزمن . وهذا واضح جدا » .

وأمر يده فى حيث كانت الآلة ، وقال وهو يضحك : « أترون »

فلبثنا هنيهة نحدق فى المنضدة التى خلت مما كان عليها ثم سألنا الرحالة فى الزمن رأينا .

فقال رجل الطب : « إن الأمر يبدو فى ليلتنا هذه ، معقولا جدا ، ولكن انتظر إلى الغد — انتظر حتى يعود الرشد مع الصباح » .

فسألنا الرحالة فى الزمن : « أتريدون أن تروا آلة الزمن نفسها ؟ »

وتناول المصباح وتقدمنا فى الدهليز الطويل الكثير التيارات إلى معمله ، وما زلت أذكر الضوء المضطرب ، ورأسه العريض العجيب ، والظلال الراقصة وكيف كنا نتبعه ونحن حائرون لا نكاد نصدق ، وكيف رأينا فى المعمل نسخة مكبرة من الآلة التى شهدنا بأعيننا اختفاءها . وكانت أجزاء منها من النيكل وأخرى من العاج ، وغيرها مبروداً أو مقطوعاً بالمنشار من البلورات الصخرية ، وكانت الآلة على وشك التمام ، ولكن القضبان البلورية الملتوية كانت ملقاة على مقعد ، وإلى جانبها بعض الرسوم ، فتناولت أحدها لأتأمله ، نخيل إلى أنه من حجر الصوان .

وقال رجل الطب : « اسمع ، هل أنت جاد ؟ أم ترى هذه خدعة ، كذلك الشبح الذى أريتنا إياه فى عيد الميلاد ؟ » .

وقال الرحالة فى الزمن ، وهو يرفع المصباح : « بهذه الآلة سأقوم برحلة فى الزمن ، فهل كلامى واضح ؟ إنى أتكلم جادًا » .

فلم ندر كيف نتلقى قوله .

ولمحت فيلبى ينظر من فوق كتف الطبيب ، فغمزنى بعينه .

— ٣ —

الرحالة فى الزمن يعود

أظن أننا لم نكن فى ذلك الوقت نؤمن بآلة الزمن ، والواقع أن الرحالة فى الزمن من هؤلاء الذين تجدهم أذكى وأبرع من أن تستطيع تصديقهم والاطمئنان إليهم ، فإنك لا تشعر وأنت معه أنك تراه من كل الجهات ، ولا تزال تحس

أن هناك شيئاً مغيباً عنك ، أو متربصاً لك من وراء صراحته المشرقة ، ولو أن فيلبي كان هو الذى أرانا الآلة وشرحها بألفاظ الرحالة فى الزمن لـكان شكنا أقل وترددنا أضأل ، لأنه كان يسعنا أن ندرك بواعثه ، فما يعجز أحد عن فهم فيلبي ، ولـكن الرحالة فى الزمن رجل آخر ، تمتزج بعناصر نفسه نزعات خفية ، فنحن نتوجس من ناحيته ، وما هو خليق أن يُـكسب من هو دونه ذكاء ، الشهرةَ وبعـد الصيت ، كان يبدو كالألاعيب فى يديه . وأحسب أن من الخطأ أن يفعل المرء الشىء بمثل هذه السهولة المفرطة . وكان الجادون معه لا يستطيعون أن يعرفوا كيف يكون سلوكه ، وكانوا يشعرون أنهم معه كالأوعية والأدوات المصنوعة من الصينى فى غرف الأطفال ، ومن أجل هذا لا أظن أن أحداً منا أطال القول فى هذا الطواف فى الزمن فى الفترة بين ذلك الخميس والخميس الذى تلاه . وإن كانت غرائب احتمالاته ظلت تدور ولا شك فى النفوس — أعنى إمكانه أو استحالته فى الواقع وما إلى ذلك . وكنت مشغولا بالنموذج وقد تناولته بالبحث مع رجل الطب لما قابلته يوم الجمعة فى النادى فقال لى إنه رأى ما يشبهه فى « توبنجن » وألفيته معنيا جدا بانطفاء الشمعة ، ولـكنه قال إنه لا يستطيع إيضاح الأمر .

وفى يوم الخميس التالى قصـدت إلى رتشموند — وأحسب أنى من الزوار المواظبين للرحالة فى الزمن — فوجدت أربعة أو خمسة سبقونى إلى الاجتماع فى غرفة الاستقبال ، وكان رجل الطب واقفاً أمام الموقد وفى إحدى يديه رقعة وفى الأخرى ساعة . فتلفت باحثاً عن الرحالة فى الزمن فقال رجل الطب : « إنها الساعة السابعة والنصف الآن ، أفلا يحسن أن نتعشى ؟ » .

فسألت : « وأين ... ؟ » وسميت مضيفنا .

« أولم تحضر إلا الساعة ؟ هذا غريب ! لقد عاقه عن الحضور ما لا حيلة له فيه ، و بعث إلى برقعة يرجو منى فيها أن أنوب عنه فى العشاء معكم فى الساعة السابعة إذا كان لم يحضر ، وسيفضى إلينا بالباعث على تخلفه حين يجئ » .

فقال محرر جريدة يومية مشهورة : « إنه يكون من دواعى الأسف أن ندع العشاء يفسد » .

فدق الطبيب الجرس

وكان النفسانى هو الوحيد الذى شاركنا مع الطبيب فى العشاء السابق ، أما الجديدون فهم بلانك الصحفى الذى أسلفت الإشارة إليه ، وصحفى آخر معه ، وثالث ، رجل حيي ذو لحية — لا أعرفه ولا أذكر أنه فتح فمه على العشاء بكلمة واحدة . ودار الحديث على المائدة فيما عسى أن يكون الداعى إلى تخلف الرحالة فى الزمن ، فقلت لعله التجواب فى الزمن ، وكنت أقرب إلى المزح منى إلى الجد ، فطلب منى المحرر أن أشرح له معنى هذا القول ، فتولى عنى النفسانى البيان وقص ما شهدناه فى الأسبوع الماضى ، وإنه لفى هذا وإذا بالباب يفتح على مهل و بلا صوت ، وكان وجهى إليه فرأيته قبل غيرى وقلت « هاللو ! أخيراً ! » ودخل الرحالة فى الزمن ووقف أمامنا ، فندت عنى صيحة استغراب ، وقال رجل الطب : « يا للسماء ! ماذا دهاك أيها الرجل ؟ » ودارت العيون كلها إلى ناحية الباب .

وكانت حالته مدهشة . فقد كانت ثيابه معفرة وقذرة وكماه ملوثين بمادة خضراء ، وكان شعره منفوشاً وقد زاد فيه الشيب اشتعالا على ما بدالى — مما عليه من التراب أو لأن لونه حال — وكان وجهه أصفر ، وفى ذقنه جرح — جرح يكاد يلتئم — وكانت معارفه واشية بالتعب والفتور كأنما كان يعانى برحا

ثقيلا ، وقد تردد لحظة وهو واقف بالباب كأنما أزاغ النور بصره ، ثم دخل ، وكان يظلع فى مشيته كما يفعل الذين أحفاهم طول السعى . فأتأرناه النظر فى صمت ، منتظرين أن يتكلم .

ولكنه لم ينبس بحرف ، بل مشى متحاملا على نفسه إلى المائدة ، وأشار إلى الشراب فملأ له المحرر قدحا من الشمبانيا ، فكرعه وبدا عليه الانتعاش ، فقد أدار عينه فى المائدة ، وقد خفقت على محياه ابتسامته المعهودة ، وسأله الطبيب : « ماذا كنت تصنع ؟ » . ولكنه كان كأنه لا يسمع ، وقال بصوت مضطرب : « لا تنزعجوا فإنى بخير » وأمسك ، ومد يده بالقدح يطلب ملئه ، وأفرغه فى فمه وقال : « هذا حسن » وازدادت عيناه التماعاً ، وعاد إلى وجهه الدم ، وكان لحظه يتنقل من وجه إلى وجه ، وفيه معنى الرضى والموافقة ، ثم جالت عينه فى الغرفة الدافئة الوثيرة وقال وكأنه يتحسس طريقه : « سأغتسل وأغير ثيابى ، ثم أنزل إليكم وأفضى إليكم بما عندى ... أبقوا لى شيئاً من هذا اللحم ، فإنى أتضور من فرط اشتهائه » .

ونظر إلى المحرر — وكان زائراً مغبًّا — وأعرب عن رجائه أن يكون مسروراً . فهم المحرر بسؤال فكان الرد : « سأجيبك بعد لحظة ، فإنى — دائر الرأس — وسأكون بخير بعد برهة » .

ووضع القدح ، ومضى إلى باب السلم ؛ فلاحظت مرة أخرى أنه يظلع ، وأن وقع قدميه خافت فوقفت أنظر وأنا فى مكانى ، فأخذت عينى قدميه وهو يخرج ، فإذا هما حافيتان ليس عليهما إلا جوربان ممزقان ملوثان بالدم ، وأغلق الباب وراءه ، وحدثتنى نفسى أن أتبعه ، ولكنى تذكرت أنه يمقت اللغط والضجات ، وشرد ذهنى لحظة ، ثم سمعت المحرر يقول : « سلوك غريب من عالم

شهير » — كأنما يكتب عنواناً لخبر . فردنى هذا إلى المائدة البهيجة .

وقال الصحفى : « ما هى الحكاية ؟ إنى لست فاهما ؟ » .

والتقت عينى بعين النفسانى ، فقرأت فى وجهه التفسير الذى خطر لى ، ورحت أفكر فى الرحالة فى الزمن وهو يصعد الدرجات متكئاً على نفسه . وما أظن أن أحداً غيرى لاحظ عرجه .

وقد كان الطبيب أول من ثابت إليه نفسه ؛ فدق الجرس — فقد كان الرحالة فى الزمن يكره أن يقف الخدم وراء المائدة — وطلب طبقاً . فعاد المحرر إلى الشوكة والسكين وهو يزوم ، وفعل مثله الرجل الصموت . وعدنا إلى الطعام ، وكان الحديث عبارة عن جمل متقطعة تتخللها فترات استغراب ، ثم لم يطق المحرر أن يظل يكتم ما يخامره فقلت له : إنى واثق أن ما به راجع إلى هذه الآلة وتناولت رواية النفسانى ووصفه لما شهدناه من حيث قطعه وكان الجديدون من الضيوف صرحاء فى رفض التصديق . وجعل المحرر يثير الاعتراضات ويتساءل : « ما هو هذا التطويف فى الزمان ؟ إن الإنسان لا يستطيع أن يعفر نفسه بالتراب بأن يتمرغ فى بعض النقائض ؟ » .

ولما أحاط بالموضوع تناوله بالتهكم وسأل : أليس عند الناس فى المستقبل فرشاة لنفض التراب عن الثياب ؟

وكان الصحفى كذلك يأبى أن يصدق ، فانضم إلى المحرر وعاونه على ركوب الأمر بالسخرية . وكان كلاهما من الطراز الحديث فى الصحافة — أى شابا مرحاً لا يوقر شيئاً ، وأنشأ الصحفى يقول : « يروى مكاتبنا الخاص فيما بعد غد . . . » وإذا بالرحالة فى الزمن يدخل علينا فى ثياب السهرة العادية ، ولا شىء يشى بما طرأ عليه من التغير الذى أزعجنى سوى نظرته الفاترة .

وصاح به المحرر : «لقد كان هؤلاء الفتيان يقولون إنك كنت تجوب منتصف الأسبوع المقبل ! فهات لنا القصة . وعين الثمن الذى تتقاضاه لقاء ذلك » .

فتقدم الرحالة فى الزمن إلى المقعد المحفوظ له بلا كلام ، وابتسم ابتسامته الهادئة وقال : « أين اللحم ؟ يا لها من نعمة ، أن يغرز المرء شوكته فى اللحم مرة أخرى » .

فصاح المحرر : « القصة ! » .

فقال الرحالة فى الزمن : « لعنة الله على القصة ! إنى أريد شيئاً آكله . ولن أنطق بكلمـــة واحدة حتى أنعش الدم فى شراييني . شكراً ، والملح من فضلك » .

فقلت : « سؤال واحد . هل كنت تجوب الزمان ؟ » .

فقال : « نعم » ، وهز رأسه وفمه محشو .

وقال المحرر : « إنى مستعد أن أنقده شلناً على كل كلمة » .

ودفع الرحالة قدحه إلى الرجل الصامت ونقر عليه بأظافره ، وكان الرجل الصامت يحدق فى وجهه ، فانتبه ، وصب له الشراب الذى يبغيه . ولبثنا قلقين إلى آخر العشاء ، وكانت شفتاى تضطربان ، بما أهم بالسؤال عنه ، وأحسب أن غيرى كان شأنه كشأنى . وحاول الصحفى أن يخفف وطأة الحال بحكايات يقصها عن « هيتى بوتر » . وكان الرحالة فى الزمن عاكفاً على الطعام يلتهمه التهام من طال حرمانه . وأشعل الطبيب سيجارة ، وذهب يدخن ويراقب الرحالة فى الزمن ، وبدا الرجل الصامت أشد اضطراباً مما يكون عادة ، فأقبل على الشمبانيا يكرع منها بانتظام وإلحاح من فرط مابه من الاضطراب العصبى ، وأخيراً دفع الرحالة فى الزمن طبقه وأقصاه عنه ، وهو يتلفت ويقول : « أحسب

أن على أن أعتذر . ولـكن الحقيقة أنى كنت أتضور جوعاً . وقد قضيت فترة مدهشة العجائب » ، وتناول سيجاراً وقطع طرفه ، وقال : « تعالوا إلى غرفة التدخين ، فإنها حكاية طويلة ، والأطباق كلها شحم » ، ودق الجرس وهو يتقدمنا إلى الغرفة المجاورة .

وسألنى وهو يضطجع فى كرسيه : « هل خبرت بانك ، وداش ، وتشوز ، خبر الآلة ؟ » . وأشار إلى الضيوف الحديثين .

فقال المحرر : « ولـكن المسألة كلها نقائض » .

فقال : « لا أستطيع أن أجادل الليلة ، ولا بأس بالحـكاية ، أما الجدل فلا . وسأقص عليكم ما حدث لى — إذا شئتم — ولـكن عليكم ألا تقاطعونى وإن بى لحاجة إلى الإفضاء بها ... حاجة ملحة ، وستبدو لـكم كأنها أكذوبة من تلفيق الخيال ، فليكن ! ولـكنها صحيحة . كل حرف منها ، وقد كنت فى معملى فى الساعة الرابعة ، وقد عشت منذ تلك الساعة ، ثمانية أيام ... أيام لم يعشها إنسان آخر قبلى ... وإنى لمهدود القوة ، ولـكن النوم لن يسعفنى حتى أقص عليكم قصتى ، وبعد ذلك أنام . ولـكن لا تقاطعوا ، فهل هذا عهد ؟ » .

فقال المحرر : « موافق » .

ورددنا جميعاً كلمة الموافقة .

وشرع الرحالة فى الزمن يقص ما كان من أمره ، كما أثبته هنا فيما يلى . وكان فى أول الأمر مضطجعاً فى كرسـيه ، يتكلم بفتور ، ولـكنه انتعش شيئاً فشيئاً ، وإنى إذ أنقل ما سمعته لأدرك قلة غناء القلم والمداد ، وضعف حياتى فى نقل صفة الـكلام إلى القارئ . وما أظن بك إلا أنك تقرأ بعناية ، ولـكنك لا تستطيع أن ترى المتكلم ووجهه المخلص الباهت اللون ، على ضوء المصباح

المتألق ، ولا أن تسمع نبرات صوته ، ولا أن ترى أن تغيير وجهه ، يختلف تبعاً لإحساسه بما يرويه . وكان أكثرنا يجلسون فى ظلام ، فما أضيئت الشموع فى غرفة التدخين . ولم يكن النور يبدى منا غير محيا الصحفى ، وساقى الرجل الصامت . وكان بعضنا فى أول الأمر يتلفت إلى بعض ، ثم كففنا عن ذلك ، وصارت عيوننا لا تتحول عن وجه الرحالة فى الزمن .

— ٤ —

التطواف فى الزمن

بينت لبعضكم يوم الخميس الماضى ، المبادئ التى تقوم عليها آلة الزمان ، وأريتكم الآلة أيضاً ، وكانت ناقصة لم تتم ، وهى هناك الآن ، وقد نال منها الطواف ... حقيقة ... وقد انكسر قضيب من العاج فيها ، وانثنى آخر من النحاس ، ولكن بقيتها سالمة . وكنت أتوقع أن أتم صنعها يوم الجمعة ، ولكنى يوم الجمعة بعد أن كدت أفرغ من تركيبها ، وجدت أن قضيباً من النيكل أقصر مما ينبغى بمقدار بوصة ، فاحتجت أن أصنعه من جديد . فلم أفرغ من العمل إلا هذا الصباح . وفى الساعة العاشرة من يومنا هذا ، بدأت أول آلة للزمان ، حياتها وسيرتها ، وقد أدرت فيها عينى ، واختبرتها آخر اختبار ، وامتحنت كل ما فيها من الروابط ، وصببت قطرات من الزيت على القضيب المصنوع من « الكوارتز » واتخذت مقعدى على السرج . وأحسب أن المنتحر الذى يتناول المسدس ، ويسدده إلى رأسه ، يشعر بمثل ما شعرت به ، وأمسكت بالرافعة بإحدى يدى ، وبالأخرى المجهولة لوقفها بيدى الأخرى ، وضغطت الأولى ، ثم الثانية بعد ذلك مباشرة ، وخيل إلىّ أنى أترنح ، وشعرت كأنى سأسقط ،

وتلفت فألفيت المعمل على حاله — كما كان بلا فرق — فهل ترى حدث شيء ؟ وخفت — لحظة — أن يكون عقلى خدعنى ، ثم نظرت إلى الساعة ، وكانت قبل برهة لم تجاوز العاشرة إلا بمقدار دقيقة أو نحوها . فإذا بها الآن منتصف الرابعة !

فملأت صدرى بالهواء ، وقرضت أسنانى ، وتناولت الرافعة بكلتا يدى ومضيت . فأخذ المعمل يبدو لى أقل وضوحاً ثم أظلم . ودخلت السيدة «واتشيت» وقطعت الغرفة كأنها لا ترانى ، ومضت إلى باب الحديقة . وأحسب أنها اجتازت الغرفة فى نحو دقيقة ، ولكنها كانت تبدو لى مارقة كالسهم أو الشهاب ، وضغطت الرافعة إلى أقصى حد ، فدخل الليل ، كما تطفأ مصباحاً ، وبعد لحظة أخرى ، جاء الغد ، وغاب عنى المعمل شيئاً فشيئاً ، وجاء المساء أسود حالكا ، ثم الصباح فالليل مرة أخرى ، فالنهار كرة ثانية ، وكان فى مسمعى كصوت تلاطم الأمواج ، وغشى عقلى الارتباك والبلادة .

وليس فى وسعى أن أصور لكم الإحساس الخاص الذى يحدثه الطواف فى الزمان ، فإنه أثقل ما عانيت ، والمرء يشعر بأنه مقذوف به ولا حيلة له . وخامرنى الإحساس أيضاً بوشك التحطم ، وكنت وأنا أجتاز الزمان وأزيد السرعة ، أرى الليل يعقب النهار كما يخفق الجناح الأسود . وغاب عن عينى شبح المعمل الغامض ، ورأيت الشمس تبدو وتختفى فى السماء بسرعة ، وكلما بدت مقدار دقيقة كان يوم . وكبر فى ظنى أن المعمل تقوض وأنى خرجت إلى الهواء الطلق . وخيل إلىّ أنى أرى شيئاً كأنه الشّعف على الجدران ، ولكنى كنت أمرق بسرعة فلم أكن أحس بالأشياء المتحركة ، وكانت أبطأ القواقع خطواً ، تخطف بسرعة فلا أكاد أراها . وكانت عينى يؤذيها اختلاف الليل والنهار بمثل سرعة البرق . وفى الظلام المتقطع رأيت القمر ينتقل فى أوجز وقت من

هلال إلى بدر كامل ، ولمحت قبة السماء المزدانة بالنجوم . وظللت أمضى ، وسرعتى تزداد ، فاختلط بياض النهار بسواد الليل ، وصارت زرقة السماء عميقة ، وضاءة اللون ، كالشفق ، وغدت الشمس كأنها لسان من اللهب ، أو قوس متقد فى الفضاء ، والقمر كالحزام المضطرب ، ولم أعد أرى النجوم ، ولكنها من حين إلى حين كانت تبدو لى كدائرة خفاقة اللمعان فى زرقة السماء .

وأصبح المنظر غامضاً غائماً . وكنت لا أزال على ذلك الجانب من التل الذى يقوم عليه هذا البيت ، فصار يرتفع ويغمض ، ورأيت الأشجار تمو وتتغير كأنها نفخة دخان ، وتكون سمراء فتغدو خضراء ، وكانت تمو ، وتكبر ، وتهتز ، وتزول ، ورأيت مبانى ضخمة تعلو وتمر كالحلم ، وتغير وجه الأرض كلها فيما بدا لى ، وصار ذائباً يسيل ويتحدر تحت عينى . وكانت المقارب التى تسجل سرعتى تزداد سرعة دوران ، فما لبثت أن رأيت نطاق الشمس يعلو ويهبط من وجه إلى وجه فى دقيقة أو أقل ، فعلمت أنى صرت أقطع العام فى دقيقة ، فكان الثلج الأبيض يومض ، دقيقة بعد دقيقة ، على الدنيا ، ويختفى ، وتعقبه خضرة الربيع النضيرة القصيرة .

وصارت الإحساسات التى كابدتها فى البداية أخف وطأة ، وتحولت إلى نشوة عصبية ، وقد لاحظت أن الآلة تضطرب وأن حركتها ليست بالسلسة لسبب لا أعرفه ، وكان اضطراب عقلى أشد من أن يسمح لى بالعناية بذلك ، واستغرقنى نوع من الجنون فقذفت بنفسى فى المستقبل ، ولم يخطر لى فى أول الأمر أن أقف أو أتريث ، أو أن أجعل بالى إلى غير ما أحس ، ولكنى ما لبثت أن شعرت بضرب جديد من الخوالج — بمقدار من التعجب والتطلع ، وبشىء من الخوف — ما عتمت أن استولت على نفسى أتم استيلاء ، فقد

تتكشف لى مظاهر تطور غريبة فى حياة الإنسان ، وتقدم مدهش فى مدنيتنا البدائية ، إذا أنا أتيح لى أن أتدبر هـذا العالم الغامض المتفلت الذى يعدو ويضطرب أمام عينى . ورأيت بُنى عظيمة رائعة ترتفع حولى ، وهى أضخم من كل ما رفعناه وأعليناه فى زماننا ، ولـكنها كانت تبدو مبنيـة من الضباب والضوء الخفاق . ورأيت الخضرة السائلة على جانب التل ، أزهى وأنضر ، وأبقى أيضاً فلا أثر للشتاء فيها . وحتى على الرغم من الحجاب الذى أسدله الاضطراب على عقلى بدت الأرض أجمل وأنق ، فشرعت أفـكر فى الوقوف .

وكان أ كبر ما أخاف أن أجد مادة ما فى الفضاء الذى أنا — أو الآلة — فيه ، ولم يكن لهذا قيمة ، وأنا أجتاز الزمن بسرعة كبيرة ، فقد كنت كأنى تضاءلت حتى لم أعد شيئاً ، أو كنت كالبخار الذى ينفذ مما بين المواد المعترضة ، ولـكن الوقوف يجرّ إلى ضغطى ودفعى ذرة فذرة فيما عسى أن يكون فى طريقى ، وإلى جعل ذراتى من شدة الاتصال بذرات العقبة المعترضة ، بحيث يفضى ذلك إلى إحداث تفاعل كيميائى عميق — أو عسى أن يؤدى إلى انفجار — فأتطاير أنا والآلة خارجاً من كل الأبعاد الممكنة إلى المجهول . وكان هـذا الاحتمال قد خطر لى مرات وأنا أصنع الآلة ، فأخلدت إليه على أنه أحد الأخطار التى لا بد من المجازفة بالاستهداف لها ، أما الآن فقد صار الخطر لا مفر منه ، فلم أواجهه بذلك الابتسام وتلك البشاشة كما كنت أفعل . والواقع أن غرابة ما أنا فيه ، وتطرح الآلة ، وطول الإحساس بأنى أهوى — كل أولئك قد أتلف أعصابى ، فحدثت نفسى أنى لن أستطيع الوقوف ، ونفد صبرى على هذا ، ووهى جلدى ، فعزمت على الوقوف من توّتى . وتسرعت لسخافتى فجذبت الرافعة ، فانقلبت الآلة ، وقُذف بى فى الهواء .

وصار فى مسمعى مثل تهزّم الرعد وعسى أن أكون قد فقدت وعيي لحظة ، وكان الثلج يسقط حولى ، وألفيتنى جالساً على العشب الناعم أمام الآلة المقلوبة ، وكان كل شئ فيما يبدو مغبراً ، ولكنى تنبهت فأدركت أن صوت الرعد الذى كان فى أذنى قد زال ؛ فأجلت عينى فيما حولى فوجدت أنى فيما يشبه ممرا فى حديقة تحيط بها شجيرات ، ولاحظت أن نوارها يسقط به الثلج وكان ما يسقط منـه يشبه السحابة الرقيقة على الآلة ، وتطلقه الريح على الأرض كالدخان ، وأحسست بالبلل ينفذ إلى بدنى ؛ فقلت : « ياله من إكرام لوفادة رجل اجتاز ما لا عداد له من السنين ليراك ! »

وخطر لى أن من البـلاهة أن أبتل ، فنهضت وتلفتُّ ، فرأيت شخصاً عظيما كأنه منحوت من حجر أبيض يبدو من وراء الشجيرات والثلج المتساقط وفيما عدا ذلك لم تأخذ عينى شيئا من الدنيا .

ومن العسير وصف ما خالج نفسى . وقد صار هذا الشخص أوضح لما رق الثلج المتساقط ، وكان عظيما جدا فقد كانت هناك شجرة عالية لا تبلغ إلا كتفه . وكان مصنوعا من الرخام الأبيض ، وعلى صورة أبى الهول بجناحين ، ولـكن الجناحين كانا منشورين فله هيئة الطير إذ يخفق . وكانت القاعدة على ما بدا لى من البرونز والصدأ عليه كثير ، واتفق أن كان وجه التمثال إلىّ ، تخيل إلىّ أن عينيه تراقبانى ، وكان على فمه طيف ابتسامة ، وكانت الرياح قد عصفت به ، فلمنظره فى النفس وقع المرض ؛ فوقفت أنظر إليه هنيهة — نصف دقيقة أو نصف ساعة — فكان يخيل إلى أنه يتقدم نحوى و يرتد عنى كلما رق الثلج أو كثف . وأخيراً حولت عنه لحظى فرأيت ستار الثلج يرق و يشف ، ورأيت السماء تضئ مؤذنة بظهور الشمس .

فرجعت بصرى إلى التمثال الأبيض الرابض ؛ فأدركت مبلغ ما فى رحلتى هذه من الجرأة والمجازفة . وماذا عسى أن يظهر متى ارتفع هذا الستر ؟ وماذا ترى أصاب الناس ؟ كيف يكون الحال إذا كانت القسوة قد صارت نزعة عامة أو إذا كان الجنس الآدمى قد فقد فى هذه الفترة التى اجتزتها، رجوليته ، ونزع صفته الإنسانية وخسر روح العطف وأفاد القوة المـاحقة ؟ ألا أبدو له حيواناً مستوحشاً من العالم القديم يضاعف التقزز منه هـذا الشبه الباقى — مخلوقا قذراً يستحق أن يذبح بلا رحمة ؟ .

ورأيت مناظر أخرى عظيمة — بُنًى ضخمة ذات أسوار ملتوية ، وعمد سامقة وأخذت عينى شيئاً فشيئاً ، مع سكون العاصفة سفح الجبل المـكسو بالشجر ، فاستولى على الرعب ، وأهويت على آلة الزمان أحاول أن أصلحها ، نخلصت إلى فى هذه اللحظة أشعة الشمس من خلال العاصفة المجلجلة ، وانقطع ما كان يسح من السحاب وزال كما تزول ذلاذل أثواب الأشباح ، وكانت تغشى زرقة السماء قطع من السحاب الرقيق لم تلبث أن اختفت ، ووضحت المبانى العظيمة لعينى وبرزت معالمها ، ولمع ما بللها من المطر ، وكساها ما لم يذب من البرد حلة بيضاء فأحسست كأنى عريان فى عالم أجنبى ، وشعرت بما أحسب الطائر يشعر به وهو يطير فى الهواء ويعلم أن الصقر يخفق فوقه ويوشك أن ينقض عليه . وصار خوفى ذعراً ، فملأت رئتى هواء ، وقرضت أسنانى ، وأكببت على الآلة أعالجها بعنف فلانت لعزمى واعتدلت ، وأصابت ذقنى بقوة ، ووقفت وأنا ألهث ، وإحدى يدى على السرج والأخرى على الرافعة استعداداً للركوب مرة أخرى .

وتشجعت لمـا وثقت من إمكان العود بلا تلـكؤ ، وزادت رغبتى فى الاستطلاع وقل خوفى من هذا العالم الذى يعيش فى المستقبل السحيق ، ووقعت

عينى فى نافذة مستديرة فى إحدى البيوت القريبة على لفيف من الناس فى ثياب رقيقة ثمينة ، ورأونى كما رأيتهم ، فصارت عيونهم علىّ .

وسمعت أصواتا تدنو منى ، ورأيت رءوس رجال وأكتافهم ، وهم يعدون مقبلين من بين الأشجار ، مارين بأبى الهول الأبيض ، وبرز أحدهم فى الطريق المؤدى إلى حيث كنت واقفاً إلى جانب الآلة . وكان مستدق الجسم — حوالى أربع أقدام — وفى ثياب قرمزية ، وعلى وسطه حزام من جلد ، وفى قدميه صندلة وساقاه عاريتان إلى الركبتين . وتنبهت وأنا أنظر إليه إلى أن الجو دافئ .

ووقع فى نفسى أنه على حظ كبير من الجمال والرشاقة ، ولكنه ضعيف جدا وأذكرنى وجهه المضطرم بحمرة الخد فى المسلول . وثابت إلىّ ثقتى بنفسى لما رأيته فرفعت يدى عن الآلة .

— ٥ —

فى العصر الذهبى

وما لبثت أن صرت وجها لوجه — أنا وذلك الإنسان الضعيف الخارج إلى من المستقبل ، وقد تقدم منى ، وتبسم لى فى عينى — ولم يسعنى إلا أن ألاحظ أنه لا أثر للخوف فى حركاته . ثم التفت إلى اثنين آخرين كانا يتبعانه وكلمهما بلغة غريبة فيها عذوبة ولين .

وكان هناك آخرون مقبلين ، فصار حولى من هذه المخلوقات الجميلة ثمانية أو عشرة . وخاطبنى أحدهم ، فكان من الغريب أنه دار فى نفسى أن صوتى أخشن وأعمق من أن يخف عليهم ، فهززت رأسى ، ثم هززته مرة أخرى وأنا أشير إلى أذنى . فتقدم منى خطوة ، وتردد قليلا ، ثم لمس يدى ، وتابعه

الآخرون فجعلوا يلمسون ظهرى وكتفى كأنما أرادوا أن يستوثقوا من أنى شخص حقيق ، ولم يكن فى هـذا ما يزعج أو يفزع ، بل لقد كان هؤلاء الآدميون الصغار يعمرون الصدر بالثقة فقد كانت فيهم رقة ، ورشاقة ، و بساطة كبساطة الأطفال ، وكان ما يبدو من ضعفهم يخيل إلى أن فى وسعى أن أعصف بجمعهم بلا عناء ، ولـكنى اضطررت أن أحذرهم بإيماءة حين رأيت أيديهم الدقيقـة تلمس الآلة وتتحسسها . وألهمت ، قبل فوات الأوان ، أن أتقى خطراً لم أعن به من قبل ، ففكـكت الرافعتين اللتين هما مبعث الحركة ، ووضعتهما فى جيبى ثم واجهتهم وأنا أفـكر فى وسيلة للتفاهم .

وتوضحت وجوههم وتأملت معارفها ؛ فظهرت لى خصائص أخرى ؛ ذلك أن شعرهم الجعد ينتهى عند خدودهم وأعناقهم ولا أثر له على وجوههم . أما آذانهم فدقيقة جدا ، وأما أفواههم فصغيرة وشفاهها رقيقة حمراء ، وأذقانهم مخروطة الشكل ، وعيونهم واسعة لينة النظرة ، وقد يكون هذا أنانية منى ، ولـكنه خيل إلى أنهم لم يبدوا من الاكتراث ما كنت أتوقع .

ولمـا رأيتهم لا يبذلون جهداً لمخاطبتى ، ولا يزيدون على الابتسام والتناجى فيما بينهم بأصواتهم الرقيقة ، وهم وقوف حولى ، بدأت الحديث ؛ فأشرت إلى آلة الزمان و إلى نفسى ، ولم أدر كيف أعبر لهم عن الزمن فأومأت إلى الشمس فرأيت أحدهم — وهو دقيق الخلق جميله ، وعليه ثياب قرمزية مخططة وفيهـا بياض — يتبع إيماءتى وأدهشنى منه أنه حكى صوت الرعد .

فدار رأسى لحظة ، و إن كان معنى حركته واضحاً . وخطر لى فجأة أن لعلهم بله . وعسير عليكم أن تدركوا ما خامرنى من الخوالج . ذلك أنى كنت دائماً أتوقع أن يكون الناس فى المقبل من الأجيال أعلم منا وأفهم ، وأرقى فى كل باب ،

وإذا بواحد منهم يفاجئنى بسؤال طفل من أبنائنا فى الخامسة من عمره — فقد كان سؤاله أترانى جئت من الشمس على جناح عاصفة ؟ . . وكنت أصد نفسى عن الحكم عليهم ، فأطلقت لها أن تحكم بما تشاء على ثيابهم وعلى أجسامهم الدقيقة الضعيفة ، ووجوههم الرقيقة . وأحسست بخيبة الأمل ، وخطر لى أنى ركبت هذه الآلة عبثاً .

وهززت رأسى أن نعم ، وأشرت إلى الشمس ، وحكيت لهم صوت الرعد بقوة أفزعتهم ، فتراجعوا جميعاً مقدار خطوة وانحنوا . . ثم أقبل علىّ واحد يضحك ، ومعه قلادة من زهر لا أعرفه وزين بها جيدى ، فصفقوا له وذهبوا يعدون فى طلب الزهور وارتدوا بها وجعلوا يلقونها على حتى كدت أختنق . وأنتم لم تروا مشبها لهذا ؛ فليس فى وسعكم أن تتصوروا هذه الزهور العجيبة الرقيقة الغلائل التى أخرجتها العناية بتربيتها سنوات لا يأخذها عد . ثم اقترح أحدهم أن يعرضوا هذه اللعبة — أعنى أن يعرضونى — فى أقرب منزل ، فمضوا بى ، ومررنا بأبى الهول الأبيض الذى كان كأنه يراقبنى طول الوقت وهو يبتسم لتعجبى ، إلى بناء أشهب كبير من الحجر المنقوش . وعادت إلى ، وأنا أسير معهم ، ذكرى ما كنت أحلم به ، وأنا مطمئن واثق ، من أن أبناء الأجيال الآتية سيكونون أعمق منا وأقوى عقولا وأعظم رزانة .

وكان للبناء مدخل كبير ، وهو عظيم فى كل شىء ، وكان همى الأكبر بطبيعة الحال هذا الجمع المتزايد الذى يحتشد حولى ، وهذه البوابات الضخمة المفتوحة التى تتثاءت أمامى وهى غامضة محفوفة بالأسرار . وكان الوقع العام فى نفسى من هذا العالم الذى أنظر إليه من فوق رءوس القوم أنه رقعة فسيحة من الرياض والأزهار الجميلة ، طال إهمالها ولكنها مع هذا خلت من الحسك .

ورأيت أعواداً طويلة من زهر أبيض غريب يبلغ طولها نحو قدم ، وهى منتثرة كالنبات البرى بين الشجيرات ، ولكنى كما أسلفت ، لم أفحصها فى ذلك الوقت ، وكنت قد تركت آلة الزمان على الحشيش بين الشجيرات .

وكان عقد الباب جميل النقش دقيقه ، ولكنى لم أدقق فى تأمل النقوش وإن كان قد خيل إلىّ وأنا أجتازه أن فيه من الفن الفينيقى مشابه ، وقد بدا لى أن النقوش قد لوحها الجو وأصابها تلف عظيم . ولقينى فى الباب كثيرون آخرون من هؤلاء الذين يلبسون الثياب الزاهية . وهكذا دخلنا — أنا فى ثياب قاتمة من مألوف القرن التاسع عشر ، وعلىّ طوائف شتى من عقود الزهر ، وحولى بحر مائج من الأردية اللامعة ، والوجوه البيض المشرقة والضحكات الموسيقية والأصوات العذبة :

وأفضى بنا الباب الكبير إلى ردهة فسيحة وكان السقف مظلماً ، والنوافذ — وجانب منها زجاجه ملون ، وجانب لا زجاج فيه — يدخل منها ضوء خافت ، والأرض مرصوفة بكتل من معدن أبيض متين — لا بألواح أو بلاط منه ، بل بكتل ، وكانت قد بلغ من تلفها بكثرة المشى عليها فى الأجيال الماضية ، أن صارت فيها أخاديد عميقة فى المواضع التى طال عليها دب الأرجل . وفى الردهة عدد لا يحصى من المناضد المصنوعة من الحجر المصقول ، وهى ترتفع عن الأرض مقدار قدم ، وعليها أكوام من الثمار والفواكه ، وقد عرفت أن بعضها برتقال وعناب ولكن أكثرها لا عهد لى به .

وكانت الوسائد والمنابذ مطروحة بين المناضد ، وعلى هذه جلس القوم وأومأوا إلىّ أن أجلس ، وشرعوا يأكلون الثمار بأيديهم بلا كلفة ، ويلقون بالقشر والأعواد وما إليها فى فتحات مستديرة على جوانب المناضد ، فقلدتهم ، فقد كنت

جوعان وظمآن . واستطعت وأنا آكل أن أدير عينى فى الحجرة على مهل .

ولعل أقوى ما وقع فى نفسى منها منظر البلى والتداعى ، فقد كان زجاج النوافذ الملوث محطما فى مواضع كثيرة ، والأستار مثقلة بالتراب ، ولاحظت أن زاوية المنضدة التى أمامى مكسورة . ولكنه كان هناك على الرغم من ذلك جمال وبهاء . وكان فى البهو حوالى مائتين يأكلون ، وكان أكثرهم يراقبوننى وهم جالسون بقربى ، وعيونهم الصغيرة تومض من فوق الفاكهة التى يقضمون ، وكانت ثيابهم جميعاً من ذلك الحرير الرقيق المتين .

وعلى ذكر ذلك أقول إن الفاكهة كل طعامهم . فقد كان أبناء هذا المستقبل البعيد نباتيين ، وقد اضطررت أن أكون فاكهيا مثلهم وأنا بينهم على الرغم من اشتهائى اللحم . وقد عرفت بعد ذلك أن الخيل والأبقار والأغنام والكلاب قد اندثرت . وكانت الفاكهة شهية . وأخص منها بالذكر ثمرة لم أخطئها طول مدة إقامتى هناك ، كنت أوثرها على سواها . وقد حيرتنى فى أول الأمر هذه الفواكه الغريبة ، والأزهار العجيبة التى رأيتها ، ولكنى تبينت بعد ذلك خصائصها ومزاياها .

على أنى أحدثكم الآن عن طعامى فى المستقبل !

ولما اكتفيت ، عزمت أن أتعلم لغة القوم ، وكان من الواضح أن هذا أول ما يجب علىّ فعله . فبدا لى أن الفواكه تصلح أن تكون بها البداية ، فرفعت بيدى واحدة منها وشرعت أستفسر بالأصوات والإشارات ، ولقيت عناء شديداً فى إفهامهم مرادى ، وكانوا فى بادئ الأمر ينظرون إلى مستغربين أو مغرقين فى الضحك ، ولكن واحداً منهم جميل الشعر فهم ونطق باسم ، وصاروا يلغطون فيما بينهم ، وكانت محاولاتى الأولى لحكاية أصواتهم تدخل على

نفوسهم سروراً صريحاً و إن خلا من الرعاية لى . على أنى كنت أشعر بما يشعر به المدرس بين الأطفال ، فواظبت ، ودأبت ، فما لبثت أن حفظت عنهم نحو عشرين اسم ، فانتقلت من الأسماء إلى الضمائر وأسماء الإشارة ، وعرفت الفعل « أ كل » . ولـكن التقدم كان بطيئاً ، ومل هؤلاء الصغار و بدت عليهم الرغبة فى الخلاص من أسئلتى ، فلم يسعنى إلا أن أدعهم يعلمونني قليلا ، قليلا ، كلما آنسوا من أنفسهم ميلا إلى ذلك . وتالله ما أقل ما رغبوا فى تعليمى ، فما رأيت قط أشد منهم كسلا ، أو أسرع إلى التعب .

— ٦ —
مغرب الانسانية

تبينت أمراً غريباً فى مضيفىّ ، وذاك قلة اهتمامهم وضآلة حظهم من الفضول ، فقـد كانوا يقبلون علىّ صائحين من الدهشة كالأطفال ولـكنهم ، كالأطفال ، لا يلبثون أن يكفوا عن تأملى وفحصى ؛ وينصرفوا عنى التماساً للعبة أخرى غيرى ، ولما فرغنا من الطعام ، وأقصرت عما حاولته من خطابهم ، لاحظت أن أ كثر الذين أحاطوا بى فى بداية الأمر قد انصرفوا ، ومن الغريب أيضاً أنى أنا انتهيت إلى إغفال هؤلاء الصغار ، فخرجت إلى العالم المشمس بعد أن أصبت شبعى ، وكنت لا أفتأ ألتقى بآخرين من هؤلاء أبنـاء المستقبل فيتبعوننى مسافة ، ويلغطون ، ويتضاحكون حولى ، فأبتسم لهم ، وألوح بيدى وأدعهم وأمضى فى طريقى إلى ما أنشد .

وكان الجو ساجياً سجوّ المساء لما خرجت من القاعة الـكبيرة ، والشمس الغاربة تنشر الضوء والدفء . وكانت الأشياء فى أول الأمر تحيرنى ، فقد كان

كل شيء مختلفاً عما عهدت — فى عالمى — حتى الزهر . وكان البناء الكبير الذى بارحته قائماً على منحدر واد عريض يجرى فيه نهر ، ولكنى أظن « التيمز » قد غير مجراه الحالى ونقله مسافة ميل ، فاعتزمت أن أصعد إلى قمة مرتفع على بعد ميل ونصف ميل ليتسع أفق النظر إلى هـذا الكوكب فى سنة ٨٠٢٧٠١ بعد الميلاد ، وقد فاتنى أن أذكر أن هذا هو التاريخ الذى سجلته آلتى .

وكنت وأنا أمشى ، أتلمس كل ما عسى أن يعلل لى حالة البهاء الذاوى الذى أراه ، فقد كانت حالة خراب وذوى ، ومن آيات ذلك أنى وجدت فى بعض الطريق الذى أتوقله كوماً عظيما من الصفوان مشدوداً بعضه إلى بعض بكتل من الألومنيوم ، وتيهاً عظيما من الجدران المائلة والأنقاض ، وكان واضحاً أن هذه بقايا بناء ضخم لا أعرف لماذا أقيم . وهنا قُسمت لى — فيما بعد — تجربة غريبة أدت بى إلى اكتشاف أغرب ، ولكنى أرجئ الكلام فى هذا حتى يجىء موضعه .

وتلفت حولى ، وأنا أستريح هنيهة فى شرفة ، وقد خطر لى خاطر ، فتبينت أنه ليس هنالك مساكن صغيرة . فالظاهر أن البيت الصغير المفرد قد اندثر ، وعسى أن يكون حُلّاله أيضاً قد لحقوا به ، وكنت أرى هنا وههنا مبانى كالقصور ولكن البيت والكوخ — وهما من مألوف المناظر فى إنجلترا — اختفيا .

وحدثت نفسى أنها « الشيوعية » .

ودار فى نفسى فى أعقاب هذا ، خاطر آخر ، فنظرت إلى الستة الصغار الذين تبعونى . فألفيتهم جميعاً يلبسون ثياباً واحدة ، ورأيت أن وجوههم رقيقة لا شعر فيها ، وأن أعضاءهم أشبه بأجسام البنات وتكوينهن ، وقد يكون مستغرباً أنى

لم أتنبه لهذا من قبل ، ولكن كل شيء كان عجيباً . أما الآن فقد وضحت لى هذه الحقيقة . ففى الثياب ، وفى كل ما يتميز به الآن الجنسان ، كان هؤلاء أبناء المستقبل سواء . حتى الأطفال خيل إلىّ أنهم صورة مصغرة من آبائهم ، وخطر لى أن أطفال ذلك الزمان أنضج من أسنانهم — إذا اعتبرنا أبدانهم على الأقل — وقد وجدت فيما بعد تعزيزاً كثيراً لرأيى .

وشعرت وأنا أتأمل سهولة العيش والاطمئنان ، أن هذا التشابه الشديد بين الجنسين هو المنتظر . ذلك أن قوة الرجل ورقة المرأة ولينها ، ونظام الأسرة واختلاف الأعمال والوظائف ؛ كل أولئك من الضرورات فى عصر القوة المادية أو البدنية ، وفى حيثما يكون الناس ، كثراً ومتوازنين ، يكون الإسراف فى التناسل شرا لا خيراً للدولة ، وفى حيثما يندر العنف ويحيا النسل آمناً ، تقل الحاجة — بل تزول — إلى الأسرة القادرة على الاضطلاع بأعبائها ، ويمحى الباعث على اختصاص كل من الجنسين بعمل فى سبيل الأطفال . ونحن نرى فى زماننا بوادر التحول الذى تم فى هذا المستقبل ، وأحب أن أذكركم أن هذا هو ما جال بخاطرى فى ذلك الوقت ، وقد وجدت بعد ذلك أنه بعيد من الواقع .

وبينما كنت أفكر فى هذه الأمور لفت نظرى مبنى جميل صغير يشبه بئراً تحت قبة ، فاستغربت أن الآبار لا يزال لها وجود ، ثم عدت إلى ما كنت أفكر فيه ، وتناولت الخيوط من حيث ألقيتها ، ولم تكن ثم مبان كبيرة قرب القمة ، ولما كان من الواضح أن قدرتى على الصعود والتوقل خارقة للعادة ، فقد تخلف عنى الذين كانوا يتبعوننى فصرت وحدى للمرة الأولى ، فثابرت على الارتقاء فى هذا الجبل وقد شعرت بالرضى عن مغامرتى وأفادتنى الحرية سروراً

وهناك وجدت مقعداً من معدن أصفر لم أعرفه ، وكان قد تأكل فى مواضع وعلاه نوع من الصدأ القرمزى وكاد يغطيه العشب ، وكانت ذراعاه مصنوعتين على صورة شبيهة برأس الجريفين[1] فقعدت وأجلت عينى فيما ترامى أمامى من مناظر هـذه الدنيا القديمة كما تبدو فى مغرب ذلك اليوم الطويل ، وكان المنظر كأجمل وأحلى ما صافح عينى ، وكانت الشمس قد مالت وغابت وراء الأفق الغربى فـكسته ورسا مذعذعا تشيع فيه خطوط أرجوانية وقرمزية ، وهناك فى الوادى نهر التيمز كأنه شريط من المعدن المصقول . وقد أسلفت الإشارة إلى القصور الـكبيرة المنتثرة بين الزروع ، وبعضها خرائب والبعض عامر بسكانه ، وكنت أرى — هنا وهنا — تماثيل فضية فى الحدائق المهملة ، ورءوس مسلات وقمم قباب ، ولم يكن ثم لا سور ولا سياج ، ولا ما يشير إلى حق امتلاك ، ولا أثر لزراعة ، كأنما صارت الأرض كلها حدائق و بساتين .

وشرعت وأنا أتأمل هذه المناظر ، أستجلى دلالتها ، نخطر لى ما يأتى (وقد تبينت فيما بعد أنه نصف الحقيقة ، أو لمحة واحدة منها) .

خيل إلى أنى أدركت الإنسانيـة فى منحدرها ، وأغرانى مغرب الشمس بالظن بأن هذا أيضاً مغرب الإنسانية ، وأدركت لأول مرة النتائج الغريبـة للجهد الاجتماعى الذى نعالجه الآن ، وهى نتائج منطقية إذا فـكرت فيها فإن القوة نتيجة الحاجة ، والأمن يولد الضعف ، وقد بلغ العمل على تحسين أحوال الحياة وجعلها أتم أمنا وأوفى اطمئنانا ، غايتـه على الأيام . وتوالت انتصارات الإنسانية المتحدة على الطبيعة ، وصار ما هو الآن من الأحلام ، مشروعات تدبر وتعالج وتنفذ . وهذا الذى أراه هو الحصاد .

---

(١) حيوان خرافى له رأس نسر وجناحاه ، وجسم سبع .

وما زالت أحوالنا الصحية والزراعية اليوم فى مراحلها الأولى ، وما غزا العلم فى زماننا هذا سوى جانب صغير من ميدان الأمراض الإنسانية وإنه ، على هـذا ، ليوسع نطاق عمله باطراد ، ونحن فى باب الزراعة والفلاحة نعدم بعض الأعشاب ونستنبت طائفة من الزروع الصالحة ، ولكننا ندع أكثرها يكافح فى سبيل الحياة على قدر طاقته ، ونؤثر بعض النبات والحيوان — وما أقل ذلك — بعنايتنا ، ونحسنها شيئاً فشيئاً بالانتخاب ، فتارة نخرج خوخة أحلى ، وتارة أخرى نخرج عنباً لا بذر له ، وطوراً تثمر جهودنا زهرة أكبر وأجمل ، وطوراً آخر أنعاماً أنفع وأصلح . ونحن نرقى هذه وتلك تدريجاً لأن غاياتنا غامضة ، ووسائلنا تجريبية ، ومعارفنا نزرة محدودة ، ولأن فى الطبيعة خفراً وسذاجة . وسيجىء يوم يكون فيه التنظيم أوفى وأتم ، فإن هذا هو اتجاه التيار على الرغم من خَضْرَبته واضطرابه وموج بعضه فى بعض وتراكبه فى جريه . وستكون الدنيا ، كلها ذكية ، متعلمة ، متعاونة ، وتكون خطواتنا أسرع فأسرع ، فى سبيل إخضاع الطبيعة ، ويتسنى لنا فى النهاية أن ندبر أمور الحيوان والنبات على وجه يكون أوفق لنا وأكفل بقضاء حاجاتنا الإنسانية .

ولابد أن يكون هذا الإصلاح ، قد تم على وجه حسن ، وأصبح أمره مفروغاً منه فى مسافة الزمن التى اجتازتها آلتى . فقد خلا الجو من الدويبات ، والأرض من الأعشاب والفطريات ، وحفلت بالفواكه اليانعة والأزاهير الزهراء ، وخفقت الفراشات الزاهية الألوان هنا وهناك ، وبلغ الإنسان غايته من العلاج الوقائى ، فلا أدواء ولا أمراض ، ولم أر أى أثر لوجود أمراض معدية ، فى أثناء إقامتى ، وسأحدثكم فيما بعد عن الإنحلال والفساد وكيف تأثرا بما حدث من التغير .

ووفق الإنسان كذلك ، إلى كثير من وجوه الإصلاح الاجتماعى ، فرأيت

الناس يأوون إلى مساكن فخمة ، ويرتدون ثياباً رائعة ، ولم أر أنهم يتعبون ويكدون ، فلا أثر لكفاح ولا لنضال اجتماعى أو اقتصادى . واختفى الدكان ، والإعلان ، وانقطعت حركة التجارة التى يقوم عليها عالمنا . وكان من الطبيعى فى ذلك المساء الذهبى ، أن تتمثل لى صورة الفردوس الاجتماعى . فقد عولجت زيادة السكان ، على ما بدا لى فكفوا عن الزيادة .

وجاء مع انتقال الأحوال وتغيرها ما لا بد منه من التكيف الذى تتطلبه الأحوال المتغيرة ، وما هى علة الذكاء والنشاط ، إذا لم يكن علم الحياة كوماً من الأغاليط ؟ المعاناة والحرية — أحوال تجعل النشيط ، القوى ، الحاذق ، يبقى ، والذى هو أضعف يذهب — أحوال تستوجب التآزر المخلص ، بين الأكفاء القادرين ، وتقتضى ضبط النفس والجلد والحزم . وقد وجد نظام الأسرة وما ينشئه من العواطف ، ويبعثه من الغيرة العنيفة ، والحب للنسل ، والبر الأبوى ، ما يسوغه من الأخطار التى يتعرض لها الصغار . والآن أين هذه الأخطار ؟ لقد بدأ الشعور ، وسيقوى على الزمن ، باستهجان الغيرة والأمومة العنيفة ، وكل ضرب من العواطف القوية ، وصارت هذه حالات لا ضرورة إليها — حالات تورثنا المتاعب وتجعل منا متخلفات وحشية ، وشذوذاً ونشازاً فى حياة طيبة مصقولة .

وفكرت فى صغر أجسام الناس ، وقلة حظهم من الذكاء ، وفى هذه البنى الضخمة المهجورة المتداعية ، فزدت إيقاناً بأن الطبيعة قُهرت . و بعد المعركة يجئ السكون . وقد كانت الإنسانية ، قوية ، نشيطة ، واستخدمت حيويتها الزاخرة فى تغيير الأحوال ، التى تعيش فيها ، فالآن حدث رد الفعل الذى يتلو التغير .

وفى هذه الأحوال الجديدة — أحوال الرغد والأمن — ينقلب النشاط المتواصل — وهو مبعث قوة لنا — ضعفاً . وحتى فى أيامنا هذه نرى بعض النزعات والأهواء التى كانت لازمة للبقاء ، مصدراً ثابتاً للإخفاق . فالشجاعة ، وحب النضال مثلا لا يعدان عوناً يستحق الذكر للإنسان المتحضر ، وقد يكونان عقبة فى سبيله . ومتى صارت الأحوال إلى الاتزان والأمن ، فإن القوة — عقلية كانت أو بدنية — لا يبقى لها محل . وقد بدا لى أن سنين لا يأخذها الإحصاء ، قد انقضت بلا حرب أو خوف من حرب أو عنف ، أو خطر من وحش ضار ، أو مرض وبيل تحتاج مقاومته إلى قوة بدنية ، أو حاجة إلى كد ، وفى مثل هذه الحياة يكون من نسميهم الضعفاء مهيئين لها كالأقوياء — بل هم لم يعودوا ضعفاء — ولعلهم أصلح للحياة وأحسن تهيؤاً لها ، لأن الأقوياء يعذبهم النشاط الذى لا حاجة إليه ولا متنفس له ، وما أشك فى أن جمال المبانى التى رأيتها كان ثمرة آخر لجب فى موج النشاط الإنسانى الذى لم يعد لازباً ، قبل أن يوطن الإنسان نفسه على السكون إلى الأحوال الجديدة التى يحيا فى ظلها . وقد كان هذا أبداً مآل النشاط عند الاستقرار — يتحول إلى الفن والجمال ، ثم يجئ الفتور ، والهمود ، والاضمحلال .

وحتى هذا الدافع الفنى يزول آخر الأمر — وقد شارف الزوال فى الوقت الذى رأيته . فلم يبق من الروح الفنى أكثر من الميل إلى التزين بالأزهار ، وإلى الرقص والغناء ، فى ضوء الشمس . وسيظل هذا الميل يفتر ، حتى ينقلب جموداً مرضيا ، وإنا فى عصرنا هذا — لقائمون على مسن الألم والضرورة ، وقد خيل إلى — فى رحلتى — أن هذا المسن البغيض قد تحطم أخيراً .

وخطر لى ، وأنا واقف فى الظلام الزاحف ، أنى اهتديت بهذا التفسير إلى

الحل الصحيح لمسألة العالم ، ووقفت على سر هؤلاء الناس الظرفاء . ولعل ما ابتدعوه لضبط النسل ومنع الكثرة قد جاوز الحد المنشود ، فهم يتناقصون ، وعسى أن يكون هذا هو السبب فى كثرة المبانى المتداعية المهجورة . و إنه لتعليل بسيط ، قريب المتناول ، ومقبول أيضاً — كأكثر النظريات الخاطئة .

— ٧ —

صدمة مباغتة

و بينما كنت واقفاً أفكر فى هذا النصر المبين الذى ناله الإنسان طلع القمر باهتاً مقوساً من فيض ضوء فضى فى الشمال الشرقى ، فانقطعت الأشخاص الصغيرة المشرقة عن الحركة فى الوادى ، ومرت بى بومة صامتة ، وانتفضت من البرد فى قُبُـل الليل ، فقلت أنحدر وأنظر أين أنا .

وتلفت باحثاً عن البناء الذى كنت فيه ، ودارت عينى إلى تمثال أبى الهول الأبيض على قاعدته البرونزية ، وقد غمره نور القمر الطالع ، ورأيت شجرة التامول الفضية قبالته ، وشجيرات الدفلى المتوشحة الأغصان ، وقد اكتست السواد فى الضوء الخافت ، والممشى الضيق ، فرجعت بصرى إلى الممشى ، فخالجنى شك غريب وقلت لنفسى : « كلا . ليس هذا بالممشى » .

« ولـكنه كان الممشى الذى أعرفه ، فقد كان وجه التمثال المجذوم إليه ، فهل تستطيعون أن تتصوروا ما شعرت به لما عمر صدرى هذا اليقين ؟ ولـكنكم لا تستطيعون . لقد اختفت آلة الزمان !

وخطر لى ، بمثل وقع السوط على أديم الوجه ، أن من الممكن أن أفقد زمنى ، وأن أترك بلا حول أو عون فى هذا العالم الجديد الغريب . وكان هذا

الخاطر يورثنى ألماً بدنيا مبرحا . وإنى لأحسه يأخذ بمخنقتى ويحبس أنفاسى ، وشاع فى نفسى الخوف فانطلقت أعدو بخطوات سريعة واسعة ، وعثرت مرة فوقعت على وجهى وجرحته ، فلم أضيع الوقت فى حبس الدم بل نهضت وذهبت أعدو ، والدم الحار يسيل على وجهى ويقطر من ذقنى ، وكنت ، وأنا أجرى ، أقول لنفسى : « لعلهم زحزحوها قليلا عن الطريق وألقوا بهـا بين الشجر » ، ولـكنى مع ذلك كنت أجرى بكل ما فىّ من قوة ، وقد كبر فى وهمى أن هذا الاطمئنان حماقة ، وأن الآلة قد أصبحت بعيـدة عن متناولى . وكان التنفس يؤلمنى ، وأحسبنى قطعت المسافة من ذروة التل إلى الممشى — وهى ميلان — فى عشر دقائق . وإنى لـكهل ، وكنت ألعن الحظ وأسخط ، وأنا أجرى ، على حماقتى إذ تركت الآلة ، ورحت أصيح ، ولا مجيب ، وأنظر فلا أرى مخلوقا يبدو فى هذا العالم المقمر .

وبلغت الممشى فكان ما خفت أن يكون ، ولم أجد أثراً للآلة ، فأحسست بالضعف والبرد وأنا أجيل عينى فى هذا الفضاء بين الأشجار السوداء المتشابكة . وقد طفت بها كالمجنون ، لعل الآلة تكون مخبأة فى ركن ، ثم وقفت فجأة ويداى تشدان شعرى . وكان أبو الهول يشرف علىّ من فوق قاعدته البرونزية ، بوجهه الأبيض المضيء المجذوم ، تحت نور القمر الطالع ، وكان كأنما يبتسم ساخراً مما أصابنى .

وكنت خليقاً أن أعزى نفسى بالقول بأن هؤلاء الصغار قد حملوا الآلة إلى مكان حريز ، ليصونوها لى فيه ، لولا أنى كنت على يقين من ضعف عقولهم وأبدانهم . وهذا هو الذى أرعبنى — الشعور بقوة غير مرتقبة اختفت بسببها الآلة التى اخترعتها . على أنى كنت واثقاً من أمر واحد — ذلك أن الآلة

ما كان يمكن أن تتحرك وتنتقل إلا إذا كان عصر آخر قد أخرج مثيلها بلا فرق . وكان نزع القضبان الرافعة يحول دون انطلاقها فى الزمان — وسأريكم الطريقة فيما بعد — فهى قد تحركت وانتقلت واختفت ، ولكن فى الفضاء فقط . فأين يمكن أن تكون ؟

وأحسب أنه أصابنى مس . وأذكر أنى كنت أعدو بلا وعى ، فأدخل هنا وأخرج من هنا ، بين الأشجار التى يضيئها القمر ، حول أبى الهول وأفزع حيواناً أبيض ظننته فى الضوء الخافت غزالا صغيراً . وأذكر أيضاً أنى كنت فى الهزيع الثانى من الليل أضرب الشجيرات بقبضة يدىّ ، حتى جرّحت عقلَهما الأغصانُ المكسورة . ثم رحت أبكى وأهذى من مرارة الألم ، وأنا أمشى إلى البناء . وكانت القاعة الكبيرة مظلمة ساكنة مهجورة ، فانطرحت على الأرض ، فوقعت على إحدى المناضد ، وكدت أكسر ساقى . فأشعلت عود ثقاب ومررت بالأستار المعفرة التى حدثتكم عنها .

ووجدت قاعة كبيرة أخرى حافلة بالوسائد التى نام عليها حوالى عشرين من هؤلاء الصغار ، وما أشك فى أنهم استغربوا ظهورى لهم مرة أخرى ، وقد دخلت عليهم فجأة من الظلام الساكن وأنا أتكلم بما لا يفهمون ، وفى يدى عود مشتعل . فقد نسوا الكبريت ، وشرعت أسألهم : « أين آلتى ؟ » وأصيح كالطفل المحنق ، وأهزهم بيدى ولا بد أنهم تعجبوا لهذا ، وقد ضحك بعضهم ، وبدا الخوف على البعض الآخر . ولما رأيتهم وقوفاً حولى ، خطر لى أن أسخف ما أصنع فى هذه الحالة هو أن أوقظ فى نفوسهم الشعور بالخوف . فقد كان سلوكهم فى النهار يدل على أنهم نسوا الخوف .

فرميت عود الكبريت ، ودرت لأخرج ، فأوقعت أحدهم وأنا أفعل

ذلك ، وارتددت متعثراً إلى القاعة الكبيرة ومنها إلى الفضاء . وسمعت صيحات الذعر ، ووقع أقدام صغيرة تجرى وتتعثر هنا ، وهناك ، ولست أتذكر كل ما فعلت فى تلك الليلة المقمرة ، وأحسب أن ما منيت به من الخسارة التى لم تكن مرتقبة ، أطار عقلى ، وشعرت بانقطاع صلاتى ببنى جنسى ، و بأنى حيوان غريب فى عالم مجهول . ومن المحقق أنى كنت أهذى وأنا أروح وأجىء ، وأصيح وأسخط على الحظ والمقادير ، وأتذكر التعبَ المبرّح الذى انتابنى ، فى تلك الليلة التى كان ينجاب عنى ظلامها ولا ينجاب يأسى فيها ، وبحثى فى كل مخبأ محتمل أو غير محتمل ، وتسللى بين الخرائب ولمسى مخلوقات غريبة فى السواد الحالك ، وارتمائى على الأرض بقرب التمثال و بكائى من الحزن والغم ، حتى الغيظ من جنونى إذ تركت الآلة ، ذهب عنى كما ذهبت قوتى . ولم يبق لى إلا الكمد . ثم نمت ، ولما استيقظت ، كان النهار قد ارتفع ، وكان هناك عصفوران ينطان حولى على الحشيش ، على مسافة ذراع .

فجلست ، وحاولت أن أتذكر كيف جئت إلى هنا ، وما سر هذا الشعور العميق بالقنوط والوحشة . فارتسم أمام عينى ما وقع لى ، وجاءت مع النهار الواضح القدرة على التدبر والنظر ، فتبينت حماقتى وطيشى البارحة ، وشرعت أجادل نفسى فقلت لها لنقدر الأسوأ ، ولنفرض أنى فقدت الآلة ، وأنها تلفت ، فإن علىّ أن ألتزم الهدوء ، وأصطنع الصبر ، وأن أتعلم أساليب هؤلاء الناس ، وأن أعرف كيف أصبت بهذه الخسارة ، وكيف أحصل على الأدوات والمواد والآلات اللازمة ، لأصنع آلة أخرى ، فما بقى لى من أمل غير هذا ، ولعله أمل ضعيف ، غير أنه خير من اليأس ، وهذه ، بعد كل ما يقال ، دنيا جميلة حافلة بالغرائب .

ولـكن عسى أن تكون الآلة قد نقلت من مكانها ، على كل حال ، ينبغى أن أسكن وأصبر ، وأن أبحث عنها وأستردها بالقوة أو الحيلة . واستقر عزمى على ذلك فوثبت إلى قدمى ، وتلفت ، وأنا أتساءل أين أستطيع أن أستحم . وكنت أشعر بالتعب ، والتكسر ، وأستقذر نفسى ، وأغرتنى صباحة النهار بنشدان الصباحة ، وكنت قد استنفدت شعورى ، و بلغت من ذلك مجهودى ، حتى لقد صرت ، وأنا ماض إلى غايتى ، أتعجب لما كان من اضطرابى البارحة فنفضت الأرض ، وفحصتها بعناية حول المشى ، وأضعت بعض الوقت عبثاً فى الاستفسار العقيم ، بما وسعنى من وسائل التعبير ، ممن كنت ألتقى بهم من هؤلاء الصغار ، وكانوا جميعاً لا يفهمون إشاراتى ، وكان بعضهم يبدو لى بليداً جدا ، والبعض يحسبنى أمزح فيضحك ، فكنت أعانى جهدا عظيما فى كبح نفسى عن لطم وجوههم الجميلة الضاحكة ، وكان ما أهم به من ذلك خرقا ، ولـكن ما أورثنيه الخوف والغيظ كان لا يزال يحتاج إلى الكبح . وأوحت إلى الأرض خاطرا ، فقد وجدت أخدوداً فى منتصف المسافة بين قاعدة التمثال و بين آثار قدمى حين وصلت وعالجت النزول عن الآلة المقلوبة . وكان هنالك من الآثار ما يدل على النقل — آثار أقدام كالتى يمكن أن يتركها من يمشى مسترخياً متخاذلا فلفتنى هذا إلى القاعدة وكانت — كما قلت — من البرونز ، ولم تكن كتلة مفرغة ، بل محلاة بألواح عميقة ذات إطارات ، على الجانبين ، فدنوت منها ونقرت عليها ، فألفيتها فارغة الجوف ، وفحصت الألواح فلم أجدها متصلة بالإطارات ، ولم تكن هنالك مقابض أو ثقوب ، ولـكن الألواح — إذا كانت ألواحا كما خطر لى — ربما كانت تفتح من الداخل . وأصبح من الجلى فيما رأيت ، والذى لا يحتاج إلى جهد عقلى كبير ، أن آلة الزمان مخزونة فى جوف

القاعدة . أما كيف دخلت هنا ، فمسألة أخرى .

ورأيت اثنين فى ثياب برتقالية ، مقبلين بين الشجيرات وتحت أشجار التفاح المنورة ، فنظرت إليهما وابتسمت ، وأومأت إليهما أن أقبلا فجاءا ، فأشرت إلى القاعدة وحاولت أن أفهمهما أنى أريد فتحها ، ولكنهما تنكرا عند أول إشارة منى إلى القاعدة ، ولا أدرى كيف أصور لكم تعبير وجهيهما — تصوروا أن أحدكم أشار إشارة قبيحة فى حضرة سيدة محتشمة — وتصوروا كيف تكون هيئتها وحالتها ! وقد مضى الاثنان عنى كأنما كنت قد ذهبت فى إهانتهما إلى آخر المدى . وجربت دعوة صغير آخر حلو الوجه ، فلم تختلف النتيجة . ولا أدرى كيف كان هذا ، ولكن هيئته أخجلتنى من نفسى ، ولكنى كنت — كما تعلمون — أريد أن أستعيد آلة الزمان ، فكررت عليه بالدعوة إلى فتح القاعدة ، فلما ولى عنى ، كما فعل الآخران ، غلبنى الغضب ، فعدوت وراءه ، وتناولت ثوبه عند العنق ، وجررته معى إلى التمثال ، فقرأت فى وجهه الاستفظاع والاشمئزاز ، فلم يسعنى إلا أن أتركه .

غير أنى لم أنهزم ، وجعلت أدق الألواح بيدى ، وخيل إلى أنى سمعت حركة من الداخل — وأفصح فأقول إنى ظننت أنى سمعت صوتا كالضحك . ولكنى كنت ولا شك مخطئاً ، ثم تناولت حجراً من النهر ، دققت به اللوح حتى أتلفت رسما ومحوته وتساقط الصدأ ناعماً كالدقيق ، ولا شك أن هؤلاء الناس الرقاق الحساسين سمعوا ضجاتى من مسافة ، ولكن شيئاً لم يحدث ، وقد رأيت لفيفاً منهم على سفح التل يخالسوننى النظر ، ثم تعبت واستحررت ، فقعدت أراقب المكان ، غير أن هذا لم يطل لفرط اضطرابى ، وإنى لغربى لا أطيق طول التربص ، وإن فى وسعى أن أقضى سنين فى علاج مسألة ، ولكن الانتظار أربعاً وعشرين ساعة بلا عمل مسألة أخرى .

ونهضت بعد قليل ، ورحت أتمشى على غير قصد بين الشجيرات إلى التل مرة أخرى ، وناشدت نفسى الصبر ، وقلت لها : « إذا أردت أن تسترجعى هذه الآلة ، فإن عليك أن تدعى هذا التمثال ولا تقربيه . ولا خير فى تحطيم الألواح و إتلافها ، و إذا لم يردوه إليك ، فستحصلين عليـه متى استطعت أن تطلبيه منهم ، ومن العبث أن يعالج المرء لغزاً بين كل هذه المجهولات — هذا طريق يفضى إلى الجنون — ومن الواجب أن أواجه هذا العالم وأن أتعلم طرقه وأساليبه وأراقبه ، وأن أتجنب التسرع فى استكناه كنهه ، وسأجد فى النهاية المفاتيح لهذه المغاليق » .

وتمثل لى ما ينطوى عليه موقفى من السخر — فقد قضيت سنوات فى مكتبى أجاهد أن أجد وسيلة أسرق بها إلى هذا المستقبل ، وها أنا ذا الآن أجاهد أن أنكفئ مرتدا عنه ! وما أرى إلا أنى نصبت لنفسى فخا ليس أشد منه تعقيداً ولا أدعى إلى اليأس . و إنى لواقع فيه ولـكنه لم يسعنى إلا أن أضحك ، فقهقهت .

و بينما كنت أجوس خلال القصر الـكبير ، خيل إلىّ أن هؤلاء الناس يتحامونني ، وقد يكون هذا وهما ، ولعل سببه راجع إلى دق ألواح القاعدة . ولـكنى كنت على يقين من اتقائهم لى ، بيد أنى حرصت على أن لا أبدى اكتراثا ، وأن أكف عن تتبعهم . و بعد يوم أو يومين عادت الأمور إلى مجاريها ، وتعلمت من اللغة ما وسعنى ، ولم أقصر فى ارتياد الأرض ، ولا أدرى هل فاتتنى دقائق فى هذه اللغة ، أم هى غاية فى البساطة — فليس فيها إلا الأفعال وأسماء المحسوسات ؟ فقد خيل إلىّ أنه ليس فيها ألفاظ للمعانى ولا مجاز . وكنت أرى جملهم فى العادة بسيطة ومكونة من لفظين ، ولم أستطع أن أفهمهم أو أفهم عنهم إلا أبسط الأمور فعزمت أن ألقى بآلة الزمان وسر الأبواب البرونزية تحت التمثال ، فى زاوية من

الذاكرة ، إلى أن تصبح معرفتى أتم وأوفى وأقدر على ردى إلى ذلك من طريق طبيعى .

ولكن إحساسا خاصا تستطيعون أن تدركوه ألزمنى نطاقا من بضعة أميال حول نقطة الوصول .

— ٨ —

شرح

على قدر ما وسعنى أن أرى ، كانت الدنيا كلها تبدى زينتها كوادى التيمز ، فكنت أرى من قمة كل تل تلك الكثرة فى البنى الرائعة المتنوعة المواد والأساليب ، والنبات اليانع المتوشج ، والشجر المثقل بالزهر والنوار ، وهنا وهناك مجرى الماء كالفضة ، ويذهب صعيد الأرض مرتفعاً فى غير استواء حتى يغيب فى الأفق . ولفت نظرى على الخصوص وجود آبار مستديرة ، كثير منها عميق جدا ، وكانت إحداها على طريق الجبل الذى ارتقيت فيه أول مرة ، وحافته من البرونز كغيره ، وفيها صنعة ، وفوقه قبة تقيه المطر . وكنت إذا جلست إلى جانب هذه الآبار ونظرت فى أجوافها المظلمة ، لا أرى بريق ماء ، وإذا أشعلت عود كبريت لا أرى لضوئه انعكاسا . ولكنى كنت أسمع من هذه الآبار كلها صوتا غريباً كالذى تحدثه حركة آلة كبيرة ، وتبينت من اضطراب لهب الكبريت أن هناك تياراً من الهواء مطرداً يجرى فى عنقها ، وقد ألقيت فى إحداها قصاصة من ورق فلم تخفق وتضطرب فى سقوطها ، بل امتُصت بسرعة وغابت عن العين .

وبعد قليل بدا لى أن هناك اتصالا بين الآبار وبين الحصون العالية القائمة على السفوح ، فقد كان الهواء فوقها يرف كما يحدث عادة فى يوم قائظ على الشاطئ

فخطر لى أن هناك نظاما واسعاً للتهوية تحت الأرض تعذر علىّ تصور الغرض منه ، وقد ظننت فى أول الأمر أن له علاقة بالنظام الصحى ، ولـكنى كنت مخطئاً .

وهنا الموضع الذى ينبغى أن أذكر فيه أنى لم أكد أر شيئاً من المصارف ووسائل النقل ، وما إلى ذلك فى أثناء مقامى فى ذلك المستقبل الحقيق ، وقد قرأت تفاصيل مسهبة عن المبانى والنظم الاجتماعية ، وما هو من ذلك بسبيل فى الـكتب التى حلم فيها أصحابها بالمثل العليا للجماعات الإنسانية وتخيلوا فيها صور المستقبل ، وهى تفاصيل يقرب منالهـا حينما يكون العالم كله منطويا فى خيال الإنسان ، ولـكنها لا سبيل إليها حين ينشدها الرحالة بين الحقائق كما وجدت بالتجربة . وتصوروا ماذا عسى أن يقص زنجى من أواسط إفريقية بعد أن يعود إلى قبيلته من زيارة للندن ! فماذا عسى أن يعرف عن شركات السكك الحديدية والحركات الاجتماعية ، وأسلاك التليفون والتلغراف ، وشركة تسليم الطرود ، وأذون البريد وما يجرى هـذا المجرى ؟ ولـكنا نحن على الأقل نـكون على استعداد لشرح هذه الأمور له . وإذا عرف الزنجى شيئاً فما مبلغ مايصدق من وصفه صاحبُه الذى لم يسافر ولم يرحل ؟ والشقة ضيقة مع ذلك بين الزنجى والرجل الأبيض فى زماننا هذا ، ولـكنها واسعة ، مترامية ، متقاذفة ، بينى و بين أبناء ذلك العصر الذهبى . وقد كنت أحس بكثير مما لا أرى و إن كان من عوامل الراحة وأسباب الرغد ، ولست أستطيع أن أنقل لـكم أكثر من الوقع العام فى نفسى لنظام يعمل من تلقاء نفسه .

وأضرب مثلا بالمقابر فـما رأيت شيئاً يدل على وجودها أو يشير إلى وجود محارق للجثث . وقد خطر لى أنه لعل هناك محارق أو مدافن وراء ما ارتدْت من الأرض .

وقد ألقيت هذا السؤال على نفسى فلم أفز فى أول الأمر بطائل ، وحيرنى الأمر ، وأفضى بى ذلك إلى ملاحظة أخرى زادتنى حيرة ، فما رأيت بين هؤلاء الناس كهولا أو عجزة أو مدنفين .

ولا يسعنى إلا أن أعترف بأن رضاى لم يطل عن نظرياتى الأولى عن المدنية اللدنية والإنسانية المنحلة . ولكنه أعيانى التماس نظرية أخرى ، ويحسن بى أن أعرض عليكم المصاعب التى واجهتنى ، ذلك أن القصور الكبيرة العديدة التى ارتدتها لم تكن سوى مساكن ليس إلا ، أى قاعات كبيرة للطعام وحجرات للنوم ،ولم أجد آلات ولا أجهزة من أى نوع ، ومع ذلك رأيت الناس يرتدون ثيابا حسنة النسج ، ولا بد من تجديدها على الأيام ، وكانت أحذيتهم أو صندلاتهم[١] على الأصح نماذج معقدة وإن كانت غير محلاة . وهذه أشياء لا بد من صنعها ، ولم أر بين هؤلاء الناس مظهراً يشير إلى النزعة الإنشائية ، فلا دكاكين[٢] ، ولا مصانع ولا أثر لواردات ، وكانوا يقضون وقتهم فى اللعب برفق ، وفى الاستحمام فى النهر ، وفى المغازلة التى تشبه اللعب ، وفى أكل الفاكهة ، وفى النوم . وأعيانى أن أعرف كيف تسير الأمور .

وثم أيضاً الحادثة التى وقعت لآلة الزمان ، فقد حُملت ، لا أدرى كيف ، إلى جوف القاعدة التى يقوم عليها أبو الهول فلماذا ؟ لا أعلم ولا أستطيع أن أتصور باعثاً أو طريقة . وهذه الآبار أيضاً ، وهذه التيارات الهوائية ، وقد أحسست وأنا أتدبر ذلك كله أنه ينقصنى الاهتداء إلى مفتاح السر . وشعرت — كيف أقول ؟ لنفرض أنكم عثرتم على نقش ، فيه جمل هنا وههنا بالإنجليزية الفصحى

---

(١) الصندلة صحيح .
(٢) الدكان صحيح اللفظ .

و بينها كلمات أو حتى حروف لا علم لكم بها ولا عهد ؟ هذه هى الصورة التى بدت لى عليها الدنيا فى اليوم الثالث من زيارتى لها فى عام ٨٠٢٧٠١ .

وفى ذلك اليوم صار لى صديق . وشرح ذلك أنى كنت أرقب بعضهم وهم يسبحون فى الماء ، فرأيت أحدهم قد تصلبت عضلاته وشرع يغطس ، وكان التيار قويا ، ولكنه ليس أقوى من سابح متوسط القوة ، وهذا يريكم مبلغ النقص والضعف اللذين لحقا بهؤلاء الناس ، ويزيد الأمر بيانا أن أحداً منهم لم يحاول أن ينقذ الصائح المستنجد الذى يغرق ، فلما رأيت ذلك خلعت ثيابى وخضت الماء إلى حيث كانت الفتاة ، وجررتها سالمة إلى الشاطئ ، ودلكت لها أعضاءها قليلا فأفاقت وسرنى أنها كانت بخير حين تركتها ، وقد بلغ من سوء رأيى فى قومها ، أنى لم أتوقع منها شكراً ، ولكنى كنت مخطئاً .

حدث هذا فى الصباح . و بعد الظهر التقيت بهذه المرأة الصغيرة ، بينما كنت عائداً من ارتيادى ، إلى مركزى ، فاستقبلتنى بصيحات الفرح وقدمت لى باقة كبيرة من الزهر — كان من الواضح أنها جمعتها لى — لى وحدى — فوقع ذلك من نفسى ، وحرك خيالى ، وأحسبنى كنت أشعر بوحشة . ومهما يكن من ذلك فقد حاولت جهدى أن أظهر لها اغتباطى بهديتها ، وجلسنا معاً ورحنا نتحدث — بالابتسام على الأكثر . وكان تأثير مودتها فى نفسى هو التأثير الذى يحدثه الطفل . وتبادلنا الأزهار ، ولثمت يدىّ ، فلثمت يديها ، ثم عالجت الكلام فعرفت أن اسمها « وينا » وبدا لى أنه اسم موافق و إن كنت لا أدرى ما معناه ، وكانت هذه فاتحة صداقة عجيبة ظلت أسبوعا ، ثم انتهت على ما سأحدثكم به .

وكانت كالطفل فى كل شىء ، وكانت تحب أن تكون معى أبداً ولا تفارقنى ، فهى تتبعنى إلى حيث أذهب ، فلما رحت أرتاد الأرض بعد ذلك آلمنى أن أرهقها

وأتركها أخيراً منهوكة القوى تناديني وفى صوتها نبرات الأسف والتوجع ، ولكنه كان لا بد لى من الوقوف على ما أنشد الوقوف عليه من أمور الدنيا ، وحدثت نفسى أنى لم أجئ إلى هذا المستقبل لأغازل فتاة مثلها ، على أن حزنها لما خلفتها كان شديداً ، وكان بثها عند الفراق شديداً ، وأحسب أن تعلقها بى أتعبنى بقدر ما سرنى . غير أنها كانت لى رَوحا وريحانا ، وقد حسبت أن الحب الصبيانى هو الذى أغراها بى ، ولم أفطن إلا بعد الأوان إلى ما كلفتها لما تركتها ، بل لم أدرك إلا بعد الأوان ، منزلتها عندى ، فقد كانت تبدو محبة وامقة لى ، وكانت تظهر لى ، بطريقتها العقيمة أنها معنيّة بى ، فلم تلبث هذه اللعبة الصغيرة أن أكسبت عودتى إلى التمثال وما حوله ، ما يشعر به المرء حين يرجع إلى بيته ، فصرت أتطلع وأتشوف باحثاً عن جسمها الدقيق كلما رجعت من الجبل .

ومنها أيضاً عرفت أن الخوف لم يزايل العالم ، وكانت لا تهاب شيئاً فى النهار ، وكانت ثقتها بى أتم ما تكون ، وقد غضبت مرة فتوعدتها بإشارة ، فضحكت ، ولكنها كانت تخاف الظلمة ، وتخشى الظلال ، وتفزعها الأشياء السوداء ، وكان الظلام أشد ما يرعبها ، وكان خوفها هذا من القوة بحيث أغرانى بالتفكير والملاحظة ، فوجدت أن هؤلاء القوم يتجمعون فى البيوت الكبيرة بعد دخول الليل وينامون زرافات وأسرابا . وكان مجرد الدخول عليهم بغير ضوء يزعجهم ويخيفهم ، وما رأيت قط أحداً منهم خارج الأبواب فى الليل ، أو نائماً وحده فى البيت ، ولكنى كنت أغبى من أن أفقه درس هذا الخوف ، وأصررت على الرغم من حزن وينا على النوم وحدى بمعزل عن هذه الجماعات الراقدة .

وكان هذا منى يزعجها ويقلقها ، ولكن حبها لى تغلب آخر الأمر على خوفها ، فكانت فى الليالى الخمس التى ترافقنا فيها — وفى جملتها الليلة الأخيرة — تنام

إلى جانبى متخذة من ذراعى وسادة . ولـكنى أرانى أستطرد عن الموضوع فى الليلة التى سبقت إنقاذها ، استيقظت فى الفجر وكنت مضطرباً ، أحلم بأنى غرقت وأن شقائق الماء تمسح وجهى بغلائلها ونواراتها الرقيقة ، فقمت من النوم فزعاً وقد خيل إلىّ أن حيواناً انطلق خارجاً من الغرفة ، وعالجت النوم مرة أخرى ، ولـكنى كنت قلقاً لا استقرار لى ولا راحة ، وكانت تلك هى الساعة التى تزحف فيها الأشياء خارجة من الظلام ، ولا لون لها ولا حقيقة وإن كانت واضحة المعالم ، فنهضت ومضيت إلى القاعة الـكبيرة ومنها إلى المقاعد الحجرية أمام البيت ، وخطر لى أن أتخذ من الضرورة مزية فأشهد طلوع الشمس .

وكان القمر يغيب ، وسواد الليل يختلط ببياض النهار ، وكانت الأشجار سوداء كالحبر ، والأرض عليها الظلال ، والسماء لا لون لهـا ولا بهجة ، وخيل إلى ، وأنا فوق التل ، أنى أرى أشباحاً ، ووقعت عينى ثلاث مرات ، وأنا أديرها فيما حولى ، على أشخاص بيض ، وبدا لى — مرتين — أنى رأيت مخلوقاً أبيض على هيئة القرد يصعد فى الجبل بسرعة ، وبصرت مرة بعدد منهم يحملون جسما مظلماً ، وكانوا يغذون الخطى ، ولا أدرى أين دهبوا به فقد اختفوا بين الأشجار ، ولم تكن الظلمة قد انجابت ، ولا النهار طلع ، وأحسست بالبرد والقلق وغير ذلك مما يشعر به المرء فى البكرة الندية . وشككت فى قدرة عينى على الرؤية .

وانبلج الفجر ، وطلع النهار ، وأفاض نوره على الدنيا مرة أخرى فرميت ما حولى بنظرة فاحصة ، غير أنى لم أر أثراً للأشخاص البيض ، فما كانوا إلا من مخلوقات الخيال فى الطفل ، وحدثت نفسى أن هؤلاء لا بد أن يكونوا أشباحاً ، وتمنيت لو دريت من أين جاءت ومن أى عصر خرجت ؟ وخطرت لى فـكرة

لجرانت اللّان فقد قال إذا كان كل جيل يموت يترك فى الدنيا أشباحه ، فإن الدنيا خليقة أن تكتظ بهم ، وعلى هذا الحساب يكون عددهم قد صار لا يحصى بعد ثمانمائة ألف سنة ، فغير مستغرب أن أرى أربعة منهم فى وقت معاً ، ولكن هذا المزاح لم يرقنى ، فظللت أفكر فى هذه الأشخاص طول الصباح حتى أنسانيهم إنقاذى للفتاة وينا . وخطر لى أن لعل لهم صلة بذلك الحيوان الأبيض الذى أزعجته فى أول بحثى عن آلة الزمان . وكانت وينا نعم العوض عن هؤلاء ، ولكنهم ، على هذا ، كان مقسوماً لى أن يستولوا على نفسي ويستحوذوا على خاطرى .

وأظن أنى قلت لكم إن الجو فى هذا العصر الذهبى أدفأ من جونا ، وأشد حرارة ، ولا أستطيع أن أعلل ذلك ، فلعل الشمس كانت أحمى ، أو الأرض قد صارت أدنى إلى الشمس ، ونحن قد ألفنا السكون إلى الرأى القائل بأن الشمس ستقل حرارتها باطراد فى المستقبل ، ولكن الذين لا اطلاع لهم على نظريات رجال من أمثال داروين الصغير ينسون أن الكواكب لابد أن ترجع فى آخر الأمر إلى أمها ومصدرها ، ومتى حدثت هذه الكوارث زادت الشمس إشراقاً وتوهجاً بما يضاف إليها ويتجدد منها ، ولا يبعد أن يكون أحد الكواكب قد صار إلى هذا المصير ، ومهما يكن من ذلك ، فإن الحقيقة باقية وهى أن الشمس فى هذا المستقبل البعيد أحمى منها فى زماننا .

ففى صباح يوم قائظ — اليوم الرابع فيما أظن — كنت أنشد ظلا أتفيأه من وقدة الحر فى خرابة ضخمة قريبة من البيت الذى آكل فيه وأنام ، فوقع لى حادث غريب . ذلك أنى كنت أخطو فوق أكوام الأنقاض فوجدت دهليزاً ضيقاً سدت نهايته ونوافذه الجانبية كتل الأحجار الواقعة ، وكان الظلام فى

هذا الدهليز ، لا تنفذ فيه العين فى أول الأمر بالقياس إلى النور الساطع فى الخارج ، فكنت أتحسس طريقى لأن الانتقال من النور إلى الظلمة جعل ومضات خافقة من النور تسبح أمام عينى ، ثم وقفت فجأة وقد أذهلنى ما رأيت فقد كانت هناك عينان براقتان تراقبانى .

وخامرنى الخوف الغريزى القديم من الوحوش ، فتقبضت كفاى ورحت أحدق فى هاتين العينين اللامعتين . وكنت أخاف أن أدور على عقبى ، ثم خطر لى أن الإنسان فى هذا العصر يعيش فى ظل الأمن المطلق ، ثم عدت فتذكرت فزع القوم من الظلام ، واستطعت أن أغالب خوفى وأن أقهره إلى حد ما ، فتقدمت خطوة وتكلمت ، وأعترف أن صوتى كان أجش ، وغير متزن ، ودفعت يدى فلمست شيئاً طريا ، فتحولت نظرة العينين وصارت عن عرض ، وانطلق جسم أبيض يعدو إلى جانبى . فدرت ، وقلبى فى فمى ، فرأيت مخلوقاً غريباً كالقردة ، ورأسه مثنىٌّ على صدره ، يجرى ويقطع المسافة التى كان عليها الضوء ، وتعثر واصطدم بحجر ، وتطرح ثم اختفى فى ظل كوم من الأنقاض .

ولم يتسع الوقت لتأمله ، ولكنى أذكر أن بياضه لم يكن ناصعاً ، بل أقرب إلى السمرة ، وأن عينيه كانتا حمراوين داكنتين ، وعلى رأسه وظهره شعر كالكتان . ولكنه ، كما قلت ، كان أسرع من أن يتسنى لى تدبره فلست أستطيع حتى أن أقول إنه كان يجرى على أربع ، أو على اثنتين فقط ، وبعد أن وقفت لحظة ، التمسته بين الأنقاض التى اختفى فى ظلها ، فأخطأته فى أول الأمر ولكنى بعد قليل وقعت على ما يشبه فوهة بئر من هذه الآبار التى حدثتكم عنها وقد سد نصفها عمود وقع عليها ، فدار بنفسى أن لعل الحيوان انحدر من فوهة البئر ، فأشعلت عود كبريت وصوبت عينى إلى عنق البئر فرأيت حيواناً أبيض

يتحرك ، وعيناه البراقتان تنظران إلى وهو يتقهقر . فسرت فى بدنى رعدة ، فقد كان منظره أشــبه بعنكبوت بشرى . وكان ينزل على جدار البئر ، فرأيت لأول مرة ، مواضع للقدم واليد على جدار البئر كأنها درجات السـلم . ولسعت نار الـكبريت إصبعى فسقط ما بقى من العود وانطفأ ، فلمـا أشعلت عوداً آخر كان الحيوان قد اختفى .

ولا أدرى كم من الوقت قضيت وأنا أحدق فى هــذه البئر . وظللت وقتاً لا أستطيع أن أقنع نفسى بأن هذا المخلوق الذى أبصرته ، آدمى . غير أن الحقيقة ما لبثت أن طالعتنى — لم يعد الإنسان نوعا واحداً ، بل صار نوعين ، وحيوانين متميزين . فهؤلاء الأطفال الرشيقون الذين رأيتهم ليسوا النسل الوحيد لجيلنا ، فإن هــذا المخلوق القذر الذى يأوى إلى الظلام والذى لمع كخطف البرق أمامى ، وارث كل العصور أيضاً .

وعاد بى التفكير إلى نظرية التهوية تحت الأرض ، وبدا لى أنى اهتديت إلى الصواب ، وياترى ما محل هذا الحيوان فى النظام التام الاتزان والتكافؤ الذى ذهبت إلى وجوده ؟ وما صلته بجمال أبناء الدنيا الآخرين الذين يعيشون عيشة الـكسل ؟ وماذا تخبئ هذه الآبار ؟ ؟ وقعدت على فوهة البئر وقلت لنفسى إنه ليس ثمة ما يدعو إلى الخوف ، وأن النزول فى البئر هو وحده الذى يحل لى المعضلات. ولـكنى مع ذلك كنت أتهيب الإقدام على ذلك ! وبينما كنت أتردد ، وأقدم رجلا وأؤخر أخرى ، أقبل اثنان من أبناء الأرض الفوقية يعــدوان من النور إلى الظل وهما يلعبان ويتغازلان ، وكان الذكر يجرى وراء الأنثى ويرميها بالزهر .

وبدا عليهما الامتعاض لما رأيانى ، وأبصرا ذراعى على العمود المقلوب وعينى تحدق فى جوف البئر ، والظاهر أنه ليس من اللائق عنــدهم أن يجعل المرء باله

إلى هذه الآبار . فقد أشرت إلى البئر وحاولت أن ألقى عليهما سؤالا يلقنهما فازداد امتعاضهما وأولياني ظهرهما . ولكنه سرهما أن يريا عود الكبريت يشتعل ، فأشعلت لهما بضعة عيدان لأسرهما ، وحاولت مرة أخرى أن أسألهما عن البئر ، فأخفقت ثانية ، فتركتهما وفى نيتى أن أجد وينا وأن أرى ماذا أستطيع أن أستخلصه منها ، وكان عقلى يدور ويدور ، وظنونى وآرائى تنزلق وتتحول إلى اتجاه جديد ، فقد صار عندى الآن مفتاح لسر هذه الآبار ولأبراج التهوية ، وللأشباح التى تراءت لى ، فضلا عن دلالة الألواح البرونزية ومصير آلة الزمان . وبدأ يدور فى نفسى شرح للمسألة الاقتصادية التى حيرتنى .

وهذا هو الرأى الجديد — هذا النوع الثانى من الإنسان يسكن باطن الأرض ، وقد مالت بى ثلاثة أمور على الخصوص إلى الاعتقاد بأن ندرة ظهوره فوق ظهر الأرض نتيجة لطول اعتياده الحياة فى جوفها . وأول هذه الأمور تلك النظرة المعهودة فى أكثر الحيوانات التى تعيش فى الظلام مثل السمكة البيضاء فى كهوف كنتكى . وثانيها كبر العين واتساع حدقتها وقدرتها على عكس الضوء ، وهى من خصائص الحياة فى الظلام — تأملوا القط والبومة مثلا . وآخرها ذلك الاضطراب الذى يعرو الحيوان فى ضوء الشمس ، والارتباك والمبادرة إلى الهرب إلى سواد الظل ، وثنى الرأس حين يكون فى النور — كل أولئك أقنعنى بأن الحدقة حساسة جدا .

فلا بد أن تكون الأرض تحتى حافلة بالسراديب التى صارت مألوف النوع الإنسانى الجديد ، وكفى بوجود الآبار وأساطين التهوية على سفوح التلال — وفى كل مكان إلا جانبى النهر — دليلا على تشعب هذه السراديب وشيوعها ، ومن الطبيعى إذن ، أن يفترض المرء أنه فى هذه الدنيا التحتية الصناعية يؤدى

كل عمل يحتاج إليه النوع الذى يعيش فى النور . وقد أخذت بهذا الرأى الذى بدا لى أنه معقول وذهبت بعد ذلك أتصور كيف تم انقسام النوع الإنسانى ، وأحسبكم قد فطنتم إلى نظريتى وإن كنت أنا نفسى ما لبثت أن رأيتها أبعد ما تكون من الصواب .

وقد بدا لى فى أول الأمر أن من الواضح أن اتساع مسافة الخلف الاجتماعى والوقتى بين الرأسماليين والعمال فى عصرنا هذا هو مفتاح السر فى هذا الذى انتهى إليه الأمر . وأنتم حريون أن تسخروا من ذلك وتنكروه وتأبوا تصديقه ، ولكنه حتى فى عصرنا هذا يوجد من الأحوال ما يشير إلى هذا الاتجاه ، فإن هناك ميلا إلى استخدام جوف الأرض فيما لا يدخل فى باب الزينـة من مظاهر المدنية ، فهناك مثلا الخط الحديدى الذى يجرى تحت الأرض فى لندن ، وثم أيضاً خطوط حديدية كهربائية ، وطرق ، وحجرات للعمل ، ومطاعم ، وهى تزداد وتتعدد . وقد خطر لى أن هذا الميل إلى الانتفاع بباطن الأرض قد قوى على الأيام حتى فقدت الصناعة مكانها تحت قبة السماء وانطوت فى جوف الأرض . وأعنى أنها انتقلت إلى باطن الأرض وتغلغلت فيه إلى أن انتهى الأمر بأن ... حتى الآن فى عصرنا هـذا ألسنا نرى العامل فى الحى الشرقى من لندن يشتغل فى أحوال تكاد تحول بينه وبين سطح الأرض ؟

وتأملوا بعد ذلك نزعة الأغنياء — وهى راجعة ولا ريب إلى زيادة الصقل فى تربيتهم ، واتساع المسافة بينهم وبين خشونة الفقراء وعنجهيتهم — فإنهم يسوّرون مساحات عظيمة من الأرض ليصدوا عنها غيرهم . فحول لندن ، مثلا ، نرى حوالى النصف من رقعة الأرض الجميلة ، مقصورة على أصحابها لا يدخلها سواهم ، وهـذا الجون الذى يزداد اتساعا — وهو يرجع إلى طول ما يستغرقه

التعليم العالى من الزمن وكثرة ما يتطلبه من نفقات ، وسهولة ما تغرى به عادات الترف — أقول إن هذا الجون يقلل التبادل بين طبقة وطبقة ، ويعطل ارتقاء الواحد منها إلى الأخرى بالتزاوج ، ويجعله أندر . وأخلق أن ينتهى الأمر بأن يعيش فوق ظهر الأرض المالكون ، وأن يطلبوا اللذة والراحة والجمال ، وأن يقنع بباطن الأرض المعدمون ، وأن يتكيف العمال شيئاً فشيئاً على مقتضى الأحوال التى يعملون فيها ، ومتى صاروا فى جوف الأرض ، فسيكون عليهم بلا شك أن يؤدوا أجرا — غير قليل — فى مقابلة التهوية لكهوفهم وغيرانهم ، فاذا أبوا أميتوا جوعا أو اختناقا بما تأخر عليهم من الأجر ، وأخلق بالتعساء والمتمردين منهم أن يموتوا ، ثم يعتدل الميزان ، ويألف الباقون أحوال المعيشة تحت الأرض وينعمون بها كما يألف الآخرون المعيشة فوقها . ومن أجل هذا كان الجمال المصقول ، والشحوب والكمدة[1] من النتائج الطبيعية فيما أرى .

وصار لانتصار الإنسانية العظيم الذى كنت أحلم به ، صورة أخرى عندى ، فما كان فوزا للتربية الأخلاقية والتعاون العام كما كنت أتخيل ، بل رأيت بدلا من ذلك أرستقراطية حقيقية مسلحة بالعلم ، وصات بالنظام الصناعى الحاضر إلى غايته المنطقية ، ولم يكن هذا انتصاراً على الطبيعة وحدها ، بل عليها وعلى الإنسان معها . ويجب أن أذكر أن هذه كانت نظريتى فى ذلك الوقت ، فما كان لى مرشد يدلنى ويهدينى ، وعسى أن أكون مخطئاً ، ولكنى ما زلت أعتقد أنى مصيب . وحتى إذا سلمنا بهذا الرأى وأخذنا به ، فإن من الجلى أن هذه المدنية المتوازنة قد جاوزت الذروة من زمان طويل ، وذهبت فى الانحدار مسافة طويلة . فقد أفضى الأمن التام بالأعلين إلى الانحطاط البطىء فتضاءلت

---

(١) تغيير اللون وذهاب صفائه .

أجسامهم وقوامهم ، وذكاؤهم ، وكان هذا من أوضح ما شهدت ، أما ما كان من أمر الأسفلين فقد كان ينقصنى أن أعرفه ، على أن ما رأيته من هؤلاء المورلوخ — وهـذا هو الاسم الذى يطلق عليهم — حملنى على القول بأن تطورهم كان أعمق من تطور النوع العلوى ، ذلك النوع الجميل الذى عرفته .

ثم ساورتنى الشكوك المتعبة . لماذا أخذ المورلوخ آلة الزمان ؟ فقد كنت واثقاً من أنهم هم الذين أخذوها . ولماذا لا يستطيع « العلويون » — إذا كانوا هم السادة — أن يردوا علىّ آلتى ؟ وما سر خوفهم الشديد من الظلام ؟ وذهبت أستفسر من « وينا » عن هذا العالم السفلى ، فخاب أملى ، ذلك أنهـا لم تفهم أسئلتى فى بداية الأمر ، فلما فهمتها أبت أن تجيبنى . وراحت تنتفض وترعد ، كأن الموضوع مما لا يحتمل ، فلما ألححت عليها بكت — وكانت دموعها — بعـد دموعى — هى الوحيدة التى رأيت عينا تذرفها فى ذلك العصر الذهبى ، فكففت عن السؤال عن السفليين ، وصار همى أن أزجر عينها عن البكاء ، وأن أعفيها من مظاهر ميراثها الإنسانى ، فما لبثت أن ضحكت وصفقت ، بينما كنت أنا أشعل عود كبريت .

— ٩ —

المورلوخ — أو — السفليون

قد تستغربون أنى تركت يومين يمضيان قبل أن أقتفى الأثر الجديد ، بالطريقة الصحيحة ، ولـكن الحقيقة أنى كنت أنفر من هذه الأجسام الشاحبة ؛ فقد كان لها ذلك اللون المربد الـكميد الذى نراه فى الديدان والأجسام المحفوظة فى الـكحول فى متاحف الحيوان . يضاف إلى ذلك أنهـا كانت باردة الملمس

قذرة ، وعسى أن يكون نفورى منها راجعا فى الأكثر إلى لطف تأثير العلويين ، الذين بدأت أدرك دواعى اشمئزازهم من السفليين .

ولم يكن نومى هنيئا فى الليلة التالية ، ولعل ذلك لاضطراب صحتى ، وقد ألحت علىّ الحيرة والشكوك ، وخامرنى — مرة أو مرتين — خوف شديد لا أعرف له باعثا ، وأذكر أنى تسللت بلا صوت ، إلى القاعة الكبرى التى كان العلويون الصغار نائمين فيها فى ضوء القمر — وكانت وينا فى تلك الليلة بينهم — وقد اطمأن قلبى بوجودهم . وخطر لى حتى فى ذلك الحين ، أن القمر سيدخل فى المحاق بعد بضعة أيام ، فتسود الليالى ، وتعم الظلمة ، وتبرز هذه المخلوقات السفلية الكريهة . وكنت فى هذين اليومين أكابد من القلق ما يكابده من يعالج أن يدفع واجبا لا مهرب منه ، وكنت على يقين من أنه لا سبيل إلى استرداد آلة الزمان إلا بالإقدام على كشف الأسرار المحجوبة فى جوف الأرض . ويا ليتنى كان معى رفيق ! إذن لاختلف الحال جدا ، ولكنى كنت مستفرداً مستوحشا ، وكان يهولنى أن أنحدر إلى ظلام هذه السراديب . وقد تستطيعون أن تفهموا شعورى ، أو لا تستطيعون ، ولكنى أعترف لكم بأنى ما كنت أشعر بالأمن والطمأنينة .

وكان هذا القلق وقلة الاطمئنان هما الباعث ، على الأرجح ، على الإبعاد فى طوافى لارتياد ما حولى ، وقد مضيت جنوبا بغرب إلى الهضبة التى تسمى الآن « كوم وود » فأبصرت على مسافة بعيدة ، وفى اتجاه « بانستيد » مبنى ضخما أخضر لا يشبه شيئا مما رأيته إلى الآن . فقد كان أكبر من أكبر القصور أو الخرائب التى عرفتها ، وكانت واجهته شرقية الطراز ، تشبه فى لمعتها ولونها الأخضر الباهت بعض المواعين « الصينية » . فأوحى إلى اختلاف المنظر

أنه مجعول لغاية أخرى مختلفة ، ونازعتنى نفسى أن أمضى على سننى حتى أتبين ولـكن المغيب كان قد دنا ، وكنت قد بلغت هذا الموضع الذى أرى منه البناء بعد لفة طويلة مضنية ، فعزمت أن أرجئ الارتياد إلى اليوم التالى وعدت إلى وينا الصغيرة وحفاوتها بى ، وملاطفاتها لى ، غـير أنى فى الصباح أدركت على أوضح صورة ، أن شوقى إلى استطلاع كنه هذا القصر « قصر الصينى الأخضر » ليس إلا مظهراً لمغالطة النفس وصرفها ، يوما آخر ، عما أتهيب الإقدام عليه . فآليت لأنزلن إلى السراديب بلا تلـكؤ ، وذهبت إلى بئر قريبة من خرائب الصوان والألومنيوم .

وكانت وينا تعدو معى ، وترقص إلى جانبى حتى بلغت البئر ، فلما رأتنى أنحنى على فوهتها وأنظر فيها اضطربت ، فقلت لها : « وداعا يا وينا الصغيرة » ، ثم وضعتها على الأرض ، وشرعت أتحسس جوانب الفوهة باحثا عن خطاطيف السلم . وأعترف أنى كنت أفعل ذلك بسرعة ، فقـد كنت أخشى أن ينضب معين شجاعتى ، وكانت وينا فى أول الأمر ترقبنى وهى ذاهلة ، ثم أطلقت صيحة جزع وأقبلت على تجذبنى بيديها الصغيرتين ، وما أظن إلا أن اعتراضها سيبلى قوانى ، وجعل عزمى أصح على المضى ، فنفضتها عنى بشىء من العنف ، وبعد لحظة كنت فى عنق البئر ، وقد رأيت وجهها وما ارتسم عليه من الجزع والألم ، ولـكنها تبسمت لى تطمئننى . ثم اضطررت أن أصوب عينى إلى ما تحتى لأرى مواقع رجلى على السلم القلق الذى تعلقت به .

وقد انحدرت مسافة مائتى ذراع تقريبا . وكان ذلك بواسطة قضبان معدنية ناتئة من جوانب البئر ، ولما كانت هذه مجعولة لمن هم أدق أجساما ، وأخف وزناً ، فقد أتعبنى النزول ، ولم يقتصر الأمر على التعب ، فقد انثنى أحد القضبان

فجأة تحت ثقلي ، فكاد ذلك يلقيني فى الهوة السوداء ، وقد تعلقت لحظة بإحدى يدى ، ولم أعد أجترئ بعد هذه التجربة على التماس الراحة وأنا أنزل ، وآلمنى ظهرى وذراعى جدا ، ولكنى تجلدت وثابرت على الهبوط بأسرع ما أستطيع ، وصعدت طرفى فرأيت الفوهة ، ورقعة صغيرة من السماء الزرقاء ونجما فيها ، وكان رأس وينا ، الدقيق ، يبدو كأنه نتوء أسود مستدير ، وصار صوت آلة تدور فى ناحية ما ، أعلى وأقوى ، وأثقل على النفس ، وكان كل شىء ما خلا تلك الرقعة الصغيرة فى السماء ، حالك السواد ، فلما صعدت عينى مرة أخرى ، كانت وينا قد اختفت .

وكنت فى عذاب غليظ من قلة الراحة ، وطاف برأسى أن أصعد وأترك هذا العالم السفلى ، ولكنى كنت وأنا أفكر فى هذا ، أواصل النزول . وأخيراً رأيت — وتشهدت حين فعلت — إلى اليمين ، وعلى بعد قدم واحدة ، فجوة صغيرة فى الحائط ، فدخلت فيها فألفيتها تفضى إلى سرداب ضيق أستطيع أن أنطرح فيه وأستريح ؛ ففعلت ولما أكد ، فقد ألح الألم الذى فى ظهرى ، وصار ظهرى يوجعنى ، وكنت أرعش من طول الخوف من السقوط ، زيدوا على ذلك أن الظلمة الطاخية التى لا ينسخها شىء أورثت عينى وجعا شديدا ، وكان الجو يدوى فيه ضربان الآلة التى تمص الهواء من عنق البئر .

ولا أدرى كم بقيت هكذا ، ولكن الذى أدريه أنى أفقت على يد طرية تلمس وجهى ، فنهضت جالساً فى الظلام ، ودفعت يدى إلى حيث الكبريت ، وأشعلت عوداً فرأيت ثلاثة من السفليين — على صورة الذى رأيته فى الخرابة من قبل — حانين علىّ ، فلما أضاء النور ذهبوا يتراجعون أمامه بسرعة ، وكانت عيونهم لطول ما ألفوا العيش فى هذا السواد الحالك ، كبيرة حساسة ،

تعكس الضوء . ولم يخالجنى شك فى أنهم كانوا يروننى فى هذا الظلام الذى لا ينفذ إليه شعاع واحد من النور ، ولم يكن يبدو عليهم أنهم يخشون منى شيئا سوى هذا النور ، وما كدت أشعل عودا حتى لاذوا بالفرار وولوا الأدبار إلى السراديب المظلمة التى كانت عيونهم تطالعنى منها بالوميض الغريب .

وحاولت أن أدعوهم إلى ، لكن لغتهم كانت ، على ما يظهر ، غير لغة العلويين ، فتركنى هذا بغير عون يرجى منهم ، فجرى ببالى أن أهرب وأرتد إلى حيث كنت ولا أعنّى نفسى بالارتياد ، ولكنى قلت لنفسى « لابد مما ليس منه بد » وتحسست طريقى فى السرداب ، فصار صوت الآلة أعلى ، ثم تباعدت الجدران فدخلت فى رقعة فسيحة ، وأشعلت عودا ، فإذا بى فى كهف واسع ذى عقود ، يغيب آخره فى ظلام لا يخففه النور الضئيل الذى معى ، فلم أر منه إلا بقدر ما يضئ العود .

ولا أحتاج أن أقول إن ما أذكره قليل الوضوح ، فقد كانت تتمثل لى صور ضخمة غامضة لآلات كبيرة ، وتلقى ظلالا سودا عظيمة كانت تلوذ بها أشباح السفليين من وهج الضوء . وكان المكان محبوس الهواء ثقيل الوطأة على الصدر ، وكنت أشم رائحة خفيفة لدم مهراق حديثاً ، وكان فى الوسط منضدة صغيرة من معدن أبيض وعليها طعام . ومهما يكن من أمر السفليين فانهم على كل حال من أكلة اللحوم ! وحتى فى ذلك الوقت أتذكر أنى سألت نفسى يا ترى أى حيوان كبير هذا الذى اقتطع منه هذا الفخذ الأحمر الذى أراه ؟ وكان كل شئ غامضا — الرائحة الثقيلة ، والصور الكبيرة التى لا يتضح لها معنى ، والأشباح القذرة التى تلوذ بالظلام وتتربص بى ! ثم فنى العود ، فلسع أصابعى ، وسقطت بقيته المضطرمة فى الظلام .

وقد تمثلت لى ، بعد ذلك ، ضآلة عدتى لمثل هذه التجربة . فقد ركبت آلة الزمان ، وأنا أعتقد أن أبناء المستقبل لا بد أن يكونوا قد تقدموا جدا فى كل باب ، فرحلت بغير سلاح ، وبدون دواء ، وبلا سجاير — ولشد ما افتقدت الطباق ! — بل حتى بغير الكفاية من الكبريت . أما لو كانت معى آلة تصوير (كوداك) ؟ إذن لو سعنى أن ألقط صوراً للعالم السفلى فى ثانية ، ثم أتدبرها وأفحصها فيما بعد على مهل . ولكنه لم يكن معى هناك من السلاح والقوة إلا ما حبتنى الطبيعة — اليدان ، والقدمان ، والأسنان — وأربعة عيدان من الكبريت كانت باقية معى .

وكنت أخاف أن أمضى فى طريقى بين كل هذه الآلات فى الظلام ، وأشفت ذخيرتى من الكبريت على النفاد ، ولم يخطر لى قط من قبل أن بى حاجة إلى الاقتصاد فيها ، فبددت نصف علبة لأدهش العلويين الذين لا يعرفون النار . والآن صار كل ما بقى معى أربع علب . وبينما كنت واقفاً فى الظلام ، لمستنى يد ، وتحسست وجهى أصابع نحيفة ، وشممت رائحة كريهة ، وخيل إلىّ أنى أسمع تنفس جمهرة من هذه المخلوقات الفظيعة حولى ، وأحسست أن علبة الكبريت التى فى يدى ، تنزع منى برفق ، وأن أيديا أخرى ورائى تجذب ثيابى . ولم يكن أثقل على نفسى من الشعور بأن هذه المخلوقات المحجوبة تفحصنى وتجسنى ، وراعنى أنى أجهل أساليب تفكيرهم وعملهم ، فصحت بهم بأقوى صوت ، ففزعوا وتفرقوا عنى ، ثم شرعوا يقتربون مرة أخرى ، وزادوا جرأة فى اللمس والتحسس وراحوا يتهامسون فيما بينهم بأصوات منكرة فسرت فى بدنى رعدة ، وصرخت فيهم مرة ثانية ، فلم يذعروا هذه المرة كذعرهم من قبل ، ولم يجفلوا ، بل ندت عنهم أصوات غريبة وأقبلوا علىّ ، وأعترف أنى خفت ، وعزمت أن أشعل

عوداً وأن ألوذ بالفرار على ضوئه . وأشعلت العود ، ووقيت لهبه برقعة أخرجتها من جيبي ، وانكفأت إلى السرداب الضيق ، وما كدت أبلغه حتى انطفأ العود ، فسمعت السفليين فى الظلام ، يعدون ورائى ولهم مثل صوت الريح بين الشجر ووقع المطر على الأرض .

وقبضت علىّ ، أيد كثيرة ، ولم يخالجنى شك فى أنهم يريدون أن يردونى إلى حيث كنت ، فأشعلت عوداً آخر وحركته أمام وجوههم المروعة ، ولا أكاد أتصور مبلغ خلوها من السمات الإنسانية — هذه الوجوه الشاحبة التى ليس على عوارضها شعر ، ولا لعيونها الواسعة جفون — وهى تحدق فى مذهولة وقد أعماها النور . ولكنى لم أتلكأ أو أتمهل ، بل تقهقرت مرة أخرى ، ولما انطفأ العود الثانى أشعلت ثالثا وكاد ينتهى حين بلغت المنفذ إلى عنق البئر ، فانطرحت على الحافة لأن صوت الآلة الماصة أدار رأسى ، ثم دفعت يدى باحثاً عن خطاطيف السلم ، وإذا بالقوم يتناولون رجلى ويجذبوننى بشدة ، فأشعلت آخر عود معى ، فانطفأ . . . ولكن يدى كانت على القضبان الآن ، فرفست بعنف ، وتخلصت من قبضة هؤلاء السفليين ، وذهبت أصعد بسرعة وهم ينظرون إلىّ ، ما خلا واحداً منهم تبعنى مسافة وكاد يسلبنى حذائى ويعود به غنيمة له !

وكان الصعود ، فيما أحس ، لا ينتهى ، وجشأت نفسى ونهضتْ فى المرحلة الأخيرة ، وكابدت عناء شديداً ، وكاد يعيينى أن أظل قابضاً بيدى على القضبان ولم آل جهداً فى مقاومة اضطراب النفس وضعفها ، وكانت رأسى تدور ويعترينى الإحساس بالسقوط . وأخيراً خرجت من البئر وتطرحت بين الأنقاض إلى نور الشمس . وارتميت على وجهى . وكانت رائحة الأرض جميلة نظيفة ، وأتذكر أن وينا أقبلت علىّ ، تلثم راحتىّ وأذنىّ ، وكنت أسمع أصوات أناس غيرها من العلويين . ولكنى غبت عن وعيى لحظة .

— ١٠ —

فى الليـــل

صار خطبى فيما أرى ، أدهى . فقد كنت من قبل — فيما خلا ما أورثنيه فقد آلة الزمان من الألم — أتشبث بالرجاء فى النجاة آخر الأمر ، ولـكن ما وقفت عليه رجنى وزعزع أملى . وكان ظنى أنه لا يعوقنى غير السذاجة الصبيانية التى رأيتها فى هؤلاء القضاف[1] وأن تخطى الموانع لا يكلفنى إلا أن أعرف ما أجهل من العوامل ، ولـكن هؤلاء السفليين عنصر جديد لم يكن لى فى حساب ، عنصر سوء وشر ليس فيه شىء من صفات الإنسانية ، فأحسست لهم بالمقت . وكنت أشعر بما يشعر به المرء إذا وقع فى جب ، وكان همى هذا الجب وكيف أخرج منه . أما الآن فقد صرت كالحيوان الذى وقع فى شرك ، وسرعان ما يخف إليه صائده .

وقد يدهشكم العدو الذى خفته ـــ فما كان إلا ظلام الليلة الأولى من الشهر الجديد[2] وكانت وينا هى التى أوحت إلىّ هذا الخوف بما قالته ـــ وإن كنت لم أفهمه — عن الليالى المظلمة . ولم يكن من العسير على الآن أن أخمن ما عسى أن تجىء به الليالى السوداء . وكان القمر يدخل فى المحاق ، فالعتمة فى كل ليلة تجىء ، أطول . وقد فهمت إلى حد ما ، سبب الخوف الذى يعترى هؤلاء العلويين الصغار من الظلام . وتمنيت لو عرفت ماذا عسى أن يرتـكب هؤلاء السفليون من الخسة والأسواء فى مطلع الشهر الجديد . وصرت موقناً أن نظريتى الثانيـة

(١) القضافة : دقة فى الجسم من خلق لا من هزال .

(٢) الشهر القمرى .

خطأ فى خطأ . ولعل العلويين كانوا فيما مضى هم السادة والطبقة الأرستقراطية المفضلة ، على حين كان السفليون خدمهم وخولهم . ولكن هذا عهد مضى وانقضى وصار النوعان اللذان أثمرهما تطور الإنسان على الأدهار ، يمضيان — أو عسى أن يكونا قد انتهيا — إلى حال جديدة وعلاقة أخرى . فالعلويون قد انحطوا فصاروا عبثاً جميلا ليس إلا ، وما زال لهم ملك الأرض ، ولكن على التسامح ، لأن السفليين الذين ألفوا باطن الأرض من أحقاب مديدة ، أصبحوا لا يطيقون ظهرها المضيءْ ، وقد استخلصت أن السفليين يصنعون لهم ثيابهم ، ويمدونهم بحاجاتهم المألوفة ، ولعلهم يجرون على ذلك بحكم العادة القديمة كما يضرب الجواد الأرض بحافره ، أو كما يلتذ الإنسان قتل الطريدة حين يخرج للصيد — لأن ضرورات عتيقة تركت أثرها فى كيان المخلوق . ولكن النظام قد انقلب ، وأخذ يوم الحساب والعقاب يدلف من هؤلاء الصغار الرقاق . ولقد استطاع الإنسان قبل آلاف من الأجيال أن يدفع أخاه الإنسان عن نور الشمس ونعيم العيش . فالآن يرتد هذا الأخ المدفوع ، وقد تغير ، ولقد شرع العلويون يتعلمون من جديد درسا قديما . فقد بدأوا يعرفون الخوف مرة أخرى . وطافت برأسي فجأة وأنا أفكر فى هذا ذكرى اللحم الذى رأيته فى العالم السفلى ، وكان من المستغرب أن أتذكر ذلك ، فما أثاره تداعى الخواطر ، ولا أدى إليه تيار التفكير ، بل خطر الأمر كأنه سؤال يلقى على من الخارج . فحاولت أن أتذكر صورة اللحم ، وخيل إلىّ أن فيه شيئا مألوفا ، ولكنى لم أستطع أن أعرف فى ذلك الوقت ما ذا هو .

ومهما يكن من أمر هؤلاء الصغار وعجزهم حيال ما يخافون فإن شأنى غير شأنهم ، وأنا ابن عصرى ، وثمرة شباب الإنسانية فالخوف لا يشل المرء ،

والأسرار الخفية لا تفزع . وأنا ، على الأقل ، سأدافع عن نفسى . ولم أضيع وقتاً ، فعزمت أن أصنع لنفسى أسلحة ، وأن أتخذ حصناً أنام فيه . ومتى صار الحصن قاعدة لى ، فإنه يسعنى أن أواجه هذا العالم العجيب بشىء من الاطمئنان الذى أفقدنيه إدراكى لأى ضرب من الخلائق أتعرض ليلة بعد ليلة . وشعرت أن من العسير أن أنام بعد ذلك ما لم أكن فى أمان منهم . وارتعدت وأنا أذكر كيف فحصونى .

وذهبت بعد الظهر أتمشى فى وادى التيمز ، فلم أجد شيئاً يصلح فى رأيى أن يكون معقلا ، فقد كانت المبانى والأشجار كلها لا تعيي متسلقين حذاقا كهؤلاء السفليين ، وكفى بآبارهم شاهداً . ثم تذكرت البروج العالية فى قصر الصينى الأخضر وجدرانه المصقولة اللامعة ، فلما كان المساء حملت وينا على كتفى كما يُحمل الطفل ، وذهبت أصعد فى التل فى اتجاه غربى جنوبى . وكانت المسافة — فيما أقدر — سبعة أميال أو ثمانية ، ولكنى وجدتها أقرب إلى ثمانية عشرة . وكنت قد رأيت القصر أول مرة فى المساء والضباب ، فالأبعاد تخدع . وكان عقب حذائى قد تخلخل ، وكان فى النعل مسمار ، فصرت أظلع . فلما صرت على مرأى من القصر كان النهار قد ولى ، فصار القصر أسود أمام الشفق .

وكانت وينا قد سرها جدا أنى حملتها ، ولكنها بعد قليل طلبت أن أحطها عن كاهلى ، وراحت تجرى بجانبى ، وتعرج يميناً وشمالا ، لتقطف لى أزهاراً تدسها فى جيوبى . وكانت جيوبى هذه مبعث حيرة لوينا ، وأخيراً هداها التفكير إلى أنها نوع شاذ من الزهريات ، أو هى ، على الأقل ، صارت تتخذها لوضع الزهر فيها . وهذا يذكرنى .... فقد وجدت وأنا أغير سترتى .... » .

(وأمسك الرحالة فى الزمن ، ودس يده فى جيبه ، وأخرج زهرتين ذابلتين

وضعهما ، بلا كلام ، على المائدة . ثم وصل ما انقطع من حديثه) .

وسكن الليل ، وواصلنا الإصعاد فى التل فى اتجاه وملبدن فتعبت و ينا ، وأرادت العودة . ولـكنى أشرت إلى بروج القصر وأفهمتهـا بطر يقة ما ، أننا سنجد فيه معاذاً مما يخيفها . وأحسبكم تعرفون ذلك السكون الذى يشمل الدنيا قبل الغسق ؟ حتى النسيم يقف ، فى الشجر ، وما زلت أرى فى هـذا السكون معنى الانتظار ، وكانت قبة السماء صافية ، بعيدة ، فارغة ، فيما خلا بضعة خطوط أفقيــة فى حيث غربت الشمس ، وقد اكتسى ما أتوقع فى تلك الليلة ، ثوب الخوف والحذار ، فصارت حواسى فى ذلك السكون المظلم مرهفة ، وكان يخيل إلى أنى أحس أن الأرض التى أطؤها بقدمى ، مجوفة ، محفورة ، بل أكاد أرى من خلال قشرتهـا هؤلاء السفليين يذهبون ههنا وههنا متربصين ، حتى يجىء الظلام ، وخيل إلى أنهم سيعدون تطفلى عليهم فى سراديبهم بمثابة إعلان للحرب عليهم . ولماذا أخذوا آلة الزمان ؟ ! .

وهكذا مضينا فى هذا السكون ، وانتقلنا من الشفق إلى العشوة ، وغابت الزرقة الصافية ، و برزت النجوم واحداً بعـد واحد ، وخفيت معالم الأرض ، واحلولـكت الأشجار ، وزادت مخاوف و ينا ، وتحلل بها التعب ، فحملتها بين ذراعى ، وذهبت أحدثها وألاطفها ، فلما طخطخ الظلام طوقت عنقى بذراعيها ، وأغمضت عينيها ، وأراحت خدها على كتفى ، وانحدرنا ، ونحن هكذا ، إلى وِاد وجئنا إلى جدول صغير خضته إلى الناحيــة الأخرى من الوادى ، مار ين بعدد من المساكن وتمثال بلا رأس ، وكانت هناك أشجار سنط ، ولم أر أحداً من السفليين ولـكنا ما زلنا فى أول الليل ، وأمامنا ساعات حالـكة قبل أن يطلع القمر القديم .

ورأيت من ذروة التل التالى غابة كثيفة ، فترددت فما بدا لى آخر لها ، إلى اليمين أو إلى اليسار . وأحسست بالتعب — وبالحفى فى قدمى خاصة — فأنزلت وينا عن كتفى ، وقعدت على الخضرة . وكنت لا أرى القصر من مكانى فشككت فى النهج الذى أنا ناهجه ، أهو مستقيم أم أعوج ؟ ونظرت إلى الغابة الملتبسة ، وفكرت فيما عسى أن يكون مخبوءاً فيها ، ومتى دخل المرء تحت هذه الغصون المتوشجة ، فإن النجوم تغيب عنه ، وحتى لو أنه لا خطر كامن فيها — خطر أبيت أن أطلق لخيالى العنان فيه — فإنه يبقى التعثر بالأعواد والاصطدام بالشجر ، وكنت قد تعبت جدا بعد الذى تجشمته فى النهار فقلت أتقى الغابة ، وأقضى الليل على التل .

وسرنى أن وينا كانت مستغرقة فى النوم ، فلففت عليها سترتى وجلست إلى جانبها أنتظر طلوع القمر ، وكان جانب التل ساكنا مهجورا . ولكنى كنت من حين إلى حين أحس بحركة من ناحية الغابة . وكانت النجوم تومض وتتلامح فوقى ، فقد كان الليل ساجيا ، والسماء صافية ، فكنت أجد فى ذلك أنسا وروحا ، على أن العقود القديمة قد ولت ، وأعادت نظمها فى صور جديدة ، تلك الحركة البطيئة التى لا تحس فى مائة عمر إنسانى ، ولكن نهر المجرة بقى على العهد به فيما بدا لى . ورأيت فى ناحية الجنوب (فيما رجحت) ، نجما أحمر مشرقا لا أعرفه ، وهو أبهر من الشعرى . وكان هناك بين هذه الأضواء البراقة ، كوكب ثابت النور ، رقيقه ، كأنه وجه صديق قديم .

وقد تضاءلت همومى ، وأنا أنظر إلى هذه النجوم ، وخفت أثقال الحياة الأرضية ، وفكرت فى الأبعاد المهولة لهذه النجوم ، وفى دلوفها البطىء من الماضى المجهول إلى المستقبل المجهول ، وفى دورة الاستقبال التى يصنعها القطب الأرضى ،

وكيف أن هذه الدورة الصامتة لم تحدث سوى أربعين مرة فى كل هذه السنين التى قطعتها ، وفى خلال هذه الدورات القليلة ، زال وامحى من الوجود كل النشاط ، وكل التقاليد ، والنظم المعقدة ، والأمم واللغات والآداب ، والآمال ، بل زالت ذكرى الإنسان كما عرفته . وجاء هؤلاء الضعاف الذين نسوا أسلافهم الأماجد ، وهذه المخلوقات البيضاء التى أمشى منها على حذر . ثم فكرت فى الفزع الذى يفصل ما بين النوعين ، فتبينت لأول مرة معنى اللحم الذى رأيته ، فسرت فى بدنى رعدة ، ونظرت إلى وينا الراقدة بجانبى ، ومحياها الأبيض ، وكأنه النجم تحت النجوم ، فجاهدت حتى نفيت هذا الخاطر من رأسى .

وظللت ذلك الليل الطويل أصرف ذهنى عن التفكير فى السفليين على قدر ما يسعنى ذلك ، وأتسلى بأن أحاول أن أتصور أنى أرى ما يدل على وجود العقود والمنظومات القديمة فى الاضطراب السماوى الجديد ، وقد ظلت السماء صافية ، ولم يغشها إلا سحابة رقيقة . ولا شك أنى كنت أغفى من حين إلى حين ، ولما تقضى الليل إلا أقله ، ظهر غشاش فى الأفق الشرقى ، كأنه انعكاس نار لا لون لها ، وطلع القمر هزيلا مقوسا ، وفى بياضه كدرة ، ومن ورائه بلجة الفجر . وكان شاحبا فى أول الأمر ثم احمر وسطع . ولم يقترب منا أحد من السفليين ، ولم أر منهم واحدا فوق التل فى تلك الليلة ، وأعاد اليوم الجديد ما كان ضاع من الاطمئنان والثقة فخيل إلى أن مخاوفى لم يكن لها موجب ، فنهضت فإذا قدمى الذى انفصل كعب حذائها قد ورم رسغها ، وصار عقبها يؤلمنى ، فقعدت ثانية ، وخلعت حذائى ورميته .

وأيقظت وينا ، وانحدرنا إلى الغابة التى صارت خضراء زهراء ، بعد أن كانت فى الليل سوداء مخوفة . ووجدنا ثمارا أفطرنا عليها ، وما لبثنا أن التقينا

بكثير من العلويين يضحكون ويرقصون ، فى نور الشمس ، كأنما لم يعد لليل فى هذه الحيـاة وجود ، ففكرت مرة أخرى فى اللحم الذى رأيته ولم يبق عندى شك فى أمره ، وأدركنى العطف القوى على هذا الجدول الآخر الضعيف من فيض الإنسانية العظيم . ولاشك أنه حدث فى الماضى السحيق من عهد انحطاط الإنسان أن عانى السفليون القحط ، وعسى أن يكونوا قد اقتاتوا الجرذان وما إليها ، وحتى فى عصرنا هذا نرى الإنسان أقل عناية بطعامه واقتصارا على لون واحد من أى قرد ، وليس كرهه للحم البشرى براجع إلى غريزة عميقة القرار وهكذا صار أبناء الإنسان الذين فقدوا الصبغة والصفات الإنسانية ...! وحاولت أن أنظر إلى الأمر نظرة علمية ، وهم على كل حال أقل إنسانية وأنأى من أجدادنا المستوحشين الذين عاشوا قبل ثلاثة آلاف من السنين أو أربعة آلاف وقد ذهب الذكاء الذى كان خليقاً أن يحيل هذه الحالة عذابا غليظا ، ولماذا أعنى نفسى ؟ إنما هؤلاء العلويون أنعام مسمنة ، يتحفظ بهـا ، ويفترسها السفليون ، ولعلهم يعنون بتربيتها وتوليدها ! وهذه وينا ترقص إلى جانبى !

وحاولت أن أقى نفسى ما يهجم عليها من الاستفظاع ، بأن أعد هذا جزاءاً وفاقا للأثرة الإنسانية ، فقد كان الإنسان راضيا قانعا بأن يعيش فى رغد وهناءة بفضل العمل الذى يتجشمه أخوه الإنسان ، وقد اتخـذ من « الضرورة » كلمة سر ، وعذراً ، فالآن تدور الدائرة عليه ، ويلزمه « أخوه » حكم الضرورة ! وقد حاولت أن أتـكاف مثل احتقار « كارليل » للأرستقراطية المتداعية التعيسة ! ولـكن هذه النظرة كانت مستحيلة :

فمهما يكن مبلغ الانحطاط العقلى الذى صار إليـه العلويون ، فإن مسحتهم الإنسانية التى احتفظوا بها تستدر عطفى وتجعلنى شريكا فى انحطاطهم وفى خوفهم .

ولم أكن فى ذلك الوقت على بينة من النهج الذى أنهجه ، وكان همى الأول أن أجد ملجأ أحتمى به ، وأن أصنع ما يسعنى صنعه من السلاح — من المعدن أو الحجر . وكان هـذا أمراً لا يحتمل الإرجاء ، وكنت أرجو أن أهتدى إلى وسيلة أوقد بها نارا ليكون فى يدى هذا السلاح ، فليس أمضى منه فى مكافحة السفليين . وكنت أرى أيضا أن أدبر وسيلة لـكسر ألواح البرونز تحت قاعدة التمثال . وخطر لى المنجنيق ، وكنت مقتنعا بأنى حرى إذا اقتحمت هذه الألواح ومعى نور ، أن أجد آلة الزمان وأنجو . ولم أستطع أن أتصور أن يكون السفليون من القوة ومتانة الأسر بحيث يسعهم أن يبعدوا بآلة الزمان ، أما وينا فآليت أن أكر بها راجعا إلى زماننا . وقد أدرت هذه الخواطر فى نفسى ، وأنا أمضى على سننى إلى القصر الذى آثرت أن ألجأ إليه وأعوذ به .

— ١١ —

قصر الصينى الأخضر

وجدت قصر الصينى الأخضر — لما شارفته حوالى الظهر — مهجوراً متهدماً . ليس فى نوافذه إلا بقايا زجاج ، وقد سقطت ألواح كبيرة من الواجهة الخضراء فظهر إطارها المعـدنى المتآكل . وهو يذهب فى الهواء فوق مرج ، وأدهشنى وأنا أتأمله قبل الدخول ، أن أرى خليجاً أو خوراً حيث أظن أن « وندسورث » و « بترسى » كانتا فيما مضى . ففكرت — وإن كنت لم أتتبع هذا الأمر — فيما عسى أن يكون قد حدث أو ما لعله يحدث ، للأحياء المائية .

وتبينت بعد الفحص أن المادة التى صنع منها القصر هى « الصينى » ورأيت على ظاهرها كتابة بلغة مجهولة ، وخطر لى — لجهلى — أن وينا ربما استطاعت

أن تترجم لى هذا ، فإذا « الكتابة » لم تجر لها قط فى بال ! وكانت تبدو لى دائماً أجزل حظا من الإنسانية مما كانت ؛ وأحسب أن هذا راجع إلى أن عاطفتها إنسانية .

ووجدنا وراء مصراعى الباب — الذى كان مفتوحاً ومحطما — بدلا من القاعة المألوفة ، دهليزاً طويلا يدخل إليه النور من نوافذ عديدة على الجانبين ، فأذكرتنى النظرة الأولى ، بالمتاحف ، وكان البلاط مغطى بطبقة من التراب ، وكذلك ما كان هناك من الأشياء . ثم رأيت النصف الأسفل من هيكل عظمى كبير قائماً فى وسط القاعة ، وأدركت من هيئة القدمين المنحرفتين أنهما لمخلوق منقرض ، وكانت الجمجمة والعظام العليا ملقاة فى التراب الكثيف ، وقد أتى ماء المطر الذى رشح من السقف ، على بعضها . ورأيت فى موضع آخر من الدهليز هيكلا ضخما للبرونتوسوروس فصح عندى أن هذا متحف ، فملت إلى جانب فألفيت ما خيل إلى أنه رفوف مائلة ، فأزلت عنها التراب فوجدت الصناديق الزجاجية المألوفة فى زماننا ، ومن الواضح أنها محكمة لا ينفذ إليها الهواء فقد كان بعض محتوياتها سليما .

نحن إذن بين آثار عهد متأخر من عهود كنسنجتون الجنوبية ، وهذا هو قسم المتحجرات ، ولا شك أنه كان فيه معرض بديع من البقايا العضوية المتحجرة ، وإن كان الفساد الذى أرجئ زمناً ما ، والذى فقد — بفضل انقراض الجراثيم وما إليها — تسعة وتسعين فى المائة من قوته ، قد أخذ يدب فى هذه الكنوز مرة أخرى ، ببطء شديد ، ووجدت هنا وهنا ، آثاراً من هؤلاء الأناسى الصغار فى صورة بقايا عظام مكسرة أو منظومة فى خيوط على أعواد . وقد نقلت الصناديق جملة فى بعض الحالات — نقلها السفليون فى رأيى —

وكان المكان ساكناً والتراب الكثيف يمنع أن يكون لخطواتنا صوت ، وكانت وينا تدحرج على رف الزجاج المائل ، حيواناً بحريا ، ثم ارتددت إلى وأنا أجيل عينى فيما حولى ، وتناولت يدى فى سكون ، ووقفت إلى جانبى .

وأدهشنى فى أول الأمر هـذا الأثر القديم المتخلف من عصر مثقف ، فلم أفكر فى الاحتمالات التى يعرضها على عقلى ، بل لقـد فتر اشتغال بالى بآلة الزمان .

وكانت ضخامة القصر توقع فى الروع أنه أكثر من متحف للبقايا العضوية ولعل فيـه متاحف تاريخية ، بل ربما كانت فيه مكتبة ، وكان هذا — فى الأحوال الحاضرة — أمتع لى وأولى بعنايتى فذهبت أرود المكان فوجدت دهليزاً آخر قصيراً ، وكان هذا مقصوراً ، على ما يظهر ، على المعادن ، وكانت فيه كتلة من معدن الكبريت أخطرت البارود ببالى ، ولكنى لم أجد ملح البارود ، ولا نترات من أى ضرب . ولا شك أنها ذابت من زمان طويل ، ولكن معدن الكبريت تشبث بعقلى ، وأغرانى بفكرة ، أما سائر ما كان فى هـذا القسم من المتحف ، فلم أعبأ به ، وإن كان — بالقياس إلى غيره — فى حالة جيدة . ولست إخصائيا فى المعادن ، فانحدرت إلى جناح خرب محاذ للدهاليز الأول وكان هذا مفرداً ، على مايظهر ، للتاريخ الطبيعى ، ولكن كل ما فيـه كان قد زالت معارفه ، وكانت هناك آثار قليلة مما كان ؛ حيوانات محنطة محشوة ، وأعضاء جافه فى أوعية كان فيها كحول ، وتراب نباتات عفى عليها الزمن ، وهذا كل ما بقى ! وقد أسفنى هـذا فقد كان يسرنى أن أتتبع المراحل البطيئة المتعاقبة التى انتهت إلى التغلب على الطبيعة الحيـة . ثم انتقلنا إلى قاعة مهولة الأبعاد ولكن الضوء فيها كأسوأ ما يكون ، وكانت أرضها مائلة قليلة ، وكنت

أرى كرات مدلاة من السقف — كثير منها محطم — فالمكان إذن كان يضاء بالكهرباء أو ما إليها ! وكانت هذه القاعة أقرب إلى نفسى ، وأشبه بمألوفى ، فقد وجدت فيها على الجانبين آلات كبيرة ، وكانت كلها متآكلة ، وكثير منها مكسر ، ولكن البعض على جانب من السلامة . وأنتم تعرفون كلفى بالآلات ، وقد نازعتنى نفسى أن أتلكأ هنا ، وشوقنى إلى البقاء أن هذه الآلات لها متعة الألغاز والأحاجى ، وإن كنت لا أستطيع أكثر من تخمين الغرض منها وما كانت مجعولة له . وخيل إلى أنى لو استطعت أن أحل هذه الألغاز فإنى حرى أن أفيد قوة تنفعنى فى مغالبة السفليين .

والتصقت بى وينا فجأة حتى لأفزعتنى ، ولولاها لما فطنت إلى أن أرض القاعة منحدرة[1] ، وكان الطرف الذى دخلت منه فوق سطح الأرض ، وكان الضوء يؤدى إليه من روازن ، وكلما تقدمت فى الردهة علت الأرض وظهرت من النوافذ ، حتى لا ينفذ من الضوء إلا خيط ضئيل . فسرت على مهل وأنا أعالج ألغاز الآلات ، واستغرقنى التفكير فلم ألاحظ أن الضوء يقل شيئاً فشيئاً ، حتى لفتنى خوف وينا ، فرأيت عندئذ أن الردهة تلف من طرفها هذا فى ظلام دامس فترددت ، ثم أدرت عينى ، فرأيت أن التراب أخف ، وأن سطح الأرض أقل استواء . ورأيت أمامى آثار أقدام صغيرة فتجدد شعورى بقرب السفليين منى ، ودار بنفسى أنى أضيع وقتى بهذا الفحص العلمى للآلات ، وذكرت نفسى بأن العصر قريب ، وأنا ما زلنا بغير سلاح أو مأوى ، وأنه ليس عندنا ما نوقد به نارا . وإذا بى أسمع من ناحية الظلام البعيد نفس الأصوات التى سمعتها فى البئر والسرداب .

---

(١) ربما كانت الأرض غير مائلة ، ولعل المتحف مبنى فى سفح التل — الناشر

فتناولت يد وينا ، ثم خطر لى خاطر ، فتركتها وقصدت إلى آلة يبرز منها قضيب شبيه بما يكون فى صناديق الإشارة ، ووثبت إلى الدرجة ، وتناولت القضيب بكلتا يدى ، وملت عليه بكل ما فى من قوة . ورأت وينا أنها صارت وحدها فى وسط الردهة فأنشأت تنشج ، وكان تقديرى لقوة القضيب دقيقا ، فما لبث أن نزع من مكانه ، فعدت إلى وينا ومعى حديدة هى فوق الكفاية لفلق يافوخ من عسى أن ألاقى من السفليين وأقول الحق أنى كنت أشتهى قتل بعضهم ، وقد تذهبون إلى أن مما ينافى الإنسانية أن يشتهى المرء قتل نسله ! ولكنه كان من المستحيل أن يخالج المرء شعور إنسانى فيما يتعلق بهؤلاء . وما صدنى عن مواصلة السير فى الردهة وقتل هؤلاء الوحوش الذين سمعت أصواتهم إلا كراهتى لترك وينا ، وأن آلة الزمان قد يصيبها تلف إذا ذهبت أشفى غليلى وأروى ظمئى إلى دماء هؤلاء .

خرجت من هذه الردهة ، والحديدة فى يد ، ووينا فى اليد الأخرى ، إلى ردهة أخرى أكبر منها ، أذكرتنى النظرة الأولى إليها معرضا عسكريا علقت على جدرانه أعلام مهلهلة ، وعرفت من الخرق والرقع الحائلة أنها بقايا كتب . وكانت قد فسدت من زمان طويل وتمزقت وتخرقت وامحى منها كل أثر للكتابة ، ولكنه كان هنا ، وههنا ، ألواح معوجة ، ومشابك معدنية مكسورة ، تقص على الناظر إليها قصتها ، ولو كنت أديبا لفكرت فى عبث الطموح ، ولكن الذى كان له أعمق وقع فى نفسى هو ما يشهد به هذا الورق الذى عاث فيه الفساد وشاع ، من العبث الشديد . وأعترف أنى كنت أفكر فى ذلك الوقت على الأكثر فى « العمليات الفلسفية » وفى رسائلى السبع عشرة عن البصريات الطبيعية .

وارتقينا فى سلم عريض فبلغنا ما لعله كان متحفاً للكيمياء ولم أكن أرجو أن أعثر على شىء نافع . وكان المتحف سليما فيما خلا جانباً منه انقض عليه سقفه

فدرت بكل صندوق سليم ، وأخيراً وجدت فى صندوق محكم ، علبة كبريت ! فجربتها ، فألفيتها لا تزال صالحة ، وليس بهـا أثر للرطوبة ، فالتفت إلى وينا وصحت بها بلغتها « ارقصى ! » فقد صار معى سلاح ماض أقاوم به هؤلاء السفليين الذين نخافهم . وهكذا — فى ذلك المتحف المهجور ، وعلى بساط التراب الـكثيف رحت أرقص وأغنى وأدخل على نفس وينا سروراً عظيما ، وكانت الرقصة خليطاً من رقصات شتى ، ولـكن بعضها مبتكر ، فإنى كما تعلمون ، نزاع إلى الاختراع

وما زلت أرى أن نجاة هـذه العلبة من الـكبريت من الفساد على الرغم من بقائها ما لا يحصى من السنين ، كان من أغرب ما رأيت ، ومن أسعد ما وقع لى . على أنى عثرت على مادة كان بقاؤها أضأل فى الاحتمال وأبعد فى الإمكان — وأعنى بها الـكافور — وجدته فى وعاء مختوم وقد ظننت فى أول الأمر أنه شمع البارافين فـكسرت الوعاء ، ولـكن رائحة الـكافور لا سبيل إلى الغلط فيها أو خلطها بسواها . وقد استطاعت هذه المـادة الطيارة أن تبقى وسط هذا الفساد العام عدة آلاف من القرون ، وقد هممت أن أرميها ، ولـكنى تذكرت أنها سريعة الاحتراق وأن لهبها قوى صاف — فهى تصلح أن تـكون شمعة بديعة — فدسستها فى جيبى ، ولـكنى لم أجد مفرقعات ، ولا شىء غيرها أستطيع به تحطيم الألواح البرونزية فى قاعدة التمثال . وكانت الحديدة التى معى أنفع ما وقعت عليه إلى الآن ، غير أنى مع ذلك غادرت هذه القاعة مسروراً .

ولا أستطيع أن أسرد عليكم كل ما كان فى ذلك المساء ، فإن ذلك يتقاضانى جهداً كبيراً لتذكر طوافى فى هذا القصر كما حدث ، وأتذكر أنى دخلت دهليزاً طويلا فيه أسلحة شتى صدئة ، فترددت بين الحديدة التى معى ، وبين فأس أو سيف ، وكنت لا أستطيع أن أحمل آلتين ، فآثرت الحديدة لأنها فيما رجوت

أخلق بأن تكون أجدى عليّ حين أعالج بها ألواح البرونز . وكان هناك عدد من المدافع والمسدسات والبنادق ، وأكثرها عبارة عن كتل من الصدأ ، ولكن كثيراً منها مصنوع من ضرب من المعدن جديد ، وفى حالة جيدة ، غير أن الرصاص أو البارود الذى لعله كان هناك قد صار ترابا . ورأيت ركنا مسودا مهدما ، من جراء انفجار ، على ما بدالى ، من بعض هذه النماذج . ورأيت فى مكان آخر معرضا كبيراً للأصنام — من بولينيزيا ، والمكسيك ، وفينيقيا واليونان ، ومن كل قطر على الأرض فيما أرى . ولم أستطع أن أكبح نفسى فكتبت اسمى على أنف صنم من أمريكا الجنوبية راقنى على الخصوص .

وقل اهتمامى بهذه المتاحف مع انحدار الشمس إلى المغيب ، وكنت أنتقل من متحف إلى آخر ، وما فيها إلا ما هو معفر ، صامت ، وخرب فى الأغاب ، والآثار فيه كوم من الصدإ والفحم ، وفى بعضها رأيت على كثب منى نموذج منجم قصدير ، وإذا بى أعثر فى صندوق محكم القفل على قطعتين من الديناميت ! فصحت : « وجدتها ! » . وكسرت الصندوق وبى من السرور ما لا يوصف . ثم خالجنى شك فترددت ، ثم اخترت قاعة صغيرة وقمت بتجربة . وما أعرفنى منيت قط بمثل هذه الخيبة فى أمل لى ، وأنا أنتظر خمس دقائق ، ثم عشراً ، ثم خمس عشرة ، أن يحدث الانفجار الذى يأبى أن يحدث ! وقد كان ينبغى أن أدرك أنها زائفة ، ولو كانت صحيحة لكان الأرجح فيما أعتقد أن أندفع إلى التمثال وأنسفه هو وقاعدته وألواح البرونز التى عليها ، وأملى أيضاً (كما ظهر) فى الوصول إلى آلة الزمان ، فأمحو كل ذلك محواً .

وبعد ذلك ، على ما أذكر . وصلنا إلى صحن داخل القصر فاسترحنا وأنعشنا أنفسنا ، ولما قاربنا المغرب شرعت أفكر فى أمرنا ، وكان الليل

يزحف علينا ، وما زلت أنشد ملجأ أتحصن فيه ، ولكن هذا لم يعد يقلقنى فقد كان معى أمضى سلاح أدافع به عن نفسى — الكبريت ! وكان معى الكافور أيضاً إذا احتاج الأمر إلى نار تشعل ، ورأيت أن خير ما نصنع هو أن نقضى الليل فى الهواء الطلق على ضوء نار ، وفى الصباح أحاول استرداد آلة الزمان . وما كان معى ما أستعين به على ذلك غير قضيب الحديد ، ولكنى زدت معرفة فاختلف شعورى بهذه الأبواب البرونزية ، وكنت إلى الآن أتقى أن أقتحمها عنوة ، من أجل ما عسى أن يكون مخبوءاً وراءها . ولم تكن الأبواب فيما أخس متينة جدا ، فرجوت أن يكون القضيب الذى معى وافياً بالحاجة .

— ١٢ —

فى الظلام

خرجنا من القصر ، وما زال جانب من قرص الشمس فوق الأفق الغربى وكنت قد آليت أن أكون عند التمثال فى فجر اليوم التالى ، وأن أجتاز الغابة التى صدتنى البارحة ، قبل الغسق ، وكانت خطتى ، أن أغذ السير فأقطع أكثر ما يسعنى قطعه فى تلك الليلة ثم أوقد ناراً وأنام فى حمى وهجها ، ومن أجل ذلك جمعت وأنا أسير ما وجدت من الأعواد والحطب والعشب الجاف فصار على ذراعى حمل كبير من ذلك . فصار سيرى أبطأ مما كنت أتوقع لثقل ما أحمل وكانت وينا قد أدركها التعب ، وكنت أنا أيضاً أشعر بالحاجة إلى النوم ، وأعانى تفتيرها للجسد ، فجنح الليل قبل أن نبلغ الغابة ، وكانت وينا تؤثر أن تبقى على السفح المعشوشب لخوفها من مواجهة العَتَمة ، ولكن شعوراً غريباً بكارثة يوشك أن تحل بنا — وكان ذلك ينبغى أن يكون نذيراً لى .. دفعنى إلى المضى

فى السير ، وكنت لم أذق النوم ليلة ونهارين ، فكنت لهذا محموماً مضطربا ، وأحسست بالنوم يهجم علىّ ، ومعه السفليون .

وبينما كنت متردداً رأيت بين الشجيرات السوداء وراءنا ، ثلاثة أشخاص رابضين ، ولكنهم غير واضحين فى هذا السواد ، وكان العشب مرتفعاً حولنا ، فلم آمن زحفهم علينا وقتلهم لنا ، وقدرت أن يكون بيننا و بين الغابة دون الميل فإذا استطعنا أن نجتازها إلى التل العلوى وراءها فإن الأرجح أن نكون هناك فى أمان من المخاوف ، وحدثت نفسى أن فى وسعى أن أنير طريقى فى الغابة بما معى من الكبريت والكافور ، ولكنى أضطر إلى التخلى عما جمعت من الحطب إذا أنا ذهبت ألوح بعيدان الكبريت المشعلة ، فوضعت حملى عن ساعدىّ ، وخطر لى أن أذهل متعقبىّ بإيقاد النار ، وقد تبينت فيما بعد مبلغ جنونى فى هذا العمل ولكنه بدا لى فى وقته حركة ذكية لستر رجوعنا .

وأحسبكم لم تفكروا قط فى ندرة النار فى مكان معتدل الجو وليس فيه إنسان ، فإن حرارة الشمس ينـدر أن تكون من القوة بحيث تحرق ، حتى ولو جمعتها قطرات الندى كما يحدث أحياناً فى الأقاليم الاستوائية . وقد يصعق البرق ويسود ولكنه قلما يحدث حريقا ، وقد يدخن النبات الفاسد من حرارة ما به من التخمر ، ولكن هذا قلما يحدث لهباً ، وقد أدى الانحطاط إلى نسيان فن إيقاد النار على الأرض ، فلما أضرمتها كانت الألسنة الحمراء التى ارتفعت إلى كوم الحطب ، شيئاً جديداً غريباً فى نظر وينا .

وقد أرادت أن تذهب إليها وتلعب بها ، وأعتقد أنها كانت خليقة أن ترمى نفسها عليها وتلقى بها فيها لولا أن رددتها وكبحتها . وقد تناولتها فحملتها ، ومضيت على سننى إلى الغابة ، على الرغم من مقاومتها ، وكان وهج النار يضىء

لى الطريق ، مسافة ، ورجعت البصر فرأيت من خلال الشجر أن اللهيب امتد من كوم الحطب إلى بعض الشجيرات القريبة ، وأن خطا متقوساً من النار يزحف إلى الحشيش على التل ، فضحكت ورددت لحظى إلى الأشجار السوداء أمامى ، وكان السواد حالكا فلصقت وينا بى ، ولكننى بعد أن ألفت الظلام استطعت أن أرى طريقى بين الشجر ، وكانت الظلمة طاخية فوق رأسى إلا فى حيث كانت تبدو رقع من السماء الزرقاء هنا وههنا ، ولم أشعل كبريتاً لأن يدى كانتا مشغولتين ، فقد كنت أحمل وينا على ساعدى الأيسر ، وكان فى يمناى قضيب الحديد .

وظللت شيئاً لا أسمع إلا صوت تقصف الأعواد تحت قدمى ، وخشخشة الشجر إذ يصافحه النسيم ، وإلا أنفاسى ونبض عروقى فى أذنى ، ثم خيل إلىّ أنى أسمع وقع أقدام حولى ، فواصلت السير غير عابئ ، وزاد الصوت وضوحاً وسمعت نفس الأصوات الغريبة التى كنت سمعتها فى السراديب ، فلم يبق شك فى أن حولى كثيرين من السفليين وأنهم يطبقون علىّ ، وشعرت بعد دقيقة بشىء يجذب سترتى ، ثم ذراعى ، فسرت الرعدة فى بدن وينا ، ثم قرت وسكنت .

وكان هذا هو وقت الكبريت ، ولكن إشعاله يضطرنى أن أضع وينا ، ففعلت ، ودفعت يدى فى جيبى ، فشعرت بعراك عند ركبتى ، وكانت وينا صامتة ، لا تنبس ، وكان السفليون يلغطون ، وذهبت أيديهم الصغيرة الطرية تتحسس ظهرى وتلمس عنقى ، ثم اشتعل العود ، فمددت به يدى ، ورأيت ظهورهم البيضاء وهم يعدون بين الشجر ، وأسرعت فأخرجت شيئاً من الكافور وتهيأت لإضرام النار فيه حين يشفى العود على الخمود . ثم صوبت عينى إلى

وينا ، وكانت ممسكة بساقى ، لا تتحرك ، ووجهها إلى الأرض ، ففزعت ، وانحنيت عليها ، وكانت لا تكاد تتنفس ، فأشعلت النار فى الكافور ورميت به على الأرض ، فلما تناثر وارتفع لهبه ، ورد السفليين ، ونسخ الظلال ، ركعت ورفعت وينا ، وكانت الغابة حولى كأن فيها همساً وحركة من جمهور كبير .

وكانت وينا كالمغمى عليهـا ، فحملتها على كتفى برفق ونهضت لأمضى ، وإذا بى أفطن إلى حقيقة مزعجة . ذلك أنى وأنا أعالج الكبريت ووينا ، درت عدة مرات فلم أعد أدرى فى أى اتجاه أنا ماض ، وعسى أن أكون منكفئا إلى القصر ، فتصببت عرقاً ، وكان يجب أن أفكر بسرعة وأن أستقر على رأى فيما ينبغى أن أصنع ، فعزمت أن أوقد ناراً وأن أبقى حيث أنا ، فوضعت وينا — وكانت لا تزال مغشيا عليها — وشرعت أجمع العيدان وأوراق الشجر قبل أن يخمد الكافور ، وكانت عيون السفليين تومض ، من هنا ، وههنا ، فى الظلام المحيط بى ، كالعقيق أو الجمر .

وهب لسان النـار من الكافور ثم همدت ، فأشعلت عوداً وبينما كنت أفعل ذلك ، فر اثنان كانا يدنوان من وينا ، وأعمى أحدهما النور حتى لقد ارتمى علىّ ، فأحسست بعظامه تُطحن من قوة اللكمة التى سددتها إليه ، فشهق شهقة جزع ، وتطرّح قليلا ثم خر على الأرض . فأشعلت بعض الكافور وذهبت أجمع الحطب . ولاحظت أن الشجر جاف ، فما نزل شىء من المطر مذ قدمت على آلة الزمان ، فعـدلت عن البحث عن الأعواد ورحت أثب وأنط وأشد الأغصان وأكسرها ، فما لبثت أن أوقدت ناراً ذات يَحْموم خانق ، وصار فى وسعى أن أدخر ما بقى معى من الكافور ثم التفت إلى وينا وكانت راقدة إلى جانب حديدتى وحاولت أن أرد إليها نفسها ولكنها ظلت كالميتة ، حتى لقد

أعيانى أن أتبين أنفاسها ألا تزال تتردد أم انقطعت .

وكان الدخان يميل علىّ ، فثقل رأسى فجأة ، وكانت رائحة الكافور فى الجو أيضاً ، ولم تكن بالنار حاجة إلى تذكية أو تقوية قبل ساعة أو نحوها ، وشعرت بالتعب ، بعد الجهد الذى تجشمته ، فقعدت على الأرض . وكان فى الغابة همس منوّم لم أفهمه . وخيل إلىّ أن رأسى خفق ، ففتحت عينى ، وكان الظلام شاملا ، وأيدى السفليين علىّ ، فدفعت أيديهم عنى ، ودسست كفى فى جيبى طلباً لعلبة الكبريت — وإذا بها قد ذهبت ! وارتد إلىّ السفليون وتناولونى وأطبقوا علىّ ، فأدركت ما حدث . فقد نمت ، وهمدت النار ، فغمرت نفسى مرارةُ الموت . وكانت الغابة تسطع فيها رائحة الحطب المحروق ، وأخذ السفليون بعنقى ، وشعرى ، وذراعى ، وجذبونى إلى الأرض ، وكان من أبشع البشاعة فى هذا الظلام أن أشعر بهؤلاء على بدنى ، وأحسست كأنى فى نسيج عنكبوت جبار ، وغلبونى ، فهويت إلى الأرض ، وشعرت بأسنان دقيقة على عنقى ، فتمرغت ، فلمست يدى قضيب الحديد ، فقوانى هذا ، وجاهدت أن أنهض ، وطرحت عنى هذه الجرذان البشرية ، وضربت بالقضيب فى حيث قدرت أن تكون وجوههم . وكنت أشعر بانعصار اللحم وانطحان العظم تحت ضرباتى ، فنجوت إلى حين .

وغمرتنى النشوة التى يحدثها الكفاح الشديد . وكنت أعلم أنى أنا وويتا مقضىّ علينا ، ولكنى آليت ليؤدين السفليون ثمن هذا اللحم ! فأسندت ظهرى إلى شجرة وذهبت ألوح بالقضيب أمامى ، وكانت صيحاتهم وحركاتهم تملأ الغابة . ومضت دقيقة ، ولكن أحداً منهم لم يقترب . فوقفت أحدق فى الظلام ، ثم تجدد الأمل فجأة . فلعل السفليين خائفون ! وحدث شىء غريب فى

عقب هـذا ، فقد خيل إلى أن الظلام يشف و ينجلى ، و بدأت أرى ، فى غير وضوح ، السفليين حولى — وكان ثلاثة منهم يدقون قدمى — ورأيت ، وأنا فى دهشة أن الباقين يجرون — فى خطٍ متصل غير منقطع — خارجين من ورائى وذاهبين فى جوف الغابة أمامى ، وصارت ظهورهم حمراء لا بيضاء . و بينما كنت واقفاً وفمى فاغر ، رأيت شعلة صغيرة تخترق فجوة بين الأغصان وتنثنى . فعرفت من أين جاءت رائحة الحطب المحترق ، والصوت المنوم الذى صار الآن زئيراً ورعداً ، والوهج الأحمر ، وفرار السفليين .

وخرجت من تحت الشجرة ورددت البصر فرأيت من بين الأشجار القريبة لهيب الغابة المحترقة . هى نارى التى أوقدتها تتبعنى إذن ! وتلفت باحثاً عن و ينا ، فلم أجدها . وكان زفير النـار ، وكصيص العيدان ورائى ، وفرقعة الشجر كلما اندلعت فيه النار ، لا يدع لى وقتاً للتفكير ، فتبعت السفليين وفى يدى قضيب الحـديد ، وكان سباقاً شديداً ، وقد اندلعت النار مرة فى الحشيش بسرعة على يمينى وأنا أجرى حتى لأخذت علىّ طريقى ، فملت يسرة ، ولـكنى خرجت أخيراً إلى فضاء ، فرأيت واحداً من السفليين يتطرح نحوى و يمضى عنى إلى النار ! .

وكتب علىّ أن أرى أفظع ما شهدت فى ذلك العصر المسـتقبل . وكانت هذه البقعة كلها مضيئة كأننا فى النهار بما ينعكس عليها من وقدة النار . وكان فى الوسط كثيب تحيط به عضاة أذواها حر اللهب ، ووراء ذلك جانب آخر من الغابة المحترقة يتصاعد منها أوار يحيط المـكان بسور من الضرم . وكان على جانب التل ثلاثون أو أربعون من السفليين وقد أعماهم النور والحر ، وهم يتخبطون من حيرتهم ، ولم أفطن أول الأمر إلى عماهم فأهويت عليهم بالقضيب أضرب فيهم بلا رحمة ، وبى فزع من اقترابهم منى ، فقتلت واحـداً وأقعدت كثيرين ،

ولكنى لما لاحظت حركات واحد منهم وهو يتحسس تحت النبات ، والسماء من فوقه متلظية ، وسمعت أنينهم ، أيقنت أنهم لا حول لهم ولا طول ، فكففت عن ضربهم .

ولكن بعضهم ، كانوا من حين إلى حين ، يقبلون علىّ ، فتسرى فى بدنى رعدة من الاستبشاع فأتنحى عن طريقهم ، وخفت حدة النار لحظة ، نخفت أن يستطيع هؤلاء القذرون أن يرونى ، وحدثت نفسى أن أبدأ المعركة بقتل بعضهم قبل أن يتسنى لهم أن يهجموا علىّ ، ولكن ألسنة النيران ارتفعت مرة أخرى ، فرددت يدى عنهم ، ورحت أمشى على التل وأجنبهم ، وأبحث عن وينا ، ولكن وينا ذهبت ! .

وأخيراً قعدت على ذروة الكثيب ، ورحت أراقب هؤلاء العميان وهم يتخطبون ، ويتلاغطون ، فى النور الذى أعشاهم ، وكان الدخان المتلوى يرتفع إلى السماء ، وكانت النجوم الصغيرة تومض من خلال هذا الستر الأحمر كأنها فى عالم آخر . واندفع نحوى اثنان أو ثلاثة من السفليين فدفعتهم عنى باللكمات ، وأنا أنتفض .

وظللت طول تلك الليلة أعتقد أن هذا كابوس ، فعضضت نفسى ، وصحت ، لأستيقظ . وضربت الأرض بيدى ، ونهضت واقفاً ، وقعدت ، وذهبت هنا ، وههنا ، ثم قعدت مرة أخرى ، ثم فركت عينى ودعوت الله أن يوقظنى . ورأيت السفليين ثلاث مرات ، يحنون رءوسهم من الألم ويندفعون إلى النار ، وأخيراً طلع النهار فوق اللظى الذى مال إلى الخمود ، وكتل الدخان الأسود المتموجة ، وبقايا الأشجار .

وبحثت مرة أخرى عن وينا ، ولكنى لم أعثر لها على أثر ، وكان من الجلى

أنهم تركوا المسكينة فى الغابة ، ولا أستطيع أن أصف لكم شعور الارتياح إلى أنها نجت من المصير الذى كان مقدوراً لها ، وكدت وأنا أفكر فى هذا ، أنهض لتقتيل هؤلاء الأمساخ ، ولكنى كبحت نفسى ، وكان الكثيب كالجزيرة فى الغابة ، وكنت أستطيع من قمته أن أرى قصر الصينى الأخضر من خلال سحب الدخان ، وبهذا وسعنى أن أعرف وجهتى إلى التمثال . وهكذا تركت بقية هؤلاء الملاعين يذهبون ويجيئون ويتأوهون ويأنون ، فى النهار المرتفع ، وربطت شيئاً من الحشيش على قدمى ، وذهبت أظلع فوق الرماد وبين الأعواد السوداء التى كانت النار مازالت تخفق فى جوفها ، إلى مخبأ آلة الزمان ، وكنت أمشى على مهل فقد كنت منهوك القوة ، وكنت أعرج أيضاً ، وكنت أشد ما أكون أسى على مصرع وينا ، وبدا لى هذا كأنه كارثة . وأن الأمر ليبدو لى الآن فى غرفتى المألوفة ، أشبه بأسى الحلم منه بالخسارة الحقيقية ، ولكن موتها أورثنى فى ذلك الصباح وحشة شديدة . فرحت أفكر فى بيتى هذا ، وفى هذه النار التى ندفأ بها ، وفيكم ، فصبوت إلى حياتى هذه صبوة كلها ألم .

ولكنى اكتشفت شيئاً ، وأنا أمشى فوق الرماد تحت السماء الصافية . فقد وجدت فى جيب البنطلون عيدان كبريت ! فيظهر أن العلبة انكسرت قبل أن أفقدها .

— ١٣ —

معلاق[1] التمثـال

حوالى الساعة الثامنة أو التاسعة صباحاً ، كنت على نفس المقعد المصنوع من المعدن الأصفر الذى أشرفت منه على العالم ليلة وصولى ، فلم يسعنى إلا أن أفكر فيما تسرعت بالذهاب إليـه من الآراء فى ذلك المساء ، وإلا أن أضحك ضحكا كله مرارة وسخط ، من ثقتى واغترارى . ههنا نفس المنظر الجميل الذى صافح عينى ليلتئذ ، والأرض المحوارّة[2] المنوّرة ، والقصور البديعة ، والخرائب الرائعة ، والنهر الفضى بين شاطئيه الخصيبين ، والثياب الزاهية ، على هؤلاء الأناسى اللطاف الحسان وهم يمشون بين الشجر . وكان بعضهم يستحم ، فى حيث أنقذت وينا من الغرق ، وقد أورثتنى هذه الذكرى شكة أليمة . وكانت القباب على أفواه الآبار إلى السراديب ، كاللوثة على جمال الأرض . وتبدى لى ، وأنا أراها ، ما يحجبه جمال هذه الدنيا العلوية ، وكان يوم هؤلاء العلويين سجسجاً ، كيوم الأنعام فى مراعيها ، وكانوا هم كالأنعام ، لا يدرون أن لهم عداة ، ولا يدبرون شيئاً يقضون به حاجاتهم ويدفعون به المضرة عنهم ، وما أظن بمصيرهم إلا أنه كمصير الأنعام !

وأحزننى أن أفكر فى قصر الحلم الذى حلم به العقل الإنسانى . فقـد انتحر ! ذلك أنه ألح فى طلب الرغد والراحة ، واعتدل حال الجماعة فى ظل الأمن والثبات . وقد بلغ ما اشتهى — فكان مصيره هذا ! ولا بد أن الحياة والمـال

(١) المعلاق بالعين المهملة ، للباب ما يفتح به بغير مفتاح .

(٢) احوارت الأرض بتشديد الراء ، اختلطت ألوان الزهر بسواد الخضرة .

كانا فى وقت ما فى أمان تام ، فاطمأن الغنى إلى ما هو فيه من اليسر والنعيم ، وسكن العامل المكدود إلى حياة العمل ، ولا شك أنه لم يكن فى ذلك العالم الفاضل مشاكل للبطالة وما إليها من المعضلات الاجتماعية ، فساد السكون .

ومن سنن الطبيعة التى نغضى عنها أن خصب العقل هو جزاء التغير والخطر والمشقة ، والحيوان الذى يكون على حال من المطابقة التامة لبيئته ، يعود آلة ليس إلا ، والطبيعة لا تبعث العقل وتوقظه إلا إذا صارت العادة والغريزة عديمتى الجدوى . ولن تجد ذكاء حيث لا تغير ولا حاجة إلى التغير ، وما يفيد الذكاء إلا علاج الحاجات والمخاطر المتنوعة .

وهكذا — كما بدا لى — دلف الإنسان العلوى إلى الجمال الضعيف ، والإنسان السفلى إلى العمل الآلى . ولكن هذه الدنيا الكاملة أعوزها شىء واحد لتبلغ حالتها الآلية الكمال — أعنى الثبات والدوام — والظاهر أنه على مر الأيام ، اضطرب إحساس العالم السفلى ، وعادت الضرورة تفعل فعلها بعد احتجابها بضعة آلاف من السنين ، ولما كان العالم السفلى محتكا بالآلات التى تحوج مهما بلغ من كمالها إلى شىء من التفكير خارج نطاق العادة ، فقد احتفظ بحظ من الاقتدار والجرأة ، دون العالم العلوى ، ولما أعوزه لحم الحيوان ، طالب ما كانت العادة القديمة تحرمه ، هذا ما بدا لى ، وأنا أودع العالم الذى سيقوم فى سنة ٧٠١ — ٨٠٢ ، وعسى أن أكون قد ركبت من الخطأ والشطط شر ما يُركب ، ولكن هذه هى الصورة التى طالعتنى ، وها أنا ذا أنقلها إليكم كما رأيتها .

وكان هذا المقعد ، والسكينة والدفء من أمتع ما نعمت به ، بعد المشقات والمثيرات والمفزعات التى كابدتها فى الأيام الأخيرة . وكنت مكدوداً ، وكان

النعاس يغالبنى ، فأغفيت ، ثم انطرحت على العشب ونمت نوما طويلا منعشاً .

واستيقظت قبل المغرب بقليل ، وكنت أشعر أنى فى أمان من السفليين وأنا راقد ، فتمطيت ، وانحدرت عن التل إلى التمثال الأبيض ، وكان قضيب الحديد فى يدى ، ويدى الأخرى فى جيبى تعبث بعيدان الكبريت .

ولما دنوت من قاعدة التمثال لم يرعنى إلا أن أرى الألواح البرونزية مفتوحة ! فقد نزلت فى مجارٍ لها .

رأيت ذلك فوقفت متردداً محجما عن الدخول .

وكان فى جوف القاعدة غرفة صغيرة ، وفى ركن منها على ارتفاع قليل ، آلة الزمان . وكان معى ، فى جيبى ، الرافعتان ، فبعد كل ما اتخذته من الأهبة والعدة لمحاصرة التمثال الأبيض واقتحامه يجيء هذا الاستسلام ! فرميت القضيب وأنا آسف لأنى لم أستعمله . وطاف برأسى خاطر مباغت وأنا أنحنى لأدخل . فقد أدركت على الأقل أسلوب التفكير الذى يجرى عليه هؤلاء السفليون . وغالبنى الضحك ولكنى كتمته ودخلت من الفتحة إلى حيث آلة الزمان ، فأدهشنى أنى وجدتها مزيَّتَةً منظفة ! وقد كبر فى ظنى بعد ذلك أن السفليين فكوا بعض أجزائها وهم يحاولون أن يعرفوا ما هى وما الغرض منها .

وبينما كنت واقفاً أفحص الآلة ، وأنعم بلمسها بمجردها ، حدث ما توقعت أن يحدث ، وصعدت الألواح فجأة واستوت فى إطارها ووقعتُ ، فيما توهم السفليون ، فى الفخ ، فضحكت مسروراً .

وسمعت همهمات ضحكهم وهم يقبلون علىّ ، فحاولت أن أشعل عود كبريت ، ولم يكن علىّ إلا أن أضع الرافعتين فى مكانهما ثم أختفى كالشبح ؟ ولكنى غفلت عن أمر ، ذلك أن الكبريت كان من ذلك النوع البغيض الذى لا يشعله إلا الاحتكاك بعلبته !

وفى وسعكم أن تتصوروا كيف عصف ذلك بسكينتى . وكان هؤلاء الوحوش الصغار قد دنوا منى ، ولمسنى أحدهم فأهويت عليهم فى الظلام بالرافعتين ، وشرعت أمتطى سرج الآلة . وامتدت إلىّ ، يد أخرى ، ثم ثالثة ورابعة . واضطررت أن أدافعهم لأقصى أصابعهم الملحة ، عن الرافعتين ، وأتحسس فى الوقت ذاته ، مكانهما لأثبتهما ، وكادوا ينزعون منى إحداهما . وأحسست بها تخرج من يدى فدفعت رأسى فى الظلام لاستردادها — فسمعت صوت جمجمة ترن من صدمة رأسى بها . وكانت هذه المعركة شرا من التى دارت فى الغابة ، ولكنى ثبت الرافعة ، وجذبتها ، فذهبت عنى الأيدى المتعلقة بى ، وانتسخ الظلام ، وألفيت نفسى فى الضوء الخافت الذى أسلفت وصفه .

— ١٤ —

امتداد البصر

وقد حدثتكم من قبل عما يعانى المطوف فى الزمن من الدوار والاضطراب ، وكنت فى هذه المرة غير مستقر فى سرجى ، فلبثت زمناً متشبثاً بالآلة وهى تترنح وتهتز ، وكنت لا أبالى كيف أذهب ، فلما ألقيت نظرة على العدادات أذهلنى ما وصلت إليه . وكان أحدها يعد الأيام والثانى يعد آلافها ، والثالث يعد ملايينها ، والرابع يعد آلاف الملايين . وكنت بدلا من دفع الرافعتين وضغطهما قد جذبتهما لأمضى فى المستقبل ، فلما نظرت إلى هذه العقارب المشيرة ، وجدت عقرب الآلاف يدور بمثل السرعة التى يدور بها عقرب الثوانى على وجه الساعة — فى المستقبل — وبينما كنت أمضى تغير وجه الأشياء ، تحول الطفَل إلى غشاش فتَمة ، وكنت

ماضياً بسرعة عظيمة ، فرأيت الليل والنهار يتعاقبان ، وهذا دليل البطء ، وقد صار هذا أوضح ، فتعجبت أول الأمر ، فقد صار توالى الليل والنهار أبطأ فأبطأ ، وكذلك اجتياز الشمس قبة السماء حتى نخيل إلىّ أن مسافة الزمن تمتد حتى لتصبح قروناً ، وأخيراً لُفت الأرض فى سواد شامل لا يضىء فيه إلا ما يتهاوى من الشهب ، فقد غاب واختفى ذلك الطوق المنير الذى كان يدل على الشمس ، لأن الشمس كفت عن المغيب ، وأصبحت تطلع وتغرب فى الغرب ، وتزداد ، إلى هذا ، جرماً وتوهجاً ، وامّحى كل أثر للقمر ، وحلت نقط من الضوء محل الكواكب الدوارة التى ازدادت بطأً فى سيرها ، وقبل أن أقف ، وقفت الشمس فى الأفق ، وكانت قبة عظيمة من نار كابية ، يعتريها الهمود لحظة من حين إلى حين ، وقد عادت مرة فتلظت جمرتها ، ولكنها ما لبثت أن عادت إلى سكونها وبُثوخها ، وأدركت من هذا البطء فى الطلوع والغروب أن الزمان قد فعل فعله ، وكانت الأرض قد صارت بأحد وجهيها إلى الشمس ، كما يواجه القمر فى زماننا ، الأرض ، فشرعت ، بحذر شديد — فما نسيت وقعتى السابقة — أعكس اتجاهى ، وأتحول عنه ، فصارت العقارب الدائرة أبطأ فأبطأ ، حتى بدا عقرب الآلاف كالثابت ولم يعد عقرب اليوم كالضباب على وجه المداد ، وزاد البطء حتى وضح لعينى ساحل مهجور .

فوقفت برفق ، واعتدلت فى سرجى ، وأدرت عينى حولى ، فرأيت السماء قد زايلتها زرقتها ، وغدا الأفق الشرقى أسود كالحبر ، وكانت النجوم الباهتة تومض فيه ، أما ما فوق من قبة السماء ، فكان أحمر ولا نجوم فيه ، وأما جنوباً بشرق فكان الوَهَر يزداد حيث دارة الشمس حمراء لا حراك بها ، وكانت الصخور التى حولى حمراء وفيها وعورة ، وكل ما رأيته من مظاهر الحياة هو نضارة

الخضرة التي تكسو كل بارز على وجه الأرض في هذه الناحية .

وكانت الآلة واقفة على ساحل مائل ، والبحر يمتد جنوباً بغرب ويرتفع عند الأفق في رأى العين ، فيختلط بالسماء الشاحبة ، ولم تكن فيه أمواج تعتلج ، فقد كان الهواء راكداً ، ولولا رائحة زيتية تجيء وتروح كالنفس المتردد ، لما أدرك الإنسان أن البحر لا يزال حيا يتحرك ، وعلى الساحل حيث تتكسر المياه أحياناً ، طبقة سميكة من الملح تبدو قرمزية تحت السماء المصفرة . وكنت أحس برأسي مثقلا ، وأنفاسي سريعة ، فأذكرني ذلك المرة الوحيدة التي جربت فيها التوقل في الجبال ، وعرفت من هذا أن الهواء أصفى مما هو الآن .

وسمعت صرخة من فوق المرتفع ، ورأيت شيئاً كأنه فراشة عظيمة تخفق وتذهب صاعدة في الهواء ، وتدور وتغيب وراء بعض الكثبان ، وقد سرت لصوتها ، رعدة في بدني ، فاعتدلت في سرجي على الآلة ، وأدرت عيني فإذا الذي حسبته كتلة من الصخر الأحمر يتحرك ببطء ويدلف نحوي ، وتبينت أنه مخلوق هائل يشبه سرطان الماء . وتصوروا سرطانا في مثل حجم هذه المائدة ، وأيديه العديدة تتحرك ببطء واضطراب ، وأظافره العظيمة تضطرب ، ومجساته الطويلة كالسياط ، تهتز وتتحسس ، وعيناه تلمعان وهما تحدجانك على جانبي وجهه المعدني ! وكان ظهره مغضنا ومحلى بعقد كثيرة ، وعليه ، في مواضع شتى ، طبقات خضراء ، وكنت أرى ألسنته العديدة وفمه المعقد ، وهو يتحسس ويجس إذ يتحرك .

وبينما كنت أنظر إلى هذا الوحش الزاحف نحوي ، شعرت بشيء على خدي كأنما حطت عليه ذبابة ، فذببتها عني بيدي ، ولكنها عادت ، وعاد غيرها أيضاً ، قريباً من أذني ، فأهويت عليها بيدي ، فعلق بها شيء كالخيط ، ولكنها انتزعت من يدي ، فالتفت مذعوراً ، فعلمت أني إنما أمسكت جساسة سرطان

آخر ورائى ، وكانت عيناه البشعتان تهتزان على جذعيهما ، وفمه يتحاب علىّ ، وأظافره العظيمة الملوثة تهبط علىّ ، فأسرعت إلى الرافعة أضغطها ، وجعلت بينى وبين هذه الوحوش مسافة شهر ، ولكنى كنت ما زلت على هذا الشاطئ ، فلما وقفت كنت أراها كأوضح ما يكونان ، وكانت عشرات منها تزحف هنا وههنا فى الضوء الخافت بين النبات المتوشج .

ولست أستطيع أن أنقل إليكم الإحساس بما كان يغمر الدنيا من وحشة ودروس . فهذا الأفق الشرقى المتوهج ، والعتمة الشمالية ، والبحر الملح الميت ، والشاطئ الصخرى الحافل بهذه الزواحف القذرة البطيئة ، وهذه الخضرة السامة — فى رأى العين — لنبات البحر ، والهواء الرقيق الذى يتعب الرئتين ويؤذيهما ، كل أولئك كان وقعه مروّعا . وقد قطعت مائة عام فلم يتغير المنظر ، وبقيت الشمس الحمراء — وكانت أكبر بقليل ، وأدنى إلى الهمود — والبحر الميت ، والهواء الرقيق والزواحف بين الأعشاب والصخور الحمراء ، ورأيت فى الغرب خطا متقوسا باهتا كأنه قمر جديد كبير .

وهكذا ظللت أرحل ، وأقف ، بعد فترات تبلغ ألف عام وزيادة ، ومصير العالم يجتذبنى ، وأرقب الشمس تكبر وتخمد ، وحياة هذه الأرض العتيقة تنضب ، وأخيراً — بعد أكثر من ثلاثين مليوناً من السنين — صار قرص الشمس الكبير الأحمر يحجب نحو عشر السماء المظلمة ، فوقفت مرة أخرى ، فقد غابت الزواحف وصار الشاطئ الأحمر ، فيما خلا نباته ، لا حياة فيه ، وبدت فيه نقط بيضاء ، وأصابنى برد قارس ، وكانت رقائق بيض تتساقط من حين إلى حين ، وكان الثلج فى الشمال الشرقى يلمع تحت ضوء النجوم الخفاقة فى السماء السوداء ، وقد رأيت هضبة متموجة بيضاء قرمزية ، وكان على شاطئ

البحر هوامش من الثلج ، أما عباب هذا البحر الملح المخضب بالغروب الأبدى فلم يتجمد بعد .

وتلفت باحثاً عن أثر لحياة الحيوان ، وكانت بقية من الحذار تلزمنى البقاء فى سرجى ، ولكنى لم أر شيئاً يتحرك على الأرض ولا فى السماء أو البحر ، وكان الطحلب على الصخور هو كل مايدل على أن للحياة بقية لم تندثر ، ورأيت كثيباً ناتئاً من البحر الذى انحسر عنه ، وخيل إلىّ أنى أرى شيئاً أسود يتحرك عليه ، ولكنه جمد لما نظرت إليه ، فاعتقدت أن عينى خدعتنى وأن هذا الجرم الأسود صخرة ، وكانت نجوم السماء ناصعة الضوء ، ولكن ضوءها فيما بدا لى لم يكن خفاق اللمعان .

ورأيت فجأة أن نطاق الشمس الغربى تغير ، وأن فجوة ظهرت فى قوسه ، وأخذت تزداد وتتسع ، فحملقت مذهولا من هذا السواد الذى يزحف على النهار ، ثم أدركت أن الشمس تدخل فى الكسوف ، وأن القمر أو المشترى يمر أمام قرص الشمس ، وكان طبيعيا أن أحسبه القمر ، فى أول الأمر ، ولكن هنالك ما يحملنى على الاعتقاد بأن كوكباً آخر كان يمر على مقربة من الأرض .

وأخذ الظلام يشتد ، وهبت ريح صرصر من الشرق ، وكثرت الثلوج فى الجو ، وارتفعت من ناحية البحر همسة وحركة ، وكانت الدنيا فيما خلا ذلك ساكنة . أأقول ساكنة ؟ إن من العسير أن أصور لكم سكونها ووقعه . فما بقى شىء من أصوات الإنسان والحيوان والطير والحشرات والهوام ، أو من الحركة المألوفة فى حياتنا . وجعل الثلج المتساقط يزداد مع الظلام ، ويأتى من كل أوب ، واشتد البرد وهرأنى واختفت أخيراً القمم البيضاء للتلال النائية ، ولفها الليل فى سواده ، وصارت الرياح تنوح وتهجهج ، ورأيت غبرة الكسوف تدنو

منى ، ولم يبق ما يُرى غير النجوم الشواحب ، واحلولكت السماء فما يلمع فيها شعاع واحد .

وثقلت على نفسى وطأة الظلام الكثيف ، واشتد علىّ البرد وقفّ منه جلدى ، وتعذر التنفس ، فانتفضت ، وعانيت من ذلك كرباً شديداً ، ثم ظهر قوس الشمس ، فنزلت عن السرج حتى تثوب نفسى إلىّ ، فقد كان رأسى يدور وكنت أحس أنى غير قادر على رحلة الإياب ، ورأيت وأنا واقف ذلك الشىء الذى لاحظت حركته على الشاطئ ، ولم يبق عندى شك فى أنه جرم يتحرك ، فقد كان احمرار الماء يُبدى حركته . وكان كالكرة وفى حجمها ، أو أكبر ، وله خيوط تمتد منه وتذهب فى الأرض ، وكان أسود اللون بالقياس إلى لون الماء المضطرم ، وكان ينط ، فشعرت بالإغماء ، ولكن الفزع من الارتماء هنا بلا حيلة ولا حول فى هذا الغسق البعيد الفظيع ، قوانى ، فامتطيت الآلة وقعدت على السرج .

— ١٥ —

أوبة الرحالة

وهكذا عدت . وأحسب أنى فقدت وعيى زمناً طويلا . وقد عاد الليل والنهار يختطفان وهما يتعاقبان ، وارتد إلى الشمس وجهها الذهبى ، وإلى السماء زرقتها ، وخلصت أنفاسى ، وصارت معارف الأرض فى مد وجزر ، وراحت عقارب العدادات ترجع ، وبدت لى فى غموض ، صور المساكن ودلائل انحطاط الإنسانية . ثم تغيرت هذه المناظر أيضاً وولت . ولما بلغ عداد الملايين الصفر قلت السرعة وبدأت أرى مبانينا الصغيرة المألوفة ، ورجع عقرب الآلاف إلى

المبتدأ فصار تعاقب الليل والنهار أبطأ فأبطأ ، ثم أحاطت بى جدران المعمل ، فخفضت حركة الآلة برفق .

ورأيت شيئاً استغربته . وأذكر أنى قلت لكم إنى لما بدأت رحلتى ، وقبل أن تعظم سرعتى ، رأيت السيدة « واتشيت » تقطع الغرفة كالشهاب . فلما عدت ، اجتزت الدقيقة التى كانت تقطع فيها المعمل مرة أخرى . ولكنه خيل إلىّ الآن أن كل حركة لها نقيض حركاتها السابقة فقد انفتح الباب ، وانسابت منه فى المعمل ، مرتدة بظهرها واختفت من الباب الذى رأيتها تدخل منه . وقبل ذلك خيل إلىّ أنى أرى « هيليار » ولكنه كان كومض البرق .

ثم وقفت الآلة ، ورأيت حولى مرة أخرى معملى القديم المألوف ، وآلاتى ومعداتى كما تركتها ، فترجلت عن السرج خائر القوى ، وقعدت على دكتى ، وظللت عدة دقائق أرعد وأنتفض ، ثم هدأت ، ونظرت فرأيت حولى معملى كعهدى به ، وكأنى كنت قائماً وكأنما كل ما بدالى لم يكن سوى حلم .

ولكن لا ! لقد بدأت رحلتى وكانت الآلة فى الجنوب الغربى من المعمل ، وهى الآن قائمة فى الشمال الغربى ، إلى جانب الحائط حيث رأيتموها . وهذه هى المسافة من الممشى إلى قاعدة التمثال حيث خبأ السفليون آلتى .

وركد ذهنى لحظة ، ثم نهضت وقطعت الدهليز إلى هنا ، وكنت أظلع لأن قدمى تؤلمنى ، وقد رأيت جريدة « البول مول غازيت » على المنضدة بجانب الباب ، وألفيت تاريخها هو تاريخ اليوم ، فصعدت عينى إلى الساعة فوجدتها الثامنة تقريباً . وسمعت أصواتكم ، وأنتم تأكلون ، فترددت ، فقد كنت مضنى . ثم شممت رائحة اللحم الشهى ففتحت عليكم الباب . والباقى تعرفونه . اغتسلت ، وأكلت ، وقصصت عليكم القصة » .

— ١٦ —

بعد القصـــة

وقال بعد لحظة صمت « إنى أعلم أن هذا كله لا يحتمل التصديق . ولـكن الشيء الوحيد الذى لا أكاد أصدقه أنا هو أنى هنا فى هذه الليلة ، فى هـذه الغرفة القديمة المعهودة ، أنظر إلى وجوه أصـدقائى وأقص عليهم غرائب ما وقع لى » ونظر إلى رجل الطب وقال « كلا ! لست أتوقع منك أن تصدق . فاعتبر الحـكاية من نسج الخيال ، أو عدها نبوءة . أو قل إنى حلمت بهـا فى المعمل ، أو ازعم أنى كنت أفكر فى مصاير جنسنا حتى تجسدت لى هذه الأسطورة ، وقل إن تأكيدى صحتهـا أسلوب فنى لزيادة قيمتها ووقعها ، فعلى اعتبار أنها قصة ، ما رأيك فيها ؟ » .

وتناول بيبته ، وشرع على عادته ينقر بها نقراً مضطرباً على قضبان الموقد ، وكانت فترة صمت ، ثم بدأت الـكراسى تتحرك ، والأقدام تمسح السجادة ، فحولت عينى عن الرحالة فى الزمن إلى السامعين ، وكانوا فى الظلام وكان رجل الطب يتأمل مضيفنا وقد استغرقه ذلك . والمحرر يحدق فى عقب سيجارته — السادسة — والصحفى ينشد ساعته ، أما الباقون فكانوا — على ما أذكر — بلا حراك .

ونهض المحرر واقفاً وهو يتنهد وقال « ليتك كنت كاتب قصص ! » وأراح يده على كتف الرحالة فى الزمن .

« ألا تصدق ؟ » .

« إن . . . » .

« ظاهر » .

والتفت إلينا الرحالة وقال « أين الكبريت ! » وأشعل عوداً وقال وهو يدنى البيبة من شفتيه « الحق أقول إنى أنا لا أكاد أصدق . . . ومع ذلك . . . » .

وصوب عينه فى صمت ، إلى الأزاهير الذابلة على المنضدة ، ثم بسط يده التى فيها البيبة ، فرأيته ينظر إلى جروح على عقل أصابعه لم يتم التئامها .

ونهض رجل الطب ، ودنا من المصباح ، وفحص الأزاهير وقال إن بعضها غريب ، فانحنى النفسانى لينظر ، وهو يمد يده طالباً واحدة منها .

وقال الصحفى « لقد صارت الساعة الأولى إلا ربعاً . فكيف نذهب إلى بيوتنا ؟ » .

فقال النفسانى « المركبات كثيرة عند المحطة » .

وقال رجل الطب « غريب ! ولكنى لا أعرف الترتيب الطبيعى لهذه الأزهار ، فهل تسمح لى بها ؟ » .

فتردد الرحالة فى الزمن ثم قال فجأة .

« كلا ! » .

فسأله رجل الطب « من أين جئت بها ؟ » .

فرفع الرحالة يده إلى رأسه ، وقال وكأنه يحاول أن يمسك فكرة تحاوره وتتفلت منه « لقد وضعتها وينا فى جيبى لما رحلت إلى المستقبل » وأدار عينه فى الغرفة ، وقال « أرى كل شىء يتسرب من ذهنى . . . هذه الغرفة ، . . . وأنتم . . . والجو العادى . . . أكثر مما تحتمل ذاكرتى . . . أحق أنى صنعت آلة للزمان ؟ أو نموذجاً لآلة زمان ؟ أم ترى كل هذا حلم ليس إلا ؟ يقولون إن

الحياة حلم — حلم سقيم فى بعض الأحيان — ولـكنى لا أقوى على حلم آخر لا يستقيم مع سواه . جنون ! ! ومن أين جاء هذا الحلم ؟ يجب أن أرى هـذه الآلة . . . إذا كان هناك آلة . . . ! » .

ورفع المصباح بسرعة وحمله وخرج به من البـاب إلى الدهليز ، ونحن فى أثره ، فإذا الآلة تطالعنا على ضوء المصباح المضطرب ، وهى رابضة ، ماثلة ، دميمة المنظر ، وكلها صلب وعاج وآبنوس وحجر لماع شفاف ، ولـكنها متينة فقد لمستها ، وعليها أقذار ، وعلى عاجها لوثات ، وقد علق بأسافلها بعض الحشائش ، وأحد قضبانها ملتو .

ووضع الرحالة المصباح على الدكة وأمرّ يده على القضيب المعوج وقال .

« الآن أيقنت أن القصة التى رويتها لـكم صحيحة ، و إنى لآسف لتعريضكم هنا للبرد » .

وتناول المصباح ، وعدنا فى صمت تام إلى غرفة التدخين . وخرج معنا إلى الردهة وساعد المحرر على ارتداء معطفه ونظر إليه رجل الطب نظرة المتردد ، وقال له إن الإفراط فى العمل أرهق أعصـابه ، فضحك . وما زلت أراه بعين الذاكرة واقفاً بالباب يودعنا ويتمنى لنا ليلة طيبة .

وركبت مع المحرر الذى قال لى إن القصة « أكذوبة منمقة » أما أنا فلم أستطع أن أستقر على رأى فى الأمر ، فقد كانت القصة غير قابلة للتصديق لفرط غرابتها ، ولـكن أسـلوبه فى روايتها معقول ورزين متزن ، وقد أرقت أكثر الليل من جهد التفكير فيها ، فعزمت أن أزور الرحالة فى اليوم التالى ، فقيل لى ، لمـا زرته ، إنه فى المعمل ، ولما كنت من الأصدقاء فقد صعدت إليه فوجدت المعمل خالياً ، فحدقت هنيهة فى آلة الزمان ، ومددت يدى فلمست

الرافعة ، فترنحت هـذه الـكتلة المتينة ترنح العود عصفت به الرياح ، فأفزعنى اضطرابها وتذكرت ما كانوا ينهوننى عنه فى طفولتى من الدخول فيما لا يعنينى . وخرجت من الدهليز فالتقيت بالرحالة فى غرفة التدخين ، وكانت معه آلة تصوير صغيرة وحقيبة ، فضحك لما رآنى ، وأدنى منى كتفه على سبيل التحية ، وقال « إنى مشغول جدا بهذه الآلة » .

فسألته « أليست إذن خدعة ؟ أتراك حقيقة تطوّف فى الزمن ؟ » .

فقال « نعم ، حقا وصدقاً » ورمانى بنظرة صريحة ، ثم تردد ، ودارت عينه فى الغرفة ، وقال « إن بى حاجة إلى نصف ساعة . وأنا أعرف ما جاء بك وأشكرك وهناك بعض المجلات ، فإذا بقيت للغداء ، فإنى أستطيع أن أثبت لك أن الطواف فى الزمن حقيقة — بالنماذج وما إليها — فهل تأذن لى فى الانصراف عنك الآن ؟ » .

فقبلت ، وأنا لا أكاد أدرك ما تنطوى عليه كلماته من المعانى ، وهز رأسه ومشى فى الدهليز . وسمعت باب المعمل يغلق ، فقعدت على كرسى وتناولت صحيفة يوميـة ، ترى ماذا عساه يريد أن يصنع قبل الغداء ؟ ثم تذكرت فجأة أنى وعدت أن أقابل ريتشاردسون الناشر فى الساعة الثانية ، فنظرت فى ساعتى فوجدت أن الوقت أزف ، فنهضت ومشيت فى الدهليز لأعتذر للرحالة .

ولمـا تناولت يد الباب سمعت صوتاً ، وحركة ودبّة ، ومرت بى نسمة من الهواء وأنا أفتح الباب ، وسمعت من داخل الحجرة صوت تكسر الزجاج على الأرض ، ولم أجد الرحالة . وخيل إلى أنى أرى شبحاً غامضاً فى كتلة دائرة من السواد والبياض ، وكان هـذا الشبح شفافاً حتى لـكنت أرى الدكة وما عليها من خلاله بوضوح ولـكن هذا الشبح غاب لما فركت عينى ، واختفت الآلة ،

ولم يبق فى هذه الناحية من المعمل سوى التراب الذى يستقر .

وأذهلنى ذلك ، وكنت أدرك أن شيئاً عجيباً قد حدث ، ولكن ما هو ؟ لا أدرى ! و إنى لواقف أحدق إذ فتح الباب ودخل الخادم .

فتبادلنا النظرات ، ثم بدأت الخواطر تجرى ببالى فسألته « هل خرج المستر — من هنا ؟ » .

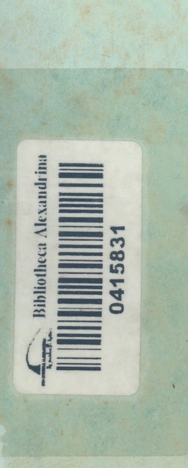
قال « لا ياسيدى . لم يخرج أحد من هذه الناحية ، وقد كنت أتوقع أن أجده هنا » .

ففهمت ، وخاطرت بإغضاب ريتشاردسون ، و بقيت انتظاراً لعودة الرحالة ولقصته الثانية التى لعلها تكون أغرب ، ولما عسى أن يعود به من النماذج والصور . ولكنى بدأت أعتقد أنى سأضطر إلى الانتظار عمراً كاملا ، فقد ذهب الرحالة فى الزمن منذ ثلاث سنوات ، وكل إنسان يعرف الآن ، أنه لم يعد .

الخاتمـــة

لا يسع الإنسان إلا أن يتساءل : أتراه يعود يوماً ما ؟ وعسى أن يكون قد كر راجعاً إلى الماضى ، فوقع على أهل العصر الحجرى ، المستوحشين شاربى الدماء ، أو فى أعماق بحر الكلس ، أو بين الزواحف المهولة أو . . . أو . . . أم تراه قد مضى إلى المستقبل ، واختار عصوراً أقرب إلينا وأدنى منا ، عصوراً سيظل الرجال فيها رجالا ولكنهم يكونون قد حلوا ألغاز زماننا ومعضلاتنا المضنية ؟ أى إلى عصر الرجولة المكتملة فى الجنس الإنسانى ؟ فما أعتقد أن هذه الأيام الأخيرة — أيام التجارب الضعيفة ، والنظريات الجزئية ، والخلاف المتبادل هى غاية ما يصل إليــه الإنسان — أقول فيما أعتقد أنا . أما هو فإنى

أعرف — فقد تجادلنا فى هذا قبل أن يصنع آلة الزمان — أنه لم يكن عظيم التفاؤل بتقدم الإنسان ، وكان يرى فى تضخم كوم المدنية ، تكدساً سخيفاً ينتهى بأن يقع على الرؤوس ويحطمها ويسحقها . فإذا كان هذا هكذا ، فإن علينا أن نحيا كأن الأمر ليس كذلك ، ولكن المستقبل فيما أرى لا يزال أسود وفارغاً — جهل عظيم تلطفه فى بعض المواضع ذكرى قصته . وإلى جانبى ، للتعزى والتأسى ، زهرتان غريبتان — وقد ذبلتا — تشهدان بأنه حتى بعد أن يزول العقل وتذهب القوة ، يبقى العرفان والرقة فى قلب الإنسان .


Bibliotheca Alexandrina
0415831